جون غريشام

JOHN GRISHAM



ROGUE LAWYER

رواية







المحامي الوغد

reywaL eugoR

المحامي الوغد

reywaL eugoR

جون غريشان

MAHSIRG NHOJ

ترجمة

سامح خلف

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة





يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

reywaL eugoR

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر

¡CLL esuoH modnaR niugneP fo noisivid a ¡yadelbuoD
kroY weN

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم
ناشرون، ش.ã .á.

الطبعة الأولى: أيار/مايو 2017 ã - 1438 هـ

ردمك 978-614-01-2245-1

توزيــع
الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران – بيروت 1102-2050 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb
facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic
www.aspbooks.com
asparabic

تصميم الغلاف: علي القهوجي

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف (+ 9611) 785107

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف (+ 9611) 786233

الجزء الأول
الازدراء

.1

اسمي سيباستيان رودّ. وعلى الرغم من أنني محامٍ مشهور. فإنك لن ترى اسمي على لوحات الإعلان، أو على مقاعد الحافلات، ولن يقفز في وجهك من بين صفحات الدليل التجاري. لا أدفع مالاً لأظهر على شاشات التلفزة، مع العلم أنني أظهر عليها في أغلب الأحيان. اسمي غير مدرج في أيّ دليل هواتف. ولا أدير مكتباً تقليدياً. أحمل سلاحاً، مرخّصاً، لأن اسمي ووجهي يجذبان انتباه أولئك الذين يحملون الأسلحة أيضاً ولا يترددون في استخدامها. أعيش وحيداً، وأنام وحيداً في غالب الأحيان، ولا أملك الصبر والتعاطف الضروريَّين للمحافظة على الصداقات. القانون محور حياتي، وهو مُرهِق دائماً ومُجزٍ من حين لآخر. لا أسميه «عشيقة غيورة»، بحسب القول الشهير المنسوب إلى شخص مجهول. القانون أشبه بزوجة متسلّطة تسيطر على دفتر الشيكات المصرفية. فخّ لا مخرج منه.

أنام في هذه الأيام في فندق رخيص وأبدّل الفندق كلّ أسبوع. لا أحاول اقتصاد المال؛ بالأحرى، أحاول البقاء حيّاً فحسب. هنالك الكثير من الناس الذين يودّون قتلي فوراً، أو في أقرب فرصة، وقد صرّح عدد منهم بذلك علناً. لا يُقال لك في كلية الحقوق أنك قد تجد نفسك في أحد الأيام مدافعاً عن شخص اتّهم بجريمة شنيعة جداً إلى درجة قد تدفع بعض المواطنين المسالمين والعقلاء إلى حمل السلاح والتهديد بقتل المتّهم، ومحاميه، وحتى القاضي.

لكنّي هُدّدتُ من قبل، وهذا جزء من كونك محامياً وغْداً. والتعرض للتهديد من الخصائص المصاحبة أيضاً لهذه المهنة التي سقطت فيها قبل عشر سنوات تقريباً. عندما تخرّجتُ من كلية الحقوق، كانت الوظائف نادرة. عملتُ حينذاك بدوام جزئي، وفي أوقات متقطّعة، في مكتب المحامي العامّ في المدينة. ومن هناك هبطتُ في مؤسّسة صغيرة غير مربحة متخصّصة في تولي القضايا الجنائية فقط. وبعد بضع سنوات، تبخّرت تلك المؤسّسة فوجدتُ نفسي في الشارع إلى جانب الكثير من أمثالي ممّن يكافحون لجني المال.

قضية واحدة أبرزتني ووضعتني على خارطة المهنة. لا أزعم أنّها جعلتني مشهوراً؛ إذ كيف يمكنك القول، جدياً، عن محامٍ أنه مشهور في مدينة يقطنها مليون شخص؟ مع العلم أن الكثير من المحامين المحليّين يعتقدون أنّهم مشاهير. يبتسمون لك من لوحات الإعلان في حين أنهم يُضمرون الاستيلاء على نقودك ويسعون إلى إفلاسك، ويختالون في الإعلانات التلفزيونية زاعمين قلقهم الشديد حول مصائبك الشخصية،

وهم مضطرون لدفع ثمن دعاياتهم وإعلاناتهم الخاصة. لستُ من هذا النوع.

تتغيّر الفنادق الرخيصة كلّ أسبوع. وأنا الآن في منتصف محاكمة في بلدة كئيبة، وراكدة، ومتخلّفة اسمها ميلو تبعد مسافة ساعتين بالسيارة عن موضع سكني في المدينة. أدافع في هذه المحاكمة عن فتى منقطع عن التعليم وشبه متخلف عقلياً يبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً متّهم بقتل فتاتين صغيرتين في إحدى أكثر الجرائم شرّاً التي رأيتها على الإطلاق، وقد رأيت الكثير منها. زبائني مذنبون بشكل دائم تقريباً، لذا، لا أضيّع الكثير من الوقت في عصر يديّ متسائلاً حول ما إذا كانوا قد نالوا ما يستحقّون. مع ذلك، وفي هذه القضية بالذات، غاردي ليس مذنباً؛ ولا يبدو ذلك أمراً مهماً. وهو ليس كذلك. الأمر المهمّ في ميلو هذه الأيام هو العمل على إدانة غاردي والحكم عليه بالموت وتنفيذ الحكم في أسرع وقت ممكن لكي تشعر البلدة بالرضى عن نفسها، ولكي تستمرّ. تستمرّ لتصل إلى أين بالضبط؟ اللعنة عليّ إذا كنتُ أعرف، أو حتى أهتمّ. هذا المكان متخلّف بمقدار خمسين سنة، ولن يغيّر قرار سيئ واحد سيرورته ومساره. قرأتُ وسمعتُ ما قيل حول حاجة ميلو إلى «خاتمة» لهذه القضية، بغض النظر عما يعنيه ذلك. يجب أن تكون أبلهَ لتصدّق أن هذه البلدة ستنمو وتزدهر بطريقة ما وتصبح أكثر تسامحاً فور تلقي غاردي حقنة الموت.

مهمّتي معقّدة ومتعدّدة المستويات، وهي في الوقت نفسه بسيطة جداً. أتلقى أتعابي من قبل سُلطات الولاية لأقدّم دفاعاً من الدرجة

الأولى عن متّهم بجريمة كبرى، وهذا يتطلّب مني أن أحارب وأن أكون جارحاً، وأن أشعل جحيماً في قاعة المحكمة، حيث لا يستمع أحد لما أقول. أُدينَ غاردي أساساً منذ اليوم الأول لاعتقاله، وليست محاكمته سوى إجراءات شكلية. لفّق رجال الشرطة الفاسدون والمستميتون على إدانته التهم وزيّفوا الأدلة. يعرف المدّعي العامّ ذلك، لكن ليس لديه أساس قوي، وهو يطمح إلى إعادة انتخابه في العام القادم. القاضي نائم. أمّا المحلفون فهم أناس بسطاء ولطفاء عموماً، يراقبون مجريات المحاكمة بانتباه، وهم متلهّفون جداً لتصديق الأكاذيب التي تفخر سلطاتهم بتقديمها على منصّة الشهود.

لبلدة ميلو حصتها من الفنادق الرخيصة، لكنني لا أستطيع المكوث هناك. سوف أُعدم أو أُسلخ أو أُشوى على وتد، أو إذا كنتُ محظوظاً، فسيصيبني قنّاص بين عيني وسينتهي أمري بلمح البصر. توفّر لي شرطة الولاية الحماية أثناء المحاكمة، لكن، تكوّن لدي انطباع واضح أن هؤلاء الرجال ليسوا جادّين في ذلك. ينظر إلي هؤلاء بالطريقة نفسها التي ينظر بها إلي معظم الناس في البلدة. فأنا متطرّف طويل الشعر، خبيث ومريض بما يكفي للكفاح من أجل الدفاع عن حقوق قاتل أطفال... وما شابه.

فندقي الحالي هو حانة هامبتون، ويقع على مسافة خمس وعشرين دقيقة من ميلو. وكلفة المبيت فيه ستون دولاراً في الليلة تدفعها عني سلطات الولاية. يبيت في الغرفة المجاورة «الرفيق»، وهو رجل ضخم مسلّح بشدّة يرتدي البدلات السوداء ويصحبني في كل مكان. الرفيق هو سائقي، وحارسي، ومستشاري، ومساعدي القانوني، وحامل أدوات

الغولف، وهو أيضاً صديقي الوحيد. كسبتُ ولاءه حين وجدَته هيئة محلفين غير مذنب بقتل ضابط مخدرات سريّ. خرجنا من قاعة المحكمة يداً بيد وظللنا متلازمين منذ ذلك الوقت. وفي مناسبتين على الأقل، حاول بعض رجال الشرطة العاملين قتله. وفي إحدى المرات لاحقوني أنا أيضاً.

لا نزال صامدين؛ أو ربما توجّب عليّ القول أنّنا لا نزال ننجو ونتفادى الخطر.

.2

في الساعة الثامنة صباحاً قرع الرفيق بابـي. لقد حان وقت الذهاب. تبادلنا تحيات الصباح ثمّ صعدنا إلى شاحنتي، وهي عربة نقل فورد سوداء كبيرة، معدّلة لتناسب حاجاتي تماماً. وحيث أنها ذات استخدام مزدوج، كعربة ركاب وكمكتب، فقد أُعيد ترتيب المقاعد الخلفية حول منضدة صغيرة تُطوى إلى الجدار. وهناك أريكة أقضي الليل عليها في أغلب الأحيان. وجميع النوافذ مظلّلة ومضادة للرّصاص. يوجد فيها أيضاً جهاز تلفزيون، ونظام ستيريو، وإنترنت، وثلاجة، ومشرب، وزوج من الأسلحة، وخزانة ملابس. جلستُ في المقعد الأمامي بجانب الرفيق، ثمّ فتحنا علبة طعام جاهز مؤلف من البسكويت بالسجق، وذلك أثناء مغادرتنا لموقف السيارات. تحرّكت أمامنا إحدى سيارات شرطة الولاية التي لا تحمل إشارات الشرطة، وذلك لمرافقتنا إلى ميلو، وكانت هناك واحدة أخرى تسير خلفنا. أتاني التهديد الأخير بالقتل قبل يومين بواسطة البريد الإلكتروني.

لا يتكلّم الرفيق ما لم تبادره بالحديث. ولستُ من وضع هذه القاعدة، لكنني أحبّها. وهو لا يتضايق أبداً من الفجوات الطويلة في المحادثة، وأنا كذلك. وبعد سنوات من عدم قول أي شيء تقريباً، تعلّمنا التواصل بالإيماءات، والغمزات، وبالصمت. وفي منتصف الطريق إلى ميلو فتحتُ ملفاً وبدأتُ في تدوين بعض الملاحظات.

جريمة القتل المزدوجة كانت مرعبة جداً إلى درجة عدم اجتراء أي محامٍ محليّ على الاقتراب منها. ثمّ اعتقل غاردي؛ ومن نظرة واحدة إلى غاردي ستدرك أنّه مذنب. شعر طويل مصبوغ باللون الأسود الفاحم، مجموعة مدهشة من الثقوب المرصعة بالمعادن فوق الرقبة والأوشام تحتها، مع أقراط فولاذية مماثلة، وعينين شاحبتين وباردتين، وتلك الابتسامة التي تقول: «حسناً، أنا فعلت ذلك، والآن ماذا؟». في تغطيتها المبكرة جداً للموضوع، وصفته صحيفة «ميلو» بأنه «عضو في طائفة شيطانية لها سجلّ معروف في إيذاء الأطفال».

كيف يمكن تقييم تقرير مثل هذا على أساس الإنصاف وعدم الانحياز؟ لم يكن المتّهم أبداً عضواً في طائفة شيطانية، كما أن مسألة إيذاء الأطفال ليست كما قيل. لكن، من تلك اللحظة اعتُبر غاردي مذنباً، ولا زلتُ أتعجّب في الحقيقة كيف استطعنا السير في هذه القضية كل ذلك الوقت. لقد أرادوا شنقه قبل ذلك بشهور.

ومن نافل القول أن جميع المحامين في ميلو قد أقفلوا أبوابهم وأغلقوا هواتفهم. ولا يوجد نظام دفاع قانوني عامّ في البلدة - فهي صغيرة جداً - والقضايا المعوزة يتصدّق بها ويوزّعها القاضي. وثمة قاعدة

غير مكتوبة تقضي بأن يأخذ المحامون الأصغر سنّاً في البلدة هذه القضايا ذات المردود المادي المتدني، أولاً لأن شخصاً ما يجب أن يتولاها. ثانياً، لأن المحامين الأكبر سنّاً قد فعلوا ذلك حين كانوا أصغر سناً. لكن لم يوافق أحد على الدفاع عن غاردي؛ ولكي أكون صادقاً، لا أستطيع لومهم حقاً. إنّها بلدتهم وحياتهم، والاختلاط بقاتل منحرف كهذا يمكن أن يُلحق ضرراً حقيقياً بالمهنة.

ونحن كمجتمع، نلتزم بالاعتقاد بوجوب المحاكمة العادلة لشخص اتّهم بجريمة جدّية، لكن بعضنا قد يتردّد أو يجادل عندما يتعلق الأمر بمسألة توفير محامٍ مؤهّل يضمن إجراء ما يقال إنها محاكمة عادلة. والمحامون من أمثالي يعيشون مع السؤال: «لكن، كيف سأمثّل مثل هذا الغثاء؟».

أما أنا فأقدم جواباً سريعاً: «شخص ما يجب أن يفعل»، ثمّ أمضي في طريقي.

هل نريد حقاً محاكمات عادلة؟ لا، لا نريد. نريد تحقيق العدالة، وبسرعة. والعدالة هي تلك التي يتفاوت تعريفنا لها، على قاعدة كل قضية بمفردها.

ومن الأفضل لنا القول، والحال كذلك، أنّنا لا نؤمن بالمحاكمات العادلة لأنها غير موجودة بالتأكيد لدينا. لقد استُبدل افتراض البراءة الآن بافتراض الذنب. أصبح عبء تقديم الدليل صورياً، لأن الدليل نفسه أصبح في أغلب الأحيان مجرّد أكاذيب. والإدانة التي تخلو من أي تشكيك

معقول تعني القول أنه عند احتمال أن يكون المتّهم هو الفاعل فينبغي أن نسحبه من الشوارع.

على أية حال، فرّ المحامون بعيداً ولم يحصل غاردي على أحدهم. ويمكن تفسير سبب تكليفي بالقضية، سواء كان ذلك خيراً أم شرّاً، بناء على سمعتي، حيث تلقيتُ سريعاً تلك المكالمة الهاتفية. ففي هذا الطرف من الولاية، أصبح معروفاً الآن في الدوائر القانونية أنّك إذا لم تستطع العثور على أي شخص آخر، اتّصل بسيباستيان رودّ. سيدافع عن أي شخص!

عندما اعتقل غاردي، تجمّع بعض الغوغاء خارج السجن وصرخوا مطالبين بتحقيق العدالة. وحين اقتاده رجال الشرطة نحو شاحنتهم لنقله إلى مبنى المحكمة، شتمه الغوغاء وقذفوه بالطماطم والحجارة. وقد نُقلت هذه الأحداث أولاً بأول من قبل الصحيفة المحليّة، وحتى أنها كانت المادّة الرئيسة في أخبار المدينة المسائية (لا يوجد شبكة تلفزة مقرّها في ميلو، بل مجرّد شبكة سلكية بمعدات بسيطة). بُحّ صوتي مطالباً بتغيير مكان المحاكمة، وتضرّعتُ إلى القاضي من أجل نقل المحاكمة مسافة مئة ميل على الأقل لنتمكّن من العثور على بعض المحلّفين الذين نأمل ألا يكونوا ممّن رجموا الفتى، أو على الأقل لعنوه على مائدة العشاء. لكنّ طلبنا رفض. كلّ حركاتي قبيل المحاكمة رفُضت.

مرة أخرى، تريد البلدة تحقيق العدالة. تريد البلدة خاتمة.

لم نجد جماعة من الغوغاء في استقبالي أو للتعرض لشاحنتي ونحن ندلف إلى ممر مختصر خلف مبنى المحكمة، لكن، كان هناك بعض المحتجّين العاديين. كانوا متجمعين وراء حاجز غير بعيد للشرطة، وكانوا يحملون لافتاتهم الحزينة التي تتضمن بعض الأقوال الذكية مثل «اشنقوا قاتل الأطفال»¡æ«الشيطان ينتظر»¡æ«رود القذر خارج ميلو!». كانوا حوالى دزينة من تلك الأرواح المثيرة للشفقة التي تنتظر للسخرية مني؛ لكن الأمر الأكثر أهميّة هو إظهار كراهيتهم لغاردي، والذي سيصل إلى المكان نفسه في غضون خمس دقائق. خلال الأيام الأولى من المحاكمة، جذب هذا الحشد الصغير الكاميرات واستطاع عدد من هؤلاء الظهور في الصحف، مع لافتاتهم. وهذا شجّعهم، بالطبع، فحرصوا منذ ذلك الحين على التواجد في هذا المكان في كلّ صباح. تحمل سوزي السمينة لافتة «رود القذر» وتبدو وكأنها تريد إطلاق النار عليّ. أمّا بولّيت بوب فيزعم أنه قريب إحدى الفتاتين المقتولتين، وقد نُقل عنه قول مفاده أن المحاكمة مجرّد مضيعة للوقت.

وأخشى أنه كان محقاً في ذلك.

عندما توقّفت الشاحنة، أسرع الرفيق بالاستدارة حولها ليقف أمام بابي، ولينضمّ بذلك إلى ثلاثة شبّان من رجال الشرطة الذين يماثلونه حجماً. خرجتُ من الشاحنة وكنت محمياً بشكل صحيح، ثمّ دلفتُ إلى الباب الخلفي لمبنى المحكمة بينما كان بولّيت بوب يصفني بالعاهر. دخول آمن آخر. هذا، ولم أسمع أو أقرأ عن قضية في الأزمنة الحديثة قُتل فيها محامي الدفاع في قضية جنائية أثناء دخوله مبنى المحكمة

خلال جلسات المحاكمة. على الرغم من ذلك، احتطتُ لنفسي خشية أن أكون الأول.

تسلّقنا سلماً خلفياً ضيّقاً محظور استخدامه من قبل أي أحد آخر، ثمّ قادني المرافقون إلى غرفة صغيرة بلا نوافذ حيث يُحتجز السجناء بانتظار عرضهم على القاضي. بعد دقائق قليلة، وصل غاردي سالماً. غادر الرفيق الغرفة وأغلق الباب.

«كيف حالك؟»، سألته حين أصبحنا وحيدين.

ابتسم وفرك رسغيه اللذين بقيا في القيد بضع ساعات. «حسناً، أخمّن أنك لم تنم كثيراً». وهو لم يستحم أيضاً لأنه يخشى الاغتسال. حاول ذلك من حين لآخر، لكنّهم لم يفتحوا له الماء الساخن. لذا، تفوح من غاردي روائح العرق الفاسد والشراشف القذرة، وقد سرّني أنه بعيد بما يكفي عن هيئة المحلّفين. والمتمعّن في هيئته سيلاحظ أن صبغة شعره السوداء تبهت وتتلاشى ببطء ليصبح لونه أفتح كل يوم، وأن بشرته تصبح أكثر شحوباً. تتغيّر ألوانه أمام هيئة المحلّفين، وهي إشارة واضحة أخرى إلى القدرات البهيمية والنزعة الشيطانية.

«ماذا سيحدث اليوم؟» سأل بفضول طفولي تقريباً. لديه معدّل ذكاء مقداره 70، وهو بالكاد يكفي لكي يحاكم ويعدم.

«المزيد مما سبق وحدث، كما أخشى يا غاردي. مجرد المزيد مما سبق».

«ألا تستطيع إيقافهم عن الكذب؟»

«لا، لا أستطيع».

ليس لدى سلطات الولاية دليل ملموس يربط غاردي بجريمتي القتل. صفر. لذا، وبدلاً من أن تقيِّم غياب الأدلّة لديها، وأن تعيد النظر في القضية، تفعل الولاية ما تفعله عادة وفي أغلب الأحيان. تندفع إلى الأمام متسلحة بالأكاذيب والشهادات الملفقة.

قضى غاردي أسبوعان في قاعة المحكمة وهو يستمع إلى الأكاذيب؛ يغلق عينيه ويهزّ رأسه ببطء. يستطيع هزّ رأسه لساعات، مما يدفع بالمحلّفين إلى الاعتقاد بأنّه مجنون. طلبتُ منه التوقّف عن ذلك؛ طلبت منه أن يجلس ساكناً وأن يأخذ قلماً ويخربش شيئاً ما على دفتر ملاحظات قانونية، كما لو لديه دماغ ورغبة بالمقاومة، أو الفوز. لكنّه، بكل بساطة، لا يستطيع أن يفعل ذلك، وأنا لا أستطيع مجادلة موكّلي في قاعة المحكمة. طلبتُ منه أيضاً تغطية ذراعيه ورقبته لإخفاء الوشوم، لكنّه فخور بها. طالبته بالتخلّص من المشكّات المعدنية التي ترصّع أجزاء من وجهه، لكنّه مصرّ على أن يظل كما هو. ومن الجدير بالذكر أن المسؤولين المحترمين الذين يديرون سجن ميلو يمنعون كلّ أنواع المشكّات المعدنية والأقراط؛ بالطبع، ما لم يكن المعني بذلك هو غاردي الذي ينبغي أن يعود بهيئته تلك إلى قاعة المحكمة. في تلك القضية بالذات، يُسمح للسجين أن يلصق منها ما يشاء وفي جميع أنحاء وجهه. اظهر يا غاردي بمظهر المريض والمخيف والشيطاني قدر المستطاع، وذلك لكي لا يشعر أحد بالذنب من إدانتك.

على مسمار في جدار الغرفة عُلّق القميص الأبيض والبنطال الكاكي نفسهما اللذان يرتديهما كلّ يوم. دفعتُ من جيبي ثمن هذه الملابس الرخيصة. حلّ سحّاب بدلة السجن البرتقالية ببطء وخرج منها. لا يرتدي ملابس داخلية، وهو أمر لاحظته وحاولت تجاهله منذ اليوم الأول من المحاكمة. ارتدى الملابس ببطء. «الكثير من الأكاذيب»، قال.

كان محقاً. استدعت الولاية، التي يمثلها المدعي العام، تسعة عشر شاهداً حتى الآن ولم يستطع واحد منهم مقاومة إغراء زخرفة أقواله ببعض الأكاذيب، أو الكذب بشكل تامّ. فالطبيب الذي شرّح الجثّتين في المختبر الجنائي الرسمي أخبر هيئة المحلّفين أن الضحيّتين الصغيرتين ماتتا غرقاً، لكنّه أضاف أيضاً أن «الضربة الحادّة» على رأس كل منهما كانت عاملاً مساهماً في الوفاة. وسوف تكون القصّة أفضل بالنسبة للادّعاء إذا اعتقدت هيئة المحلّفين أن الفتاتين اعتدي عليهما وضربتا بلا رحمة قبل أن تُرميا في البركة. وليس هناك دليل ملموس يشير إلى أنهما تعرضتا بأي طريقة من الطرق إلى أذى جنسي، لكن ذلك لم يمنع الادّعاء من جعل هذا الزعم جزءًا من القضية. جادلتُ الطبيب لثلاث ساعات، لكنّ مجادلة خبير أمر صعب، حتى ولو كان ضعيفاً.

وباعتبار أن الولاية ليس لها دليل، فقد اضطرت إلى تصنيع بعض الأدلة. وقد أتت الشهادة الأكثر شناعة من طرف واشٍ في السجن يدعى «اللطخة»، وهو اسم على مسمّى. واللطخة هذا شاهد زور بارع مستعد للشهادة دائماً، ولا يتورع عن قول كل ما يطلبه المدّعون. في قضية غاردي، أعيد اللطخة إلى السجن بتهمة مخدرات وينتظر الحكم عليه

بالسجن عشر سنوات. احتاجت الشرطة إلى شهادة، فلا غرابة إذاً في أن يكون اللطخة تحت تصرّفهم. غذّوه بتفاصيل الجريمتين، ثمّ نُقل غاردي من سجن إقليمي إلى سجن المقاطعة حيث حُبس اللطخة. لم يدرك غاردي سبب نقله، ولم تكن لديه فكرة حول الفخ الذي نُصب له (حدث ذلك قبل تدخّلي في القضية). ألقوا بغاردي في زنزانة صغيرة إلى جانب اللطخة الذي كان متلهّفاً للحديث ومستعداً للمساعدة في أية طريقة ممكنة. ادّعى كراهية رجال الشرطة، وزعم معرفته ببعض المحامين الجيّدين. وقال أيضاً أنه قرأ عن جريمتي قتل الفتاتين ولديه حدس بمعرفة من الذي قتلهما حقاً. وحيث أن غاردي لا يعلم شيئاً حول جريمتي القتل، فلم يكن لديه شيء ليضيفه إلى تلك المحادثة. مع ذلك، وخلال أربع وعشرين ساعة، زعم اللطخة أنّه استمع إلى اعتراف كامل. سحبه رجال الشرطة خارج الزنزانة ولم يره غاردي بعد ذلك أبداً، حتى بدأت المحاكمة. وكشاهد، نُظّف اللطخة بشكل رائع، حيث ارتدى قميصاً وربطة عنق وظهر بشعر قصير، وأخفى وشومه عن أنظار هيئة المحلّفين. وقد سرد بتفصيل مدهش رواية غاردي المزعومة حول كيفية مطاردته للفتاتين إلى الغابة، وكيف أوقعهما عن دراجتيهما، وكيف أسكتهما، ثم ربطهما، وعذّبهما، واعتدى عليهما، وضربهما قبل رميهما في البركة. وبحسب رواية اللطخة، كان غاردي منتشياً بالمخدّرات وكان يستمع إلى شيء من الموسيقى المعدنية الثقيلة.

كانت تلك تمثيلية كاملة. عرفتُ أنّ كلّ ما قيل مجرّد أكاذيب؛ كما عرف ذلك غاردي واللطخة، بالإضافة إلى رجال الشرطة والمدّعين، وأتوقّع

أن القاضي كانت لديه شكوكه أيضاً. على الرغم من ذلك، ابتلع المحلّفون الكذبة وسطعت في أعينهم نظرات الكراهية والاشمئزاز من موكّلي، الذي استمع إلى ما قيل بعينين مغمضتين ورأس لا يتوقف عن الاهتزاز، لا، لا، لا. كانت شهادة اللطخة شنيعة بشكل مثير وغنية بالتفاصيل إلى درجة صعبة التّصديق؛ وكان في بعض الأحيان يلفّقها آنياً. لا يمكن لأحد أن يجيد الكذب على هذا النحو!

طرقتُ على اللطخة لثماني ساعات كاملة، وكان ذلك يوماً آخر منهكاً وطويلاً. كان القاضي نزقاً وكانت أعين المحلّفين غائمة النظرات، لكنّني كنت مستعداً للاستمرار لمدّة أسبوع. سألتُ اللطخة كم مرّة أدلى بشهادته في محاكمات جنائية. قال ربّما مرّتين. سحبت السجلات لأنعش ذاكرته، ثمّ استعرضت المحاكمات التسع الأخرى التي أدّى فيها المعجزة نفسها أمام المدّعين الصادقين والمنصفين. وبعد ترميم ذاكرته المشوّشة بعض الشّيء، سألته كم مرّة خُفّضت أحكامه من قبل المدّعين بعد الكذب لصالحهم في المحكمة. قال أبداً، لذا استعرضتُ مجدداً القضايا التسع. لقد أنجزتُ العمل معزّزاً بالمستندات. وقد أوضحتُ جيداً للجميع، وخصوصاً المحلّفين، أن اللطخة كان يكذب، وأنه مجرّد واشٍ يكرّر الإدلاء بشهادات الزور سعياً وراء تخفيض الأحكام عليه.

أعترف أنّني أغضب في قاعة المحكمة؛ وهذا سلوك ضارّ في أغلب الأحيان. تخلّيتُ عن هدوئي مع اللطخة ولم أتوقّف عن مهاجمته بشدّة، حتى كسبتُ تعاطف بعض المحلّفين. أخبرني القاضي أخيراً بوجوب الانتقال إلى نقطة أخرى، لكنّني لم أفعل. أكره الكذابين، خصوصاً أولئك

الذين يقسمون على قول الحقّ، وبعد ذلك يقدّمون شهادة زور لإدانة موكّلي. صرختُ في وجه اللطخة وصرخ القاضي في وجهي، وبدا في بعض الأحيان كما لو أن كلّ شخص كان يصرخ. وهذا لم يساعد قضية غاردي.

وقد يخطر في بالك أن المدّعي سيعمد إلى قطع سلسلة شهود الزور بشاهد موثوق، لكن هذا يتطلّب بعض الذكاء. شاهده التالي كان سجيناً آخر؛ متّهم آخر بقضايا مخدرات شهد بأنّه كان في الممر قرب زنزانة غاردي حيث سمعه يعترف أمام اللطخة.

أكاذيب تُكدّس فوق أكاذيب.

«رجاء، دعهم يتوقّفون»، قال غاردي.

«أحاول يا غاردي. أبذل أفضل ما في وسعي. يجب أن نمضي».

.3

قادنا مفوض شرطة إلى قاعة المحكمة، والتي كانت مكتظّة مجدداً بالناس وتسودها طبقة ثقيلة من الخوف والتوتّر. هذا هو اليوم العاشر من تقديم الشهود، وقد ترسّخ لدي الاعتقاد الآن أن لا شيء جديد يحدث على الإطلاق في هذه البلدة الراكدة. نحن وسيلة الترفيه الوحيدة! وقاعة المحكمة مكتظة من مطرقة البداية حتى مطرقة النهاية، والحضور متراصفون أمام جدران القاعة. الحمد لله أن الطقس كان بارداً وإلا كنا سنسبح في عرقنا.

تتطلّب كلّ محاكمة جنائية كبرى وجود محاميين اثنين للدفاع على الأقل. شريكي الاستشاري، أو «شاغل الكرسي الثاني»، هو المدعو تروتس، وهو فتى غليظ وباهت كان عليه أن يحرق شهادته القانونية ويلعن اليوم الذي حلم فيه بعرض سحنته في قاعة محكمة. وهو من بلدة صغيرة تبعد مسافة عشرين ميلاً ظنّ أنها تكفي لحمايته من الكراهية التي سيتعرض لها بسبب تورطه في كابوس غاردي. تطوّع تروتس لمعالجة

الأمور التمهيدية، وبيّت في نفسه نية القفز من السفينة إذا أصبحت المحاكمة حقيقة. لكن خططه لم تسر كما يشتهي. أفسد تروتس الأعمال التمهيدية كما يفعل مجنّد غرّ، ثمّ حاول النجاة بنفسه. لا مهرب، قال القاضي. ثمّ اعتقد تروتس أنّها قد تكون فكرة مقبولة أن يجلس في الكرسي الثاني ليكتسب بعض الخبرة، وليشعر بضغط المحاكمة الحقيقية، وهكذا؛ لكن، بعد أن تلقى عدداً من التهديدات بالموت توقّف عن المحاولة. التهديدات بالموت تعتبر مجرد جزء من الوقائع اليومية بالنسبة إلي، مثل قهوة الصباح وكذب رجال الشرطة.

قدّمتُ ثلاثة اقتراحات للتخلص من تروتس وخلعه عن الكرسي الثاني. وقد رُفضت جميعها، بالطبع، لذا تعايشنا على المنضدة أنا وغاردي مع ذلك البليد الذي أصبح عائقاً بدلاً من كونه مساعداً. يجلس تروتس في أبعد موضع ممكن، مع العلم أنني لا أستطيع لومه كثيراً نظراً لحالة غاردي الراهنة من حيث النظافة.

أخبرني غاردي قبل شهور أن المحامي تروتس صُدم أثناء المقابلة الأولى التي أجراها معه في سجن المقاطعة، وذلك حين ادّعى غاردي أنّه بريء من التهمة. حتى أنهما تجادلا بشأن ذلك. كيف يمكن تفسير ذلك بالنسبة لمدافع قوي؟

إذاً، يجلس تروتس عند الطرف البعيد من المنضدة، دافناً رأسه في أوراق الملاحظات عديمة الفائدة التي يدوّنها؛ عيناه لا تريان شيئاً، وأذناه لا تسمعان شيئاً، لكنّه يشعر بتحديق كلّ أولئك الجالسين خلفنا والذين يكرهوننا ويريدون توتيرنا أكثر مع موكّلنا. يعتقد تروتس أن هذه المحنة

ستمرّ أيضاً وسيواصل حياته وينطلق في مهنته لحظة انتهاء المحاكمة. لكنه مخطئ. سوف أعمد بأسرع ما يمكن إلى تقديم شكوى أخلاقية أمام نقابة المحامين في الولاية مضمونها أن تروتس قدّم «مساعدة استشارية غير مفيدة» قبل المحاكمة وأثناءها. فعلتُ ذلك من قبل، وأعرف كيف أجعلها تلتصق به. أخوض معاركي الخاصة مع النقابة وأفهم اللعبة جيداً. بعد أن أنتهي من تروتس، سيرغب في تسليم رخصة مزاولة المحاماة والحصول على عمل في معرض للسيارات المستعملة.

يحتل غاردي مقعده في منتصف منضدتنا. لا ينظر تروتس إلى موكّله، ولا يكلّمه.

يتجاوزه هوفير، المدّعي العام، ويسلّمني ورقة. لا نتبادل تحيات الصباح أو غيرها من التحيات. لقد تباعدنا إلى درجة أن صدور أي بادرة من المجاملات الحميدة من قبل أي منّا سيكون أمراً مفاجئاً. أحتقر هذا الرجل لطريقة احتقاره لي، لكنّني متقدّم عليه في لعبة الكراهية. أتعامل شهرياً تقريباً مع المدّعين العامّين الواثقين من أنفسهم الذين يكذبون، ويحتالون، ويرفضون التعاون، ويغشّون، ويتجاهلون الأخلاق، ويفعلون ما في وسعهم للحصول على إدانة، حتّى عند معرفتهم الحقيقة، وحين تقول لهم الحقيقة أنهم مخطئون. لذا، أنا أعرف تلك السلالة، أو الجنس، أو تلك الفئة الفرعية من المحامين الذين يعتبرون أنفسهم فوق القانون لأنهم هم القانون. وهوفير، من ناحية أخرى، نادراً ما تعامل مع محتال مثلي لأنه لم يواجه، لسوء حظه، الكثير من القضايا المثيرة، وليس من بينها أي قضية تقريباً يكون فيها محامي الدفاع أشرس من كلب الحراسة

الأميركي في دفاعه عن المتّهم. ولو أنه تعامل مع المتطرّفين من محامي الدفاع بوتيرة أكثر انتظاماً، فربّما أصبح أكثر براعة في كراهيته لنا. بالنسبة إلي، إنها طريقة حياة.

تناولتُ منه الورقة وقلت: «إذاً، من هو كذابك لهذا اليوم؟».

لم يقل شيئاً، ثم سار بضع خطوات إلى منضدته، حيث تكوّمت عصابته الصغيرة من المساعدين ذوي البدلات القاتمة وهم يتشاورون باهتمام ظاهر، مثيرين بذلك إعجاب الجمهور المحتشد. إنهم الآن تحت الأضواء، وهذا هو عرضهم الأكبر خلال مسيرتهم المهنية الراكدة والبائسة؛ وطالما تكوّن لدي الانطباع أن كلّ شخص في مكتب المدّعي العام يستطيع المشي، والحديث، وارتداء حلة رخيصة، وحمل حقيبة جديدة، سوف يتكوّم حول منضدة المدّعي العام من أجل تحقيق العدالة.

ينبح الحاجب فأقف. يدخل القاضي كوفمان، ثمّ نجلس. يرفض غاردي الوقوف احتراماً للرجل العظيم. في بداية الأمر، أزعج ذلك السلوك «صاحب السعادة». وفي اليوم الأول من المحاكمة - ويبدو ذلك الآن وكأنه حدث قبل شهور - نهرني قائلاً: «سيّد رودّ، هل تستطيع التكرّم بالطلب من موكّلك الوقوف؟».

فعلتُ ذلك، لكنه رفض. أحرج ذلك القاضي، ثمّ ناقشنا الأمر لاحقاً في مكتبه. وقد هدّد باتّهام موكّلي باحتقار المحكمة وبإبقائه في السجن طوال اليوم أثناء المحاكمة. حاولت تشجيعه على ذلك لعلّه ينزلق نحو ردّ الفعل العنيف هذا، والذي سيذكر مراراً وتكراراً عند الاستئناف.

أدلى غاردي بملاحظة حكيمة: «ما الذي يمكنهم أن يفعلوه بـي ولم يفعلوه حتى الآن؟». لذلك، يبدأ القاضي كوفمان المراسيم كلّ صباح بإلقاء نظرة عابسة وطويلة نحو موكّلي الذي يجلس عادة متراخياً في كرسيه، مشغولاً أمّا بالتقاط حلقة أنفه أو مومياً برأسه وعيناه مغلقتان. ويبدو من المستحيل تقريباً معرفة من منا يحتقر كوفمان أكثر، المحامي أم الموكّل. والقاضي، مثل بقيّة سكان ميلو، لديه قناعة منذ وقت طويل أن غاردي مذنب. وهو مثل أي شخص آخر في قاعة المحكمة، احتقرني منذ اليوم الأول.

ليس أمراً مهمّاً. ففي هذه المهنة يندر أن تجد الحلفاء، لكنك تكتسب الأعداء بسرعة.

وباعتبار أنه على وشك أن يعاد انتخابه في العام القادم، كما هو الحال بالنسبة لهوفير، يتصنّع كوفمان ابتسامة السياسيين المزيّفة ويرحّب بكلّ من يأتي إلى قاعة محكمته من أجل قضاء يوم مثير آخر من أيام السعي نحو الحقيقة. واستناداً إلى الحسابات التي أجريتها في أحد الأيام أثناء استراحة الغداء حين كانت قاعة المحكمة خالية، هناك حوالى 310 أشخاص يجلسون خلفي. وباستثناء والدة غاردي وأخته، فإن الجميع يصلّي ويتضرّع بحرارة من أجل الوصول إلى إدانة يتبعها إعدام سريع. والأمر منوط بالقاضي كوفمان. هذا القاضي الذي سمح بالاستماع إلى كلّ كلمة قيلت حتى الآن ضمن شهادات الزور التي عرضها ممثلو الولاية. وفي بعض الأحيان يبدو كما لو أن القاضي خائف من خسارة صوت أو اثنين إذا تحمّل أحد اعتراضاتي.

بعد أن يأخذ الجميع أماكنهم، يجلبون هيئة المحلّفين. هنالك أربعة عشر شخصاً حُشروا في الصندوق؛ إثنا عشر منهم تم انتخابهم، إضافة إلى اثنين احتياطيين تتم الاستعانة بهما في حالة مرض شخص ما أو ارتكابه لخطأ ما. ولم يتم عزل هؤلاء (مع العلم أنّني طلبت ذلك)، لذا فهم أحرار في الذهاب إلى منازلهم ليلاً والإساءة إلينا أنا وغاردي على مائدة العشاء. وفي وقت متأخر من عصر كل يوم، يحذّر «صاحب السعادة» المحلّفين من مغبّة التلفّظ بأي كلمة حول القضية، لكنّك تستطيع سماعهم وهم يثرثرون أثناء انصرافهم. لقد اتّخذوا قرارهم. ولو أنهم صوّتوا الآن، قبل أن نعرض شاهداً واحداً من شهود الدفاع، فسيجدون المتّهم مذنباً ويطلبون إعدامه. وسيعودون بعد ذلك إلى بيوتهم كأبطال وسيتحدّثون عن هذه المحاكمة طوال حياتهم. وعندما يتلقى غاردي حقنة الموت، سيفخر كلّ منهم بدوره الحاسم في تحقيق العدالة. سيرتفع شأنهم وتعلو منزلتهم في ميلو. سيتلقّون التهاني، وسيتجمّع حولهم الناس في الشوارع، وسيحتلون مكانة بارزة في الكنيسة.

ما زال المتصنّع كوفمان يرحّب بعودتهم، شاكراً لهم خدمتهم المدنية، سائلاً بلهجة خطيرة ما إذا كان أي أحد قد حاول الاتّصال بهم محاولاً التأثير في آرائهم. وهذا يتضمّن عادة بضع نظرات باتّجاهي، كما لو أنّ لدي الوقت، والطاقة، والغباء لأجوس في شوارع ميلو ليلاً مطارداً هؤلاء المحلّفين أنفسهم لأتمكّن من (1) رشوتهم، (2) أو إخافتهم، أو (3) أتوسل لديهم. لقد أصبح أمراً مفروغاً منه الآن أنّني المحتال الوحيد في القاعة، بالرغم من سيل الذنوب المرتكب في الجانب الآخر.

وفي الحقيقة، لو كنتُ أملك المال، والوقت، والموظفين، لاستطعت رشوة و/أو إخافة جميع المحلّفين. ومن الجدير بالذكر أن الولاية، التي تتمتع بمصادر غير محدودة، تعمد إلى الاحتيال والغشّ في كل مناسبة، ثمّ تشرِّع ذلك الغشّ. اللعبة إذاً ليست متكافئة، والإنصاف مفقود. لذا، فإنّ البديل الشريف الوحيد المتبقي أمام محام يصارع لإنقاذ موكّل بريء هو أن يخدع ويغشّ في الدفاع.

على أية حال، إذا ضُبط محامي الدفاع متلبساً بالغشّ، فسوف تمطره المحكمة بالعقوبات، وسوف توبّخه نقابة المحامين في الولاية، وربّما وُجّهت إليه تهمة رسمية. أمّا إذا ضُبط المدّعي العام متلبساً بالغشّ، فإما أن يُعاد انتخابه، أو تتم ترقيته. نظامنا لا يُعاقب مدّعياً عاماً فاسداً أبداً.

يُطمئن المحلّفون صاحب السعادة إلى أنّ كلّ شيء على ما يرام. «السّيد هوفير»، يعلن سعادته بمنتهى الجدية، «رجاء استدعِ شاهدك التالي». شاهد الولاية التالي واعظ أصولي حوّل وكالة سيارات كرايسلر القديمة إلى «معبد الحصاد العالمي» ولا ينفك يسحب الناس سحباً إلى صلواته وعظاته اليومية. شاهدته مرة على إحدى قنوات البثّ المحليّة؛ مرة كانت كافية. ادّعاؤه الشهرة هنا مبني على زعمه التصدّي لغاردي أثناء إقامته لقدّاس آخر الليل لجمع من الشباب. وطبقاً لروايته، كان غاردي يرتدي قميصاً قصير الكمّين، مطبوع عليه دعاية لفرقة روك تعزف موسيقى معدنية ثقيلة، وتحمل تلك الدعاية نوعاً من الرسائل الشيطانية المبهمة، وكان القميص المذكور يتيح للشيطان اختراق القداس. كانت الحرب الروحية مستعرة في الجوّ، كما زعم، وكان الربّ منزعجاً مما

يجري. أخيراً، وبالاستعانة بالإلهام المقدّس، حدّد الواعظ مصدر الشرّ بين الجمهور فأوقف الموسيقى واقتحم الحشد ليصل إلى موضع جلوس غاردي، ثم رفسه خارج المبنى.

يقول غاردي أنّه لم يقترب من الكنيسة على الإطلاق. أبعد من ذلك، يدّعي غاردي أنّه لم ير مطلقاً ما في داخل أيّ كنيسة طوال سنوات عمره الثماني عشر. تؤكّد أمّه هذه المسألة. وكما يقولون هنا في هذه البلاد، عائلة غاردي «لم تُبارَك» أبداً.

أن يُسمح بتقديم هذه الرواية كشهادة في قضية جنائية كبرى، فذلك أمر لا يُصدَّق أبداً. هذا أمر مضحك ودليل على الغباء. وإذا افترض المرء التوصّل إلى إدانة، فستتم مراجعة كلّ هذه الفضلات في غضون عامين من قِبل محكمة استئناف محايدة تبعد مسافة مئتي ميل. أولئك القضاة، الذين هم أذكى بقليل من كوفمان، سيلقون نظرة خاطفة على شهادة هذا الواعظ المتخلّف الذي سرد قصّته الملفّقة حول مشاجرة يُفترض أنها حدثت قبل حوالى ثلاثة عشر شهراً من وقوع جريمتي القتل.

أنا أعترض. اعتراض مرفوض. أنا أعترض، بغضب. اعتراض مرفوض، بغضب.

مع ذلك، يستميت هوفير لإبقاء الشيطان مشاركاً في نظريته حول القضية. فتح القاضي كوفمان الأبواب قبل أيام مضت، فأصبح كل شيء مرحب به. على أية حال، سوف يسدّ تلك الأبواب حين أبدأ باستدعاء

الشهود. سنكون محظوظين جداً إذا استطعنا تدوين مئة كلمة في السجلّ.

لدى الواعظ فاتورة ضرائب غير مدفوعة في ولاية أخرى. وهو لا يعلم أنّني وجدتها، وهكذا سنحصل على بعض المرح خلال الاستجواب. لن يكون لذلك أية أهمية؛ لن تكون له أهمية. أنجزت هيئة المحلّفين هذه مهمتها. غاردي وحش يستحقّ للذهاب إلى الجحيم. مهمّتهم هي الإسراع في ترحيله.

اتّكأ ماطّاً جسده بما يكفي ليهمس: «سيّد رود، أقسم أنّه لم يسبق لي أن دخلت كنيسة».

أومئ له وأبتسم لأن هذا كلّ ما أستطيع فعله. لا يستطيع محامي الدفاع تصديق موكّليه على الدوام، لكن حين يقول غاردي أنّه لم يدخل كنيسة مطلقاً، فأنا أصدّقه.

لدى الواعظ شيء من حدّة المزاج وسوف أعمل على إذكائه. استخدمتُ فاتورة الضريبة غير المدفوعة لإغضابه بشدّة، وهو عندما يُسكره الغضب، يظل كذلك حتى النهاية. أوقعته في فخاخ الجدل حول عصمة الكتاب المقدّس، والثالوث، والقيامة، والحديث بألسنة مختلفة، واللعب مع الأفاعي، وشرب السمّ، وتغلغل الطوائف الشيطانية في منطقة ميلو. يصرخ هوفير باعتراضاته المتتالية لكن القاضي كوفمان يسمح بالمتابعة. وفي مرحلة من الاستجواب الجدلي، تظاهر الواعظ بالتقى والورع وأحمر وجهه، ثم أغلق عينيه ورفع كلتا يديه عالياً إلى

الحد الأقصى الممكن. وكرد فعل غريزي من جانبـي، تجمّدتُ وانكمشت ونظرتُ إلى السقف كما لو أنّ صاعقة ستنزل. بعد ذلك، قال أنّني ملحد وأنّني سأذهب إلى الجحيم.

«إذاً، هل لديك السلطة لإرسال الناس إلى الجحيم؟»، أجبته.

«أخبرني الله أنك ذاهب إلى الجحيم».

«إذاً، ضعـ «ـه» على مكبّر الصوت لنسمعه جميعاً».

في الحقيقة، ضحك اثنان من المحلّفين حول ذلك. تحمّل كوفمان الكثير مما قلت. ثم قرع بالمطرقة معلناً استراحة الغداء. لقد أهدرنا الصباح على هذا الوخّاز الصغير المنافق وشهادته المزيّفة، لكنّه ليس الأول من بين السكان المحليّين الذي يغرس نفسه في مجريات المحاكمة. فالبلدة مملوءة بأولئك الذين يريدون أن يصبحوا أبطالاً.

.4

تناول الغداء ممتع دائماً. وباعتبار أن مغادرة مبنى المحكمة أمر غير مأمون العواقب، وكذلك قاعة المحكمة نفسها، فنحن، أنا وغاردي، نأكل الشطائر وحيدين على منضدة الدفاع. نتناول محتوى صندوق الغداء نفسه الذي يُجلب للمحلّفين. يجلبون ستّة عشر صندوقاً منها، يخلطونها ثم ينتقون صندوقينا عشوائياً، ويأخذون البقية إلى غرفة هيئة المحلّفين. وهذه كانت فكرتي لكي لا نُسمّم. ليس لدى غاردي فكرة حول الأمر؛ فهو جائع فقط. يقول إن الطعام في السجن كما تتوقّع له أن يكون وهو لا يثق بالحرّاس. لا يأكل شيئاً هناك، ولأنه يحيا على وجبة الغداء فقط، سألت القاضي كوفمان ما إذا كانت المقاطعة تستطيع مضاعفة حصة الفتى بإعطائه شطيرتين من الدجاج مع المزيد من رقائق البطاطا والمخلل. بعبارة أخرى، صندوقي غداء اثنين بدلاً من واحد. رُفض الطلب.

لذا، يحصل غاردي على نصف شطيرتي وجميع المخلل. ولو لم أكن جائعاً لأعطيته طعامي كلّه، فهو على استعداد لأخذ صندوق كامل من زوائد الطعام.

يأتي الرفيق ويذهب طوال ساعات اليوم. وهو يخشى ترك شاحنتنا في بقعة واحدة بسبب احتمال تمزيق عجلاتها أو كسر نوافذها. وتقع على عاتقه أيضاً بضع مسؤوليات أخرى، إحداها مقابلة «الأسقف» من حين لآخر.

في حالات مثل هذه حين أستدعى إلى ساحة قتال في بلدة صغيرة رصّت صفوفها وأصبحتْ على أهبة الاستعداد لقتل أحد مواطنيها بسبب جريمة شنيعة، أحتاج إلى بعض الوقت للعثور على جهة اتّصال. وجهة الاتّصال التي أبحث عنها تكون دائماً محامياً آخر؛ محامٍ محليّ يدافع أيضاً عن المجرمين ويتناطح أسبوعياً مع رجال الشرطة والمدّعين العامّين. وجهة الاتّصال هذا يُصبح متاحاً في نهاية الأمر، بشكل هادئ وبعد تردّد، فهو يخشى من افتضاح أمره واعتباره كخائن. وهو يعرف الحقيقة، أو شيئاً قريباً منها. يعرف اللاعبين، والممثلين السيّئين، والممثلين الطارئين والجيدين. وباعتبار أن استمراره يعتمد على الانسجام والتفاهم مع كتّاب المحكمة ورجال الشرطة والمدّعين المساعدين، فهو يعرف النظام.

في قضية غاردي، جهة اتّصالي ومصدري الخفي هو الزميل جيمي بريسوب. نسمّيه «الأُسقف». لم أقابله مطلقاً. فهو يعمل من خلال الرفيق وهما يجتمعان في أماكن غريبة. يقول الرفيق أنّه في حوالى الستين من العمر. ذو شعر رمادي طويل وخفيف، سيّئ الملابس، رائحة فمه

كريهة جداً، ذو طبيعة قاسية، وهو ضعيف أمام زجاجة الخمر. «هل هو نسخة أقدم منّي؟» سألت. «ليس بالضبط»، جاءت الإجابة الحكيمة. ومع جميع ما قدّمه من معلومات خطيرة وكلام كبير، يخشى الأسقف الاقتراب الشديد من المحامين المدافعين عن غاردي.

يقول الأسقف أن هوفير وعصابته يعرفون الآن أنّهم أمسكوا بالرجل الخطأ، لكنّهم استثمروا في ذلك كثيراً إلى حدّ يمنعهم من التوقّف والاعتراف بأخطائهم. ويقول إن هنالك همس منذ اليوم الأول حول القاتل الحقيقي.

5.

إنه يوم الجمعة والجميع في قاعة المحكمة منهك. قضيتُ ساعة في تفنيد مزاعم شقي غبـي وصغير كثير بثور الوجه يزعم أنّه كان موجوداً في القدّاس نفسه الذي أقيم في الكنيسة حين تسبّب غاردي في استدعاء الشياطين وعرقلة الأمور. بمنتهى الأمانة، رأيتُ أسوأ شهادات الزور في قاعات المحاكم، لكنّني لم أر أبداً شيئاً سيئاً كهذا. فبالإضافة إلى كونها زائفة، فهي غير ذات صلة على الإطلاق. لن يهتمّ مدّعٍ عامّ آخر بشهادة كهذه. ولن يعترف بها أي قاضٍ آخر. أخيراً يعلن كوفمان التأجيل لعطلة نهاية الأسبوع.

اجتمعنا أنا وغاردي في غرفة الحجز، حيث يبدّل ملابسه ليرتدي زيّ السجن الرسمي وأنا أعرض عليه بعض الخيارات التافهة حول قضاء عطلة نهاية أسبوع جيدة. أعطيه عشرة دولارات ليشتري من أماكن البيع. يقول أن أمّه ستجلب له غداً بعض الكعك المحلّى بنكهة الليمون، وهو المفضّل لديه. في بعض الأحيان يمرّر الحرّاس لغاردي ما تجلبه له أمّه

من طعام؛ وفي أحيان أخرى يحتفظون به لأنفسهم. لا يمكن الجزم بذلك أبداً. إن متوسط وزن كل حارس يزيد عن مئة وثلاثين كيلوغراماً، لذا أخمّن أنّهم يحتاجون إلى تلك السعرات الحرارية المسروقة. طلبتُ من غاردي أن يستحمّ خلال عطلة نهاية الأسبوع وأن يغسل شعره.

يقول: «سيّد رودّ، إذا وجدتُ شفرة، فسأذهب»، مع حركة ضغط شديد بسبابته وتمريرها حول رسغه.

«لا تقل ذلك، غاردي». قالها من قبل وهو يعنيها.

ليس لدى الفتى شيء ليعيش من أجله، وهو ذكي بما يكفي ليستبصر ما هو آت. يا للهول، الأعمى يمكنه أن يرى ما ينتظره. نتصافح ثمّ أُسرع بالنزول من السلّم الخلفي. أجد في انتظاري الرفيق ومفوضي الشرطة عند الباب الخلفي فيزجّوني سريعاً في عربتنا. خروج آمن آخر.

خارج ميلو، أبدأُ بالترنّح ثمّ أغط في النوم سريعاً. بعد عشر دقائق، يتذبذب هاتفي فأجيب. نسير خلف سيارة شرطة الولاية عائدين إلى فندقنا، حيث نلتقط أمتعتنا ونخرج. بعد ذلك بقليل نصبح وحدنا ونتّجه إلى المدينة.

«هل رأيت الأسقف؟» أسأل الرفيق.

«أوه نعم. اليوم هو الجمعة، وأعتقد أنه يبدأ الشرب حوالى الظهر من كل يوم جمعة. لذا اشتريت نصف دزينة ثمّ تجوّلنا في السيارة لبعض الوقت. كانت الحانة سيئة بالفعل، وهي تقع شرقاً، بعد حدود المدينة مباشرة. يقول أن بيلي نظامي».

«إذاً فقد احتسيت أنت بضع زجاجات؟ هل ينبغي أن أقود؟».

«واحدة فقط، يا زعيم. رشفتُ منها على مهل حتى أصبحت دافئة. أمّا الأسقف، من جهته، فقد احتسى منها ثلاثاً باردة».

«وهل نصدق هذا الرجل؟».

«أنا أقوم بعملي فقط. على كل حال، ومن ناحية أولى، لديه مصداقية لأنه عاش هنا طوال حياته ويعرف الجميع. ومن ناحية ثانية، هو مليء بالتفاهات التي تدفعك إلى إهمال كل ما يقوله».

«سنرى». قلتُ ذلك وأغلقت عيناي محاولاً أخذ قيلولة. النوم مستحيل عملياً حين تكون في خضم محاكمة جنائية كبرى، وقد تعلّمتُ اصطياد لحظاته كلما سنحت. اقتنصتُ مرة عشر دقائق على مقعدٍ قاسٍ في قاعة محكمة فارغة أثناء فترة الغداء؛ ذلك أنّني كنت قد قضيت الليلة السابقة أتمشى ذهاباً وإياباً في غرفة فندق قذرة حتى الثالثة صباحاً. وغالباً ما يغلبني النوم وأنا في منتصف الجملة خلال قيادة الرفيق والشاحنة تدندن على الطريق.

في بعض الأحيان، وخلال عودتنا إلى المناطق المتحضرة حيث نعيش، يتلاشى تركيزي رويداً رويداً فأغرق في النوم.

.6

هذا هو يوم الجمعة الثالث من الشهر، ولدي موعد مهمّ، إذا جاز لي أن أسمّي جلسة حول كأسين موعداً حقيقياً. في الواقع هو أشبه بموعد لسحب عصب الضرس. والحقيقة هي أن هذه المرأة لن تواعدني حتى تحت التهديد بالسلاح، وهي مشاعر متبادلة تماماً بيننا. لكن، بيننا تاريخ. نجتمع في الحانة نفسها، وفي الركن المنعزل نفسه حيث تناولنا وجبة طعامنا الأولى معاً، في حياة سابقة. لا علاقة للحنين بالأمر؛ يتعلّق الأمر بالمصالح. المكان عبارة عن حانة كبرى في وسط المدينة، وهي واحدة ضمن سلسلة مماثلة؛ لكن الجوّ ليس سيئاً، بل هو نشط في أمسيات أيام الجمعة.

تصل جوديث وايتلي أولاً، ثم تحتل ركننا المعتاد. أتسلل بعد دقائق قليلة حين تكون قد أوشكت على الغضب. لم يسبق لها أن تأخرت عن أيّ شيء، وهي تعتبر التأخر عن المواعيد من علامات الضعف. في رأيها،

لدي العديد من تلك العلامات. وهي محامية، أيضاً، وهذا كان سبب تعارفنا.

«تبدو مرهقاً»، قالت من دون أي أثر للشفقة. وهي، أيضاً، تبدو عليها علامات الإعياء، على الرغم من أنها في التاسعة والثلاثين من العمر ولا تزال جميلة جداً. كلّما رأيتها تذكّرتُ سبب سقوطي الشديد.

«شكراً، وأنتِ تبدين رائعة، كالعادة».

«شكراً».

«عشرة أيام وينفد منا جميعاً الوقود».

«وهل هناك أي حظّ؟»، سألتْ.

«ليس بعد». تعرف أساسيات قضية غاردي ومحاكمته، وهي تعرفني. وإذا كنتُ أعتقد أن الفتى بريء، فذلك أمر حسن جداً بالنسبة إليها. لكن، لديها زبائنها الخاصين الذين يتوجب عليها السهر والقلق بشأنهم. طلبنا مشروباتنا المعتادة.

سوف نحتسي مشروباً آخر في أقل من ساعة، ثمّ ينتهي الأمر ليتكرّر بعد شهر. «كيف حال ستارتشر؟»، أسأل. لا أنفكّ أتمنى أن يأتي اليوم الذي ألفظ فيه اسم ابني من دون أن أكره ذلك الاسم، لكن ذلك اليوم لم يأتِ أبداً. اسمي مدوّن على شهادة ميلاده كأب، لكنّني كنتُ غائباً حين وُلد. لذا، كانت جوديث حرّة في اختيار الاسم. وهو اسم ينبغي أن يكون الاسم الأخير لشخص ما، إذا كان صالحاً للاستخدام كاسمٍ أساساً.

«أموره تسير بشكل جيّد»، تقول بتعجرف، لأنها منخرطة كلياً في حياة الطفل، على العكس مني. «التقيتُ معلّمته الأسبوع الماضي وهي مسرورة من تقدّمه. تقول إنه طالب طبيعي من طلبة الصف الثاني، وهو يقرأ جيّداً ويستمتع بحياته».

«هذا خبر جيّد»، قلت. كلمة «طبيعي» هي الكلمة المفتاح في ما قالته بسبب تاريخنا. لم ينمُ ستارتشر بطريقة طبيعية. قضى نصف عمره مع جوديث ورفيقتها الحالية والنصف الآخر مع أبويها. من المستشفى، أخذتْ ستارتشر إلى شقّة تشاطرتها مع جوينيث، المرأة التي تركتني من أجلها. قضتا بعد ذلك ثلاث سنوات وهما تحاولان تبنّي ستارتشر قانونياً، لكنّني قاتلتهما مثل حيوان جارح وعنيف. ليس لدي شيء ضدّ الشاذين الذين يتبنّون الأطفال. لكنّني لا أستطيع تحمّل جوينيث. وقد كنتُ محقاً. لم تمكثا طويلاً معاً حتى انفصلتا بعد معركة حامية بينهما، وهي معركة أمتعتني كثيراً ومن أعماق قلبـي.

أصبح الأمر الآن أكثر تعقيداً. وصل شرابنا ولسنا في وارد مجاملات أن يتمنّى كلّ منّا الصحّة للآخر. سيكون ذلك بمثابة مضيعة للوقت فحسب. نحتاج إلى تناول الشراب في أسرع ما يمكن.

بدأتُ بتقديم الأخبار السيئة بالقول: «ستأتي أمّي إلى البلدة في عطلة نهاية الأسبوع القادم وهي تودّ أن ترى ستارتشر. فهو في نهاية المطاف حفيدها الوحيد».

«أعرف ذلك»، ردّت بامتعاض، ثمّ أضافت: «إنها عطلة نهاية الأسبوع خاصّتك. يمكنك أن تفعل ما تشاء».

«صحيح، لكن لديك طريقة في تعقيد كلّ شيء. أنا لا أريد أيّ مشكلة فحسب، هذا كلّ شيء».

«أمّك هي نفسها مشكلة».

الكلمات الأكثر صحّة لم تُقل أبداً، وقد أومأتُ معلناً الهزيمة. وسيكون هذا اعتراف مثير إذا قلت أن جوديث وأمّي كرهتا بعضهما بعضاً منذ أن دقّ جرس الافتتاح. كرهتا بعضهما بشدّة إلى حدّ أنّ أمّي أخبرتني أنها ستحرمني من الميراث في وصيتها إذا تزوّجتُ جوديث. في ذلك الوقت، كانت لدي بعض الشكوك الجدّية والسريّة حول حبّنا ومستقبلنا، لكن ذلك التهديد كان القشّة الأخيرة. وعلى الرغم من اعتقادي أنّ أمّي ستعيش حتى تبلغ المئة، إلا أن امتلاك شيء من عقاراتها سيكون بهجة. يحتاج صاحب دخل كدخلي إلى حلم. والمؤامرة الثانوية في هذه القصّة الحزينة هي أنّ أمّي تستعمل وصيتها في أغلب الأحيان لإرهاب أولادها. تزوّجتْ أختي جمهورياً فأخرجت نفسها بذلك من الوصيّة. بعد سنتين، أصبح ذلك الجمهوري، وهو رجل لطيف بالفعل، أباً للحفيدة الأكثر روعة في التاريخ. أُعيدت أختي الآن إلى الوصيّة، أو هكذا نعتقد.

على أية حال، كنتُ على وشك الانفصال عن جوديث عندما أبلغتني بالخبر الساحق هو أنها حبلى. افترضتُ أنّني كنت الأب، لذلك لم أطرح

ذلك السؤال الملغوم. لكنّني عرفت لاحقاً الحقيقة المؤلمة وهي أنّها كانت تواعد جوينيث. كان ذلك أشبه بطلقة أسفل المعدة. وأنا متأكّد من أنّه كانت هناك بعض الإشارات التي تلمّح إلى أن محبوبتي الغالية هي في الحقيقة شاذة، لكنّني لم ألتقط أياً من تلك الإشارات.

تزوّجنا. قالت أمّي أنّها غيّرت وصيّتها وأنّني لن أحصل على بنس واحد. عشنا سوية لخمسة أشهر تعسة ومتقطّعة، ومن الناحية التقنية استمرّ زواجنا خمسة عشر شهراً إضافياً؛ ولكي نحافظ على سلامة عقلينا، انفصلنا. وقد جاء ستارتشر في أوج تلك الحرب المندلعة بيننا، مصاباً منذ ولادته، وما زلنا منذ ذلك الوقت يقنص أحدنا الآخر. وهذه الطقوس المتمثلة بالاجتماع مرة كلّ شهر لتناول المشروبات ليست سوى تعبير عن تمسكنا بالمظهر الإجباري للكياسة.

أعتقد أنّني عدتُ إلى وصية أمّي الغالية.

«وما هي خطط الماما بشأن الطفل؟» سألتْ. لا تقول أبداً «طفلنا». لم تستطع في يوم من الأيام مقاومة الرغبة في توجيه الطعنات الصغيرة، أو القنص بطلقات عشوائية. تظل تنكأ الجروح، لكن ليس حتى على نحو ذكي. ومن شبه المستحيل تقريباً تجاهل ما تفعله، لكنّني تعلّمت العضّ على لساني. ملأت الندوب لساني.

«أعتقد أنهما سيذهبان إلى حديقة الحيوانات».

«تأخذه دائماً إلى حديقة الحيوانات».

«وما الضرر من الذهاب إلى حديقة الحيوانات؟»

«حسناً، آخر مرّة رأى الكوابيس بسبب الثعابين».

«حسناً، سأطلب منها أخذه إلى مكان آخر». لقد تسبّبتْ بمشكلة وانتهى الأمر. ما هو الخطأ المحتمل في أخذ ولد طبيعي جداً في السابعة من عمره إلى حديقة الحيوانات؟ لا أعرف لِمَ نلتقي على هذا النحو.

«كيف الحال في المؤسّسة؟»، سألتُ بفضولٍ يشبه التفرّج على حطام سيارة. فضول لا يقاوم.

«جيّد»، قالت. ثمّ أضافت: «الاضطراب العادي».

«تحتاجون إلى بعض الفتية في تلك المؤسّسة».

«لدينا ما يكفي من المشاكل». لاحظ النادل أن كأسينا فارغتين فذهب لإحضار جولة أخرى. تنتهي المشروبات الأولى سريعاً دائماً.

جوديث إحدى الشريكات الأربع في مؤسّسة محاماة تعمل فيها عشر نساء، كلّهن شاذات وهجوميات وجريئات. وتتخصّص المؤسّسة المذكورة في قوانين المثلية، والتمييز في أماكن العمل، والإسكان، والتعليم، والرعاية الصحية، وأخيراً: الطلاق بين المثليين. وهنّ محاميات جيّدات، ومفاوضات صلبات، وشديدات الخصومة؛ ويتميّزن في أنهنّ في حالة هجوم دائم، ويظهرن في أغلب الأحيان في نشرات الأخبار. تعكس المؤسّسة صورة الانخراط في حالة حرب مع المجتمع، حربٌ لا تَراجع فيها أبداً. مع العلم أن القتال خارج المؤسّسة أقلّ صخباً وحدّة بكثير من الشجارات الداخلية.

«يمكنني الدخول كشريك أساسيّ»، قلتُ على سبيل الهزل.

«لا تستطيع الصمود عشر دقائق». لا يستطيع أي رجل الصمود مدّة عشر دقائق في مكاتبهن. في الحقيقة، يتفاداهنّ الرجال بشدّة. اذكر اسم مؤسّستهن وسيفرّ الرجال نحو التلال. أمّا زميلاتهن في المهنة اللواتي يُضبطن متلبّسات في محاولة التصدي لهنّ فلا يتردّدن في القفز من فوق الجسور.

«قد تكونين محقّة. هل شعرتِ مرة بالحاجة إلى ممارسة الجنس مع الجنس الآخر؟».

«هل تريد فعلاً، يا سيباستيان، التحدّث عن الحياة المستقيمة، بعد زواج سيئ وطفل غير مرغوب فيه؟».

«أحبّ الحياة المستقيمة. هل أحببتها في حياتك؟ بدوتِ كذلك».

«كنتُ أزعم ذلك».

«لا. كنتِ رائعة جداً، كما أتذكّر». أعرف رجلين كانا على علاقة معها قبلي. ثمّ انصرفتْ إلى جوينيث. ولقد تساءلتُ مراراً عمّا إذا كنتُ رديئاً جداً في السرير مما دفعها إلى الانتقال نحو تشجيع فريق آخر. أشكّ في الأمر. وهنا يتوجّب أن أقول أنّها ذات عين دقيقة وتحسن الاختيار. لقد احتقرتُ جوينيث، وما زلت، لكن تلك المرأة يمكنها أن تتسبّب في توقّف السير في أيّ شارع في البلدة. أمّا رفيقتها الحالية، أڤا، فقد ظهرت مرة كعارضة أزياء لملابس داخلية لصالح مخزن محليّ كبير. أتذكّر إعلاناتها في صحيفة «صنداي».

وصلت الجولة الثانية من المشروبات فالتقطناها.

«إذا كنتَ تريد التحدّث عن هذا، فسأغادر»، قالت، لكنّها لم تكن غاضبة.

«أنا آسف. انظري، جوديث، كلّما رأيتك فكّرتُ بك. وهذه مشكلتي وليست مشكلتك أنتِ».

«اطلبْ مساعدة».

«لست بحاجة إلى مساعدة. أحتاج إلى الجنس».

«هل تحاول مراودتي؟»

«هل ثمّة أمل؟».

«لا».

«لم أظنّ ذلك».

«هل لديك مباراة الليلة؟» سألتْ لكي تغيّر الموضوع ولم أمانع.

«نعم، لدي».

«أنت مريض، هل تعرف ذلك. تلك رياضة وحشية».

«يقول ستارتشر إنه يريد الذهاب».

«خذ ستارتشر إلى مباراة قتال القفص ولن تراه ثانية».

«اهدئي. كنتُ أمزح فقط».

«ربّما تمزح، لكنّك ما زلت مريضاً».

«شكراً لك. تناولي شراباً آخر». مرّت بجانبنا امرأة آسيوية رشيقة ترتدي تنورة ضيّقة وقصيرة فحدّقنا فيها معاً. «تحفة!»، قلت.

بدأ يظهر مفعول الشراب - وهو يستغرق وقتاً أطول بالنسبة لها لأنها بطبيعتها شديدة التأثر - ثمّ استطاعت جوديث اصطناع ابتسامة، وهي الأولى في تلك الأمسية. وربّما كانت الأولى في ذلك الأسبوع. «هل تواعد إحداهنّ؟»، سألتْ، بلهجة أنعم بشكل ملحوظ.

«لا، منذ لقائنا الأخير»، قلت. ثمّ أضفت: «كنتُ منهمكاً في العمل». صديقتي الأخيرة هجرتني قبل ثلاث سنوات. ويحالفني الحظّ من حين لآخر، لكنّني سأكذب إذا قلت أنّني أبحث عن علاقة جدّية بأي امرأة.

وحين بدأنا نسأم، حدثت فجوة طويلة وثقيلة في الحديث.

عندما ارتشفنا القطرات الأخيرة من شرابنا، عدنا بالحديث إلى ستارتشر وأمّي وعطلة نهاية الأسبوع القادمة التي يخشاها كلانا الآن.

خرجنا معاً من الحانة، ثمّ طبع كلّ منا قبلة سريعة على خد الآخر وودّعه. واجب آخر أُنجز.

أحببتها فيما مضى، ثمّ كرهتها حقاً. أحبّ جوديث تقريباً، وإذا واصلنا هذه الاجتماعات الشهرية، فقد نصبح صديقين. ذلك هدفي، لأنّني أحتاج إلى صديق بالفعل؛ صديق يستطيع أن يفهم ما أفعله ولماذا أفعله.

كما أن ذلك سيكون أيضاً أفضل بكثير بالنسبة لابننا.

.7

أقطن في الطابق الخامس والعشرين من عمارة سكنية في وسط المدينة، مع إطلالة جزئية على النهر. أحببتُ العيش على ذلك الارتفاع لأن الشقة هادئة وآمنة. فإذا أراد أحدهم تفجير شقّتي أو حرقها، فسيكون ذلك صعباً من دون تقويض المبنى بأكمله.

تُرتكب بعض الجرائم في وسط المدينة، لذا نحيا مع الكثير من كاميرات المأمورة بالفيديو والحرّاس المدجّجين بالأسلحة. لذلك أشعر بالأمان.

أطلقوا الرصاص على مسكني القديم، وهو شقّة أرضية من طابقين، وأحرقوا مكتبـي القديم قبل خمس سنوات.

لم يُعثر على «هؤلاء» أبداً ولم يُعرفوا، وتكوّن لدي انطباع واضح أن الشرطة لم تسعَ وراءهم كما يجب. وكما سبق وأن قلت، تثير مهنتي

مقداراً من الكراهية، وهنالك كثيرون ممّن تسعدهم رؤية معاناتي. يتستّر بعض هؤلاء الناس خلف شارات وألقاب رسمية.

مساحة الشقّة ألف قدم مربّع، وتتألف من غرفتي نوم صغيرتين، ومطبخ أصغر لا أستخدمه إلا نادراً، بالإضافة إلى غرفة جلوس بالكاد تتّسع لاحتواء قطعة الأثاث الكبيرة والوحيدة لدي. لستُ متأكّداً صواب تصنيف طاولة بلياردو كأثاث، لكنّها شقّتي وسأسميها كما أريد. طولها تسعة أقدام، وهو المقاس المعياري، وقد صُنعت عام 1884 من قبل شركة أوليفير إل. بريجز في بوسطن. ربحتها في دعوى قضائية، ثمّ أعيد ترميمها بمنتهى العناية، وجُمِّعت بعد ذلك في وسط عريني. وفي يوم معتاد من أيام حياتي، أو حين لا أكون غائباً في أحد الفنادق الرخيصة أراوغ التهديدات بالموت، أجمّع الكرات على سطحها وأضربها لتتفرّق مراراً وتكراراً وأتمرّن لساعات. أتحدى نفسي في اللعب كمتنفّس من الضغط، أو كمسكّن للإجهاد، وكعلاج رخيص. ويردّني اللعب أيضاً إلى أيام الدراسة الثانوية حين كنت أرتاد مكاناً اسمه «ß ÇÑí Ð»، وهو عبارة عن حانة محليّة فاسدة موجودة منذ عقود. كانت عبارة عن صالة قديمة الطراز تحتوي على صفوف من مناضد البلياردو، تعبق بطبقات من الدخان، وفيها مباصق، وجعة رخيصة، وبعض ألعاب القمار التافه؛ زبائنها قساة الأفعال لكنهم يعرفون كيف يتصرّفون. مالك الحانة، كورلي، صديق قديم موجود فيها على الدوام ويحرص على إدارتها لتظلّ تعمل بيسر وسهولة.

عندما كان الأرق يستولي عليّ ويضيق بـي عالمي، كنتَ تجدني في أغلب الأحيان في «ßÇÑí Đ» في الساعة الثانية فجراً ألعب الكرات التسع وحيداً؛ سعيداً جداً وأعيش في عالم آخر.

لكن، ليس الليلة. تسللتُ إلى الشقّة، عائماً على خدر الشراب، ثمّ بدّلت ملابسي بسرعة وارتديت ملابس القتال؛ جينز وفانيلة سوداء وسترة صفراء فاقعة وبرّاقة، ضيّقة عند الخصر، تتوهّج في الظلام الدامس، صارخة بعبارة «تاديو زابات» على ظهرها. سحبتُ شعري الرمادي الطويل إلى الخلف وربطته على شكل ذيل الحصان، ثمّ دسسته تحت الفانيلة. بدّلتُ نظارتي أيضاً واخترتُ واحدة ذات إطار أزرق خفيف. عدّلتُ قبّعتي، وهي أيضاً صفراء فاقعة تتلاءم مع السترة، مكتوب على مقدمتها اسم «زابات». شعرتُ بأنّني تنكّرت بما يكفي، وأن الأمسية ينبغي أن تنقضي على ما يرام. وفي المكان الذي سأقصده لا يبالي الحضور بالمحامين النشاز. سيكون هناك الكثير من المجرمين، والكثير من ذوي الماضي والحاضر والمستقبل المثقل بالمشاكل القانونية، لكنّهم لن يلاحظوني.

هذه حقيقة محزنة أخرى من حقائق حياتي، وهي أنّني أغادر الشقّة في أغلب الأحيان بعد هبوط الظلام مع نوع مختلف دائماً من أنواع قبّعات التنكّر، والنظارات، والشعر المخفي، وحتى قبّعات فيدورا.

أوصلني الرفيق إلى صالة المدينة القديمة، على بعد ثمانية مربعات سكنية من شقّتي، وأنزلني في ممر قرب المبنى. وجدتُ حشداً مكتظاً عند المدخل. كانت أصوات موسيقى الراب العالية تنبعث عبر الميدان

الأمامي، والأضواء تمسح الفضاء بشكل جنوني من مبنى إلى آخر. أمّا الإشارات الرقمية الساطعة فتعلن عن الحدث الرئيس وعن الجولات الفرعية الأقل أهمية.

يُقاتل تاديو الليلة رابعاً، ليكون بمثابة الإحماء الأخير قبل الحدث الرئيس، وهو الليلة مباراة في الوزن الثقيل بيعت الكثير من تذاكرها لأن أحد المتنافسين فيها لاعب سابق في دوري كرة القدم مشهور في المنطقة. أمتلكُ 25 بالمائة من مداخيل مهنة تاديو، وهو استثمار كلّفني ثلاثين ألف دولار منذ عام، ولم يخسر من يومها. أراهن أيضاً على بعض المباريات الجانبية وأحقّق ربحاً جيّد جداً. إذا ربح الليلة، فسيكون نصيبه ستة آلاف دولار. ونصف ذلك إذا خسر.

في أحد المداخل، في مكان عميق ما تحت الصالة، سمعتُ حارسي أمن يتحدثان. يزعم أحدهما أن جميع تذاكر الأمسية قد بيعت، وأن الحضور بلغ خمسة آلاف مشجّع. أظهرتُ بطاقة هويتي فأدخلتُ من باب آخر، ثمّ آخر. دخلتُ غرفة خزائن معتمة فشعرت بأجواء التوتّر الذي يتطاير كأحجار الطابوق. خُصّصت لنا الليلة مساحة النصف من غرفة طويلة. يصعد تاديو السلّم في عالم الفنون القتالية المختلطة، وقد بدأنا نشعر جميعاً أن ثمة شيء كبير يحدث. كان ممدّداً على بطنه فوق منضدة، عارياً إلا من سرواله القصير، وليس في جسمه الذي يزن مئة وثلاثين رطلاً شيء من الدهون. كان ليو ابن عمه يدلّك عظام كتفيه. وقد تألقت بشرته السمراء الفاتحة بفعل مستحضر التدليك. تحرّكتُ في الغرفة وتحدّثتُ مع مديره نوربيرتو، ومع مدرّبه أوسكار، ومع أخيه

ورفيقه في التمرين ميغيل. يبتسمون لي حين أتحدّث إليهم لأنني «الغرينغو» الوحيد، أو الأبيض الذي يتحدث الإنكليزية كلغة أمّ، ولأنهم ينظرون إلي أيضاً كمموّل. وأنا أيضاً الوكيل، أي الرجل صاحب العلاقات الواسعة مع ذوي النفوذ وأصحاب الأدمغة، والذي سيحصل لتاديو على بطاقة البطولة القتالية العليا إذا استمرّ في الفوز. ثمة في الخلفية أيضاً قريبان آخران لتاديو، متطفّلان ليس لهما دور محدّد في حياة تاديو. لم أحبّ وجود هذين الزائدين عن الحاجة لأنهما يتوقّعان الحصول على بعض المال في مرحلة ما؛ لكنّ تاديو، بعد سبعة انتصارات متتالية، يعتقد أنّه يحتاج إلى حاشية. وهم جميعاً يوفّرون له ذلك.

باستثناء أوسكار، جميعهم أعضاء عصابة الشوارع نفسها، وهي منظمة متوسّطة المستوى من السلفادوريين الذين يتاجرون بالكوكايين. كان تاديو عضواً في العصابة مذ بلغ الخامسة عشرة من عمره، لكنّه لم يطمح أبداً إلى لعب دور بارز في تلك العصابة. بدلاً من ذلك، عثر على بعض قفّازات الملاكمة القديمة، ثمّ قادته قدماه إلى صالة تدريب؛ وبعد ذلك اكتشف أنّ لديه يدان سريعتان بشكل فظيع. انضم إليه أيضاً أخوه ميغيل، لكنّه لم يحقّق نجاحاً يذكر. يدير ميغيل العصابة وهو ذا سمعة سيئة في الشارع.

كلّما فاز تاديو أكثر، كسب أكثر، وزاد بالتالي قلقي من التعامل مع عصابته.

انحنيتُ وتحدّثتُ إليه بلطف. «كيف حال رَجُلي؟».

فتح عيناه، ثمّ نظر إلى الأعلى؛ وابتسم فجأة ثمّ سحب السمّاعات من أذنيه. انتهى التدليك فجأة حين جلس على حافة المنضدة. دردشنا قليلاً فطمأنني إلى أنّه مستعدّ لقتل شخص ما. ياه! أحسنت. ولقد لاحظتُ أن طقوسه التي تسبق المباراة تتضمّن تفادي حلاقة الذقن لمدّة أسبوع؛ وبلحيته الخفيفة تلك وشعره الأسود الذي يشبه الممسحة يذكّرني بروبيرتو دوران العظيم. لكن جذور تاديو في السلفادور، وليس بنما. وهو مواطن أمريكي في الثانية والعشرين من عمره، ويتحدّث الإنجليزية بشكل جيّد تقريباً كما يتحدّث الإسبانية. حصلت أمّه أيضاً على أوراق المواطنة وهي تعمل في أحد المطاعم. ولديها أيضاً شقّة مليئة بالأطفال والأقرباء، وقد تكوّن لديّ انطباع أنّ أرباح تاديو مهما بلغت فسوف تُقسَّم بطرق عديدة.

كلّما تحدّثتُ إلى تاديو حمدتُ الله على عدم اضطراري إلى مواجهته في الحلبة. عنده تلاميذ سود عنيفون يصرخون بغضب: «أرني الفوضى. أرني الدمّ». نشأ تاديو في الشوارع، متأهباً لقتال كلّ من يحاول الاقتراب منه. قُتل أخاه الأكبر في معركة بالسكاكين، وهو يخشى أن يموت أيضاً كذلك. وعندما يدخل الحلبة، يكون مقتنعاً أن شخصاً ما يوشك أن يُقتل، ولن يكون هو ذلك الشخص. خساراته الثلاث كانت بالنقاط؛ ولم يستطع أحد إذلاله حتى الآن. يتدرّب لمدّة أربع ساعات يومياً، وقد أصبح قريباً من إتقان المصارعة اليابانية.

صوته منخفض، وكلماته بطيئة، وتلك هي إشارات التوتّر العادي الذي يسبق المعركة حيث يغطّي الخوف على كلّ الأفكار وتتقلّص معدتك وترتجف. أعرف ذلك.

سبق لي أن خضتُ التجربة. منذ زمن طويل، خضتُ خمس مباريات ملاكمة ضمن مستوى «القفازات الذهبية». حقّقتُ الفوز الأول من بين أربع مستويات قبل أن تكتشف أمّي مهنتي السرية ثمّ تضع حدّاً لها وتقضي عليها بمنتهى الرحمة. لكنّني فعلتها على كلّ حال. امتلكتُ الشّجاعة لدخول الحلبة والتعرّض للضرب حتى تطاير الغائط مني.

على أية حال، لا أستطيع تخيّل حالة أحشائك حين تزحف إلى القفص مع مقاتل آخر مكيَّفاً بشكل ممتاز، ماهر جداً، مدرَّب جيّداً، جائع، شرّير، يتملّكه الفزع ولا يفكّر بشيء سوى بكيفية خلع كتفيك من موضعهما، وإعطاب ركبتيك، وفتح جرح بليغ في وجهك، أو إنزال لكمة قاضية على فكّك. لهذا أحبّ هذه الرياضة. فهي تتطلّب المزيد من الشجاعة، والمزيد من علائم الشجاعة الصرفة على وجهك، وذلك أكثر من أيّ رياضة أخرى منذ أن تصارع المجالدون حتى الموت في روما القديمة. بالطبع، هنالك العديد من الرياضات الأخرى الخطرة، مثل التزحلق على المنحدرات الخطرة، وكرة القدم، والهوكي، والملاكمة، وسباق السيارات. ويموت المزيد من الناس في رياضة ركوب الخيل في كلّ عام، أكثر من أيّ رياضة أخرى. لكنّك في تلك الرياضات لا تدخل اللعبة طوعاً وأنت تعلم أنّك ستتأذّى. عندما تدخل القفص، ستتأذّى، وقد يكون القتال بشعاً، مؤلماً، وحتى مميتاً. وربّما كانت الجولة التالية هي الأخيرة بالنسبة إليك.

وهذا هو السبب في أن العدّ التنازلي وحشي جداً. تمرّ الدقائق وتمضي والمقاتل يحارب أعصابه، وأحشاءه، ومخاوفه. أمّا الانتظار فهو الجزء الأسوأ. غادرتُ بعد بضع دقائق ليستطيع تاديو العودة إلى ما كان فيه. أخبرني مرة أنّه يستطيع تصوّر المعركة مسبقاً ليرى منافسه ملقى على الأرض، نازفاً، يصرخ طلباً للرحمة.

شققتُ طريقي عبر متاهة الممرات في أعماق الصالة، واستطعتُ سماع الحشد وهو يهدر بهتافات يتردّد صداها، متعطشاً لرؤية الدم. وجدتُ الباب الصحيح ودخلت. المكان عبارة عن مكتب إداري صغير استولت عليه عصابة الشوارعية الصغيرة الخاصّة بـي. نجتمع هنا قبل المباراة ونضع رهاناتنا. نحن ستّة أفراد، والعضوية مغلقة لأننا لا نريد أيّ تسريبات. ويستعمل البعض منا أسماءهم الحقيقية، في حين يمتنع آخرون. يرتدي سلايد مثل قوّادي الشوارع، وكان قد قضى فترة في السجن بجريمة قتل. أمّا نينو فيعمل مستورداً متوسط المستوى لنوع من المخدّرات الدوائية، وقد أمضى أيضاً فترة في السجن بجريمة تهريب. جوني ليس له سجلّ إجرامي (حتى الآن) ويمتلك نصف المقاتل الذي سيواجهه تاديو الليلة. يوحي دينارد وبارتباط بالمافيا، لكنّني أشكّ في أن نشاطه الإجرامي منظّم بشكل جيّد جداً. وهو يتطلّع للترويج لمناسبات الفنون القتالية المختلطة ويطمح إلى العيش في فيغاس. أمّا فرانكي فهو الأكبر سنّاً، وهو حاجة محليّة في عالم المباريات القتالية منذ عقود. وهو يعترف أن العنف في قتال القفص قد أغواه، وأن الملاكمة القديمة أصبحت تضجره الآن.

إذاً، هؤلاء هم أصحابـي. وأنا لا أئتمن أيّاً من هؤلاء المهرّجين في صفقة عمل شرعية، لكنّنا لا نقوم بأيّ شيء شرعيّ هنا. سحبنا البطاقة وبدأنا بوضع الرهانات. أعرف أن تاديو سيقتل محارب جوني، ومن الواضح أن جوني قلق أيضاً بهذا الشأن. عرضتُ الرهان بخمسة آلاف دولار على تاديو، فلم يقبل أحد بالمراهنة. ثلاثة آلاف، ولا مراهنين. وبّختهم، ولعنتهم، وسخرتُ منهم، لكنّهم يعرفون أن تاديو سيفوز. يجب أن يراهن جوني بشيء ما، وقد جررته أخيراً إلى أن يراهن بأربعة آلاف دولار أنّ مقاتله لن يصمد إلى الجولة الثالثة. قرّر دينياردو المشاركة فراهن بأربعة آلاف أخرى. سردنا في البطاقة جميع شروط الرهان، وتولى فرانكي، الكاتب، تدوين ذلك كلّه. غادرتُ الغرفة بعد وضع اثني عشر ألف دولار على محكّ الرهان على أربع جولات قتالية مختلفة. سنجتمع في الغرفة نفسها لاحقاً بعد انتهاء المباراة وسيتمّ الدفع بهدوء، نقداً.

بدأ القتال وبدأتُ أتجوّل في الصالة قتلاً للوقت. كان التوتّر في غرفة الخزائن لا يُحتمل ولا أستطيع تحمّل التواجد هناك بينما تدقّ الساعة ببطء. أعرف أنّ تاديو ممدّد الآن على منضدة، ساكناً، ومغطّى بلحاف سميك، يتلو صلواته لمريم العذراء ويستمع إلى نوع من موسيقى الراب اللاتينية القذرة. لا يمكنني المساعدة بشيء، لذا وجدتُ بقعة في الصفوف العليا، أعلى من الحلبة، ثمّ بدأتُ بمشاهدة العرض. لقد بيعت بالفعل جميع التذاكر، وكان الجمهور يهدر عالياً بجنون غير مسبوق. يستثير قتال القفص غريزة وحشية في بعض الناس، بمن فيهم أنا، ونحن جميعاً موجودون هنا للسبب نفسه؛ وهو رؤية أحد المتقاتلين وهو يقضي على

الآخر. نريد رؤية العينين النازفتين، والجرح عبر الجبهة، والمسكات الخانقة، وإطباق الاستسلام الذي يطحن العظام، والضربات الوحشية القاضية التي تدفع مساعدي الزوايا إلى الجري باندفاع بحثاً عن الطبيب. أضف إلى ذلك كلّه فيض من الشراب الرخيص، وستجد حولك خمسة آلاف مجنون يستجدي رؤية الدم.

شققت طريقي في النهاية عائداً إلى غرفة الخزائن، إلى حيث دبّت الحياة في كلّ شيء من جديد. الجولتان الأوليان من القتال انتهتا بالضربات القاضية المبكّرة، لذا سوف تمضي الأمسية بسرعة. ارتدى كل من نوربيرتو، وأوسكار، وميغيل سترة صفراء برّاقة، مثل سترتي، فأصبح «فريق زابات» جاهزاً للمسير الطويل نحو القفص. سأكون في الزاوية، مع نوربيرتو وأوسكار، على الرغم من أن دوري ليس مهمّاً كدوريهما. ينبغي أن أتأكّد من حصول تاديو على الماء بينما يملي عليه نوربيرتو التعليمات باللغة الإسبانية الأسرع التي قد تسمعها على الإطلاق. أمّا أوسكار فيهتمّ بجروح الوجه، إذا وُجدت. ومنذ اللحظة التي نطأ فيها أرضية الطابق، يصبح كلّ شيء ضبابياً ومهتزاً. فعلى طول النفق، يتدافع أنصار تاديو السكارى ويصرخون باسمه. ويبعد رجال الشرطة الناس عن طريقنا، في حين يصمّ الزئير الآذان، وليس كلّه لتاديو. يريدون المزيد؛ يريدون معركة أخرى، ويستحسن أن تكون قتالاً حتى الموت.

خارج القفص، يدقّق أحد المسؤولين في قفازات تاديو، ثمّ يدهن وجهه بالزيت، ويعطيه الضوء الأخضر. يهتف مذيع باسمه عبر المذياع، ثمّ يثب رجلنا إلى القفص بسرواله القصير الأصفر وعباءته الصفراء

البراقة. يدعى منافسه الليلة «الثعلب»، أمّا اسمه الحقيقي فمجهول وغير مهمّ. وهو اختصاصي في الإمساك الذي يؤدي إلى الاستسلام؛ أبيض طويل من غير ضخامة، لكنّ مظهره خدّاع. رأيته وهو يقاتل ثلاث مرات، وهو ماكر ومحتال. يدافع بشكل جيّد ويحاول طرح الخصم أرضاً. وقد لفّ خصمه الأخير على شكل كعكة متداخلة فجعله يصرخ طالباً الرحمة. وفي هذه اللحظة، أنا أحتقر الثعلب، لكنّني في أعماقي أحترم الجحيم الذي ينبعث منه. إنّ كلّ من يستطيع الصعود إلى القفص يتميّز بعمود فقري أقوى بكثير من الإنسان العادي.

يدقّ الجرس معلناً بدء الجولة الأولى، وهي ثلاث دقائق من الغضب الضاري. يُهاجم تاديو ملاكماً في خطّ مستقيم نحو الأمام فيتقهقر الثعلب على الفور. كلاهما طَعن وصدّ خلال الدقيقة الأولى، ثمّ تلاحَما وانفصلا، لكن لم يحدث ضرر. وأنا، كغيري من المشجّعين الخمسة آلاف، كنتُ أصرخ بكلّ ما أوتيت من قوّة، مع العلم أنّني لا أعرف السبب. وفي هذه الحال، لا فائدة من أيّ نصيحة، كما أن تاديو لا يستمع على أية حال. يسقطان أرضاً بشدّة، ويُطبق عليه الثعلب بمسكة المقصّ. توقّفت الحركة لدقيقة طويلة، بينما كان تاديو يتلوّى، ويتشنّج، ونحن نحبس أنفاسنا. أفلتَ أخيراً وسدّد طعنة حادّة إلى أنف الثعلب. أخيراً، هنالك دم. ليس ثمّة شكّ في أن رجلي هو المقاتل الأفضل، لكنّ الأمر لا يحتاج سوى إلى خطأ واحد فقط ليلتفّ ذراعٌ مميت حول نقطة الضعف. بين الجولتين، أفرغ نوربيرتو سيلاً من الأوامر، لكن تاديو لم يكن يستمع. يعرف نوربيرتو عن القتال أكثر من أيّ منّا بكثير، وهو يستطيع إفهام الرجل ما

يريد. وعندما دقّ الجرس معلناً بدء الجولة الثانية، أمسكته من ذراعه وصرختُ في أذنه: «اقضِ عليه في هذه الجولة وستحصل على ألفي دولار إضافي». هذا فقط ما يسمعه تاديو.

خسر الثعلب الجولة الأولى، لذا، باشر الجولة الثانية بالضغط، مثل الكثير من المقاتلين. يريد الاشتباك فوراً لكي يتمكّن من لفّ ذراعيه النحيلين ليصبحا بمثابة مسكة الموت الحقيرة؛ لكن تاديو قرأه بشكل ممتاز. مضت ثلاثون ثانية، ثمّ نفّذ تاديو سلسلة حركات يسار، يمين، يسار، الكلاسيكية ووجّه ضربة عنيفة لخصمه عند المؤخرة مباشرة. ثمّ ارتكب تاديو خطأً شائعاً عندما حاول قذف نفسه كالأبله نحو الثعلب، تماماً مثل قائد طائرة حربية هجومية مهووس ومندفع للقتل. استطاع الثعلب الرفس بقدمه اليمنى، فكانت ضربة وحشية أصابت تاديو فوق المنشعب تماماً. ظلّ واقفاً على قدميه بينما واصل الثعلب محاولات الإجهاز عليه؛ ثمّ سكن المتقاتلان لثانية أو اثنتين. أخيراً، انفصلا وبدأا بالدوران. عثر تاديو على إيقاعه في الملاكمة ثمّ بدأ بإمطار الثعلب بطعنات لم تجد ردّاً عليها. فتح جرحاً فوق عينه اليمنى، ثمّ وسّعه بوابل متتابع من اللكمات. وللثعلب عادته السيئة في توجيه خطّاف أيسر خدّاع، مباشرة قبل أن يراوغ ثمّ يأتي من مستوى منخفض عند الركبتين، وقد حاول ذلك كثيراً في هذه المباراة. أدرك تاديو الحيلة، ثمّ وقّت خدعته الأجود بشكل مثالي ونفّذها، وهي مرفق أعمى مع الدوران؛ وتلك حركة فيها الكثير من المغامرة لأن ظهره يصبح مكشوفاً للحظة أمام منافسه. لكن الثعلب كان بطيئاً جداً، وكان مرفق تاديو الأيمن قد سحق

فكّه الأيمن. قضي الأمر. ترنّح الثعلب قبل أن يهبط على أرضية الحلبة. وتسمح القواعد لتاديو بالانقضاض عليه وتوجيه بضع ضربات على الوجه، والقضاء عليه تماماً. لكن، لماذا يزعج نفسه؟ وقف تاديو في منتصف الحلبة فقط، رافعاً يديه، محدّقاً إلى الأسفل، ومعجباً بما فعل، في حين استلقى الثعلب ساكناً كجثّة. ثمّ أوقف الحكم كلّ شيء بسرعة.

بشيء من العصبية، ترقبنا منتظرين بضع لحظات وهم يحاولون إنعاشه. لكن الحشد أراد رؤية نقّالة إسعاف، أو مصاباً، شيئاً للتحدّث عنه في العمل؛ لكن الثعلب عاد في النهاية إلى الحياة وبدأ يتحدث. اعتدل جالساً، فشعرنا بالراحة، أو حاولنا ذلك. وليس من السهل التزام الهدوء إثر مثل هذا الحدث العنيف، خصوصاً حين يكون لديك شيء مهدّد بالضياع، وعندما يقف خمسة آلاف مجنون على أقدامهم هادرين.

وقف الثعلب على قدميه فهدر صوت امتعاض الحشد المجنون... بوووو.

مشى تاديو نحوه، ثمّ قال له شيئاً لطيفاً، وتصافحا.

خلال مغادرتنا للقفص، لحقتُ بتاديو وابتسمت له ونحن نصفع أيدي أنصاره ونمتصّ فوزاً آخر. لقد نفّذ حركتين بالرأس كانتا ستتسبّبان بمقتله أمام منافس محترف؛ لكنّ المباراة في مجملها كانت معركة واعدة أخرى. استمتعتُ بلحظة الفوز تلك وتذوّقتها، ثمّ فكّرت بشأن المستقبل والمداخيل المحتملة، وربّما بعض الضمانات. وهذا هو المقاتل الرابع الذي استثمرت فيه، وهو الأول الذي عاد عليّ ببعض الفائدة.

قبل أن نغادر الطابق وندخل النفق مباشرة، سمعتُ صوتاً نسائياً يصرخ: «سيّد رودّ! سيّد رودّ!».

تطلّب الأمر ثانية من الزمن أو اثنتين لكي أستوعب ذلك؛ فمن المفترض أن لا يعرفني أحد في هذا الحشد. فأنا أرتدي لباس «فريق زابات» الرسمي المؤلّف من قبّعة من نمط قبّعات سائقي الشاحنات، وسترة صفراء قبيحة، ونظارات مختلفة، كما أن شعري الطويل مخفي. لكن، في الوقت الذي توقّفتُ فيه لأنظر، مدّت يدها لي. امرأة ممتلئة الجسم في الخامسة والعشرين ذات شعر أرجواني، زيّنت وجهها ببعض حبيبات الزينة المعدنية، من الطراز المثالي تقريباً في جمهور قتال القفص. ألقيتُ عليها نظرة فضولية وهي تعيد القول: «سيّد رودّ. ألستَ أنت السيّد رودّ، المحامي؟».

أومأتُ برأسي. فاقتربتْ خطوة أخرى قائلة: «أمّي في هيئة المحلّفين».

«أيّ هيئة المحلّفين؟» سألتها وقد اضطربتُ فجأة. ثمة هيئة محلفين واحدة فقط في الوقت الحاضر.

«نحن من ميلو. محاكمة غاردي بيكر. أمّي في هيئة المحلّفين».

أشرتُ برأسي إلى اليسار، كما لو أنّني أقول: «من ذلك الطريق». بعد ثوانٍ غادرنا الطابق وسرنا جنباً إلى جنب عبر ممرّ ضيّق. «ما اسمها؟»؛ سألتُ، في حين كنت أراقب كلّ شخص مارّ بقربنا.

«غلينّا روزتون، المحلّف رقم ثمانية».

«حسناً». أعرف أسماء جميع المحلّفين، وأعمارهم، وجنس كلّ منهم، ووظيفته، ومستوى تعليمه، وعائلته، ومكان سكنه، وتاريخ زواجه، وخدمته السابقة في أيّ هيئة محلفين، وسجلّه الجنائي، إن وُجد. لقد ساعدتُ في اختيارهم. بعضهم أردته، ولم أوافق على معظمهم. جلستُ معهم في قاعة محكمة مكتظة لخمسة أيام أسبوعياً خلال الأسبوعين الماضيين، تعبتُ منهم بالفعل. وأعتقد أنّني أعرف سياسة كلّ واحد منهم، وديانته، وميوله، ومشاعره حول العدالة الجنائية. ولأنّني أعرف الكثير جداً، فقد اقتنعتُ منذ لحظة جلوسهم أن المسكين غاردي بيكر متّجه إلى حكم الإعدام.

«ماذا تعتقد غلينّا هذه الأيام؟»، سألتها بحذر. أعلم أنها قد تخفي في ملابسها جهاز تسجيل. لن يفاجئني ذلك.

«تعتقد أنّهم جميعاً مجموعة كذابين». كنا لا نزال نسير ببطء وعلى غير هدى، وكلّ منّا خائف من التحديق إلى عيني الآخر. أذهلني أن أسمع ما قالت. فإلى جانب قراءتي للغة جسدها ومعرفتي بخلفيتها، أراهن بكلّ ما أملك أنّ غلينّا روزتون ستكون أول من يصرخ: «مذنب!»

نظرتُ خلفنا لأتأكّد من عدم وجود شاهد، ثمّ قلت: «حسناً، هي امرأة ذكية لأنها تعلم أنهم يكذبون. ليس لديهم دليل».

«هل تريدني أن أخبرها بذلك؟»

«لا أبالي بالذي ستقولينه لها»، قلت ذلك وأنا أنظر حولنا حيث توقّفنا بانتظار مرور أحد أبطال الوزن الثقيل مع حاشيته. راهنتُ على

هذا الرجل بمبلغ ألفي دولار. ربحتُ ستّة آلاف أيضاً الليلة، لذا فأنا في مزاج جيّد جداً. ولكي يكتمل السرور، ها أنا أسمع الأخبار المفاجئة التي تقول أن ليس كلّ محلّفي محاكمة غاردي بيكر عديمي التفكير.

سألتها: «هل هي وحيدة في ذلك، أم أن لديها رفاق؟».

«تقول أنّهم لا يناقشون القضية».

أردتُ أن أضحك ساخراً مما قالت. فلو لم تكن تناقش القضية، فكيف إذاً تعرف هذه الصبية الفاتنة رأي أمّها في القضية؟ في هذه اللحظة بالضبط، انتهكتُ القواعد الأخلاقية، وربّما القانون الجنائي أيضاً. هذا اتّصال غير مسموح مع محلّف، على الرغم من أنه غير واضح جداً، ولم أسعَ إليه بنفسي، فليس ثمّة شكّ في أنّه سيُفسّر بشكل سيئ من قبل نقابة المحامين في الولاية. كما أن القاضي كوفمان سيطير صوابه ويستشيط غضباً.

«قولي لها تمسّكي برأيك لأنهم أمسكوا بالرجل الخطأ»، قلتُ لها ذلك، وانصرفت. لا أعرف ما تريد، ولا شيء لدي يمكن أن أعطيه لها. أعتقد أنّني أستطيع أن أشرح لها خلال عشر دقائق النقائص الساطعة في دليل الادّعاء، لكن ذلك يتطلّب منها أن تستوعبه كلّه بشكل صحيح، وبعد ذلك تقدّم إلى أمّها تقريراً دقيقاً. كانت تلك فرصة ثمينة. لقد أتت هذه الصبيّة إلى هنا للقتال.

سلكتُ السلّم الأقرب نحو الطابق الأسفل، وحالما أصبحتُ بعيداً عنها وفي مأمن منها، دلفتُ إلى غرفة استراحة واسترجعتُ ما قالته. ما

زلتُ لا أستطيع تصديقه. فهيئة المحلّفين تلك، ومعها بقيّة سكان البلدة، أدانوا موكّلي منذ اليوم الأول لاعتقاله. كما أن أمّها، غلينّا روزتون، تعتبر نموذجاً معبّراً عن مواطني ميلو؛ عديمة الثقافة، وضيّقة الأفق، ومصمّمة على أن تصبح بطلة ضمن مجتمعها في وقت حاجته إلى ذلك. صباح الاثنين سيكون مثيراً. ففي مرحلة معيّنة، بعد أن نستأنف تقديم الشهود، ستتاح لي الفرصة لإلقاء نظرة على موضع جلوس هيئة المحلّفين. خلال المرحلة التي انقضت، لم تخش غلينّا من مبادلتي النظرات. عيناها ستكشفان شيئاً ما، مع العلم أنّني لست متأكّداً من حقيقته.

نفضتُ الأفكار من رأسي وعدتُ إلى الواقع. دامت معركة الوزن الثقيل مدّة أربعين ثانية كاملة ولا يزال بطلي المفضّل صامداً. لا أستطيع الانتظار للاجتماع مجدّداً بعصابتي الصغيرة. وقد اجتمعنا في الغرفة المعتمة نفسها، بعد إقفال الباب، ثمّ تطايرت الكلمات البذيئة والمليئة بالتحدّي والإهانات الجارحة. ثمّ سحبنا نحن الستّة النقود من جيوبنا. وقد احتفظ فرانكي بالملاحظات وحافظ عليها. ولقد كسبتُ في هذه الأمسية ثمانية آلاف دولار من رهاني، مع الإشارة إلى أن ألفين منها ستذهب إلى تاديو بسبب العلاوة التي ارتجلتها له. سأستعيدها مقتطعة من مبلغ مساهمته في النفقات. سيُقيّد هذا المبلغ في الدفاتر مدفوعاً لأغراض آي آر إس؛ لكنه لن يذهب سوى إلى جيبـي.

كسب تاديو ثمانية آلاف دولار نظير جهوده، وهي ليلة عظيمة ستُمكّنه من إضافة عضو جديد من العصابة إلى حاشيته. وسيدفع بعض

الفواتير، وسيُبقي العائلة عائمة، ولن يحتفظ بشيء. حاولتُ عرض نصيحة مالية، لكنّها كانت مضيعة للوقت.

توقّفتُ عند غرفة الخزائن، وناولته ألفي دولار، وقلت له أحبّك، ثمّ غادرتُ الصالة. توجّهنا بعد ذلك أنا والرفيق إلى حانة هادئة وتناولنا بعض المشروبات. احتجتُ إلى جولتين من الشراب حتى تخلّصت من التوتّر. فحين تكون قريباً جداً من الحدث، ويكون لديك مقاتلك الخاص في الحلبة، وهو على بُعد ثانيتين من احتمال الإصابة بارتجاج في المخ أو بكسر في العظم، وخمسة آلاف أبله يصرخون في أذنيك، فسوف تتسارع عندئذٍ دقّات قلبك وتضرب بعنف، في حين تتلوّى معدتك وترتجف أعصابك. حدث لي فيضان من الأدرينالين إلى درجة لم يسبق لي أن شعرت بمثلها.

8.

جاك بيلي هو الخليل السابق لوالدة الطفلتين من آل فينتريس. أمّا أبوهما فكان قد هجر عائلته قبل وقت طويل من مقتلهما؛ وقد أصبحت شقّة أمّهما ملجأ مفتوحاً للقطط الشاردة وللسفلة وشذاذ الآفاق. دامت علاقتها مع بيلي حوالى سنة، ثمّ طردته حين تعرّفت إلى تاجر جرّارات مستعملة لديه القليل من المال وبيت متحرّك من دون عجلات. دخلتْ الأم في علاقة جديدة، وخرج بيلي كسير القلب. كان هو الشخص الأخير الذي شوهد قريباً من الفتاتين حين اختفتا. وفي مرحلة مبكرة من مراحل القضية، سألتُ الشرطة لماذا لم يتعاملوا معه كمشتبه به، أو أن يتحرّوا عنه على الأقل، فكان ردّهم الأعوج أنهم أمسكوا بالمطلوب وانتهى الأمر. كان غاردي محتجزاً وكانت اعترافاته تتوزّع يمنة ويسرة.

لديّ اعتقاد قويّ أن جاك قتل الفتاتين كنوع من ردّ الفعل المرضي وعلى سبيل الانتقام. ولو أن رجال الشرطة لم يتعثروا بغاردي، فربّما كانوا سيستجوبون بيلي في نهاية المطاف. لكنّ غاردي، بمظهره المخيف، وميوله

الشيطانية، وتاريخ فساده، أصبح المتّهم المفضّل والواضح، ولم تنظر ميلو إلى الوراء أبداً.

وطبقاً للأسقف، وبحسب مصادره التي لا يمكن التحقّق منها، يتردّد بيلي مساء كلّ يوم سبت تقريباً على مكان رخيص يدعى «أزرق وأبيض». وهو يبعد حوالى ميل شرق ميلو، وقد كان في الأصل استراحة للشاحنات. أمّا الآن فقد أصبح حانة رديئة تُقدّم فيها الأشربة الرخيصة، وفيها مناضد بلياردو، وتُعزف فيها موسيقى حيّة في عطل نهاية الأسبوع.

ليلة السبت، وفي حوالى الساعة العاشرة، وصلنا إلى موقف السيارة المفروشة أرضه بالحصى، وكان المكان مكتظاً تماماً بالشاحنات. كنا نستقل أيضاً شاحنة، وهي شاحنة صغيرة مستأجرة من طراز دودج رام باور، رباعية الدفع، بمقعدين مزدوجين وعجلات كبيرة، وربما كان الحضور بها لزيارة هذا الجحر أمراً غير محمود، لكنّ ملكيتها تعود إلى شركة التأجير هيرتز، وليست لي. وخلف عجلة القيادة، كان الرفيق يمثّل دور الريفي الجنوبي، لكنّ تمثيله كان مثيراً للشفقة. وكان قد تخلّص من لباسه الأسود اليومي وارتدى بنطال جينز وفانيلة رعاة بقر، لكنّ كلّ ذلك لم ينجح.

«هيّا بنا»، قلتُ له من المقعد الأمامي المجاور للسائق. ثمّ قفز تاديو وميغيل من المقعد الخلفي وسارا ليدخلا من الباب الأمامي. وفي الداخل اعترضهما حارس طلب من كلّ منهما عشر دولارات رسم دخول. لكنّه تفحصهما بدقّة، ثمّ لم يسمح لهما بالدخول. فهما، في نهاية الأمر، أسمران من أصول لاتينية. لكنّهما على الأقل ليسا أسودين. وطبقا

للأسقف، تستطيع حانة «أزرق وأبيض» تحمّل بضعة مكسيكيين، لكن وجهاً أسود واحداً سيثير شغباً. بعدئذٍ، سُمح لهما بالدخول، فليس فيهما أيّ شيء مثير للقلق. فمثل هذه الحانة البائسة لا قيمة لها في نظر أيّ رجل أسود عاقل.

لكن الشغب سيحدث على أية حال. طلب تاديو وميغيل شراباً في تلك الحانة المزدحمة، وحاولا جهدهما للتماهي مع الجوّ. حدّق الحاضرون بهما، لكن لم يحدث أي سوء. ذلك أن هؤلاء المتخلّفين، السكارى والبدناء، أدركوا أن باستطاعة تاديو القضاء على خمسة منهم بيديه العاريتين في أقل من دقيقة. أمّا ميغيل، أخوه ورفيقه في العراك والتدريب، فقد يقضي على أربعة منهم. وبعد خمس عشرة دقيقة من التفرّس في الحاضرين وتفحّص المكان، أشار تاديو لعامل الحانة وقال له بإنجليزية غير مشدّدة: «أريد استيفاء بعض المال من رجل يدعى جاك بيلي، لكنّني لست متأكّداً من التعرّف إليه».

أومأ عامل الحانة، الشديد الانشغال، إلى صفّ الأكشاك قرب منضدة البلياردو وقال: «الكشك الثالث، الرجل ذو القبّعة السوداء».

«شكراً».

«لا مشكلة».

طلبا شراباً مرة أخرى وقتلا مزيداً من الوقت. في كشك بيلي كان هناك امرأتان ورجل آخر. وكانت المنضدة مغطّاة بزجاجات الشراب الفارغة، وكان الأربعة يقضمون الفستق المحمّص. ومن المتعارف عليه في

بيئة «أزرق وأبيض» أن ترمي قذائفك الفارغة على الأرضية. في الطرف البعيد من الحانة كان ثمة فرقة موسيقية تعزف، ومجموعة من الحاضرين تتّجه نحو ذلك المكان للرقص. ومن الواضح أن بيلي ليس راقصاً. وفي هذه الأثناء، أرسل لي تاديو النصّ التالي: «عُرف جي بـي. ننتظر».

قتلا مزيداً من الوقت. أمّا أنا والرفيق فقد جلسنا نراقب وننتظر، وكانت أعصابنا تحترق. من يستطيع توقّع نتيجة شجار في غرفة مليئة بالبلهاء السكارى، الذي يحمل نصفهم بطاقات عضوية في الرابطة الوطنية الأميركية لحملة البنادق؟

توجّه بيلي ورفيقه إلى أحد مناضد البلياردو واستعدّا للعب. أمّا رفيقتيهما فقد بقيتا في الكشك، تأكلان الفستق، وترتشفان الشراب. «لنذهب»، قال تاديو وغادر موضعه أمام البار. سار بين مناضد البلياردو، ثمّ وقّت الأمر بشكل مثالي ليصدم بيلي بشدّة، الذي ترك ما كان منشغلاً فيه ثمّ رفع عصا البلياردو. «بحقّ الجحيم، ما هذا!»، صرخ بيلي بغضب، محمرّ الوجه ومستعداً لرفس مؤخرة ذلك المهاجر المكسيكي. وقبل أن يتمكّن من التلويح بعصا البلياردو، وجّه له تاديو ثلاث لكمات سريعة لم يستطيع أحد تقريباً رؤيتها. يسرى، ثمّ يمنى، ثمّ يسرى، وقعت جميعها على حاجبه، حيث يمكن أن ينفتح جرح بسهولة ويسيل منه الدم. وقع بيلي بشدّة ومرّت فترة قبل أن يستيقظ. صرخت المرأتان وحدث الهرج المعتاد وارتفاع الأصوات أثناء تطوّر الشجار. أمّا صديق بيلي فقد كان ردّه بطيئاً، لكنه تمكّن أخيراً من سحب عصاه وفي نيّته أن يقتلع بها رأس

تاديو. لكن ميغيل تدخّل وأنزل قبضة حادّة عند قاعدة جمجمته. انضمّ صديق بيلي إليه متمدّداً على الأرضية. ثمّ قصف تاديو وجه بيلي ببضع لكمات أخرى على سبيل حسن التصرّف، وانخفض بعدها بجسده إلى الأسفل واندفع إلى مراحيض الرجال، متفادياً بذلك زجاجات الشراب الفارغة التي أخذت تتطاير فوق رأسه. تبعه ميغيل، وتعالت خلفهما صيحات الغضب. أقفلا الباب، ثمّ استطاعا الفرار من خلال إحدى النوافذ. عادا بعد ثوانٍ من ذلك إلى الشاحنة الصغيرة، ثمّ انطلقنا مبتعدين عن المكان.

«حصلتُ عليه»، قال تاديو بلهفة من المقعد الخلفي، مادّاً يمناه التي كانت بالفعل مغطّاة بالدم. دم بيلي. توقّفنا في مطعم لشطائر البيرغر، حيث عملت بمنتهى العناية على تنظيف يده من ذلك الدم والاحتفاظ به.

حلّ منتصف الليل قبل أن نسلك طريقنا عائدين إلى المدينة.

.9

الوحش الذي قتل الفتاتين فينتريس ربط رسغي وكاحلي كلّ منهما برباط حذائها، ثمّ رماهما في بركة. وأثناء تشريح جثّة جينا، عُثر على خصلة من شعر أسود طويل مشتبكة مع الرباط حول كاحليها. وكلاهما، هي وشقيقتها رالي، ذوات شعر أشقر فاتح. وفي ذلك الوقت، كان شعر غاردي طويلاً أسود، بالرغم من أن لونه ما فتئ يتغيّر شهرياً؛ وليس مستغرباً، بالتالي، أن يشهد خبير تحليل الشعر الذي استعانت به الولاية بوجود «تطابق». ومنذ أكثر من قرن، عرف الخبراء الحقيقيون أنّ تحليل الشعر أمر لا يُعتدّ به. لكنّ هذا التحليل لا يزال معتمداً من قبل السلطات، وحتى من قبل مكتب التحقيقات الفدرالي، عندما لا يتوفّر لديهم دليل أفضل، وحين تكون الحاجة ملحّة إلى إدانة المشتبه به.

استجديتُ القاضي كوفمان لطلب اختبار الحمض النووي لعيّنة من شعر غاردي الحالي، لكنّه رفض. قال أن كلفة التحليل مرتفعة جداً. مع العلم أننا نتحدّث عن حياة إنسان.

وحين سُمح لي أخيراً بالاطلاع على دليل الادّعاء، والذي لم يكن شيئاً يذكر في واقع الأمر، استطعتُ سرقة حوالى ثلاثة أرباع البوصة من ذلك الشعر الأسود. ولم يلاحظ أحد ما فعلت.

وفي وقت مبكّر من صباح يوم الاثنين، أرسلتُ بالبريد عيّنة الشعر وعيّنة دم جاك بيلي إلى مختبر تحليل الحمض النووي في كاليفورنيا. سيكلّفني التحليل مبلغ ستّة آلاف دولار، لمجرّد الحصول على نتيجة سريعة. أراهن بكل ما أملك أنّني سأعثر على القاتل الحقيقي.

10.

أسرعنا أنا والرفيق نحو ميلو من أجل أسبوع صعب آخر من الأكاذيب. كنتُ متلهّفاً لإلقاء النظرة الأولى على غلينّا روزتون، المحلّف رقم ثمانية، لأرى ما إذا كان هناك أيّ إشارات واضحة حول ذلك التواصل الخفيّ الذي حدث بيننا. مع العلم أن الأمور لا تسير دائماً وفق الخطّة الموضوعة.

كانت قاعة المحكمة مكتظة مرة أخرى، وقد أدهشني الحشد. ففي اليوم الحادي عشر من أيام المحاكمة على التوالي، جلستْ جولي فينتريس، والدة التوأمين المغدورتين، على المقعد الأمامي، خلف منضدة المدّعي مباشرة. كانت هي والمجموعة الداعمة لها يرمقونني كما لو أنّني قتلت الطفلتين بنفسي.

وعندما وصل تروتس أخيراً وفتح حقيبته، ثمّ قام ببعض الحركات اللازمة للتظاهر بأن له بعض الأهمية، انحنيتُ نحوه وقلتُ له: «راقب

المحلّف رقم ثمانية، غلينّا روزتون، لكن احذر أن تُضبط». سيُضبط تروتس متلبساً لأنه أبله. كان يجب أن يكون قادراً على التلصّص سريعاً على المحلّفين وقياس ردود أفعالهم، وقراءة لغة أجسادهم، ورؤية ما إذا كانوا مستيقظين، أو مهتمّين، أو أنهم يتبوّلون - ينبغي أن تستعين بكلّ ما تعلّمت أن تفعله خلال المحاكمة حين تكون متلهفاً لمعرفة آراء هيئة المحلّفين - لكن تروتس تخرّج قبل أسابيع فقط.

كان غاردي في مزاج جيّد ومعنوياته عالية نسبياً. وقد أخبرني أنه يستمتع بالمحاكمة لأنها تبعده عن زنزانته. يبقونه معزولاً في حبس انفرادي، مع إطفاء الأنوار في الغالب، لأنّهم متأكّدون من قتله للتوأم فينتريس، وينبغي أن يبدأ العقاب القاسي منذ الآن. تحسّن مزاجي أنا أيضاً لأن غاردي استحمّ خلال عطلة نهاية الأسبوع.

قتلنا بعض الوقت بانتظار القاضي كوفمان. كانت الساعة التاسعة والربع ولم يكن هوفير، المدّعي العامّ، قد جلس إلى منضدته. أمّا عصابته المساعدة من شبيبة هتلر فهم متجهّمون أكثر من المعتاد. ثمة أمر ما يحدث. ظهر حاجب وهمس لي: «القاضي كوفمان يريد رؤيتك في مكتبه». وهذا أمر يحدث كلّ يوم تقريباً، ظاهرياً. توجّهنا إلى مكتب القاضي لنتشاجر حول أمر لا نريد للجمهور معرفته. لكن ما الذي يمكن أن يزعجني؟ فبعد أسبوعين من بدء المحاكمة، أصبحتُ على قناعة أن هوفير إذا أراد للحضور أن يروا أو يسمعوا شيئاً، فسيحدث ذلك.

سرتُ بقدميّ إلى كمين. كانت كاتبة المحكمة موجودة، ومستعدّة لالتقاط الشاردة والواردة. كان القاضي كوفمان يتمشى في الغرفة،

بقميصه وربطة عنقه، وعباءته ومعطفه معلّقان على الباب. أمّا هوفير فكان واقفاً، متعجرفاً ومتجهّم الوجه، إلى جانب النافذة. أغلق الحاجب الباب خلفي ثمّ رمى كوفمان بعض الصحف على المنضدة. «اقرأ هذا!»؛ هدر قائلاً.

«صباح الخير، سعادة القاضي»، قلتُ، متظاهراً بالقدر الممكن من الذكاء، ثمّ أضفتُ: «سيّد هوفير».

لم يردّا التحية. كان الموضوع عبارة عن شهادة من صفحتين تزعم فيها الشاهدة التي أقسمت اليمين، أو الكذّابة في هذه المسألة، أنّها التقت بـي صدفة ليلة الجمعة السابقة خلال مباراة في الفنون القتالية المختلطة في المدينة، وأنّني ناقشت معها القضية موضوع المحاكمة، وطلبتُ منها القول لأمّها، المحلّفة، أن الادّعاء العامّ ليس لديه دليل، وأن جميع شهوده كانوا يكذبون. وُقّعت الشهادة باسم مارلو ويلفانج أمام الكاتب العدل العمومي.

«هل في ذلك شيء من الحقيقة، سيّد رودّ؟»، هدر كوفمان، وقد كان يغلي غضباً بالفعل.

«أوه، قليلاً، أفترض».

«هل تريد سرد وجهة نظرك في هذه القصّة؟»، سأل؛ وكان من الواضح أنّه ليس مستعدّاً لتصديق كلمة مما سأقول. غمغم هوفير بصوت خفيض، لكنّه يكفي ليكون مسموعاً: «إنها حالة واضحة من حالات العبث مع المحلّفين».

قلتُ محتدّاً: «هل تريد أن تسمع رأيي أولاً، أم تريد توتيري بالقفز فوق كلّ الحقائق، كما تفعل مع غاردي؟»

«هذا يكفي. أغلقه، سيّد هوفير»، قال القاضي كوفمان.

سردتُ روايتي لما حدث، بدقّة تامّة، من دون زيادة أو نقصان. وقد أوضحتُ رأيي في أنّني لم أسعَ أبداً لمقابلة هذه المرأة، وكيف لي أن أعرفها من بين كلّ النساء؟ بل هي من سعت ورائي عامدة متعمّدة؛ هي التي شرعت في الاتّصال، ثمّ لم تستطع الانتظار للعودة سريعاً إلى بلدتها ميلو لكي تحاول إدراج نفسها في مجريات هذه المحاكمة.

وفي أغلب الأحيان، يحتاج الأمر إلى سكّان قرية بأكملها لإدانة قاتل بشكل صحيح.

ثمّ صرختُ قائلاً: «تقول هنا أنني بدأتُ الاتّصال بها؟ كيف؟ أنا لا أعرف هذه المرأة. بل هي من يعرفني لأنها كانت موجودة هنا في قاعة المحكمة، تراقب المحاكمة. يمكنها التعرف إلي. أمّا أنا فكيف سأعرفها؟ هل يوضح ما قلتُ المسألة؟»

كلا، بالطبع، ذلك أن هوفير وكوفمان لن يتزحزحا.

فهما مقتنعين أنّهما أطاحا بـي. كراهيتهما لي ولموكّلي شديدة جداً إلى درجة أنّهما لا يستطيعان رؤية ما هو واضح كالشمس.

ثمّ أضفتُ على سبيل التأكيد: «إنّها تكذب، أليس كذلك؟ خطّطتْ لكلّ هذا عامدة متعمّدة. اعترضتْ سبيلي، ثمّ أجرت تلك المحادثة، وبعد

ذلك أعدّت هذه الشهادة، وربّما أدلت بها في مكتبك، هوفير، وهي كاذبة. وهذا الفعل يعتبر حنثاً بالقَسم واستهانة بالقضاء. افعل شيئاً، أيّها القاضي».

«لستُ بحاجة إليك لإخباري بما ينبغي فعله».

«أوه، هيّا. انهض بدلاً من الجلوس على مؤخرتك وافعل شيئاً على سبيل التغيير».

«اسمع، سيّد رودّ»، قال محمرّ الوجه ومستعدّاً لمهاجمتي. أمّا أنا فقد أردتُ حينذاك إفساد المحاكمة. أردتُ استفزازهما ليقوما بعمل غبـي جداً.

قلتُ بصوتٍ عالٍ: «أريد جلسة استماع. دعوا هيئة المحلّفين خارج الموضوع، ثمّ استدعوا هذه الشابّة اللطيفة إلى منصّة الشهود، ودعوني استجوبها. هي تريد التدخّل في هذه المحاكمة، اجلبوها إذاً. ومن الواضح أن أمّها منحازة وغير مستقرة، وأنا أريد استبعادها من هيئة المحلّفين».

«ماذا قلت لها؟»، سأل كوفمان.

«كما أخبرتك منذ قليل، حرفياً. قلتُ لها بالضبط ما سأقوله لأيّ شخص آخر على وجه هذه الأرض؛ قضيّتكَ ليست مبنية سوى على أكاذيب مجموعة من شهود الزور، وليس لديك برهان موثوق. نقطة».

«لقد فقدتَ صوابك»، قال هوفير.

«أريد جلسة استماع»، صرختُ محتدّاً. «أريد استبعاد تلك المرأة من هيئة المحلّفين، ولن أستمرّ بالمحاكمة حتى تغادر».

«هل تهدّدني؟»، سأل كوفمان حين بدأت الأمور تدور وتخرج سريعاً عن السيطرة.

«لا يا سيدي. أنا أؤكّد لك. لن أستمرّ».

«إذاً، سأتّهمك بازدراء المحكمة، وسأرميك في السجن».

«سبق وأن كنتُ هناك. افعل ذلك، وستكون هذه المحاكمة باطلة. وقد نعود في غضون ستّة أشهر لنبدأ هذه الحفلة من جديد، من البداية».

ليسا متأكدين تماماً من أنّني كنت في السجن، لكنّهما أدركا في تلك اللحظة أنّني لا أكذب. فمحامٍ هامشيّ مثلي لا بدّ له من العبث باستمرار بالضوابط والحدود الأخلاقية. لذا، فإن قضاء فترة في السجن سيكون لمثلي بمثابة وسام شرف. وإذا اضطررتُ لإغضاب قاضٍ، أو إذلاله، فليكن ما يكون.

صمتنا لبضع دقائق. حدّقتْ كاتبة المحكمة إلى الأرض عند قدميها، ولو أنّها أُعطيت الفرصة لانطلقت هاربة من الغرفة، صادمة ما قد يعترض طريقها من الكراسي. عند هذه النقطة، خشي هوفير من انعكاس الأمر عليه؛ خاف من رفض اتّهامه العظيم من قبل محكمة الاستئناف التي ستعيد المحاكمة من جديد. وهو لا يريد أن يعيش هذه المحنة مجدداً. بل يريد أن يحيا تلك اللحظة المجيدة في المستقبل عندما يقود

سيارته، وربّما كانت إلى جانبه تلك كاتبة المحكمة عينها، إلى سجن يدعى بيغ ويلر، حيث توجد غرفة الإعدام التابعة للولاية. سيُعامل حينئذٍ كملك لأنه سيكون الرجل المهمّ؛ حامل السلاح الذي حلّ لغز الجريمة القبيحة وضمِن استصدار قرار الإدانة الذي أرسل غاردي بيكر إلى الإعدام، وأتاح بالتالي لبلدة ميلو الوصول إلى الخاتمة التي تريدها. سوف يُخصّص له مقعد في الصف الأمامي وراء الستارة التي ستُسحب جانباً بشكل مثير لتكشف عن غاردي ممدّداً على محفّة ذات عجلات والأنابيب موصولة إلى ذراعيه. بعدئذٍ، سيقف هوفير أمام الصحافة ليتحدّث وهو متجهّم الوجه حول الأعباء التي ألقيت على عاتقيه بسبب هذه القضية. وهو الذي لم يسبق له أن شهد حالة إعدام من قبل، سيكون احتفاؤه بحالة الموت المرتقبة أسوأ من حالة عذراء في الثلاثين من عمرها. قضيّة «الولاية ضدّ غاردي بيكر» هي أسعد أوقات دان هوفير. سيبني مجده المهني على أساسها. وسوف يلقي الخطب في المؤتمرات التي يعقدها المدّعون العامّون المهمّون جداً، والتي تنعقد غالباً في الكازينوهات الرخيصة. وسيعاد انتخابه.

أما الآن، فهو يتعرّق لأنّه بالغ كثيراً وذهب بعيداً.

كانا مقتنعين أنّهما تمكّنا مني. وذلك غباء صرف منهما. فمحاولة النيل مني بتهمة زائفة حول الاتّصال غير المشروع بالمحلّفين لن يفيد قضيتهما بشيء في هذه المرحلة. ذلك إسراف ومبالغة، وهو أمر ليس غريباً. ففي اعتقادهما أن غاردي أُدين تقريباً وحكم عليه بالموت، ولمزيد من المتعة، لا بأس في أن يقضما قطعة مني.

«أشمّ رائحة اتّصال غير مشروع، أيها القاضي»، قال هوفير محاولاً أن يكون مؤثّراً.

«ربّما كان كذلك»، قلت.

«دعنا نتعامل معه لاحقاً»، قال كوفمان، ثمّ أضاف: «هيئة المحلّفين تنتظر».

قلتُ: «أحسب أنّكما أصمّين. لن أتزحزح حتى أحصل على جلسة استماع. وأصرّ على تدوين هذا الطلب في السجلّ».

نظر كوفمان إلى هوفير وبدا كما أنّهما أصيبا بالاختناق. فهما يعرفان أنّني مجنون بما يكفي لإعلان الإضراب، ورفض المشاركة في المحاكمة، وعندما يحدث ذلك سوف يواجهان بُطلان المحاكمة. حدّق القاضي إليّ، ثمّ قال: «أنا أتّهمك بازدراء المحكمة».

«ضعني في السجن»، قلتُ، مستهزئاً وساخراً. التقطت كاتبة المحكمة كلّ كلمة قيلت، وخصوصاً «ضعني في السجن».

لكنّه لا يستطيع أن يفعل ذلك الآن. فهو يجب أن يتّخذ قراراً، وأيّ قرار خاطئ يمكن أن يعرّض كلّ شيء للخطر. فإذا دخلتُ السجن لهذا السبب، فسوف تتمّ الإطاحة بالمحاكمة بأكملها، ولن تكون هناك طريقة ممكنة للسير بها قدماً. وفي مكان ما من الطريق، ثمة محكمة استئناف، وهي على الأغلب محكمة اتّحادية، ستراجع جميع حركات كوفمان وأفعاله، وسوف تعثر على خطأ فادح. يجب أن يحصل غاردي حينها على

محامٍ، محامٍ حقيقي، وهم لا يستطيعون بكلّ بساطة إبقائي في السجن. لقد قدّما لي هديّة.

مرّت بضع ثوان هدأت بعدها الأجواء. قلتُ بلهجة تصالحية، بل لطيفة تقريباً: «انظر أيها القاضي، أنت لا تستطيع حرماني من الحصول على جلسة الاستماع هذه. فإذا فعلتَ ذلك فستزودني ببعض الذخيرة الثقيلة من أجل الاستئناف».

«أيّ نوع من الجلسات تريد؟»، قال متصدّعاً.

«أريد هذه المرأة، المدعوة مارلو ويلفانج، على منصّة الشهود في جلسة مغلقة. أنتما مصمّمين بشدّة على اتّهامي بالاتّصال غير المشروع، لذا دعونا نخوض في هذا الأمر إلى منتهاه. لدي الحقّ في الدفاع عن نفسي. أرسل هيئة المحلّفين إلى بيوتهم هذا اليوم ودعنا نتشاجر».

«لن أرسل هيئة المحلّفين إلى بيوتهم»، قال وهو يسقط على كرسيّه، مهزوماً.

«حسناً. دعهم محبوسين طوال اليوم. لا أهتمّ. لقد كذبتْ تلك الصبيّة عليك، وبفعلتها تلك دسّت أنفها في خضمّ هذه المحاكمة. ولا توجد طريقة لإبقاء أمّها ضمن هيئة المحلّفين. وهذا كلّه يشكّل الآن أسباباً قويّة لبطلان المحاكمة، بل هي أسباب مؤكّدة للنقض بعد خمس سنوات من الآن. اختر السمّ الذي ستتجرّعه».

استمعا لما قلته لأنّهما خافا فجأة، ولأنهما عديمَي الخبرة إلى حدّ محزن. سبق لي وأن استطعتُ إبطال المحاكمات. وسبق لي وأن حصلت

على النقض. وهذه تجربة عشتها مراراً، في منتصف صالة اللعب حيث الموت على بعد خطوة، وحيث يمكن لخطأ واحد أن يخرّب قضيّة. وهما مبتدآن. لقد ترأّس كوفمان محاكمتين في قضيتين جنائيتين فقط خلال السنوات السبع التي جلس فيها على مقعد القاضي. وأرسل هوفير رجلاً واحداً فقط إلى الإعدام، وهذا بحدّ ذاته إحراج لأيّ مدّعٍ عام في الجوار. ولقد أفسد قبل سنتين قضية عقوبتها الموت بشكل سيئ جداً إلى درجة أن القاضي (ليس كوفمان) اضطر إلى إعلان بطلان المحاكمة. وقد رُفضت التهم لاحقاً. لقد أُسقط في أيديهما فأطرقا شاعرين بأنهما أخطأا خطأ فادحاً.

«من الذي أعدّ هذه الشهادة؟»، سألتُ.

لم أتلقَ ردّاً.

قلتُ: «انظرا، اللغة المستخدمة هنا لغة محامٍ بالتأكيد. لا يستطيع شخص كاذب التحدّث هكذا. هل أُعدَّت في مكتبك، هوفير؟»

حاول هوفير المحافظة على برودة أعصابه، لكنّه أصبح الآن مستميتاً أكثر من قبل؛ لذا فقد تفوّه بما لم يستطع حتى كوفمان تصديقه: «أيها القاضي، يمكننا الاستمرار مع تروتس في حين يقبع السيّد رودّ في السجن».

انفجرتُ ضاحكاً بينما بدا كوفمان كمن تلقى صفعة.

«أوه، هيّا ولا تتردّد»، قلتُ مستفزّاً. «لقد أفسدتَ هذه القضية منذ اليوم الأول؛ امضِ إذاً وامنح غاردي الحقّ في إبطال الأدلّة».

قال كوفمان: «لا. لم يقل السيّد تروتس شيئاً حتى الآن، ومن الحكمة أن يواصل ذلك الولد الجلوس هناك بتلك النظرة الغبية على وجهه». وعلى الرغم من أن ما قاله مضحك، إلا أنّني نظرتُ إلى «سعادته» عابساً، ثمّ أتبعتها بنظرة أخرى أشدّ صرامة نحو كاتبة المحكمة، والتي فهمتْ كلّ شيء.

«امحِ ذلك»، نبح كوفمان عليها وهو بالكاد ممسك بنفسه. يا للبلادة. تشبه المحاكمة في أغلب الأحيان سيركاً سيّئاً حين تدور الأفعال المختلفة وتخرج عن السيطرة. فهذا الأمر الذي بدأ كنوع من المرح واللعب في محاولة لإذلالي، أصبح الآن أشبه بفكرة فظيعة، بالنسبة إليهما على الأقل.

لم أشأ أن يأتي هوفير بأيّ أفكار جيّدة - خصوصاً تلك التي يساورني قلق كثير بشأنها - لذلك، ولكي أحول دون استعادته لتوازنه، صببتُ بعض الزيت على النار بالقول: «من بين كلّ الأشياء الغبية التي قلتَها حتى الآن في هذه المحاكمة، يجب أن يكون هذا هو القول الأهمّ. بينّي تروتس. يا للنكتة. وتريد إجلاسه على الكرسي الأول!».

«ما هو موقفك، سيّد رودّ؟»، استوضح كوفمان.

«لن أسير عائداً إلى قاعة المحكمة تلك حتى يكون لدينا جلسة استماع حول تهمة الاتّصال غير المشروع بالمحلّفة رقم ثمانية، السيّدة الرائعة غلينّا روزتون. فإذا ثبتت عليّ تهمة ازدراء المحكمة، ألقني عندئذٍ في السجن. وأنا أفضّل الآن الوصول إلى إبطال المحاكمة».

«لا حاجة بك إلى أن تكون جلفاً، سيّد رودّ».

بدأ هوفير بالتململ والتلعثم. «حسناً، أوه، أيها القاضي، آه، أفترض أنّنا نستطيع التعامل لاحقاً مع الاتّصال غير المشروع والازدراء، أنت تعلم، بعد المحاكمة أو شيء من هذا القبيل. أنا، أودّ بالأحرى تقديم شهادتي. وهذا، أوه، يبدو هذا أمراً غير ضروري في هذه المرحلة».

«إذاً، لماذا بدأته، هوفير؟»، قلت. «لماذا افتعلتم أيّها المهرّجون كلّ هذه الإثارة بخصوص الاتّصال غير المشروع في حين أنّكم تعلمون جيّداً أن هذه المرأة ويلفانج تكذب؟».

«لا تصفني بالمهرّج»، شخر القاضي كوفمان.

«آسف، أيّها القاضي، لم أكن أعنيك. كنت أعني بذلك كلّ أولئك المهرّجين في مكتب المدّعي العامّ، ومن ضمنهم المدّعي العامّ نفسه».

«هل نستطيع رفع مستوى الحديث هنا»، قال كوفمان.

«أقدّم اعتذاري»، قلتُ بالقدر الذي يمكن للإنسان احتماله من السخرية.

تراجع هوفير إلى النافذة، حيث حدّق إلى صفوف المباني الرثّة التي تشكّل الشارع الرئيس في ميلو. أمّا كوفمان فقد تراجع نحو مكتبة موجودة وراء منضدته حيث حدّق إلى الكتب التي لم يمسّها أبداً. أصبح الهواء راكداً وثقيلاً. فثمّة قرار ثقيل يجب أن يتّخذ، وبسرعة، وإذا أخطأ «سعادته» فستتموّج ارتدادات الصدمة لسنوات مقبلة.

استدار أخيراً وقال: «أعتقد أنه من الأفضل لنا أن نستجوب المحلّفة رقم ثمانية، لكنّنا لن نفعل ذلك هناك. سنجري التحقيق هنا».

ما تلا ذلك لم يتعدّ كونه أحد تلك الفصول من المحاكمات التي تحبط المشرّعين، والمحلّفين، والمأمورين. أمضينا بقيّة اليوم في مكتب القاضي كوفمان غير الواسع ونحن نتشاجر وفي أغلب الأحيان نصرخ في وجوه بعضنا حول الشاردة والواردة في ما يتعلّق باتّصالي غير المشروع مع المحلّفة. سُحبت غلينّا روزتون إلى التحقيق، ثمّ وُضعت تحت القسم، وقد كانت مرعوبة تقريباً من الكلام. وقد بدأت بالكذب فوراً حين قالت أنّها لم تناقش هذه القضية مع أفراد عائلتها. وخلال الاستجواب، هاجمتُها بروح من الانتقام والثأر اللذين يبدوان وكأنهما قد أدهشا حتى كوفمان وهوفير. غادرتِ الغرفة وهي تنشج. بعد ذلك، استُدعيت ابنتها المعتوهة، الآنسة مارلو ويلفانج، والتي كرّرت سرد قصتها الصغيرة تحت الاستجواب الأخرق لدان هوفير، والذي أصبح الآن خارج ملعبه بالفعل. وعندما سُلّمت لي، سرتُ بها بكلّ لطف وتأنٍّ عبر المسار الذهبـي، ثمّ قطّعتُ حنجرتها من الأذن إلى الأذن. وخلال عشر دقائق، بدأتْ بالبكاء، ثمّ لهثت لتتمكّن من التنفّس، وتمنّت ألف مرة لو أنها لم تنطق باسمي في الصالة تلك الليلة. وقد أصبح واضحاً بشكل مؤلم أنّها كانت تكذب في شهادتها الملفّقة. حتى القاضي كوفمان سألها: «ضمن حشد مؤلف من خمسة آلاف شخص، كيف عثر عليك السيّد رودّ إذا لم يكن قد قابلك قبل ذلك؟».

شكراً لكم، سيّدي القاضي. سيكون هذا هو السؤال العظيم.

وبحسب قصّتها المزعومة، عادت من المباراة إلى البيت في وقت متأخّر من ليلة الجمعة. وعندما استيقظت أخيراً صباح يوم السبت، دعت أمّها، التي دعت بدورها السيّد دان هوفير فوراً، والذي عرف بالضبط ما ينبغي عمله. بعد ذلك، اجتمعوا في مكتبه يوم الأحد بعد الظّهر؛ ثمّ صيغت لغة الشهادة، وهكذا وبمنتهى السرعة وُرِّط هوفير في المسألة.

استدعيتُ هوفير كشاهد؛ فاعترض. تجادلنا، لكن لم يكن لدى كوفمان أيّ خيار آخر. استجوبتُ هوفير لمدّة ساعة، فكانت النتيجة أن حوصرت قطّتان في كيس الخيش نفسه. كتب أحد مساعديه كلّ كلمة من كلمات الشهادة. ثمّ طبعتها إحدى سكرتيراته. وبعد ذلك صدّقها سكرتير آخر.

ثمّ جاء دوره في استجوابـي فاستمرّت المشاجرة. وفي خلال هذه المحنة المضجرة، انتظر المحلّفون في غرفة التشاور، ولا شكّ في أنّهم اطلعوا على ما يجري من خلال غلينّا روزتون، ولا شكّ أيضاً في أنّهم يلومونني على تأخير محبط آخر في إجراءات المحاكمة. كما لو أنّني أهتمّ. هذا ولم أتوقف عن تذكير كوفمان وهوفير بأنّهما يلعبان هنا مع كوبرا. إذا بقيت غلينّا روزتون ضمن هيئة المحلّفين، فقد ضمنتُ فسخ الحكم وإبطال الاتّهام. ولست متأكّداً من هذا - فعند الاستئناف لا شيء مضمون - لكنّني أرى أنّهما يذبلان بشكل تدريجي بسبب الإجهاد والشكّ في صواب حكمهما على الأمور. وقد تحرّكتُ مراراً وتكراراً ساعياً إلى إبطال المحاكمة. لكنّ محاولاتي رُفضت مرّة بعد أخرى. ولم أكن مهتمّاً

بالفعل؛ فكلّ شيء مدوّن في السجلّ. وفي وقت متأخّر من بعد الظهر، قرّر كوفمان إعفاء السيّدة روزتون واستبدالها بالآنسة مازي، وهي إحدى البدائل الوازنة.

والآنسة مازي ليست بديلاً مثيراً للاهتمام؛ في الحقيقة، هي ليست أفضل من سابقتها الأكبر منها سنّاً والتي أخلت لها هذا الكرسيّ. فلا أحد في ميلو سيكون أفضل من غيره؛ إذ يمكنك اختيار اثنا عشر شخصاً جديداً من بين ألف شخص، وستكون هيئة المحلّفين الجديدة عندئذ كسابقتها وستُصوّت بالطريقة نفسها. لماذا إذاً أهدرتُ الكثير من ساعات هذا اليوم؟ لمحاسبتهم. ولإشعال جحيم الخوف في أعماقهما - أعني المدّعي العامّ والقاضي اللذين انتخبا بحسب الأصول من قبل السكان المحليين - من احتمال إفسادهما للقضية الأكثر حساسية والتي لم يسبق لهذه البلدة الراكدة أن رأت مثلها أبداً. ولجمع الذخيرة أيضاً من أجل الاستئناف. ثمّ لإجبارهم على احترامي.

طالبتُ بمحاكمة مارلو ويلفانج بتهمة الحنث باليمين، لكن المدّعي العامّ متعب. وطالبتُ أيضاً بحبسها بتهمة ازدراء المحكمة. لكنّ القاضي كوفمان ذكّرني، بدلاً من ذلك، بأنّني متّهم بازدراء المحكمة. ثمّ طلب حاجباً يحمل أصفاداً.

قلتُ: «أرجو المعذرة، أيها القاضي، لكنّني نسيت لماذا وجّهتَ لي تهمة الازدراء. حدث ذلك منذ وقت طويل مضى».

«لأنّك رفضت مواصلة المحاكمة هذا الصباح، ولأنّنا أهدرنا يوماً كاملاً ونحن نتقاتل حول أحد المحلّفين.

إضافة إلى أنّك أهنتني».

هنالك العديد من الطرق للردّ على هذا الهراء، لكنّني قرّرتُ تركه يمرّ. ذلك أن إلقائي في السجن بتهمة احتقار المحكمة سيعقّد الأمور بالنسبة لهم فقط، للسلطات، وسيمنحني مزيداً من الذخيرة من أجل استئناف قضيّة غاردي. حضر شرطيّ ضخم الجثة، فقال له كوفمان: «خذه إلى السجن».

كان هوفير ينظر عبر النافذة، معطياً ظهره للجميع.

لم أرد دخول السجن، لكنّني لم أكن أستطيع انتظار الخروج من تلك الغرفة. لقد بدأت تتصاعد فيها الأبخرة وروائح الأجساد الفاسدة. وُضعت الأصفاد حول رسغيّ، ويداي أمامي وليس خلفي، وحين تمّ اقتيادي، نظرتُ إلى كوفمان وقلت: «أفترض أنّه سيُسمح لي بالاستمرار كمستشار رئيس في الصباح».

«سيُسمح لك».

ولإخافتهم أكثر، أضفت: «في آخر مرّة ألقي بـي في السجن خلال إجراءات المحاكمة، أُسقطت التهم ونُقض الحكم من قبل محكمة الولاية العليا. وكان التصويت تسعة إلى صفر. يجب عليكم أيها المهرّجون أن تقرأوا قضاياكم جيّداً».

انضمّ شرطي ضخم آخر إلى قافلتنا الصغيرة. وقد قادوني عبر الأبواب الخلفية ثمّ نزلوا بـي إلى المدخل الخلفي الذي أستعمله كلّ يوم. ولسبب ما توقّفنا عن النزول حين كان الشرطيان يغمغمان متحدثين عبر أجهزة الاتّصال. وحين خطونا أخيراً إلى الخارج، تكوّن لديّ انطباع أنّهما سرّبا خبر اعتقالي. فقد تعالت هتافات حشد الكارهين لي عندما رأوني خارجاً أمشي كالضفدع، مقيّد اليدين. ومن دون سبب ظاهر، توقّف الشرطيان وهما يحاولان الاتفاق على سيّارة الدورية التي سيستخدمانها. وقفتُ بجانب أحدهما، مكشوفاً، أبتسم لذلك الحشد الصغير من الغوغاء. رأيتُ الرفيق فصرختُ أنّني سأتّصل به لاحقاً. بدا مذهولاً ومرتبكاً. ومن أجل مزيد من الاستعراض، دفعاني إلى المقعد الخلفي نفسه حيث جلس غاردي؛ المحامي وموكّله إلى السجن. وخلال انطلاقنا، مع تشغيل الأضواء وصفّارات الإنذار بالكامل لإعطاء هذه البلدة البائسة أكبر قدر ممكن من الإثارة، نظر إلي غاردي وقال: «أين كنتَ طوال اليوم؟».

رفعتُ يداي المقيّدتان وقلت: «تعاركتُ مع القاضي. خمِّن من الذي فاز؟».

«كيف يرمون محامياً في السجن؟».

«يستطيع القاضي أن يفعل ما يشاء».

«وهل حصلتَ على عقوبة الموت أيضاً؟».

ضحكتُ للمرة الأولى خلال الساعات العديدة الماضية. «لا، ليس بعد على أية حال».

تسلّى غاردي بهذا التغيير غير المتوقّع في الروتين. قال: «ستحبّ الطعام هناك».

«أراهن على ذلك». كان الشرطيان في المقعد الأمامي يستمعان لحديثنا، وبالكاد كانا يتنفّسان.

«هل سبق لك وأن دخلتَ السجن؟»، سألني موكّلي.

«أوه نعم، عدّة مرات. فلديّ موهبة في إزعاج القضاة».

«وكيف يمكنك إزعاج القاضي كوفمان؟».

«إنّها قصّة طويلة».

«حسناً، لدينا الليلة بأكملها، أليس كذلك؟»

أفترضُ ذلك، على الرغم من أنّني أشكّ في أنهم سيرمونني في الزنزانة نفسها مع موكّلي العزيز. بعد دقائق من ذلك، توقّفنا أمام مبنى من طراز مباني الخمسينيات ذي سقف مستوٍ، مع عدّة إضافات أُلصقت بجانبيه مثل أورام خبيثة. جئتُ إلى هنا بضع مرّات لرؤية غاردي، وهو مكان بائس. توقفت السيّارة؛ ثمّ سُحبنا خارجها ودُفعنا داخل غرفة مفتوحة الباب وضيّقة يتسكّع فيها بعض رجال الشرطة حاملين بعض الأوراق وهم يتصرّفون كالأشرار. اختفى غاردي عبر باب آخر في الخلف، وعندما انفتح الباب غير المرئي استطعتُ سماع صراخ السجناء في الخلفية.

«قال لي القاضي كوفمان أنّني أستطيع إجراء مكالمتين هاتفيتين»؛ بادرتُ بالقول للسجّان الذي تقدّم نحوي. "توقّفْ" عندئذ، لم يعد متأكداً بالضبط مما يتوجّب على السجّان فعله حين يواجه محامياً غاضباً أُرسل إلى السجن بتهمة احتقار المحكمة. ثمّ تراجع.

اتّصلتُ بجوديث، وبعد نباحٍ على موظفة الاستقبال في مكتبها، ثمّ على سكرتيرتها، ثمّ مساعدتها القانونية، تمكّنتُ من محادثتها على الهاتف، وأوضحت لها أنّني في السجن مرة أخرى، وأنّني أحتاج إلى مساعدة. شتمتْ ولعنتْ، ثمّ ذكّرتني بمدى انشغالها، ثمّ قالت حسناً. اتّصلتُ بالرفيق وأنبأته بالمستجدات.

سلّموني بدلة السجن البرتقالية التي كُتب على ظهرها «سجن مدينة ميلو». ثمّ بدّلتُ ثيابـي في حمّام قذر، وعلّقتُ قميصي بعناية، مع ربطة عنقي، وبدلتي على مشجب واحد. ثمّ سلّمتُ ثيابـي إلى السجّان، وقلت: «رجاءً لا تجعّد هذه الملابس. يجب أن أرتديها غداً».

«هل تريدها مكوية؟»، قال ذلك، ثمّ انفجر ضاحكاً. شارك الآخرون أيضاً نوبة الضحك المفاجئة والعنيفة، في حين ابتسمتُ أنا مثل شخص جيّد ومرح. وعندما انتهت نوبة الضحك، قلت: «إذاً، ما هو العشاء؟».

قال السجّان: «اليوم هو الاثنين، يوم اللحوم المعلّبة. اللحوم المعلّبة دائماً يوم الاثنين».

«لا أستطيع الانتظار»، قلت. وكانت زنزانتي عبارة عن جحر خرساني مساحته عشرة أمتار بعشرة أمتار، تتصاعد منه روائح البول الفاسد

ورائحة الأجسام. وقد تمدّد على السريرين المركّبين فوق بعضهما شابان أسودان، أحدهما يقرأ والآخر يغطّ في قيلولة. ليس هناك سرير ثالث، لذا سأنام على كرسي بلاستيكي ملطّخ ببقع بنيّة داكنة. لم يُبدِ رفيقا الزنزانة الجديدين أية بادرة ودّية. ولم أكن أبحث عن عراك، لكن التعرّض للضرب في السجن، في أثناء الدفاع عن المتّهم بجريمة كبرى، سوف يتسبّب تلقائياً بإبطال المحاكمة. سأتأمّل في الأمر.

ولأنها فعلتْ ذلك من قبل، فإن جوديث تعرف بالضبط ما العمل. في الساعة الخامسة مساءً، تقدّمتْ بطلب إشعار قضائي لدى المحكمة الاتّحادية في المدينة، يتضمّن طلب عقد جلسة فورية وإحضار السجين قبل توقيفه والنظر في قضيته واستصدار قرار فيما إذا كان السجين مذنباً أم غير مذنب. أحبّ المحكمة الاتّحادية، في معظم الأحيان.

وقد أرسلتْ أيضاً نسخة من عريضتها إلى المراسل المفضّل لديّ في الصحيفة. سأُحدث أكبر قدر ممكن من الضوضاء. لقد أخطأ كلّ من كوفمان وهوفير خطأً فادحاً، وسيدفعان ثمنه. فجأة، أبدى القارئ المتمدّد على السرير السفلي رغبته في الحديث، لذا شرحتُ سببَ وجودي هنا. وقد رأى أن الأمر طريف؛ محام في السجن بسبب إغاظة القاضي. أمّا المقيِّل على السرير الأعلى فقد انقلب وانضمّ إلى المرح. وخلال وقت قصير، قدّمتُ لهما عدداً من النصائح القانونية، ذلك أن هذين الرجلين يحتاجان إلى كل ما أستطيع تقديمه.

بعد ساعة، ألقى إليّ السجّان بالأخبار التي تقول إن لدي زائر. ثمّ تبعته عبر متاهة المداخل الضيّقة لأجد نفسي في غرفة ضيّقة تحتوي على

فاحص تنفّس. فإلى هذه الغرفة يجلبون السائقين السكارى. نهض الأُسقف ثمّ تصافحنا. وقد سبق لنا وأن تحدّثنا على الهاتف، لكنّنا لم نلتقِ من قبل. شكرته على مجيئه، لكن حذّرته من عواقب ما فعل. قال إنّ الأمر لا يستحقّ، وإنه لا يخشى السكّان المحليين. بالإضافة إلى أنّه يعرف كيف يختفي ويظلّ بعيداً عن الأنظار. وهو يعرف أيضاً رئيس الشرطة، ورجال الشرطة، والقاضي، وجميع التوافه المعتادين في هذه البلدة الصغيرة. وقال إنه حاول الاتّصال بهوفير وكوفمان لإخبارهما أنّهما ارتكبا خطأً فادحاً، لكنّه لم يستطع الوصل إليهما. وقد توسّط لدى رئيس الشرطة لوضعي في زنزانة أفضل. وكلّما تحدّثنا أكثر، زادت محبّتي للرجل. فهو مقاتل شوارع، متهّك، عجوز بالٍ تناطح لعقود مع رجال الشرطة. وهو لم يكسب شيئاً من ذلك، ولا يبالي. وقد تساءلتُ في نفسي ما إذا كنتُ سأصبح مثله خلال عشرين عاماً.

«ماذا عن اختبار الحمض النووي؟»، سأل.

«ستصل العيّنات إلى المختبر غداً، وقد وعدوا بإرسال النتيجة سريعاً».

«وإذا كان بيلي؟».

«ستنفلت حينئذٍ جميع كائنات الجحيم». يقف هذا الرجل في صفّي، لكنّني لا أعرفه. دردشنا لمدّة عشر دقائق أخرى، ثمّ ودّعني وانصرف.

وحين عدتُ إلى زنزانتي، كان صديقاي الجديدان قد نشرا الخبر حول وجود محامٍ جنائي معهما في الزنزانة. ولم يمض وقت طويل حتى بدأتُ بالصراخ مقدّماً النصائح لنزلاء الطوابق السفلى والعليا في المبنى.

.11

لم يكن التهذيب أحد الصفات البارزة في سلوكي، لكنّني قرّرتُ أن لا أبدأ العراك مع فونزو وفروغ، شريكيّ الجديدين في عالم الجريمة. بدلاً من ذلك، جلستُ على الكرسي طوال الليل محاولاً أن أغفو. لكنّ الأمر لم ينجح. رفضتُ اللحم المعلّب كعشاء، ورفضتُ البيض الفاسد والخبز المحمّص البارد على الفطور. ومن حسن الحظّ أن أحداً لم يأتِ على ذكر الاستحمام. جلبوا لي بدلتي، وقميصي، وربطة عنقي، وحذائي، وجوربي، فارتديت ملابسي بسرعة. ودّعتُ رفيقي الزنزانة، اللذين سيظلان خلف القضبان لعدّة سنوات، بغض النظر عن النصائح الرائعة التي وزّعتها عليهما لساعات.

نُقلنا أنا وغاردي كلّ على انفراد إلى مبنى المحكمة. ووجدتُ حشداً أكبر من الأعداء الذين أتوا للسخرية مني وأنا أُسحب تقريباً إلى خارج السيارة؛ وكنت لا أزال مقيّداً بالأصفاد. وعندما أصبحتُ في الداخل بعيداً عن جميع المصوّرين، فُكّت الأصفاد. ثمّ وجدتُ الرفيق بانتظاري في

المدخل. كنتُ الخبر الأبرز في طبعة الصباح من صحيفة «كرونيكل» ويومية «المدينة»، وكذلك في الصفحة الثالثة من «المترو». لا شيء جديد؛ أُلقي رود في السجن من جديد.

وبحسب الأوامر، لحقتُ بحاجبٍ قادني إلى مكتب القاضي كوفمان، الذي كان ينتظر برفقة هوفير. وكانا يتصنّعان الابتسام، يتآكلهما الفضول لمعرفة كيف أمضيت الليل. لم أذكر السجن، ولم أُظهر حقيقة أنّني لم أنم، ولم آكل، أو أغتسل منذ وقت طويل. كنتُ متماسكاً، ومتشوّقاً للشروع في العمل، ويبدو أن هذا أغاظهما. يظنّان أن المسألة كلّها مجرّد مرح ولعب، متناسيَين أن حياة غاردي على المحكّ.

بعد ثوانٍ من دخولي إلى المكتب، أتى حاجب آخر مسرعاً وهو يقول: «آسف، سعادة القاضي، لكن يوجد في الخارج مارشال أمريكي يقول أن عليك أن تكون في المحكمة الاتّحادية في المدينة في الساعة الحادية عشرة من هذا الصباح. وأنت أيضاً، سيّد هوفير».

«بحقّ الجحيم، ما الأمر؟»، قال كوفمان.

أوه، تطوّعتُ بالشرح: «إنّها جلسة إشعار قضائي، أيها القاضي. طلبها المحامون المدافعون عني بعد ظهر أمس. جلسة طارئة لإخراجي من السجن. لقد بدأتما هذا الهراء، ويتوجّب عليّ الآن أن أنهيه».

«هل لديه مذكرة إحضار؟»، سأل هوفير. سلّمهما الحاجب بعض الأوراق التي تصفّحها هوفير وكوفمان بسرعة.

«ليست مذكرة إحضار»، قال كوفمان. «إنّها نوع من الملاحظة من القاضي سامسون. ظننتُ أنّه مات. ليس لديه الحقّ في استدعائي إلى جلسة استماع من أيّ نوع كان».

«لقد ابتعد عن كرسيّه الهزّاز لمدّة عشرين سنة»، قال هوفير، وبدا مرتاحاً جداً، ثمّ أضاف: «أنا لن أذهب. نحن في منتصف محاكمة هنا».

لم يكن مخطئاً بشأن القاضي سامسون. فلو استطاع المحامون التصويت لانتخاب القاضي الاتّحادي الأشدّ جنوناً في الأرض، فسيكون آرني سامسون هو الفائز من دون منازع. لكنّه صديقي المجنون، وقد حرّرني من السجن من قبل.

قال كوفمان للحاجب، «قل للمارشال أن يغرب من هنا. وإذا بدأ بالإزعاج، قل لرئيس الشرطة أن يعتقله. سحقاً له؛ سيزعجه ذلك، أليس كذلك؟ رئيس الشرطة يعتقل مارشالاً. ها ها. أراهن أنّ هذا لم يحدث من قبل. على أية حال، نحن لن نغادر. لدينا محاكمة نريد متابعتها هنا».

«ولم ذهبتَ إلى المحكمة الاتّحادية؟»، سألني هوفير بمنتهى الجدية.

«لأنّني لا أحبّ البقاء في السجن. أي نوع من الأسئلة الغبية هذا؟».

غادر الحاجب فقال وكوفمان: «سأخلي سبيلك من تهمة الازدراء، موافق سيّد رودّ؟ أعتقد أن ليلة واحدة في المعتقل كافية كعقاب لسلوكك».

قلت: «حسناً، كافية بالتأكيد لإبطال المحاكمة وإسقاط التهم».

«دعنا لا نتجادل حول ذلك»، قال كوفمان، ثمّ أضاف: «هل يمكننا المتابعة؟».

«أنت القاضي».

«وماذا عن الجلسة في المحكمة الاتّحادية؟».

«هل تسألني النصيحة القانونية؟»، أجبت.

«لا، بحقّ الجحيم».

«تجاهل الاستدعاء على مسؤوليتك الخاصّة. اللعنة إن لم يلقِ القاضي سامسون بكلَيْكما في السجن ليوم أو يومين. ألن يكون ذلك مضحكاً؟».

.12

في نهاية المطاف، توجّهنا عائدين إلى قاعة المحكمة، وقد تطلّب الأمر بعض الوقت حتى استقرّ كلّ شخص في مكانه. وعندما جُلبت هيئة المحلّفين، رفضتُ النظر إليهم. ذلك أنّهم جميعاً يعلمون الآن أنّني قضيت الليلة في السجن، وأنا متأكّد من أنّهم متشوّقون لمعرفة كيف قضيتُ تلك الليلة. لذا، لن أعطيهم شيئاً.

اعتذر القاضي كوفمان عن التأخير، وقال لقد حان الوقت لمواصلة العمل. نظر إلى هوفير، الذي وقف وقال: «يا صاحب السعادة، وقت الاستراحة الرسمية».

كانت تلك ذريعة بلهاء استُخدمت لجعل حياتي أشدّ بؤساً. نهضتُ وقلتُ بغضب: «يا صاحب السعادة، كان بمقدوره إخباري بهذا أمس، أو حتى هذا الصباح».

«ادعُ شاهدك الأول»، نبح كوفمان.

«لستُ مستعدّاً. لديّ بعض الطلبات من المحكمة. وهي مدوّنة في السجلّ».

لم يكن لديه أيّ خيار سوى صرف هيئة المحلّفين. ثمّ أهدرنا الساعتين التاليتين ونحن نتساوم حول ما كان الادّعاء قد قدّم، باسم الولاية، الدليل الكافي للاستمرار في المحاكمة. كرّرتُ الحجج نفسها. ثمّ اتّخذ كوفمان القرارات نفسها. وقد دُوِّن ذلك كلّه في السجلّ.

شاهدي الأول كان فتى هزيلاً، ومضطرباً ذو مظهر مشابه تماماً لموكّلي. اسمه الأول ويلسون؛ وعمره خمسة عشر عاماً، ومنقطع عن الدراسة، ويتعاطى المخدّرات؛ وهو طفل مشرّد أساساً، على الرغم من أن عمّته تسمح له بالنوم في المرأب حين يكون مريضاً. وهو شاهدنا البارز!

فُقد أثر الطفلتين فينتريس حوالى الساعة الرابعة من عصر يوم الأربعاء. وكانتا قد انصرفتا من المدرسة على دراجتيهما، لكنّهما لم تصلا إلى البيت أبداً. وقد بُدِئ البحث عنهما في حوالى الساعة السادسة مساءً، ثمّ كُثّف البحث عنهما مع مرور الساعات. وبحلول منتصف الليل، حلّ الرعب على البلدة بأكملها، فخرج الجميع حاملين المصابيح الكاشفة. ثمّ عُثر على جثّتيهما في البركة الملوّثة حوالى وقت الظهر من اليوم التالي.

عندي ستّة شهود، ويلسون وخمسة آخرون، والذين سيشهدون بأنّهم كانوا مع غاردي عصر يوم الأربعاء من حوالى الساعة الثانية حتى حلول الظلام. وقد كانوا جميعاً في مكان يسمّى «الحفرة»، وهو مكان مهجور حُفر لاستخراج الحصى والحجارة في وسط جزء كثيف من الغابة

جنوب البلدة. وهو مخبأ معزول للمتغيبين عن المدارس، والفارّين، والأطفال المشرّدين، ومتعاطي المخدّرات، وصغار المجرمين، والسكارى. وقد جذب المكان المذكور عدداً من المتهرّبين من دفع الديون الأكبر سنّاً، لكنّه في الأساس ملجأ للأولاد الذين لا يريدهم أحد. ينام هؤلاء تحت مجموعة من الأسقف المائلة لأكواخ بسيطة، ويتشاطرون طعامهم وأشربتهم المسروقة، ويتعاطون أنواعاً من المخدّرات لم أسمع بأسمائها أبداً، وينخرطون في علاقات عشوائية؛ وهم عموماً يهدرون الأيام وينزلقون شيئاً فشيئاً إمّا من الموت أو السجن. كان غاردي هناك عندما اختطف شخص آخر الطفلتين من آل فينتريس وقتلهما.

إذاً، لدينا حجّة مكانية؛ ويمكن إثبات مكان موكّلي وقت حدوث الجريمة. أليس كذلك؟

حين أصبح ويلسون على منصّة الشهود وأدّى اليمين، ارتاب المحلّفون. ومن أجل هذه المناسبة، ارتدى الشاهد ويلسون ما يرتديه عادة؛ سروال جينز متّسخ فيه الكثير من الثقوب، وجزمة عسكرية، وفانيلة خضراء تعلن عن عظمة فرقة ما من فرق موسيقى الروك الأسيدية، بالإضافة إلى منديل أرجواني مربوط حول رقبته. أمّا فروة رأسه فهي حليقة تماماً، كأنها مسلوخة، فوق الأذنين تنتهي بعرف مرتفع من الشعر البرتقالي الناصع الذي يشبه تيجان قبائل الموهوك من الهنود الحمر. كما أنّه مزيَّن بالمجموعة الضرورية من الوشوم، والأقراط، والثقوب المرصّعة بالمعادن. ولأنه مجرّد طفل عديم الخبرة، وقد سُحب

الآن إلى مثل هذا المكان الرسمي، فقد تراجع فوراً محتمياً بابتسامة تجعلك تريد صفعه.

«كن طبيعياً فقط»، قلتُ له. ومن المحزن أنّه فعل. ولو كنتُ في مكان أحد المحلّفين، فلن أصدّق كلمة مما قال، على الرغم من أنّه قال الحقيقة. وكما كنتُ قد درّبته، استعرضنا أحداث عصر ذلك الأربعاء.

أما هوفير فقد قضى عليه خلال الاستجواب. عمرك خمسة عشر عاماً، يا بنيّ، فلمَ لستَ في المدرسة؟ تدخّن المخدر، هاه، برفقة زميلك الماثل هنا، هل هذا ما تريد قوله لهؤلاء المحلّفين؟ الشرب، وتعاطي المخدّرات، مع مجموعة من المتهربين من تسديد الديون، أليس كذلك؟ فشل ويلسون فشلاً ذريعاً في إنكار ذلك. وبعد خمس عشرة دقيقة من تلاعب المدّعي العامّ به، تزعزع يلسون وخشي من أنّه قد يتّهم بجريمة ما. لكنّ هوفير تابع الضغط الشديد عليه، واستشرس في ساحة اللعب.

لكن، ولأن هوفير ليس فطناً جداً، فقد ذهب بعيداً جداً. علّق ويلسون على حبل المشنقة وشرع في استنزاف دمه مع كلّ سؤال. وقد أمعن في استجوابه حول التواريخ؛ تساءل كيف يكون متأكّداً من أنّه كان ذلك الأربعاء بالتحديد من شهر مارس/آذار الماضي؟ ثمّ مازحه بالقول هل تحتفظ بتقويم هناك في «الحفرة»؟

ثمّ قال بصوت عال: «ليست لديك فكرة عن أي أربعاء تتحدّث، أليس كذلك؟».

«بلى يا سيدي»، قال ويلسون بشكل مؤدّب للمرة الأولى.

«كيف؟».

«لأن الشرطة حضرت إلى المكان، وقالوا أنّهم يبحثون عن فتاتين صغيرتين. كان ذلك هو اليوم. وكان غاردي هناك طوال فترة العصر». وبالنسبة لطفل من دون دماغ، أدلى ويلسون بما تقدّم بشكل مثالي، كما تدرّبنا على ذلك تماماً.

ومن الواضح أنّه عندما تحدث جريمة في ميلو، أكثر جدّية بقليل من مجرّد إلقاء النفايات في الشارع، فإن الشرطة تخرج مسرعة إلى «الحفرة» بحثاً عن متّهمين. ثمّ تشرع بمضايقة المشتبه بهم المعتادين، والضغط عليهم.æ«الحفرة» تبعد حوالى ثلاثة أميال عن البركة التي عُثر فيها على جثّتي الطفلتين فينتريس. ومن الواضح وضوح الشمس لا أحد من المتردّدين بانتظام على «الحفرة» لديه أيّة وسيلة تنقّل سوى القدمين؛ بالإضافة إلى أن الشرطة تداهم المكان بشكل دوري حيث يفرض رجال الشرطة حضورهم وهيبتهم. يقول غاردي أنّه يتذكّر مجيء رجال الشرطة الذين كانوا يسألون عن الفتاتين المفقودتين. لكنّ الشرطة، بالطبع، لا تتذكّر رؤية غاردي في «الحفرة».

لا أهميّة لكل ذلك. فليس لدى هيئة المحلّفين هذه النيّة في تصديق كلمة مما قاله ويلسون.

بعد ذلك، استدعيتُ شاهدة تتحلى بمقدار أقلّ من المصداقية. يسمّونها لولو، وهي طفلة مسكينة عاشت تحت الجسور وفي غرف تصريف القنوات منذ أن تفتّح وعيها. يحميها الأولاد فتُشبعهم بالمقابل.

وهي الآن في التاسعة عشرة من عمرها، ولا يبدو أنها ستصل إلى الخامسة والعشرين، خصوصاً وهي تعيش في تلك البيئة البائسة. وهي ذات جسد مغطّى بالوشوم، إلى درجة أنّ المحلّفين اشمأزّوا حين أقسمت اليمين. وهي تتذكّر ذلك الأربعاء بالذات؛ تتذكّر أن الشرطة داهمت «الحفرة»، وتتذكّر أن غاردي كان هناك طوال فترة العصر.

وخلال الاستجواب، لم يطق هوفير صبراً لكي يُعلن حقيقة إنّها اعتُقلت مرّتين بتهمة السرقة. سرقتْ طعاماً! ماذا يفترض بك أن تفعل حين تكون جائعاً؟ وقد صوَّر هوفير الأمر وكأنّها تستحقّ عقوبة الموت.

تابعنا الاندفاع إلى الأمام. وتابعتُ استدعاء شهود إثبات مكان موكّلي، والذين تتابعوا على قول الحقيقة، في حين لم يتوان هوفير عن إظهارهم كمجرمين. يا لهذا الخبل وعدم الإنصاف في نظام العدالة. فشهود هوفير، الذين شهدوا لصالح الولاية التي يمثّلها الادّعاء العامّ، تحميهم مظلّة الشرعية، كما لو أنّهم قُدّسوا وطُهّروا من قِبل السلطات. وهم رجال شرطة، وخبراء، وحتى واشٍ نتن غُسل ونُظّف وتهندم بملابس أنيقة؛ جلسوا جميعاً على منصّة الشهادة وسردوا الأكاذيب ضمن جهد منسّق يهدف إلى إعدام موكّلي. في حين أن الشهود الذين يعرفون الحقيقة، ويروونها، يزدرى بهم فوراً ويُصوَّرون كحمقى.

وهذه المحاكمة، مثل الكثير من المحاكمات الأخرى، لا تدور حول إظهار الحقيقة؛ بل حول الفوز. ولكي يفوز، من دون دليل حقيقي، اضطر هوفير إلى أن يُزيّف الحقيقة ويشوّهها ويطعنها كما لو أنّه يكرهها. لديّ ستّة شهود أقسموا أن موكّلي لم يكن في أي مكان قريب من

مسرح الجريمة حين ارتكبت، وقد سُخر منهم جميعاً وأهينوا. ولقد اصطنع هوفير أربعة وعشرين شاهداً تقريباً، وهم معروفون جميعاً بأنّهم كذّابون من قِبَل الشرطة، والادّعاء، والقاضي، وبالرغم من ذلك يتلقّف المحلّفون أكاذيبهم كما لو أنّهم يقرؤون في كتابٍ مقدّس.

.13

عرضتُ على المحلّفين خريطة لبلدتهم المحبوبة. وقد بيّنت الخريطة ةÃ «الحفرة» بعيدة عن البركة؛ وأن ليس هناك طريقة ممكنة لتواجد غاردي في كلا المكانين في الوقت التقريبـي نفسه لمقتل الطفلتين. ولم يُصدّق المحلّفون أيّاً من هذه الوقائع لأنّهم باتوا على قناعة منذ فترة من الوقت بأنّ غاردي عضوٌ في طائفة شيطانية، وأنّ له تاريخاً حافلاً بالفساد. وليس ثمة دليل ملموس على أن الطفلتين فينتريس قد اعتُدي عليهما، وبالرغم من ذلك فإن كلّ متخلّف بائس في هذا المكان السيئ يعتقد أن غاردي قد اعتدى عليهما قبل أن يقتلهما.

عند منتصف الليل، كنتُ ممدّداً فوق سريري غير المريح في الفندق، وإلى جانبـي مسدسي من عيار 9 ملليمتر، حين صفّر هاتفي الخلوي. إنّه مختبر الحمض النووي في سان دياغو. لقد تبيّن أن عيّنة الدم التي انتزعها تاديو بعنف من جبهة جاك بيلي مطابقة لخصلة الشعر التي تركها

القاتل وراءه في رباط الحذاء الذي شُدّ بإحكام حول كاحليّ جينا فينتريس، ذات الأحد عشر عاماً.

.14

أصبح النوم مستحيلاً؛ لم أستطع حتى إغماض عينيّ. غادرنا أنا والرفيق الفندق في الظلام الدامس وتوجّهنا إلى ميلو قبل أن نرى خيط الضوء الأول من جهة الشرق. التقيتُ الأُسقف في مكتبه حين كانت الحياة تدبّ ببطء في البلدة. اتّصلَ بالقاضي كوفمان في بيته، فأيقظه وأخرجه من سريره، وفي الساعة الثامنة صباحاً كنتُ في مكتبه مع هوفير وكاتبة المحكمة. وكلّ ما تلا ذلك دوِّن في السجلّ.

عرضتُ عليهما خياراتي. إذا رفضا إيقاف المحاكمة، ولم يصرفا النظر عن القضية ويرسلا الجميع إلى بيوتهم - وهذا ما أتوقّع منهما أن يفعلاه - فسوف أعمد إما إلى (1) استصدار مذكرة جلب بحقّ جاك بيلي، وسحبه إلى المحكمة، ثمّ وضعه على منصّة الاستجواب وعرضه كقاتل؛ أو (2) التوجّه إلى الصحافة ونشر تفاصيل اختبار الحمض النووي؛ أو (3) إعلام هيئة المحلّفين بما أعرف؛ أو (4) القيام بكلّ ما ورد أعلاه؛ أو (5) äÃ

لا أفعل شيئاً، ثمّ أتركهما حتى يتوصّلا إلى إدانة المتهم، وأذبحهما بعد ذلك عند الاستئناف.

طلبا معرفة كيفية حصولي على عينة الدم من جاك بيلي، لكنّني لم أكن مضطراً لإخبارهما. ذكّرتهما أنّني استجديتهما خلال الأشهر العشرة الماضية ضرورة التحقيق مع بيلي، للحصول على عينة دم منه، لكنّهما لم يهتمّا بالأمر. كان لديهما غاردي، الذي اعتبراه أحد الجنود المشاة في جيش الشيطان. وللمرّة العاشرة أوضحتُ لهما أنّ بيلي (1) يعرف الطفلتين، (2) شوهد قرب البركة عندما اختفتا، و(3) كان قد انفصل للتوّ عن أمّهما بعد علاقة رومانسية طويلة وعنيفة.

بدت عليهما الحيرة، والذهول، وفي بعض الأحيان أظهرا عدم التماسك، قبل أن يستوعبا الحقيقة. لقد انكشف الأساس المزيّف والفاسد لادّعائهما. لقد أمسكا بالرجل الخطأ!

عملياً، يعاني جميع المدّعين العامّين من العيب الوراثي نفسه؛ فهم لا يستطيعون الاعتراف بالحقيقة الواضحة عندما توضع على المنضدة أمامهم. بل يتمسّكون بنظرياتهم. يعرفون أنّهم على حقّ لأنهم أقنعوا أنفسهم بذلك لشهور، وحتى لسنوات. «أؤمن بقضيّتي»، هذه إحدى عباراتهم المفضّلة، وهم يكرّرونها من دون وعي، حتى وإن تقدّم نحوهم القاتل الحقيقي والدم يغطي يديه قائلاً: «أنا فعلتها».

ولأنّني سمعتُ كثيراً من كلامهم الفارغ والغبـي من قبل، فقد حاولتُ تخيّل ما قد يقوله هوفير في هذه النقطة. لكن، حين قال: «من

المحتمل أن غاردي بيكر وجاك بيلي كانا يعملان سوية»، ضحكتُ بأعلى صوتي.

قال كوفمان من دون تفكير: «هل أنت جادّ؟».

قلت: «رائع، رائع جدّاً. رجلان لم يسبق لهما أن اجتمعا أبداً، عمرُ أحدهما ثمانية عشر عاماً، والآخر في الخامسة والثلاثين، اجتمعا لمدّة نصف ساعة تقريباً من أجل قتل الفتاتين الصغيرتين، ثمّ ذهب كلّ منهما في طريقه، على أن لا يجتمعا ثانية أبداً، وقد صمّما على أن يبقيا فميهما مغلقين إلى الأبد. هل تريد الدفاع عن رأيك هذا عند الاستئناف؟».

«لن يفاجئني ذلك»، قال هوفير وهو يحكّ ذقنه كما لو أنّ دماغه المتّقد قد بدأ ينبض ويدقّق في النظريات الجديدة المتعلّقة بهذه الجريمة.

أما كوفمان، الذي لا يزال فمه مفتوحاً كعلامة على عدم التصديق؛ فقد قال: «لا يمكن أن تكون جادّاً، دان».

قال دان: «أريد المضي قدماً. فأنا أعتقد أن غاردي بيكر اشترك في هذه الجريمة. يمكنني التوصّل إلى إدانته». وقد بدا مثيراً للشفقة وهو يوغل قدماً مع علمه أنّه مخطئ.

«دعني أحزر»، قلت. «أنت مؤمن بقضيّتك».

«اللعنة، نعم أنا كذلك. أريد المضيّ قدماً. يمكنّني التوصّل إلى إدانة».

«بالطبع يمكنك ذلك، والتوصّل إلى إدانة أهمّ بكثير من تحقيق العدالة»، قلتُ وأنا مسيطر تماماً على أعصابـي. «توصّل إلى إدانة المتّهم.

وسوف نعاني ونكدّ في أروقة محاكم الاستئناف خلال السنوات العشر القادمة حيث يهدر غاردي عمره بانتظار تنفيذ حكم الإعدام، في حين يتمشّى القاتل الحقيقي مطمئناً في الشوارع؛ بعد ذلك، وفي أحد الأيام وفي مكان ما، سيرى قاضٍ اتّحادي الضوء وسنحصل مرة أخرى على البراءة التامّة. أمّا أنت، أيّها المدّعي العامّ، وأنت أيها القاضي، فستبدوان كأبلهين بسبب ما يحدث الآن».

«أريد المضيّ قدماً»، قال هوفير، مثل تسجيل صوتي معطوب.

تابعتُ الكلام: «أعتقد أنّني سأتوجّه إلى الصحافة، سوف أريهم نتيجة اختبار الحمض النووي. سينشرونها وستبدوان حينئذٍ كمهرّجين لا يزالان يحاولان السير بالقضية. وفي هذه الأثناء، سيختفي جاك بيلي.

«وكيف حصلتَ منه على عيّنة اختبار الحمض النووي؟»، سألني القاضي كوفمان.

«انخرطَ في شجار في حانة «أزرق وأبيض» يوم السّبت الماضي، ثمّ شُجَّ وجهه على يد رجلٍ يعمل لصالحي. قشطتُ دم بيلي شخصياً عن قبضة رجلي وأرسلته إلى المختبر، مرفقاً بعيّنة الشعر التي حصلتُ عليها في وقت سابق».

وكما هو متوقّع، قال هوفير «هذا عبث بالدليل».

«أوه، قاضني، أو ألقني في السجن ثانية. لقد انتهت هذه الحفلة الصغيرة يا دان، هيّا استسلم!».

قال كوفمان: «أريد رؤية نتيجة الاختبار».

«ستصلني غداً. المختبر في سان دياغو».

«نحن في عطلة حتى ذلك الحين».

.15

في وقت ما من ذلك اليوم، اجتمع القاضي والمدّعي العامّ سرّاً. لم أدعَ إلى ذلك الاجتماع. ومن الجدير بالذكر أن لوائح الإجراءات تمنع مثل هذه الاجتماعات السريّة، لكنّها تحدث. يحتاج هذان الرجلان إلى استراتيجية خروج، ويحتاجانها سريعاً. وهما يعرفان الآن أنّني نصف مجنون، وأنّني سأسرع بالحقيقة إلى الصحافة وأطلعها على نتيجة اختباري. وفي هذه الساعة القاتلة، لا يزالان مهتمّين بالسياسة أكثر من اهتمامهما بالحقيقة. وإن كلّ ما يهتمّان به هو إنقاذ ماء وجهيهما.

عدنا أنا والرفيق إلى المدينة، حيث قضيت اليوم في العمل على قضايا أخرى. وقد أقنعتُ المختبر بإرسال نتيجة الاختبار بالبريد الإلكتروني إلى القاضي كوفمان، وبحلول الظهر عرف الحقيقة. في الساعة السادسة مساءً وردتني مكالمة هاتفية مفادها أن جاك بيلي قد اعتقل.

اجتمعنا صباح اليوم التالي في مكتب كوفمان، ليس في محكمة علنية، كما اعتدنا. فمن المؤكد أن ردّ الدعوى وإسقاط التهم نهائياً في جلسة علنية سيكون أمراً شديد الإحراج بالنسبة للنظام، لذا تآمر القاضي والمدّعي العامّ على أن يكون ذلك خلف أبواب مغلقة، وبأسرع ما يمكن. جلستُ إلى المنضدة وإلى جانبـي غاردي استمعنا إلى دان هوفير وهو يعلن بحركة فاترة إسقاط التهم. وقد ساورني شكّ قويّ بأنّ هوفير يريد المضيّ قدماً بقضيته المحبوبة، والتي يؤمن بها بقوّة، لكن كوفمان قال لا؛ قال إن هذه الحفلة الصغيرة قد انتهت؛ قال دعنا نحدّ من خسائرنا ونتخلّص من هذا اللقيط المتطرّف وموكّله المعتوه.

وعندما انتهى العمل على توقيع الأوراق، أصبح غاردي حرّاً. لقد قضى السنة الماضية في سجنٍ قاسٍ؛ سجن كان عليّ أن أختبره بنفسي. لكنّ سنة واحدة في السجن لرجل بريء تعتبر حظّاً صافياً في نظامنا. هنالك آلاف من الذين حُبسوا لعقود من الزمن، لكن ذلك موضوع له بحث آخر.

كان غاردي محتاراً، ولا يعرف أين ينبغي أن يذهب أو ما الذي يجب أن يفعله. وحين اقتادونا خارج مكتب كوفمان، ناولته ورقتين من فئة العشرين دولاراً وتمنّيتُ له حظّاً سعيداً. سوف يسوقونه إلى السجن مجدداً ليتسلّم أماناته، ومن هناك ستأخذه أمّه إلى مكان آمن ما. لن أراه ثانية.

لم يقل شكراً لأنه لا يعرف ما ينبغي أن يقال. ولم أكن أريد معانقته لأنه لم يستحمّ ليلة أمس، لكنّنا تدبّرنا عناقاً سريعاً في مدخل ضيّق بينما

كان مفوّضا شرطة يراقباننا. وقد ظللتُ أردّد «انتهى الأمر يا غاردي»؛ لكنّه لم يكن يصدّقني.

انتشر الخبر فتجمّع بعض الغوغاء في الخارج. لن تُصدِّق بلدة ميلو أحداً أو أمراً سوى أن غاردي قتل الطفلتين فينتريس، بغضّ النظر عن الدليل. وهذا ما يحدث حين يتصرّف رجال الشرطة بناءً على حدس لا يستند إلى منطق، فيزحفون في الاتّجاه الخطأ، فيلجأون إلى بثّ الإشاعات فيضلّلون الصحافة معهم. وقد انضمّ المدّعي العامّ إلى الاستعراض مبكراً، ولم يمض وقت طويل حتى أصبح الأمر أشبه بحفلة قتل منظّمة وشبه شرعية.

تسلّلتُ من باب جانبـي إلى حيث ينتظرني الرفيق. تمكّنا من الهرب، من دون مرافقة من أيّ نوع، وخلال انطلاقنا بسرعة بعيداً عن مبنى المحكمة أصابت زجاجنا الأمامي حبّتا طماطم وبيضة واحدة. لم يسعني سوى الضحك. ها أنا مرة أخرى أغادر بلدة أخرى بمنتهى الاحترام.

الجزء الثاني
غرفة الترفيه

.1

يحاول المحظوظون من الناس تفادي حكم الإعدام. أمّا لينك سكانلون فلم يكن محظوظاً جداً؛ مع العلم أنك لا تستطيع العثور في هذه المدينة على ثلاثة أشخاص يهمّهم أمر لينك أو حظّه. هذا، ويقطن في هذه المدينة حوالى مليون شخص، وحين أدين لينك أخيراً وأُبعد عن المدينة، فقد أحسّ الجميع عملياً بدرجة ما من الارتياح. فشبكات تهريب المخدّرات تلقّت ضربة حادّة، على الرغم من أنها تعافت منها سريعاً. كما أغلق العديد من النوادي أبوابه، وهي النوادي التي جذبت العديد من الزوجات الشابات. أمّا أولياء أمور الفتيات المراهقات فقد شعروا أن بناتهم أصبحن في بيئة أكثر أماناً. وأحسّ مالكو السيارات الرياضية الفخمة بالارتياح، حيث انخفض معدّل سرقة السيارات. أمّا الأمر الأكثر أهمية، فهو أن ضباط مكافحة المخدرات ورجال الشرطة قد

ارتاحوا قليلاً وانتظروا انخفاضاً ملحوظاً في معدّلات الجريمة. حدث ذلك، لكنّه لم يدم طويلاً.

حُكم على لينك بالموت من قِبل هيئة محلّفين شديدة الحصانة بتهمة قتل أحد القضاة. وبعد وصوله مباشرة إلى قسم المحكومين بالإعدام، وُجد محامي الدفاع الرئيس عنه مختنقاً. لذلك، أعتقد أن نقابة المحامين في المدينة شعرت بالارتياح أيضاً بعد قرار التخلّص من لينك.

وبعد التمعّن في الأمر، لا بدّ وأن هناك عدّة مئات من الأشخاص الذين افتقدوا لينك بالفعل. ومن بين هؤلاء مجهّزي الجنازات، وموزّعي المخدرات، ومشغلي ورشات تفكيك السيارات المسروقة، ورجال الشرطة الفاسدين، وذلك على سبيل الذكر لا الحصر. لكنّ هذا لم يعد أمراً مهمّاً الآن. كان كذلك قبل ستّ سنوات، فحين أصبح لينك في السجن، أثبت قدرته على إدارة أغلب أعماله من خلف القضبان.

إنّ كلّ ما أراده في حياته هو أن يصبح من رجال العصابات، من نمط شخصية آل كابوني القديمة؛ شخصاً متعطشاً للدم والعنف والسيولة المالية غير المحدودة. كان أبوه مهرّباً للمخدّرات، وكان قد مات بداء التليّف الكبدي. أمّا أمّه فقد تزوّجت مراراً، وكانت زيجاتها سيئة في معظمها. وقد اجتاح لينك، غير المقيّد بحياة عائلية طبيعية، الشوارع في عمر الثانية عشرة فأتقن أعمال اللصوصية التافهة بسرعة. ومع بلوغه سنّ الخامسة عشرة، شكّل عصابته الخاصة، وكان يبيع الحشيش في المدارس الثانوية. وقد اعتُقل في سنّ السادسة عشرة، فعوقب بعقوبة

تأنيبية خفيفة؛ وهكذا انخرط في علاقة طويلة وملوّنة مع نظام العدالة الجنائي.

وقد ظلّ حتى بلوغه سنّ العشرين يحمل اسم جورج. وهو اسم لم يكن ملائماً، لذا اتّخذ لنفسه عدداً من الأسماء المستعارة ثمّ نبذها الواحد تلو الآخر، مثل «السوط»æ«الرئيس». ثمّ استقرّ أخيراً على لينك [الرابط] وذلك لأنه، أي جورج سكانلون، ارتبط في أغلب الأحيان بالعديد من الجرائم المختلفة. وقد لاءمه اسم لينك بشكل رائع فوكّل محامياً لاعتماده قانونياً. لينك سكانلون فقط، من دون اسم أوسط، ومن دون لاحقة من أي نوع في نهايته. وقد أعطاه الاسم الجديد هوية جديدة؛ فغدا رجلاً جديداً لديه هدف يريد تحقيقه. ثمّ أصبح متهوّراً في رغبته في أن يصبح رجل المافيا الأقسى في البلدة، فنجح في ذلك نجاحاً ملحوظاً. وعندما بلغ الثلاثين من العمر، كانت عصابة لينك تقتل بانتظام من أجل السيطرة على الأعمال غير المشروعة في المدينة، ومن أجل اقتطاع حصّته من تهريب المخدّرات.

حُكم عليه بالإعدام منذ ستّ سنوات، وقد حُدّد موعد إعدامه في الساعة العاشرة من هذه الليلة. ومن الجدير بالذكر أن ستّ سنوات ليست مدّة طويلة بالنسبة لحكم الإعدام؛ فبحسب المعدّل العامّ، في هذه الولاية على الأقل، تستغرق إجراءات الاستئناف أربعة عشر عاماً قبل تنفيذ حكم الإعدام. ومن غير المستغرب أن يستغرق الأمر عشرين عاماً. أمّا المدّة الأقصر فقد كانت سنتان، لكن ذلك الرجل استجدى الحقنة. ومن الإنصاف القول إن قضيّة لينك قد سُرِّعت، أو عُجّلت. اقتل

قاضياً وسيثور جميع القضاة. ومن الملفت للنظر أن طلبات الاستئناف التي قدّمها لاقت تأخيرات متعدّدة. وقد صُدِّقت إدانته، ثمّ صُدِّقت، وأعيد التصديق عليها. وقد اتُّخذت القرارات بالإجماع، ولم تشهد أي معارضة في أي مكان، سواء على مستوى الولاية، أم المستوى الاتّحادي. كما أن المحكمة الأمريكية العليا رفضت النظر في قضيته. لقد أساء لينك إلى أولئك الذين يديرون النظام فعلياً، وفي هذه الليلة سينتقم النظام منه انتقاماً نهائياً.

القاضي ناغي هو من قتله لينك. وهو، أي لينك، لم يضغط في الحقيقة على الزناد؛ بل أصدر بدلاً من ذلك الأمر لمن يلزم بأنّه يريد ناغي ميتاً. وقد كُلّف بالمهمة قاتل مأجور يدعى نوكيلز لم يتوان عن تنفيذ المهمّة بأسلوب رائع. بعد ذلك، وُجد القاضي ناغي وزوجته في السرير، في ثياب النوم، وفي رأسيهما العديد من ثقوب الطلقات النارية. ثمّ أكثر نوكيلز بعد ذلك من الكلام، وكانت الشرطة قد وضعت أجهزة التنصّت في المكان المناسب. وقد حُكم بعد ذلك على نوكيلز بالإعدام أيضاً، وبعد سنتين تقريباً وُجد وقد سال من فمه وحنجرته سائل التنظيف «درانو» السامّ. استجوب رجال الشرطة لينك، لكنّه أقسم بأنّه لا يعلم شيئاً حول الأمر.

ما هو الذنب الذي اقترفه القاضي ناغي؟ كان القاضي ناغي من النوع المتشدّد في تطبيق القانون والنظام، وكان مشهوراً بكراهيته للمخدّرات وبتطبيق أشدّ العقوبات على المهرّبين. وقد كان حينها على وشك إصدار الحكم على اثنين من أفضل أتباع لينك - أحدهما كان ابن

عمه - بعقوبة تصل إلى مئة عام لكلّ منهما، وهو أمر أزعج لينك. ففي رأيه، كانت تلك بلدته، وليست بلدة ناغي. وهو، أي لينك، كان يريد منذ سنوات الإطاحة بقاضٍ؛ وذلك كنوع من الردع النهائي. اقتل قاضياً، ثمّ أفلت من العقاب، وسيعرف العالم بأنّك في الحقيقة فوق القانون.

وبعد مقتل محامي الدفاع عنه، اعتقد الناس بأنّني أحمق جدّاً كي أتولى قضيته. نتيجة سيّئة أخرى للينك، وقد يجدونني في قاع بحيرة ما. لكن ذلك حدث قبل ستّ سنوات؛ ثمّ إنني ولينك أصبحنا على أفضل ما يرام. فهو يعلم جيّداً أنّني حاولت أنقاذ حياته. وسوف يفعل المثل بالنسبة إليّ. فما الذي سيكسبه من قتل محاميه الأخير؟

.2

دلفنا أنا والرفيق إلى الباب الرئيس في بيغ ويلير، وهو سجن مشدّد الحراسة يُحبس فيه المحكومون بالإعدام وتُنفّذ فيه الأحكام. تقدّم الحارس نحو باب الراكب بجانب السائق، وقال: «الاسم؟».

«رود، سيباستيان رودّ. جئتُ لرؤية لينك سكانلون».

«بالطبع»، قال. اسم ذلك الحارس هارفي، وكنّا قد دردشنا قليلاً من قبل؛ لكن ليس الليلة. ذلك أن بيغ ويلير مغلق الليلة تماماً، وثمة إثارة في الجوّ. لقد حان وقت الإعدام! هذا وقد تجمّع بعض المحتجّين عند الجانب الآخر من الطريق وهم يحملون الشموع ويرتّلون ترنيمة حزينة، في حين يهتف آخرون دعماً لعقوبة الموت. كذلك الأمر، ظلّت الشاحنات الصغيرة التابعة لمحطّات التلفزة الإخبارية تذرع الطريق السريع ذهاباً وإياباً.

خربش هارفي شيئاً على لوح لحمل الأوراق، ثمّ قال: «الوحدة التاسعة».

وحين أوشكنا على الابتعاد، اتّكأ نحوي وهمس: «ما هي فرصك؟».

«قليلة»، أجبته ونحن نتحرّك إلى الأمام. سرنا خلف شاحنة أمن تابعة للسجن، وقد وقف على ظهرها عدد من الرجال المسلّحين؛ بالإضافة إلى أنّ شاحنة أخرى مثلها سارت خلفنا. وقد أعمتنا الأضواء الكاشفة تقريباً، حيث سُلّطت علينا ونحن نتقدّم، مروراً بالمباني المضاءة بقوّة حيث أُقفلت الأبواب على ثلاثة ألاف سجين في زنازينهم وهم ينتظرون موت لينك لكي تعود الأمور إلى طبيعتها المعتادة. وليس هناك سبب معقول يستدعي كل هذا الاستنفار في السجن عندما يكون هناك إعدام. فلا حاجة إلى الاحتياطات الأمنية الإضافية. فلم يسبق لأحد أبداً أن هرب من تنفيذ حكم الإعدام. ذلك أن المدانين يعيشون هناك في عزلة تامّة، وليس لديهم بالتالي عصابة من الأصدقاء الذين قد يقرّرون اقتحام الباستيل وتحرير الجميع. لكنّ الطقوس مهمّة بالنسبة لأولئك الذين يديرون السجون، ولا شيء يمكنه رفع مستوى الأدرينالين لديهم مثل الإعدام. فحياتهم الجوفاء مملّة ورتيبة، لكنّ الإثارة تشتدّ من حين لآخر، ويتسارع الإيقاع عندما يحين الوقت لقتل أحد القتلة. ولا يُهمل حينئذٍ أي جهد ممكن من أجل متابعة الدراما المتصاعدة.

والوحدة التاسعة بعيدة من الوحدات الأخرى، وهي محاطة بالسلاسل والأسلاك الشائكة التي تكفي لصدّ هجوم الجنرال آيك على شواطئ النورماندي. وصلنا في نهاية المطاف إلى بوابة يحرسها فصيل من

الحرّاس المتوثّبين والمتلهّفين على تفتيشي وتفتيش الرفيق وتفتيش حقيبتينا. ولقد بدا هؤلاء الأولاد في غاية التشوّق بخصوص تلك الاحتفاليّة المسائيّة. ثمّ دخلنا المبنى مع المرافقين، وقادني المرافقون إلى مكتب مؤقت حيث وجدتُ المأمور ماكدوف بانتظاري وهو يقضم أظافره، وقد ظهر عليه التوتّر بوضوح. وعندما أصبحنا وحيدين في تلك الغرفة التي لا نوافذ لها قال: «هل سمعت؟».

«سمعتُ ماذا؟».

«قبل عشر دقائق، انفجرت قنبلة في مبنى المحكمة القديم؛ قاعة المحكمة نفسها التي أُدين فيها لينك».

دخلتُ قاعة المحكمة تلك وجلستُ فيها مئة مرة؛ لذا، نعم، صُدمتُ لسماع خبر تفجيرها. ومن ناحية أخرى، ليس أمراً مفاجئاً اكتشاف أن لينك سكانلون لا ينوي الانصراف بهدوء.

«هل تأذى أحد؟»، سألت.

«لا أظنّ ذلك. كان مبنى المحكمة مغلقاً».

«عظيم».

«نعم، عظيم. يُستحسن أن تتحدّث إليه يا رود، وبسرعة».

استهجنتُ ذلك وبادرتُ المأمور بنظرة يائسة. ذلك أن محاولة التحدّث بالمنطق مع شقيّ مثل لينك سكانلون ليست سوى مضيعة للوقت. «لستُ سوى محاميه»، قلت.

«ماذا لو آذى شخصاً ما...».

«هيّا، أيها المأمور. سوف تعدمه الولاية خلال بضع ساعات. ما الذي يمكنها أن تفعل به غير ذلك؟».

«أعرف، أعرف. أين الاستئنافات؟»، سألني وهو يقضم شظية من ظفر إبهامه بين أسنانه الأمامية. وقد بدا كمن سيقفز من جلده.

«الدائرة الخامسة عشرة»، قلت. ثمّ أضفت: «جهود اللحظات الأخيرة. كلّ ما نقوم به في هذه المرحلة هو جهود اللحظات الأخيرة أيها المأمور. أين لينك؟».

«في غرفة الحجز. ينبغي أن أعود إلى مكتبي وأتكلّم مع الحاكم».

«بلّغه تحياتي. وقل له إنه لم يبتّ بعد في طلبي الأخير بشأن إرجاء تنفيذ الحكم».

«سأفعل ذلك»، قال المأمور وهو يغادر الغرفة.

«شكراً».

قلة من الناس في هذه الولاية يحبّون الإعدام كما يحبّه حاكمنا الوسيم. ومن عاداته أن ينتظر حتى آخر لحظة ممكنة، ثمّ يظهر بملامح متجهّمة أمام الكاميرات ويعلن للعالم أنّه لا يستطيع أن يخون ضميره ليمنح تأجيلاً إضافياً. وسيتحدّث بعد ذلك، وهو يكاد يبكي، عن الضحيّة، ويعلن أنّ العدالة يجب أن تأخذ مجراها.

تبعتُ حارسين مدججين بالعتاد العسكري الكامل عبر متاهة أوصلتنا في النهاية إلى غرفة الترفيه. والغرفة المذكورة ليست سوى زنزانة حجز كبيرة يوضع فيها المحكوم بالموت قبل خمس ساعات بالضبط من لحظته الحاسمة. وهنالك ينتظر مع محاميه، ومستشاره الروحي، وربّما بعض أفراد العائلة. والاتّصال الكامل مسموح في هذه الغرفة، ويمكن أن تكون هناك بعض اللحظات الحزينة جدّاً حين تصل الأم من أجل عناق أخير. وتقدَّم وجبة الطعام الأخيرة قبل ساعتين بالضبط من الانطلاق النهائي، وبعد ذلك لا يمكن لأحد أن يتواجد في المكان سوى المحامي.

منذ عقود خلت، استخدمت الولاية فرقة إعدام. وكان المحكوم يُكبّل وتُقيّد قدماه ويربط إلى كرسيّ، ثمّ يوضع حجاب أسود على رأسه، ويُعلّق صليب أحمر لامع على قميصه، فوق قلبه. وعلى مسافة خمسون قدماً ينتظر خمسة متطوعين خلف ستارة وهم متسلّحون بالبنادق الفتّاكة، بالرغم من أنّ أربعة منها فقط محشوة. والغاية من ذلك هي أن لا يعرف أي من هؤلاء الخمسة على وجه التأكيد أنّه هو من قتل المحكوم؛ وهي نظرية تهدف إلى التخفيف، بطريقة ما، من الشعور بالذنب لاحقاً في الحياة، في حال غيّر المشارك في إطلاق النار رأيه في ما فعل، وأرهقه الشعور بالذنب. يا لها من خرافة! كان هناك على الدوام قائمة طويلة من المتطوعين المتلهّفين جميعاً لإطلاق رصاصة الموت نحو قلب رجل آخر.

على أية حال، تتميّز رطانة السجن في أنها حيوية وإبداعية، لذلك، وبمرور الوقت، اكتسبت غرفة الإعدام لقبها الخاصّ... غرفة الترفيه.

وتزعم الأسطورة أن المنفذ الهوائي يترك مفتوحاً عمداً لكي يتردّد صوت البنادق الذي يصمّ الآذان فوق السجن. وعندما تبنّينا أسلوب حقنة الموت، لأسباب إنسانية، أصبحت المساحة المطلوبة للتنفيذ أقلّ. وقد أُعيد النظر في إجراءات تنفيذ حكم الإعدام ووسائله؛ أضيفت الجدران هنا وهناك. ويمكن الافتراض أن غرفة الترفيه الحالية تتضمّن البقعة ذاتها حيث كان يجلس المحكومون بالموت بانتظار الرصاص.

فتشوني ثانية وأنا أعبر الباب. كان لينك وحيداً، جالساً على كرسيّ قابل للطيّ قرب جدار من الطابوق الصخري. كانت الأضواء خفيضة. وكان منشدّاً بالكامل إلى شاشة تلفزيون صغيرة وصامتة عُلّقت في إحدى الزوايا، لذا لم يلاحظ وصولي. فيلمه المفضّل «العراب». شاهده مئة مرة، وقبل سنوات بدأ بالعمل على تقليد مارلون براندو. قلّد ذلك الصوت المؤلم والخشن، تلك البحّة الناجمة عن التدخين. والفكّ المشدود. والاستجابة البطيئة. والتحفّظ الأقرب إلى العزلة. ثمّ التجرّد الكامل من العواطف.

ويتميّز حكم الإعدام لدينا بقاعدة فريدة تقضي بأن يُسمح للمحكوم بالموت بارتداء الملابس التي يريدها. وهي قاعدة مضحكة لأن هؤلاء الرجال، بعد أن مضى عليهم هنا عشرة، أو خمسة عشر، أو عشرون عاماً، فليس لديهم شيء يمكن اعتباره خزانة ملابس. لا شيء سوى ثياب السجن الرسمية؛ وربّما زوج من سراويل الخاكي البالية وفانيلة لارتدائها أثناء الزيارة؛ والصنادل؛ والجوارب السميكة للشتاء. أمّا لينك، فلديه المال ويريد أن يُدفن مرتدياً اللون الأسود الخالص. وقد ارتدى

قميصاً كتّانياً أسود ذا كمّين طويلين زُرّرا عند الرسغين، وسروال جينز أسود، وجوارب سوداء، وحذاء رياضياً أسود. وهو ليس أنيقاً كما يظنّ، لكن من يهتمّ الآن بالأناقة؟

أخيراً قال: «ظننتُ أنّك ستذهب لإنقاذي».

«لم أقل ذلك أبداً يا لينك. حتى أنني كتبته».

«لكنّني دفعتُ لك كلّ ذلك المال».

«الأجر العالي لا يضمن الحصول على نتيجة جيّدة. وهذا مكتوب أيضاً».

«محامون»، شخر باشمئزاز، فلم استخفّ بذلك. لم أنسَ أبداً ما حدث لمحاميه الأخير. مال إلى الأمام ببطء، ثمّ دفع كرسيه ونهض. لقد بلغ لينك الخمسين من عمره الآن، وقد صرف أغلب وقته في سجن المحكومين بالإعدام في المحافظة على وسامته، قدر المستطاع. لكنّه شاخ بسرعة، مع العلم أنّني أشكّ في حقيقة أن أي شخص حُدّد تاريخ إعدامه يمكنه القلق كثيراً حول التجاعيد والشعر الرمادي. سار بضع خطوات وأطفأ التلفزيون.

ربّما كانت مساحة الغرفة خمسة عشر في خمسة عشر قدماً، وفيها منضدة صغيرة، وثلاثة كراسي قابلة للطيّ، وسرير من النمط العسكري الرخيص، في حال أراد المحكوم أن يغفو قليلاً قبل أن يُرسل إلى استراحته الأبديّة. وقد أتيتُ إلى هنا مرّة من قبل، قبل ثلاث سنوات، حين كنتُ مع

موكّلي قبل ثلاثين دقيقة من تلقيه حقنة الموت، وقبل أن تصلنا المعجزة من محكمة الدائرة الخامسة عشرة.

لكنّ لينك لن يكون محظوظاً جداً. جلس على زاوية من المنضدة ونظر إلى الأسفل نحوي، ثمّ شخر قائلاً: «لقد وثقتُ بك».

«ولم تكن ثقتك في غير محلّها يا لينك. قاتلت بشراسة من أجلك».

«لكنّني مجنون، قانونياً، ولم تستطع إقناع أحد بذلك. مجنون جدّاً. لماذا لا تجعلهم يرون هذا؟».

«حاولتُ وأنت تعرف ذلك، لينك. لم يستمع أحد لأنهم لا يريدون الاستماع. لقد قتلتَ الشخص الخطأ، قاضٍ. اقتل قاضياً، وسوف يثور إخوته».

«أنا لم أقتله».

«حسناً، قالت هيئة المحلّفين أنّك فعلت. ذلك هو المهم». لقد دار بيننا هذا الحديث ألف مرة، فلِمَ لا نعيده مرّة أخرى؟ فالآن، قبل أقل من خمس ساعات من النهاية، سأدردش مع لينك حول أيّ موضوع.

«أنا مجنون يا سيباستيان. ذهب عقلي».

يقال في أغلب الأحيان أنّ أي محكوم الإعدام يصاب بالجنون. ثلاث وعشرون ساعة من العزلة يومياً تكسر الإنسان عقلياً، وجسدياً، وعاطفياً. مع العلم أن لينك لم يعانِ من ذلك مثل غيره بالضبط. فقبل سنوات شرحتُ له أنّ المحكمة الأمريكية العليا قضت أن الولاية لا تستطيع

إعدام شخص هو أمّا متخلّف عقلياً أو أنه أصبح مختلاً عقلياً. بعد ذلك بوقت قصير، قرّر لينك ادّعاء الجنون، وبدأ يتصرّف بناء على ذلك. وقد وفق المأمور في ذلك الوقت على نقل لينك إلى وحدة العلاج النفسي، حيث تمتّع ببيئة أكثر راحة بكثير. عاش لينك هناك مدّة ثلاث سنوات، حتى نقّب أحد الصحفيين عميقاً وبما يكفي لاكتشاف أثر المال بين مختلف أفراد عائلة المأمور المقرّبين، وصلة ذلك ببعض عصابات الجريمة المنظّمة. تقاعد المأمور بسرعة وأفلت من التهمة. أمّا لينك فقد عوقب بإعادته إلى قسم المحكومين بالإعدام، وبقي هناك لمدّة شهر تقريباً، قبل أن يُنقل إلى الحبس الوقائي. وهناك كانت لديه زنزانة أكبر وامتيازات أكثر. وقد وفّر له الحرّاس كلّ ما أراده لأن صبيان لينك في الخارج كانوا يعتنون بالحرّاس من ناحية النقد والمخدّرات. وبمرور الوقت، عالج لينك الأمور فتمكّن من ترتيب نقله إلى وحدة العلاج النفسي.

وخلال سنواته الستّ في بيغ ويلير، قضى حوالى اثنا عشر شهراً محبوساً مع غيره من القتلة المحكومين بالإعدام.

قلتُ له: «أخبرني المأمور للتوّ أن مبنى المحكمة فُجّر بعد ظهر اليوم. قاعة المحكمة نفسها التي أُدنتَ فيها. هل هي صدفة، هاه؟».

عبس وأبدى لا مبالاة على طريقة براندو المعتادة، ولم يكشف شيئاً. «هل لديّ استئناف يتراكض في مكان ما الآن، في هذه اللحظة؟»، قال.

«نعم، في الدائرة الخامسة عشرة، لكن لا تتحمّس كثيراً».

«هل تقول لي أنّني سأموت، سيباستيان؟»

«أخبرتك بذلك الأسبوع الماضي، لينك. لقد حيكت المسألة وقضي الأمر. وطلبات الاستئناف التي تُقدَّم في الدقائق الأخيرة عديمة القيمة. شُرِّع كلّ شيء. وسُدّت كل المنافذ القانونية. ولم يبق لنا شيء يمكن أن نفعله الآن سوى الانتظار والأمل بحدوث معجزة».

«كان عليّ أن أوكّل ذلك المحامي اليهودي المتطرّف، ما اسمه، لوينشتاين؟».

«ربّما، لكنّك لم تفعل. كان لديه ثلاثة موكّلين أُعدموا في السنوات الأربع الماضية».

أعرف مارك لوينشتاين وهو محامٍ جيّد. ونحن نتقاسم أغلب القضايا التي لا يجرؤ أحد على الاقتراب منها في هذا الجزء من الولاية. تذبذب هاتفي الخلوي. أنها رسالة نصّية: الدائرة الخامسة عشرة رفضت الاستئناف للتوّ.

قلت: «أخبار سيئة يا لينك؛ الدائرة الخامسة عشرة رفضت طلبنا للتوّ».

لم يقل شيئاً، مشى قليلاً وأدار التلفزيون.

أدرتُ مفتاح الإضاءة لإنارة الغرفة أكثر وسألت: «هل سيمرّ ابنك الليلة؟».

شخر قائلاً: «لا».

لديه ابن واحد؛ ابن خرج مؤخراً من سجن اتّحادي. جريمة ابتزاز. وقد نشأ في بيئة أعمال عائلته، وهو يحبّ والده العجوز؛ لكن لا يمكن لأحد أن يلومه على تفادي المجيء إلى السجن، حتى للزيارة. قال لينك: «سبق وأن ودعنا بعضنا».

«إذاً، لا ضيوف لديك الليلة؟».

شخر ولم يقل شيئاً. لا، لا زوّار من أجل العناق الأخير. تزوّج لينك مرّتان، لكنه كره كلتا الزوجتين السابقتين. وهو لم يتحدّث إلى أمّه منذ أكثر من عشرين عاماً. وقد اختفى أخوه الوحيد بشكل غامض بعد صفقة عمل سيئة. مدّ لينك يده إلى جيبه، ثمّ تناول هاتفاً خلوياً، وأجرى اتّصالاً. والهواتف الخلوية محرّمة في السجن تحريماً شديداً، وقد عثروا على دزينة منها مع لينك على مرّ السنين. يهرّبها له الحرّاس؛ وقد أُمسك بأحدهم فقال إنّه تلقى مبلغ ألف دولار نقداً من شخص غريب في موقف سيارات مطعم بيرغر كينغ، بعد تناول الغداء.

كانت مكالمة سريعة - لم أفهم منها كلمة واحدة - أعاد بعدها لينك الهاتف إلى جيبه. ثمّ، وباستعمال جهاز التحكّم من بُعد، غيّر القنوات فشاهدنا عرضاً للأنباء على شبكة أخبار محليّة. وقد ظهر في وسائل الإعلام الكثير من الاهتمام حول قرار إعدامه. وقد أنجز أحد المراسلين تقريراً جيّداً استعاد فيه وقائع مقتل القاضي ناغي. وقد بُثّت في ذلك التقرير صور القاضي وزوجته، وهي سيدة جميلة.

عرفتُ القاضي جيّداً وترافعتُ عدّة مرات في قاعة محكمته. وقد كان صلباً وعنيداً، لكنّه عادل وذكي. صدمنا مقتله، ولم نفاجأ كثيراً حين وُجّهت أصابع الاتّهام إلى لينك سكانلون. ولقد عرضوا في التقرير أيضاً مقطعاً عن نوكيلز، المسلّح الذي أطلق النار، وهو يغادر مبنى المحكمة مكبلاً بالأصفاد. يا له من شرّير.

قلت: «هل تعلم أنّ لك الحق في الاستعانة بمستشار روحي؟»

شخر قائلاً: «لا».

«ثمة قسيس في السجن، إذا كنتَ تودّ التحدّث إليه».

«ما هو القسيس؟».

«رجل دين».

«وما الذي يمكن أن يقوله لي؟».

«أوه، لا أعرف، يا لينك. قيل لي أنّ بعض الناس يرغبون، قبل أن يرحلوا مباشرة، في طلب بعض الأشياء من الله، مثل الاعتراف بذنوبهم، وأشياء من هذا القبيل».

«قد يستغرق ذلك بعض الوقت».

سيكون الندم فعل ضعف لا يغتفر بالنسبة لزعيم عصابة مثل لينك. وليس لديه بالتأكيد أية ذرّة من الندم حول جريمة قتل ناغي أو جميع أولئك الذين سبقوه. حدّق إليّ، ثمّ قال: «ما الذي تفعله هنا؟».

«أنا محاميك. ومن واجبـي أن أكون هنا، لكي أتأكّد من أن طلبات الاستئناف الأخيرة قد سلكت مسارها اللازم. ولتقديم المشورة».

«ومشورتك هي أن أتكلّم مع قسيس؟».

قوطعنا فجأة بقرعة قوية على الباب الذي فُتح فوراً ليدخل منه رجل يرتدي بدلة تجوال رخيصة، مرفقاً بحارسين. قال: «سيّد سكانلون، أنا جيس فورمان، المأمور المساعد».

«سرور حقيقي»، قال لينك من دون أن يُحوِّل عينيه عن شاشة التلفزيون.

تجاهلني فورمان وقال: «لديّ قائمة بكلّ أولئك الذين سيشهدون الإعدام. لا أحد على قائمتك، أليس كذلك؟».

«صحيح».

«هل أنت متأكّد؟».

تجاهل لينك السؤال الأخير. فانتظر فورمان قليلاً، ثمّ قال: «ماذا عن محاميك؟».

«سأكون موجوداً»، قلت. يدعى المحامي دائماً للحضور.

«هل سيحضر أي شخص من عائلة القاضي ناغي؟»، سألت.

«نعم، أطفاله الثلاثة جميعاً». وضع فورمان القائمة على المنضدة وغادر. وحين صُفق الباب خلفه، قال لينك: «هذا هو». ثمّ التقط جهاز التحكّم ورفع صوت التلفاز.

خبر عاجل؛ انفجرت قنبلة للتوّ في مبنى المحكمة المهيب، حيث تقوم الدائرة القضائية الخامسة عشرة بعملها. وقد بدا المشهد خارج المبنى شديد الاهتياج حيث كان رجال الشرطة والإطفاء يتراكضون في كلّ مكان. وتصاعد الدخان من نافذة في الطابق الثاني. وقد تقطّعت أنفاس المراسل وهو يعدو في الشارع يتبعه مصوّره، باحثاً عن زاوية أفضل، متحدّثاً بسرعة وبلا انقطاع حول ما حدث.

توهّجت عينا لينك وهو يشاهد الأحداث. قلت: «نجاح باهر، صدفة أخرى». لكنّ لينك لم يسمعني. وقد حاولتُ التصرّف ببرود، وهدوء، كما لو أنّ هذا كلّه غير مهمّ. مجرّد قنبلة هنا، قنبلة هناك. بعد ذلك، تأتي مكالمتان هاتفيتان تأمران بتنفيذ حكم الإعدام، فتُضاء المصابيح. لكنّني كنتُ شديد التعجّب.

من سيكون التالي؟ قاضٍ آخر، هل هو ذلك الذي ترأّس محاكمته وأصدر الحكم عليه بالموت؟ ذلك هو القاضي كون؛ وهو الذي حظي منذ تقاعده، ولمدة سنتين تقريباً أثناء وبعد المحاكمة، بحماية مسلّحة. ربما بعض المحلّفين؟ هؤلاء عاشوا فيما بعد حياة حذرة وتحت مراقبة دقيقة من الشرطة. لذلك لم يتأذ أحد أو يتعرّض للتهديد.

شخر لينك قائلاً: «أين ذهب طلب الاستئناف الآن؟».

خمّنتُ أنّه يخطّط لتفجير جميع مباني المحاكم، من هنا إلى واشنطن. وهو يعرف الإجابة عن سؤاله؛ ناقشنا ذلك بما يكفي. أجبتُ: «المحكمة العليا في واشنطن العاصمة، لماذا تسأل؟».

تجاهلَ سؤالي. بعد ذلك، شاهدنا التلفزيون لبعض الوقت. وقد التقطت شبكة سي إن إن القصّة، وبأسلوبها الهستيري المعتاد وضعتنا سريعاً في أقصى حالات الاستنفار، متسائلة عمّا إذا كانت هذه إحدى غزوات الجهاديين.

كان لينك يبتسم.

بعد ذلك بنصف ساعة، عاد المأمور وكان شديد الاهتياج. سحبني من الغرفة وفحّ بصوت خفيض: «هل سمعت عن الدائرة الخامسة عشرة؟»

«كنّا نشاهد ذلك».

«يجب أن توقفه».

«من؟»

«لا تستغبني، اللعنة! أنت تعرف ما الذي أتحدّث عنه».

«نحن لا نسيطر على الأمور من هنا، أيها المأمور. والمحاكم لها مواعيدها وجداول أعمالها الخاصة. أمّا صبيان لينك فلديهم أوامرهم، ذلك أمر واضح. إضافة إلى ما تقدّم، قد تكون التفجيرات عرضية».

«نعم، صحيح. وها هم عناصر مكتب التحقيقات الفدرالي في الطّريق إلى هنا».

«أوه، هذا جيّد بالفعل، وفي منتهى الذكاء. سيتلقّى موكّلي حقنة الموت بعد ثلاث ساعات وأربع عشرة دقيقة بالضبط؛ وعلى الرغم من ذلك يريد مكتب التحقيقات الفدرالي استجوابه حول هذه التفجيرات. إنّه مجرم محنّك، أيها المأمور، شقيّ من المدرسة القديمة. لقد اشتدّت المعركة. وسيبصق على أيّ محقق من مكتب التحقيقات الفدرالي ضمن محيط عشرين قدماً».

بدا المأمور كمن يوشك أن يغيب عن الوعي. «يجب أن نفعل شيئاً»، قال وعيناه زائغتان. ثمّ أضاف: «الحاكم يصرخ في وجهي. الجميع يصرخ في وجهي».

«حسناً، يعود الأمر للحاكم، إذا سألتني رأيي. ليمنح التأجيل، وأفترض حينئذٍ أن لينك سيوقف حملة التفجير. على الرغم من أنّني لستُ متأكّداً من ذلك، فهو لا يصغي إلي».

«هل يمكنك أن تسأله؟».

ضحكتُ بأعلى صوتي. «بالتأكيد، أيها المأمور، سأتحدّث إلى موكّلي، حديثاً من القلب إلى القلب، وسأدفعه إلى الاعتراف، ثمّ أقنعه بالتوقّف عمّا سيعترف بأنّه قام به. لا مشكلة».

بدا محبطاً جداً وأعجز من أن يردّ على ما قلت، لذا غادر المكان وهو يهزّ رأسه، ويقضم أظافره؛ إنّه مجرّد بيروقراطي آخر مربك كليّاً

باتّخاذ القرارات. عدتُ إلى الغرفة وسحبتُ كرسياً وجلست. كان لينك منشدّاً تماماً إلى شاشة التلفزيون.

«ذلك كان المأمور»، قلت. ثمّ أضفت: «وسيكونون شديدي الامتنان بالفعل إذا أوقفتَ الكلاب».

لم يردّ. ولم يُبدِ تعاوناً.

استطاعت السي إن إن أخيراً وضع النقاط على الحروف، ثمّ أصبح موكّلي فجأة خبر الساعة العاجل. بثّوا صورة لينك؛ صورة قديمة تُظهره أصغر بكثير مما هو الآن، وذلك خلال إجرائهم لمقابلة مع المدّعي العامّ الذي أدانه. ومن طرف المنضدة الآخر، سمعتُ اللعنات التي ردّدها لينك مع تردّد أنفاسه، مع أنّه ما زال يبتسم. لا علاقة لي بالأمر؛ لكن، إذا خطرت في بالي مسألة زراعة القنابل، فسيكون مكتب هذا الرجل في أعلى قائمة العناوين لديّ.

اسمه ماكس مانسيني، المدّعي العامّ الرئيس في المدينة، وهو أسطورة حقيقية من حيث الذكاء وتوقّد الذهن. وهو لم يتوقّف عن الظهور في الصحافة طوال الأسبوع مع تصاعد أصوات العدّ التنازلي. وسيكون إعدام لينك هو الإعدام الأول الذي ينفّذه المدّعي العامّ، ولن يتنازل عنه مقابل أي شيء. بصراحة، لستُ أفهم كيف اختار لينك القضاء على محاميه الخاص بدلاً من اصطياد مانسيني. لكنّني لن أسأل.

ومن الواضح، أنّنا، أنا ولينك، نقرأ في الصفحة نفسها. فلم يكد المراسل ينهي المقابلة، حتى سُمعت ضوضاء عالية في مكان ما في

الخلفية، وراء مانسيني. تراجعت الكاميرا إلى الخلف فتبيّن، لي أنّهم يقفون على الرصيف خارج مكتبه الواقع في وسط المدينة.

انفجار آخر.

.3

فُجّرت قاعة المحكمة في الساعة 5:00 مساء بالضبط؛ وفُجّرت الدائرة الخامسة عشرة في الساعة 6:00 بالضبط؛ وفُجّر مكتب المدّعي العامّ في الساعة 7:00 بالضبط.

ومع اقتراب الوقت من الساعة 8:00 مساء، ازدادت عصبية العديد من أولئك الذين شاء سوء حظهم أن تتقاطع دروبهم مع درب موكّلي. أمّا شبكة سي إن إن، والتي بلغت ذروة هياجها الآن، فقد أعلنت أنّ قوات الأمن طوّقت مبنى المحكمة العليا في واشنطن بالكامل. ولم يتوقّف مراسل الشبكة في موقع الأحداث عن عرض بضعة مكاتب تسطع فيها الأنوار في مبنى المحكمة، مما يدعونا للاعتقاد أن القضاة مجتمعون هناك، وهم منهمكون في العمل، يتجادلون في استحقاقات قضية لينك. لكنّهم ليسوا كذلك. فهم جميعاً آمنون إمّا في منازلهم، أو في المطاعم يتناولون طعام العشاء. وسيقوم أحد كتّابهم برفض عريضتنا في أيّة دقيقة من الآن.

يغصّ قصر الحاكم بشرطة الولاية، بعضهم مدجّج بالسلاح من رأسه إلى أخمص قدميه، مرتدياً لباس الميدان الكامل، كما لو أنّ لينك قد قرّر شنّ هجوم برّي كامل. وبوجود العديد من الكاميرات في المكان، والكثير من الإثارة في كل مكان، لم يستطع حاكمنا الوسيم مقاومة رغبته. فقبل عشر دقائق من موعده المحدّد، أسرع بالخروج من مخبئه للدردشة مع المراسلين، على الهواء مباشرة بالطبع. قال إنه لم يخف، وأن العدالة يجب أن تأخذ مجراها، وأنه يقوم بواجبه من دون خوف، وثرثر كثيراً... حتى الغثيان. وقد حاول الإيحاء أنه يتصارع بالفعل مع مسألة تأجيل تنفيذ الحكم، لذا فهو ليس مستعداً بعد لإعلان قراره. وقال إنّه سيُعلن القرار في وقت لاحق، إلى حوالى الساعة 9:55. وهو لم يحظَ بهذا القدر من المرح منذ سنوات.

ولقد راودتني الرغبة في أن أسأل لينك: «من هو التالي؟»، لكنّني لم أفعل. كنا نلعب الورق، بينما الساعة تدقّ وروما تحترق. وقد قال لي عدّة مرات أنّني أستطيع الانصراف، لكنّني بقيت في المكان. ولن أعترف بأنّني متحمّس لمشاهدة إعدامه، لكنّني مسحور به.

لم يتأذ أحد. فالقنابل الثلاث كانت أساساً عبارة عن عبوات من البنزين، طبقاً لما سُمّي بالخبير الذي جاءت به السي إن إن للتعليق على الأمر. ويرجّح أنها عبارة عن قنابل موقوتة بدائية، ربّما وُضعت ضمن رزم صغيرة، صُمّمت لإحداث ضوضاء صغيرة وإطلاق الكثير من الدخان.

في الساعة 8:00 مساء، أخذ الجميع نفساً عميقاً. فكلّ شيء هادئ حتى الآن. قُرع الباب ثمّ أُدخلت وجبة الطعام الأخيرة. ولهذه المناسبة،

اختار لينك قطعة لحم مشوية مع بطاطا مقلية، وفطيرة جوز الهند كحلوى، لكنّه لم يكن منفتح الشهية. قضم لقمتين من قطعة اللحم، وعرض عليّ البطاطا المقلية. قلتُ له لا وشكرته، ثمّ خلطتُ ورق اللعب. ثمة أمر ما يبدو غير سوي بالنسبة لتناول وجبة الطعام الأخيرة المخصّصة لرجل يوشك على الرحيل. في الساعة 8:15، تذبذب هاتفي الخلوي. رُفضت عريضتنا في المحكمة العليا. ولا مفاجأة في ذلك. لم يتبق لنا شيء. تبخّرت جميع الآمال ولم تحدث أية معجزة.

أصبح البثّ التلفزيوني مباشراً من خارج مبنى المحكمة العليا في واشنطن، حيث كان مراسل السي إن إن يتضرّع تقريباً من أجل حدوث انفجار ما. وقد رابط العشرات من رجال الشرطة حول المبنى، وهم مستعدّون وإصبع كلّ منهم على الزناد. وتجمّع حشد صغير من الناس من أجل مشاهدة المجزرة التي ستحدث، لكن لم يحدث شيء. أمّا لينك فقد ظلّ يراقب شاشة التلفزيون بطرف عينه، بينما كان يوزّع ورق اللعب.

كنتُ أشكّ في أنّه استسلم أخيراً لمصيره.

.4

يحتوي السجن على مخزن للطعام في الجانب الغربـي من مجمّعه الواسع، وورشة لصيانة المركبات في الجانب الشرقي منه. والمبنيين المذكورين، والمنفصلين عن مبنى السجن الرئيس، تفصل بينهما مسافة ثلاثة أميال تقريباً. وفي الساعة 8:30، اشتعلت النيران فيهما بشكل غامض، فدبّ الهياج في السجن. وقد اتّضح وجود زوج من مروحيات الأخبار في المنطقة. ولأن السلطات منعت الطيران فوق سجن بيغ ويلير، فقد حامت المروحيتان فوق الأرض الزراعية المجاورة، حيث استطعنا، بفضل عدسات التصوير من بُعد، مشاهدة الإثارة الحصرية لشبكة السي äÅäÅ.

وبينما كان لينك يعبث بفطيرة جوز الهند ويلعب الورق، تساءل المذيع لماذا لا تُسرِّع سلطات الولاية عملية إعدامه قبل أن يحرق السجن. وقد حاول الناطق بلسان مكتب الحاكم، وهو يتأتئ، التوضيح أن القواعد والقوانين لا تسمح بذلك. وعمّا قريب ستدقّ الساعة 10:00

مساء، وستوضع نقطة الختام، أو ربّما في وقت أقرب من ذلك. وفي هذه الأثناء، كان لينك يشاهد ما يحدث كما لو أنّه فيلم تدور أحداثه حول رجل آخر سيُنفّذ فيه حكم الإعدام.

في التاسعة 8:45، انفجرت قنبلة في مبنى الإدارة، غير بعيد من مكتب المأمور.

وبعد عشر دقائق، اندفع المأمور داخل غرفة الترفيه صارخاً: «يجب أن توقف هذا!». لكن لينك تجاهله وواصل خلط أوراق اللعب.

بعد ذلك، أمسك حارسان عصبيان لينك، ثمّ رفعاه إلى الأعلى وفتّشاه فوجدا هاتفه الخلوي، فألقيا به مجدداً إلى كرسيه. ولم تتغيّر ملامح وجهه خلال ذلك كلّه.

«هل لديك هاتف يا رود؟»، زعق المأمور في وجهي.

«نعم، لكنّك لا تستطيع أخذه. القانون 36، القسم 2، الفقرة 4. قانونكم. آسف».

«يا ابن العاهرة!».

«وهل تعتقد أنّني أجري المكالمات الهاتفية مع الأشرار؟ هل تعتقد أنّني مشترك في المؤامرة، بالرغم من مراقبة جميع مكالماتي؟ هل هذا صحيح أيها المأمور؟».

كان مذعوراً جداً إلى درجة عجزه عن الردّ. فجأة، ومن وراء المأمور، صرخ أحد الحراس في الغرفة: «هنالك اضطرابات في الوحدة السادسة!».

.5

بدأت الاضطرابات عندما ادّعى سجين محكوم بالمؤبّد، كبير في السنّ وله تاريخ مع مشاكل القلب، إصابته بسكتة قلبية. وفي بادئ الأمر قرّر الحرّاس إهماله وتركه ليتدبّر أمر نفسه، لكنّهم تدخّلوا، بعد أن أعادوا النظر في الأمر. وخلال ذلك، عمد شريك السجين المتمارض في الزنزانة إلى طعن اثنين من الحرّاس بأداة حادّة، ثمّ استولى على مسدسي الصعق الكهربائي اللذين كانا بحوزتهما، وصعقهما، ثمّ ضربهما من دون رحمة. بعد ذلك، ارتدى السجينان ثياب الحارسين واستطاعا فتح أبواب حوالى مئة زنزانة. ومن خلال تنسيق لا عيب فيه تقريباً، اجتاح السجناء أجنحة أخرى في الوحدة، فتحرّر خلال وقت قصير عدّة مئات من المحكومين الخطرين جداً. بدأوا أولاً بإحراق المفارش، والملابس، ثمّ كلّ ما يمكن إشعاله. وقد ضُرب ثمانية حرّاس؛ توفي اثنان منهم لاحقاً. لكنّ ثلاثة حرّاس مسلحين اختبأوا في أحد المكاتب وطلبوا المساعدة. وخلال وقت قصير، عثر السجناء على الأسلحة، ثمّ سُمعت أصوات إطلاق النار في

أرجاء السجن. وفي أثناء الاشتباك، شُنق أربعة من المخبرين بأسلاك التمديدات الكهربائية.

لم نعلم بهذه التفاصيل إلا في وقت لاحق؛ لذلك، كنّا أنا ولينك نلعب الورق بينما كان بيغ ويلير ينفجر من حولنا. لم تحتج سي إن إن سوى أقل من خمس دقائق لالتقاط قصّة الاضطرابات، وعندما سمعنا بها توقّفنا عن اللعب وشاهدنا الأخبار على شاشة التلفزيون. ثمّ وبعد بضع دقائق قلت: «إذاً، يا لينك، هل أنت مسؤول أيضاً عن اندلاع أعمال الشغب في السجن؟».

وقد أدهشني قوله: «نعم، في هذه اللحظة على أية حال».

«أوه حقاً؟ إذاً أخبرني كيف بدأ ذلك؟».

«يعتمد ذلك كلّه على الموظفين»، قال ذلك وكأنه مدير تنفيذي مهذّب. ثمّ أضاف: «يجب أن يتوفّر لديك الأشخاص المناسبون، في المكان المناسب، وفي الوقت المناسب. جنّدتُ ثلاثة رجال في الوحدة السادسة من المحكومين مدى الحياة ومن دون أمل في إطلاق سراحهم، لذا ليس لديهم شيء يخسرونه. ثمّ رتّبتُ جهة اتّصال خارجية معهم، حيث وُعدوا بكلّ نوع من المساعدات، مثل شاحنة وسائق ينتظران في الغابة إذا تمكّنوا من الخروج. بالإضافة إلى الكثير من النقود. ثمّ منحتهم الكثير من الوقت للتخطيط، وفي الساعة 9:00 بالضبط من هذه الليلة، حين كان المأمور وبلطجيّته يفكّرون في أمر وحيد، وهو حقني بإبرة الموت، يبدأ

الهجوم. وينبغي أن تنفجر الوحدة الرابعة خلال أيّ دقيقة، اعتباراً من الآن».

«لن أخبر أحداً على الإطلاق. والقنابل؟ من الذي جهّز القنابل؟».

«لا أستطيع إعطاءك الأسماء. يجب أن تفهم السجون ومدى غباء الذين يديرونها. فكلّ شيء هنا مصمّم لإبقائنا في الحجز، مع بذل القليل من التفكير بشأن إبعاد المواد السيّئة ومنعها من الدخول. لقد زُرعت تلك العبوات الحارقة قبل يومين، وأُخفيت بشكل جيّد جداً؛ وهي مزوّدة بساعات توقيت وكلّ ما يلزم، موادّ بسيطة جداً. لم يلاحظها أحد، مسألة في غاية البساطة».

أراحني سماعه يتحدث على هذا النحو. وقد افترضتُ في تلك اللحظة أنّ أعصابه بدأت بالتوتّر، على الرغم من أنّه يبدو هادئاً.

«كيف ستنتهي هذه الليلة يا لينك؟ هل سيهاجم هؤلاء الرجال قسم المحكومين بالإعدام وينقذوك؟».

«لن ينجح ذلك. يوجد الكثير من البنادق حول هذا المكان. نحن نمرح قليلاً فقط؛ هذا كلّ شيء. أنا الآن مسالم».

حين قال ذلك، بُثّت صورة أخرى للحريق الذي يلتهم السجن، بالإضافة إلى لقطة أخرى من مروحية تحوم في مكان قريب. ونحن موجودون في موضع عميق جداً من المبنى لا يتيح لنا سماع أيّ شيء، لكنّ الأمر يبدو أشبه بفوضى عارمة. مبانٍ محترقة، مليون ضوء أحمر

وأزرق يومض، طلق ناري عرضي. أمّا لينك فلم يستطع مقاومة رغبته في الابتسام. مجرّد مرح وألعاب.

«إنها غلطة المأمور الغبية»، قال. «لِمَ كلّ هذه الطقوس والمراسم، لمجرّد إعدام؟ ليجلب جميع الحرّاس المتوفرين، وليعطهم أسلحة آلية وسترات مضادّة للرصاص، في حال أراد أحدهم - أي أنا، الشخص الذي سيتلقى حقنة الموت - مهاجمتهم بطريقة ما. كما أن البلطجيّة موجودون في كلّ مكان. ليشعل بعد ذلك كلّ الأضواء وليقفل السجن بأكمله. لماذا بالضبط؟ من غير سبب وجيه. اللعنة، يستطيع حارسان أعزلان من السلاح اقتيادي بمنتهى السهولة عبر القاعة في الساعة المحدّدة، ثمّ يربطاني إلى منضدة. مسألة بسيطة. لا حاجة إلى كلّ هذه المسرحية. لكن لا، يحبّ المأمور طقوسه. إنّها لحظة كبيرة من لحظات تطبيق القانون؛ اللعنة، يريدون الاستفادة منها إلى أقصى حدّ ممكن. والحقيقة التي يستطيع أيّ أحمق رؤيتها، باستثناء المأمور، هي أنّه يتعامل مع رجال يعيشون في الأقفاص، وهم يكرهون أي شخص يرتدي زيّاً رسمياً. ويبحث هؤلاء أساساً عن المشاكل؛ لذا، لا تحتاج سوى إلى استثارة الضغط الذي يعانونه حتى ينتفخ الواحد منهم كحشية. يحتاج الأمر إلى واحد مثلي فقط لتسهيل الأمور».

رشف قليلاً من شراب الكولا بالكرز، ثمّ قضم بعض البطاطا المقلية. تبقى لديه أربعون دقيقة فقط.

فُتح الباب ثانية ثمّ عاد المأمور المساعد فورمان، مصحوباً هذه المرة بثلاثة مقاتلين مدججين بالأسلحة. قال فورمان: «كيف حالكما ها هنا، أيها الرجلان؟».

«منتفخان» قلت.

أما لينك فلم يقل شيئاً.

قلت: «يبدو وكأنّكم فقدتم السيطرة هنالك في الخارج، يا أولاد».

قال: «الأمور تحدث. أردتُ فقط التحقّق من السجين والتأكّد من أن كلّ شيء على ما يرام».

حدّق إليه لينك وقال: «هذه ساعتي الأخيرة. لماذا لا أُترك بسلام وهدوء؟ رجاءً، اذهب إلى الجحيم أنت وبلطجيّتك، موافق؟»

«يمكننا إراحتك»، قال فورمان.

«وخذه معك أيضاً»، قال لينك وهو يشير نحوي. «أريد أن أكون وحدي».

قال فورمان: «حسناً، آسف يا لينك، لكن ليس هناك مكان يمكن للسيّد رودّ الذهاب إليه. فجميع الطرق مغلقة الآن. وقد أعلنا حالة الإغلاق التامّ. والمكان هنالك في الخارج ليس آمناً».

«ولسبب ما أنا لا أشعر أنّه آمن جدّاً هنا»، قال لينك باحتقار، ثمّ أضاف: «لا أستطيع تخيّل السبب».

«يبدو وكأنّنا يجب أن نؤجّل الإعدام»، قلت.

«من المحتمل أن لا يحدث»، قال فورمان، ثمّ تراجع منصرفاً. غادروا المكان، وصفقوا الباب خلفهم ثمّ أقفلوه من الخارج.

شعر الحاكم بالحاجة لمخاطبة شعبه، فرأينا على الشاشة وجهه الممتقع لوقوعه في المشاكل. وقد ظهر على منصّة مكتظّة بالميكروفونات والكاميرات الموضوعة أمامه؛ وهو حلم بالنسبة إلى أيّ سياسي. وقد انهالت الأسئلة العشوائية عليه، فعلمنا على الفور أنّ الوضع في بيغ ويلير «متوتّر». فهناك إصابات، وحتى وفيّات. وثمّة حوالى مئتي سجين «خارج زنازينهم»، مع ذلك لم يستطع أحد منهم إلى الآن اختراق الأسوار الخارجية للسجن. وقد تمّت السيطرة الآن على عدّة حرائق. نعم، يبدو كما لو أن بعض هذا النشاط قد نُسّق من خارج السجن، ولا، ليس هناك دليل على أنّ لينك سكانلون يقف خلفه، ليس بعد على أية حال. وهو، أي الحاكم، قد استدعى قوات الحرس الوطني، على الرغم من أن شرطة الولاية تسيطر على الأمور. وأوه، بالمناسبة، رفض طلب التأجيل النهائي.

.6

تقضي الإجراءات المتّبعة بأنّ يُقيَّد المحكوم بالإعدام في الساعة 9:45؛ ثمّ يُقاد في مسيره الأخير نحو غرفة الموت. وهنالك يُربط إلى محفّة مدولبة بستّ أحزمة جلدية سميكة، من قدميه إلى جبهته. وخلال عملية تربيطه، يتفحّص طبيب ذراعيه بحثاً عن وريد مناسب، بينما يعمل مساعد طبّي من نوع ما على التحقّق من مؤشّراته الحيوية. وعلى بُعد عشر أقدام، خلف نافذتين زجاجيتين وستارتين سوداوين، ينتظر الشهود في غرفتين منفصلتين، إحداهما للضحيّة، والأخرى للقاتل.

بعد ذلك، تُغرز إبرة الحقنة في الوريد وتُثبّت بشريط لاصق. وعلى الجدار توجد ساعة كبيرة تتيح لسيئ الحظ البدء بالعدّ التنازلي لدقائقه الأخيرة. وفي الساعة 10:00 مساءً بالضبط، يقرأ محامي السجن حكم الإعدام، ويسأل المأمور المحكوم عمّا إذا كانت لديه أيّة كلمات أخيرة يريد قولها. ويمكنه قول ما يريد. وهذه المعلومات وستكون كلماته تلك مسجّلة ومتوفرة على شبكة الإنترنت. وربّما قال بضع كلمات يعلن فيها

براءته مرة أخرى؛ وربّما غفر للجميع، أو استجدى المغفرة. وعند انتهائه من ذلك، يومئ المأمور إلى رجل مختفٍ في غرفة قريبة، فتتدفّق المواد الكيمياوية. ثمّ يبدأ المحكوم بالرحيل بعيداً وتتباطأ أنفاسه. وبعد اثنتي عشرة دقيقة تقريباً، يعلن الطبيب موته.

يعرف لينك كلّ هذه التفاصيل. لكن، من الواضح أن لديه خططاً أخرى. أمّا أنا فمجرّد رجل موجود في المكان الخاطئ، في الوقت الخاطئ.

في الساعة 9:30، قُطعت جميع إمدادات الكهرباء في بيغ ويلير؛ تعتيم كامل. وقد تتبّعوا لاحقاً مصدر العطل الكهربائي ليتبيّن أنه ناجم عن عمود كهربائي نُشر إلى نصفين. وقد أخفق مولّد الإسناد العائد للوحدة التاسعة - قسم أحكام الإعدام - في العمل لأن مضخّة وقوده كانت قد خُرّبت.

في الساعة 9:30، لم نكن على علم بتلك المعطيات. أمّا الذي عرفناه فهو أنّ غرفة الترفيه قد أصبحت حالكة السواد. وفي تلك الأثناء، نهض لينك واقفاً على قدميه قائلاً: «ابتعد عن الطريق»، ثمّ دفع المنضدة ليسدّ بها الباب. ثمّ رأينا وميضاً سريعاً من الضوء فوقنا، وضوضاء، وشخير. ثمّ انزاح لوح من السقف المستعار لنسمع صوتاً يقول: «لينك، هنا». بعد ذلك مُسحت الغرفة بضوء مصباح كاشف، ثمّ سقط من الأعلى حبل أمسك به لينك. «ببطء، الآن»، قال الصوت، ثمّ تحرّك لينك صعوداً، متشبثاً بشكل حرفي بحبل نجاته. وقد سمعتُ أصواتاً في الأعلى، أصوات شخير وتشاجر، لكنّني لم أستطع تقدير عدد المشتركين في تلك العملية.

خلال ثوانٍ اختفى لينك، ولو لم أكن في حالة ذهول تامّ، لكنت أغرقت في الضحك. ثمّ أدركتُ أنّني قد أتلقى رصاصة. لذلك نزعتُ معطفي وربطة عنقي وتمدّدت على سرير عسكري. ثمّ رفس الحرّاس الباب فانفتح ليندفعوا داخلين وهم مدجّجون بالأسلحة، يصحبهم طوفان من الضوء.

«أين هو؟»، نبح عليّ أحد الحرّاس.

أشرتُ إلى السقف.

كانوا يصرخون ويلعنون بينما رفعني اثنان منهم وسحباني إلى الصالة حيث كان العشرات من الحرّاس ورجال الشرطة والمسؤولين يتراكضون في المكان وهم في حالة رعب كامل.

«لقد فرّ! لقد فرّ!»، كانوا يصرخون. «فتّشوا السطح».

في الصالة، وفي وسط الضوضاء والضجّة التي لا تُصدّق، استطعتُ سماع صوت مروحية. بعد ذلك، سحبوني إلى غرفة أخرى، ثمّ أخرى. وخلال تلك الفوضى، سمعتُ حارساً يصرخ قائلاً أنّ لينك سكانلون اختفى. هذا وقد استغرقت عودة الإضاءة ساعة كاملة. وفي النهاية اعتُقلتُ من قبل شرطة الولاية ونُقلتُ إلى سجن المقاطعة الأقرب. أمّا نظريتهم الأولية فتقول أنّني متواطئ.

.7

وقد اتّضحت الصورة سريعاً، ولأنّني ملوم جزئياً على مؤامرة الهروب، فقد أتيحت لي إمكانية الوصول إلى المعلومات. ولم أكن قلقاً بشأن التهم؛ فهم لا يستطيعون إثباتها.

في الساعة 9:30 من تلك الليلة، كان هناك مروحيتا أخبار ترفرفان وتحومان حول أطراف بيغ ويلير. وقد حذّر مسؤولو السجن وشرطته المروحيتين وطلبوا منهما الابتعاد، لكنّهما ظلّتا قريبتين. وفي عرض للعضلات، حلّقت شرطة الولاية باثنتين من مروحياتها الخاصة من أجل تأمين المجال الجوي فوق السجن، وقد تبيّنت فائدة ذلك عندما بدأت المشكلة. لكنّ ذلك التصرّف أثبت أيضاً وفي الوقت عينه نجاعته في الإرباك وصرف الانتباه. فقد كان هناك مقدار كبير من الدخان الذي يخيّم على السجن، كما لو أنّ ستّ نيران مختلفة كانت تشتعل دفعة واحدة. وقد قال شهود العيان أن الضوضاء كانت تصمّ الآذان بسبب وجود أربع مروحيات في الجوّ، والعشرات من سيارات الطوارئ التي

تُطلق صفّارات الإنذار، والميكروفونات التي تزعق، والحرّاس ورجال الشرطة الذين يصرخون، وطلقات الأسلحة، والنيران التي تهدر. وعند الإشارة، وفي التوقيت الدقيق، وصلت مروحية لينك الصغيرة السوداء التي انبثقت من العدم، ثمّ هبطت من بين سحب الدخان، واختطفته من سطح الوحدة التاسعة. كان هناك شهود. وقد رأى عدد من حرّاس السجن ومستخدَميه المروحية وهي تحوم لبضع ثوان، ثمّ وهي تُسقط حبلاً، ثمّ تختفي مجدداً في سحب الدخان مع رجلين يتأرجحان متعلّقين بحبل النجاة. وقد تمكّن حارس في برج الوحدة من إطلاق بضع طلقات، لكنّه لم يُصب شيئاً.

وقد طاردت إحدى مروحيات الولاية الفارّين، لكنّها لم تكن على المستوى المطلوب من الكفاءة بالمقارنة مع تلك التي استأجرها لينك في تلك الليلة. ولم يُعثر عليه أبداً؛ ولم يُعثر على أثر له أبداً. لقد طار على ارتفاع منخفض لتفادي أجهزة الرادار؛ ولم تتمكّن أيضاً سلطات مراقبة الملاحة الجوّية من رؤية طائرته. لكن مزارعاً على بعد ستّين ميلاً من بيغ ويلير أخبر السلطات أنّه رأى مروحية صغيرة تهبط على طريق المقاطعة على بُعد ميل واحد من سقيفته الأمامية. ثمّ وافتها سيارة، واختفتا بعد ذلك معاً.

أُجري تحقيق واسع انتهى بطرد ثلاثة مسؤولين. وفي نهاية المطاف، أُعلن أنّ (1) غرفة الترفيه جزء من قسم قديم من الوحدة التاسعة، وأنّه بُني في الأربعينيات من القرن الماضي؛ (2) وأن سقفها أعلى بمقدار ثلاثة أقدام من بقيّة قسم المحكومين بالإعدام؛ (3) وأنّه يوجد بين سقف

الغرفة المستعار وسطحها الفعلي مساحة زحف محشوّة بأنابيب التدفئة والتبريد، ومنافس التهوئة، والتمديدات الكهربائية؛ (4) وأن مساحة الزحف تلتفّ وتتفرّع ليؤدّي أحد أقسامها إلى باب قديم ينفتح على السطح العلوي؛ (5) وأن الحارسين المناوبين على حراسة ذلك السطح في تلك الليلة استُدعيا للمساعدة في السيطرة على الاضطرابات، لذا لم يكن أحد موجوداً على ذلك السطح عندما نفّذ لينك هروبه المثير.

ماذا لو أنّ الحارسين كانا هناك؟ إذا أخذنا بعين الاعتبار مهارة المشاركين في اختطاف لينك وخبرتهم، فيمكن للمرء أن يخمّن، من دون تردّد، أنّ كلّ واحد من الحارسين قد يتلقى طلقة بين العينين. أمّا ذلك الرجل العنكبوت، كما لقّبه بذلك المحقّقون، فقد أصبح أسطورة بالفعل.

وثمة الكثير من «ماذا لو»، لكنّ القليل منها فقط عُثر له على أجوبة. أمّا لينك سكانلون، والذي كان يواجه موتاً مؤكّداً، فقد آمن بأن ليس لديه شيء قد يخسره من محاولة هروب مضحكة. وكان لديه المال الكافي لاستئجار المغاوير والمعدّات المناسبة. وقد حالفه الحظّ ونجحت الخطّة.

وقد تواردت أنباء غير مؤكّدة عن مشاهدته في المكسيك.

أما أنا فلم أسمع شيئاً من موكّلي، ولا أتوقّع ذلك.

.8

بالإضافة إلى بيغ ويلير، هنالك دزينة أو أكثر من السجون في هذه الولاية، ولكلّ منها تصنيف أمني مختلف. ولديّ زبائن في معظم تلك السجون، وهم يكتبون لي الرسائل لاستجداء المال، ويطلبون مني أن أفعل شيئاً لإخراجهم من تلك السجون. وفي غالب الأحيان أُهمل تلك المراسلات. وقد تعلّمت أنّ رسالة منّي ستشجّع السجين على الكتابة ثانية وعلى طلب المزيد. وبالنسبة للبعض منا، نحن الذين ندافع عن المجرمين، هنالك دائماً السيناريو المحتمل حيث قد يظهر موكّل سابق وحاقد، بعد قضائه سنوات في السجن، طالباً مناقشة بعض الأخطاء التي ارتكبت خلال المحاكمة. لكنّني لا أنشغل بهذا الأمر. فهو مجرّد جزء من العمل، وهو سبب آخر من أسباب حملي للسلاح.

ولإبقائي في مكاني، منعني مسؤولو السجون المحترمون من زيارة أيّ سجن لمدّة شهر كامل بعد هروب سكانلون. على أية حال، وكما أصبح

واضحاً، فإن لينك قد خدعهم من دون أية مساعدة منّي، وهو الأمر الذي جعلهم يلينون في النهاية.

هناك بضعة موكِّلين أزورهم من حين لآخر. وفي كلّ مرة تبعدني تلك السفرات القصيرة عن البلدة لمدّة يوم أو نحو ذلك. وفي تلك المرّة انطلقنا أنا والرفيق بالسيارة نحو مركز احتجاز، أو سجن، متوسّط الحجم سمّي تودداً روزبيرغ القديم، وقد أخذ اسمه من اسم حاكم للولاية في الثلاثينيات من القرن الماضي، أُدخل هو نفسه إلى ذلك السجن لاحقاً. وقد مات ذلك الحاكم هناك، في سجن يحمل اسمه. وطالما تساءلتُ مراراً كيف كان شعوره آنذاك. وطبقاً للأسطورة المتداولة، فإن عائلته حاولت من دون جدوى الحصول على إفراج مشروط لكي يموت في بيته، لكنّ الحاكم وقتها لم يسمح له بذلك. كانا هو وروزبيرغ عدوّين لدودين. ثمّ حاولت العائلة تغيير اسم السجن، لكن ذلك كان سيؤدي إلى إفساد قصّة شيّقة فلم يوافق المجلس التشريعي على ذلك. لذلك، بقي اسم السجن رسمياً إصلاحية ناثان روزبيرغ.

فُتّشنا وسُمح لنا بالعبور من خلال البوابة الرئيسية، ثمّ أوقفنا مركبتنا في موقف الزوّار الفارغ. وقد راقبنا الحارسان المسلّحان ببندقيتين متطوّرتين من فوق برج المراقبة، كما لو أنّنا قد نُهرِّب بعض الأسلحة أو رطلاً أو رطلين من الكوكايين. وفي تلك اللحظة، لم يكن هناك أحد غيرنا يستدعي المراقبة، لذلك استرعينا انتباههما الكامل.

.9

بعد حصول الرفيق على حكم البراءة من تهمة قتل أحد ضباط مكافحة المخدّرات، استجدى العمل لدي. ولم أكن قد وظّفتُ أحداً لدي قبل ذلك - ولم أوظّف أحداً منذ ذلك الوقت - لكنّني لم أستطع قول لا حينذاك. وقد أُعيد يومها إلى الشوارع، ولو أنّني لم أساعده فسينتهي به الأمر إمّا ميتاً، أو في السّجن. وبخلاف أغلب أصدقائه، فهو يحمل شهادة التخرج من المدرسة الثانوية، وكما استطاع إكمال بضع مقرّرات دراسيّة في كليّة أهلية. وقد دفعتُ عنه رسوم المزيد من الفصول الدراسية، وكانت في معظمها ليليّة. هذا وقد اجتهد في دراسة منهاج المساعد القانوني فحصل على شهادة النجاح.

ويعيش الرفيق مع أمّه في شقّة مع إعانة في المدينة. وأغلب المساكن في المبنى الذي يقطنه مكتظّة بالعوائل الكبيرة العدد، لكنها جميعاً لا تتألف من التشكيلة التقليدية للعائلة؛ أي الأمّ، والأبّ، والأطفال. فجميع الآباء تقريباً هجروا عائلاتهم، فهم إمّا مسجونون، أو أنّهم يعيشون في

مكان آخر وينتجون المزيد من الأطفال. وتعود الشقّة من هذه الشقق عادة إلى الجدّة، وهي إنسانة صبورة عانت طويلاً بسبب رعايتها لقطيع من الأطفال الذين قد يكونون أشقاء تربطهم رابطة الدم، أو لا يكونون. كما أن نصف الأمهات في السجون. أمّا النصف الآخر فيعملن في وظيفتين أو ثلاث. ويتردّد الأقارب وأبناء العم من الشباب على تلك الشقق جيئة وذهاباً؛ وجميع تلك العائلات تعيش تقريباً في حالة التسيّب الفوضوي. إنّ الهدف الأساس لتلك العائلات هو إبقاء الأطفال في المدارس، بعيداً عن العصابات، وإبقاؤهم أحياءً، وخارج السجون. لكن الرفيق يعتقد أنّ نصفهم سيتسرّب من المدارس على أية حال، وأنّ أغلب الأولاد سينتهي بهم الأمر في السجون.

يقول إنّه محظوظ لأنه يعيش وأمّه فقط في الشقّة الصغيرة. وثمّة غرفة نوم صغيرة إضافيّة في الشقّة يستخدمها كمكتب لعمله - عملنا. فالعديد من ملفاتي وسجلاتي مخزّنة هناك. ولا أنفكّ أتساءل في أغلب الأحيان ما الذي سيفعله زبائني إذا علموا أنّ ملفاتهم السرّية موجودة في خزائن شقة عسكرية في الطابق العاشر في مشروع سكني حكومي. لكنّني لا أهتمّ حقاً، وذلك لأنّني أئتمن الرفيق على حياتي. ولقد قضينا معاً ساعات طويلة في تلك الغرفة الصغيرة ونحن ننقّب في تقارير الشرطة ونضع خطط واستراتيجيات المحاكمات.

أمّه، الآنسة لويلا، معاقة جزئياً بسبب مرض السكّر الحادّ. وهي تقوم ببعض أعمال الخياطة للأصدقاء، وتحافظ على نظافة الشقّة، وتطبخ من حين لآخر. أمّا وظيفتها الأساس، بقدر ما يتعلّق الأمر بـي،

فهي الردّ على الهاتف نيابة عن المحترم سيباستيان رودّ، المحامي. وكما سبق وقلت، لستُ مدرجاً في أيّ دليل هواتف، لكن رقم هاتف «مكتبـي» أصبح متداولاً. وفي الحقيقة، يتّصل أناس كثيرون بذلك الرقم على الدوام، فتجيبهم الآنسة لويلا، التي تبدو أكثر حيوية وكفاءة من أيّ موظف استقبال يجلس أمام منضدة فخمة في عمارة عالية ويستقبل المكالمات في مؤسّسة تضمّ مئات المحامين.

وهي إذ تستقبل مكالمة هاتفية، ستقول: «سيباستيان رودّ، المحامي. كيف أستطيع توجيه مكالمتك؟»، كما لو أنّ المؤسّسة تتألف من عشرات الأقسام والتخصّصات. هذا، ولا يستطيع أي متّصل الوصول إليّ في أول اتّصال أبداً، لأنّني بالطبع لا أكون في المكتب. أيّ مكتب؟ ستقول للمتّصل: «هو في اجتماع»æÃ¡ «هو في جلسة تدوين إفادات»æÃ¡ «هو في جلسة محاكمة»æÃ¡ «هو في المحكمة الاتّحادية» وهذه هي الإجابة المفضّلة لديّ. وعندما تتغلّب عملياً على الشخص المتّصل، تركّز على مشكلته، أو مشكلتها، القانونية بالقول: «وهذا الاتّصال بخصوص ماذا؟».

طلاق. حينذاك سيسمع الشخص المتّصل قولها: «أنا آسفة، لكنّ السيّد رودّ لا يتولى القضايا العائلية».

إفلاس، تصفية عقارات، وصايا، أعمال، عقود. الإجابة نفسها: السيّد رودّ لا يتولى هذه القضايا.

أما القضايا الجنائية فقد تسترعي انتباهها، لكنّها تعرف أن معظم تلك الاتّصالات لا فائدة منها. لذا فإن القليل من المتّهمين يمكنهم تحمّل

الأتعاب. وهي ستُخضع الشخص المتّصل عندئذ لاستجوابها المعياري، كي تستنتج ما إذا كان قادراً على دفع الأتعاب أم لا.

هل أصيب أحد؟ الآن يمكن أن نتكلّم. ستنتقل حينها إلى الحديث بلهجة الودّ والتعاطف، وستنتزع كلّ أنواع المعلومات. وهي لن تنهي المكالمة حتى تستنزف المعلومات من المتّصل وتكسب ثقته. وإذا أصبحت الوقائع واضحة، وبدا أن القضية واعدة حقّاً، فستعد المتّصل حينئذٍ أن السيّد رودّ سيمرّ بالمستشفى عصر ذلك اليوم.

أما إذا كان المتّصل قاضياً أو شخصاً مهمّاً آخر، فستتعامل معه باحترام شديد، وستنهي المكالمة، ثمّ ترسل لي رسالة نصّية فوراً. وأنا أدفع لها 500 دولار نقداً كلّ شهر، بالإضافة إلى علاوة عرضية عندما أكسب قضيّة مهمّة. والرفيق يتسلّم أيضاً أتعابه نقداً.

تعود أصول الآنسة لويلا إلى ولاية ألاباما، وقد تعلّمتْ فنون الطبخ الجنوبية. واعتادت أن تقوم مرّتين في الشهر، على الأقل، بقلي دجاجة، وغلي الكرنب، وخبز أرغفة الذرة، لكي آكل حتى إنني بالكاد أستطيع التنفّس. وقد استطاعت هي والرفيق تحويل شقّة رخيصة وصغيرة في مساكن شعبية إلى بيت، ومكان دافئ. وعلى الرغم من ذلك، ثمة حزن، أو غيمة لا تتحرّك مثل ضباب كثيف لا ينقشع. لم يتجاوز الرفيق الثامنة والثلاثين من عمره، ولديه ابن في التاسعة عشرة في سجن روزبيرغ القديم. يقضي جميل عقوبة مدّتها عشر سنوات بسبب شقاوات تتعلق بإحدى العصابات، وهو سبب زيارتنا اليوم.

.10

بعد أن أنجزنا الأوراق وتمّ تفتيشنا، مشينا أنا والرفيق مسافة نصف ميل على أرصفة محفوفة بأسلاك شائكة وصولاً إلى ما يسمّى الكامب دي، وهو وحدة احتجاز قاسية. ثمّ خضعنا مرة أخرى إلى تدقيق أمني وتعاملنا مع حرّاس متجهمي الوجوه لا شيء أحبّ إليهم من منعنا من الدخول. ولأن الرفيق مؤهّل كمساعد قانوني ويحمل أوراقاً تثبت ذلك، فقد سُمح له بالدخول معي إلى جناح الزوّار. وقد اختار لنا الحارس غرفة استشارة للمحامين فجلسنا على مقعدين مواجهين لشاشة تلفزيونية.

وتجدر الإشارة إلى أن المحامين يستطيعون زيارة المساجين في أي وقت، بعد تقديم طلب بذلك، بينما حُدّدت زيارة العوائل ببعد الظهر من كلّ يوم أحد فقط. وخلال فترة الانتظار، لاحظتُ أن الرفيق، الذي يتميّز أصلاً بقلّة الكلام، أصبح أقل رغبة في الكلام. وقد اعتدنا على تفقّد جميل مرة في كلّ شهر على الأقل، مع العلم أن تلك الزيارات ترهق مستشاري. فهو يحمل على منكبيه أعباءً ثقيلة لأنه يلوم نفسه على

العديد من المشاكل التي وقع فيها ابنه. وكان الطفل قد اتّجه منذ البداية نحو المشاكل، لكن بعد براءة الرفيق، بيَّت رجال الشرطة والمدّعون العامّون نيّة الانتقام منه. اقتل شرطياً، حتى دفاعاً عن النّفس، وستكسب بعض الأعداء الأشرار. وعندما اعتقل جميل، لم يكن هناك مجال للمفاوضات. كانت العقوبة القصوى عشر سنوات، ولم يتزحزح المدّعون العامّون قيد أنملة. وقد دافعتُ عنه، مجّاناً بالطبع، لكنّني لم أستطع فعل شيء من أجله. ذلك أنّه ضُبط ومعه حقيبة ظهر مليئة بالمخدّرات.

«لم يتبق سوى تسع سنوات»، قال الرفيق بهدوء ونحن نحدّق إلى الشاشة. «يا رجل، أوه يا رجل. أظلّ صاحياً طوال الليل، وأتساءل كيف سيكون بعد تسع سنوات. بعمر الثامنة والعشرين، ثمّ يعود إلى الشوارع. لا عمل، ولا تعليم، ولا مهارات، ولا أمل، ولا شيء. مجرّد مدان آخر يبحث عن المشاكل».

«قد لا يكون الأمر كذلك»، قلت بحذر، مدركاً أنه ليس لديّ سوى القليل لأضيفه حول الموضوع. فالرفيق يعرف هذا العالم أفضل منّي بكثير. قلت: «سيكون لديه أب ينتظره، وجدّة. وسأكون قريباً، كما أتمنّى. وسنفكّر نحن الثلاثة في شيء ما».

«ربّما ستحتاج حينذاك إلى مساعد قانوني آخر»، قال مع ابتسامة نادرة، بالرغم من أنها كانت قصيرة.

«لا أحد يعلم».

فُتح باب على الجانب الآخر فعبر جميل من خلاله، يتبعه حارس. فكّ الحارس الأصفاد ببطء ونظر إلينا. «صباحك، هانك»، قلتُ له.

«مرحباً، رود»، قال. وهانك هذا واحد من الرجال الجيّدين، طبقاً لجميل. ومن الجدير بالذكر أنّني معروف خلال ممارستي لعملي القانوني بعلاقاتي الجيّدة مع بعض حرّاس السجون. بعضهم، وليس كلّهم بالتأكيد.

«خذ وقتك»، قال ذلك واختفى. ومدّة الزيارة يحدّدها هانك؛ هانك فقط. وباعتبار أنّني لطيف معه، فهو لا يبالي كم سنبقى. أمّا بعض الحرّاس القساة كالحمير فأسمع منهم أقوالاً مثل: «لديك ساعة واحدة، كحدّ أقصى»æÃ¡ «لتكن سريعة»، باستثناء هانك.

ابتسم لنا جميل وقال: «شكراً لمجيئكما».

«مرحباً يا بنيّ»، قال الرفيق بودّ.

«سعيد برؤيتك يا جميل»، قلت.

جلس الفتى على كرسي بلاستيكي. طوله ستّة أقدام ونصف، نحيلاً، وكأنّه مصنوع من المطاط. أمّا الرفيق فطوله ستّة أقدام واثنان من عشرة، وهو قويّ البنية. وقد قال لي أن والدة الفتى طويلة ونحيفة. وكانت قد خرجت من حياتهما منذ سنوات، حيث اختفت في حفرة حياة الشوارع المظلمة. ولديها أخ يلعب كرة السلّة في كليّة صغيرة، وفي اعتقاد الرفيق أن جميل ورث عن خاله مهارة اللعب. فقد كان طوله ستّة أقدام وثلاثة أعشار حين كان في السنة الدراسيّة التاسعة، وكان الكشّافون الباحثون

عن المهارات قد بدؤوا بملاحظته. لكنّه، وفي مرحلة معيّنة، تعرّف على المخدّرات والحبوب ونسي اللعبة.

«شكراً على المال»، قال لي. فأنا أرسل له 100 دولار في الشّهر، والتي يُفترض أن يستخدمها لشراء الطعام وبعض الاحتياجات الأساسية الأخرى مثل أقلام الرصاص، والورق، والطوابع، والمرطبات. وقد اشترى مروحة للهواء؛ فسجن روزبيرغ القديم عديم التكييف. مثل جميع سجوننا. والرفيق يرسل له المال أيضاً، لكن ليست لديّ فكرة عن مقداره. وبعد شهرين على وصوله إلى هذا السجن، اجتاح الحرّاس زنزانته فوجدوا بعض المال المخبّأ في فراشه. وشى به أحد المخبرين، فقضى جميل أسبوعين في الحبس الانفرادي. ولو استطاع الرفيق ساعتئذٍ اختراق الشاشة لكان خنقه، لكن الفتى أقسم أنّ ذلك لن يحدث ثانية.

تحدّثنا حول فصوله الدراسيّة. فهو منخرط في فصول دراسيّة استدراكيّة في محاولة منه للحصول على مكافئ للدراسة الثانوية، لكن الرفيق ليس معجباً جدّاً بتقدّمه. وبعد بضع دقائق، استأذنتُ وغادرتُ الغرفة. فالأب والابن يحتاجان إلى أن يكونا لوحدهما لبعض الوقت، وهذا سبب وجودنا هنا. وبحسب ما قاله الرفيق، تصبح المحادثات حين يكونان بمفردهما قاسية وعاطفية. فالأب يريد من ابنه أن يعرف أنّ أباه مهتمّ به بعمق ويراقبه من بُعد. ذلك أن سجن روزبيرغ القديم مليء بالعصابات، وجميل فريسة سهلة لهؤلاء. والفتى يقسم أنّه غير متورّط، لكن الرفيق شكّاك. قبل كلّ شيء، يريد للفتى أن يكون آمناً، والعضوية في إحدى العصابات قد تشكّل في أغلب الأحيان أفضل حماية له. وهي

قد تؤدّي أيضاً إلى الحرب والانتقام والانخراط في دائرة العنف. ومن الجدير بالذكر أن سبعة سجناء قتلوا السنة الماضية في روزبيرغ القديم. ويمكن أن يكون الوضع أسوأ من ذلك. فعلى الجانب الآخر من الطريق يوجد سجن تأديبـي أمريكي، وهو منشأة اتّحادية تحدث فيها جريمتا قتل في الشّهر كمعدّل وسطي.

ابتعتُ مشروباً مرطباً من ماكنة بيع ثمّ وجدتُ موضعاً مناسباً للجلوس ضمن صفّ من الكراسي البلاستيكية الفارغة. لا يوجد محامون آخرون زائرون اليوم والمكان فارغ. فتحتُ حقيبتي وفرشتُ أوراقي على منضدة مغطاة بالمجلات القديمة. ثمّ ظهر الحارس هانك وألقى التحيّة مجدداً، فدردشنا لبضع دقائق وسألته عن حال الفتى.

قال: «كلّ شيء على ما يرام. ولا شيء عظيم. ما زال حيّاً ولم يتأذّ. وهو هنا منذ سنة ويعرف كيف يتدبّر أموره. لكنّه لا يريد العمل. وكنتُ قد وجدتُ له عملاً في المكوى، لكنّه لم يصمد أكثر من أسبوع. وهو يذهب إلى أغلب فصوله الدراسيّة، لكن ليس كلّها».

«عصابة؟»

«لا أعلم، لكنّني أراقب».

دخل حارس آخر عبر باب بعيد فاضطر هانك للانصراف فجأة. فمن غير المستحسن أن يُرى متحدّثاً بمودّة إلى محامٍ جنائي متواضع. وبعد انصرافه حاولتُ قراءة ملخّص سميك، لكنّه كان مملاً جداً؛ لذا اتّجهتُ إلى نافذة تُشرف على ساحة واسعة محاطة بصفوف مضاعفة من الأسلاك

الشائكة. ثمة مئات السجناء - وكلّهم بلباس السجن الأبيض - يقتلون الوقت بينما يراقبهم الحرّاس من برجٍ عالٍ.

معظمهم تقريباً سود وفي مقتبل العمر. وطبقاً للأرقام المنشورة، فإنّ غالبية هؤلاء دخلوا السجن بسبب مخالفات تتعلّق بالمخدّرات، من دون أفعال عنفية. ومتوسّط الأحكام على هؤلاء هو سبع سنوات. وعند إطلاق سراحهم فإن نسبة 60 بالمئة منهم سيعودون إلى هنا خلال ثلاث سنوات.

ولم لا؟ وما الذي يوجد في الخارج لمنع عودتهم؟ فهم الآن مدانون كمجرمين، وهذا وسمٌ لن يستطيعوا محوه. فالظروف المعاكسة تكدّست ضدّهم ابتداءً، وها هم الآن قد دمغوا كمجرمين، فكيف يفترض بالحياة في عالم الحرّية أن تتحسّن بطريقة ما؟ وهذه إصابات حقيقية سبّبتها حروبنا؛ الحرب على المخدّرات، والحرب على الجريمة. وهؤلاء هم الضحايا غير المقصودين للقوانين القاسية التي صادق عليها السياسيون القساة على مدى السنوات الأربعين الماضية. لذلك، ثمة مليون شاب أسود مكدّسون الآن في السجون الفاسدة، يهدرون الأيام على نفقة دافعي الضرائب.

سجوننا مكتظّة. وشوارعنا مملوءة بالمخدّرات.

من الذي كسب الحرب؟

لقد فقدنا عقولنا.

.11

بعد ساعتين، قال هانك أن الوقت قد حان لإنهاء الأمور. لذا، قرعتُ الباب وعدتُ إلى الغرفة، وهي أشبه بصندوق صغير عديم التهوئة وفاسد الهواء دائماً. وكان جميل جالساً وذراعاه معقودان على صدره، وعيناه على الأرض. أمّا الرفيق فقد كان جالساً وذراعاه معقودان أيضاً، وكان يحدّق في الشاشة؛ فشعرتُ أن الكثير من الكلام قد قيل، وربّما من دون كلمات في بعض الأحيان. قلت: «ينبغي أن ننصرف».

وهذا ما أراد كلّ منهما سماعه. وقد استطاعا التلفّظ بكلمات الوداع الممزوجة ببعض اللوعة. ثمّ شكر لنا جميل مجيئنا، وأرسل التحيات والحبّ إلى الآنسة لويلا، ثمّ وقف حين دخل هانك الغرفة من خلفه.

وخلال انطلاقنا عائدين، لم يقل الرفيق شيئاً لأكثر من ساعة من الوقت.

.12

لينك سكانلون ليس الشقيّ الأول الذي تعاملتُ معه. فقد احتلّ تلك المرتبة المشرّفة المحتال المدهش المدعو ديوي نوتّ، وهو الشخص الذي لا أزوره في السجن. ففي حين اشتُهر لينك بسفك الدماء، وتكسير العظام، وبثّ الرعب، وسوء السمعة، مارس ديوي أعماله الإجرامية بشكل هادئ ومستتر بقدر الإمكان. وبينما حَلِم لينك بأن يكون زعيم مافيا منذ طفولته، كان ديوي في الحقيقة بائع أثاث مستقيم لم يرتكب سوءًا حتى بلغ منتصف الثلاثينيات من العمر. وفي حين أن شبكة أعمال لينك كانت قويّة، لكنّها غير قابلة للتقصّي والتقييم الفعلي، ادّعت إحدى المجلات أن أعمال ديوي كانت تساوي 300 مليون دولار قبل بروز مشاكله. وقد أرسلوا لينك إلى الإعدام؛ بينما حُكم على ديوي بقضاء أربعين سنة في سجن اتّحادي. لكنّ لينك استطاع الفرار؛ في حين اعتنى ديوي بشعره الطويل الذي يصل إلى خصره، وانشغل بزراعة الأعشاب والخضروات العضوية في حديقة السجن.

كان ديوي نوتّ بائعاً طلق اللسان تمكّن من تسويق الكثير جداً من قطع الأثاث الرخيصة، ثمّ استغلّ مداخيله في شراء بيت للتأجير. ثمّ اشترى بيتاً آخر، ثمّ عدداً أكبر من تلك البيوت. وقد تعلّم خدعة استخدام أموال الغير واكتسب رغبة جامحة للمخاطرة. وقد استثمر أملاكه وقروضه في بناء مراكز التسوق والمجمّعات التجارية. وخلال إحدى فترات الكساد القصيرة، رفض أحد المصارف منحه قرضاً، فاشترى ذلك المصرف وطرد جميع أطقم إدارته. بعد ذلك، حفظ عن ظهر قلب جميع التعليمات والقوانين المصرفية فعثر على كلّ ثغرات الفساد المفتوحة. ثمّ حلّت فترة كساد أطول، فاصطاد بضعة بنوك أخرى وبعض شركات القروض العقارية الإقليمية. كان المال رخيصاً وديوي نوتّ أثبت مهارة فائقة في لعبة الاقتراض. أمّا سقوطه، كما علمنا لاحقاً، فقد بدأ بميله إلى تقديم ضمانات ورهون مزدوجة، وحتى ثلاثية، على أصوله وأملاكه الثابتة مقابل القروض. ونظراً لتبصّره بعالم الأرباح المشبوهة، فقد كان واحداً من أوائل الذين حصدوا ثمار الحقول الخصبة للرهون العقارية عالية المخاطر. ولقد ساهم في تعديل إجراءات وتعقيدات القروض بفوائد فاحشة. ثمّ أصبح راشياً ماهراً للسياسيين والمؤسّسات، بالإضافة إلى التهرّب من الضرائب، وغسل الأموال، والاحتيال البريدي، والتداول باستغلال معلومات داخلية، والنهب التامّ لصناديق التقاعد؛ لذا، فقد استحقّ ديوي بجدارة السنوات الأربعين التي حُكم عليه بها.

وثمة من لا يزال يبحث عن بقايا مخفية من ثروته؛ ويتألف هؤلاء من جميع ممثلي أعدائه الحاليين والسابقين، وبعض المؤسّسات المصرفية،

ومحكمتين على الأقل من محاكم الإفلاس، ومحامي زوجته السابقة، وعدد من فروع الحكومة الاتّحادية. لكنّهم لم يجدوا شيئاً حتى الآن.

وعندما كان ديوي في التاسعة والأربعين، قُبض على ابنه عديم التدبّر، ألان، وهو ينقل صندوقاً من الكوكايين. وكان ألان حينها في العشرين من العمر، وكانت تلك مصيبة كبرى بالنسبة لفتى مثله. كان الفتى يحاول إثارة إعجاب أبيه بأسلوبه الخاص في العمل الحرّ. أمّا ديوي فقد تملّكه الغضب والحرج الشديد إلى درجة أنّه رفض توكيل محامٍ لابنه. لكنّ أحد أصدقائه أحاله إلي، فألقيتُ نظرة واحدة على مضبطة الحجز فأدركت أن الشرطة قد ضخّمت الأمر ونفخته، حيث لم يكن لديهم تفويض ولا سبب محتمل لتفتيش السيارة. كان الأمر مدبراً من قبل رجال الشرطة. وقد قدّمتُ الطلبات القانونية والملاحظات المناسبة، ولم أواجه خصومة شديدة في القضية، واعتُبر أن عملية ضبط الكوكايين غير قانونية، فأُبطل الدليل، وأُسقطت جميع التهم ضدّ ألان، فأصبحت القضية حدثاً بارزاً لبضعة أيام، ونشرت صورتي في الصحف للمرة الأولى.

كان ديوي يستخدم مجموعة من محاميه المفضّلين في قضاياه الثقيلة، لكنّه كان معجباً جدّاً بمناوراتي البارعة فقرّر أن يرمي إلي بعدد من فتات قضاياه. لكنّ أغلب تلك القضايا كان خارج مجال خبرتي، باستثناء حالة واحدة فتنتني فوافقتُ على توليها.

أحبّ ديوي لعبة الغولف، لكنّه واجه صعوبة في تكييفها مع جدول أعماله المتخم والمحموم. بالإضافة إلى قلّة صبره على التقاليد الصارمة المتّبعة في معظم نوادي الغولف والنوادي الريفية؛ إذ أن القليل منها، إذا

وُجد، سيقبل بعضوية مثل هذا المجرم. لذلك، أصبح مهووساً بفكرة بناء مضمار اللعب الخاصّ به وإضاءته ليتمكّن من اللعب ليلاً، إمّا بمفرده أو مع بضعة زملاء. في ذلك الوقت، كان هناك ثلاثة ملاعب أخرى مضاءة فقط في كامل البلاد، ولا يقع أيّ منها على مسافة ألف ميل من هنا. وينبغي للملعب أن يتضمّن ثمانية عشر فتحة، كلّها خاصّة وتحت الأضواء الساطعة؛ لعبة الأغنياء حصراً. ولتجنّب التقسيم المتشدّد للمدينة، انتقى مئتي هكتار على بُعد ميل من حدود المدينة. لكنّ سلطات المقاطعة عارضت، ولجأ الجيران إلى القضاء. فتوليتُ العمل القانوني وكسبتُ الموافقة في نهاية المطاف. وهكذا احتلّ نجاحي المزيد من العناوين البارزة في الصحف.

على أية حال، كان سوء السمعة الحقيقي وشيكاً جداً. فقد انفجرت فقاعة الاستثمار العقاري، فارتفعت أسعار الفائدة، وداهمت ديوي عاصفة هوجاء فلم يستطع الاقتراض بالسرعة الكافية، فانهار بيته الورقي بسرعة وبأسلوب مدهش. وفي التوقيت الدقيق جداً، جاء رجال مكتب التحقيقات الفدرالي، ومصلحة ضريبة الدخل، وهيئة الأوراق المالية والبورصة، وحمولة قطار من رجال آخرين قساة يحملون شارات رسمية؛ جميعهم وصلوا إلى موقع الأحداث، وكلّ منهم يلوّح بتفويض رسمي. هذا وقد بلغ سُمك أوراق الاتّهام أكثر من بوصة وحُشي بالمزاعم الوحشية ضدّ ديوي المستهدف الواضح. كما زُعم أيضاً وجود مؤامرات كبرى تتضمّن عدداً كبيراً من المتعاونين معه من المصرفيين، والمحاسبين، والشركاء، والمحامين، وسماسرة البورصة، وأعضاء مجلس المدينة. وقد

فُصّلت التهم، بأسلوب سردي مقنع جداً، متضمّنة العشرات من الانتهاكات التي تشملها العقوبات الواردة في قانون الابتزاز والمنظمات الفاسدة، أو «ريكو» اختصاراً. وهو القانون الذي منحه الكونجرس كهدية ثمينة للمدّعين العامّين الاتّحاديين.

وقد حُقّق معي وتكوّنت لدي قناعة أنّني سأُتّهم أيضاً، على الرغم من أنّني لم أرتكب أيّ خطأ. ومن حسن حظي أنّني استطعتُ البقاء على الحوافّ. ولفترة من الوقت بدا وكأن هذا الاستقصاء يتبع نظرية اقتل الآن واطرح الأسئلة لاحقاً. لكنّ المحقّقين الاتّحاديين تراجعوا وأهملوا الاهتمام بـي. وكان لديهم محتالون أكبر بكثير يريدون إمساكهم.

وفي خضمّ ذلك، وُجّهت التهم إلى ألان، أساساً لأنّه ابن ديوي. وعندما هدّد مكتب التحقيقات الفدرالي باتّهام ابنة ديوي، خضع ووافق على صفقة تقضي بالحكم عليه بأربعين عاماً. ثمّ أُسقطت التهم المزيّفة ضدّ ولديه، وحُكم على أغلب شركائه المتعاونين معه بأحكام مخفّفة. لذا فقد نجا الجميع، باستثناء ديوي، من دخول السجن بالفعل. باختصار، تصرّف ديوي بشرف وتحمّل بنفسه تبعات السقوط الهائل.

هذا وقد كان ديوي في مرحلة بناء مضمار الغولف - الذي سمّاه المزرعة القديمة - حين تحرّك المحقّقون الاتّحاديون ضدّه. وفي ظرف أسابيع قليلة اختفى كلّ المال فتوقّف البناء بعد اكتمال المساحة الخضراء الرابعة عشرة.

واليوم، يعتبر هذا الملعب هو الملعب الوحيد المضاء في العالم الذي يتألف من أربعة عشرة فتحة فقط، على حدّ علمي. وتكريما لديوي، أُطلق عليه اسم «أولد ريكو». وتقتصر العضوية فيه على أزلامه والمتآمرين معه. أمّا وظيفة ألان في هذه الأيام فهي العناية بالملعب وإبقاؤه صالحاً للعب، فتمكّن من ذلك بالفعل. وهو شخصياً يلعب باستمرار ويحلم في أن يصبح محترفاً. وقد استطاع جمع ما يكفي في المستحقّات لاستئجار بضعة بساتنة - كلّهم عمّال غير مسجّلين - إضافة إلى شكّنا في أنّه يعرف أين دفن ديوي بعضاً من أسلابه القديمة. وأنا أدفع خمسة آلاف دولار سنوياً كاشتراك في النادي، وهو مبلغ يساوي فائدة الهرب من الزحام وحشود الناس. مع الإشارة إلى أن مربعات انطلاق اللعب والمساحات الخضراء حالتها جيّدة عادة، بينما الممرّات يمكنها أن تصبح أقسى، لكن لا أحد يهتمّ. ولو أنّنا أردنا مضماراً مشذّباً بعناية فسنضطر إلى الاشتراك في نادٍ حقيقي، مع العلم أنّ أيّاً منّا، نحن المنضوون في نادي أولد ريكو، لا يمكنه النجاح في امتحان العضوية في نادٍ حقيقي.

وفي كلّ يوم أربعاء مساءً، في السّاعة السّابعة، نتجمّع لنلعب الغولف القذر، وهي لعبة تشبه بعض الشيء ما قد تراه على شاشة سي بـي إس. وكانت خطط ديوي الأصلية هي أن يبني مضمار اللعب أولاً، ليكون لديه مكان للعب، وبعد ذلك يبني النادي، ليكون لديه مكان للشرب. وفي غياب نادٍ مناسب، كنا نجتمع لتناول المشروبات والمراهنة قبل اللعب، وذلك في حظيرة للجرّارات كان ديوي قد استمتع فيها مرّة

بصراع الديكة، وربما كانت تلك هي الجريمة الوحيدة التي لم تُذكر ضمن التهم التي وُجّهت ضدّه. ويعيش ألان في الطابق العلوي مع امرأتين، ليست أيّ منهما زوجته، وهو منظِّم الغولف القذر. أمّا الفتاتان فتديران الحانة في النادي وتتحمّلان فظاظة الحضور وتداعبانهم. وتقتضي الطقوس أن نرفع نصف الليتر الأول - في جرار الفاكهة - في نخب ديوي، الذي يبتسم لنا من صورة بورتريه سيئة معلّقة فوق الحانة. وهذه الليلة هناك أحد عشر واحداً منّا، وهو عدد ملائم باعتبار أن أولد ريكو لا يحتوي سوى اثنتا عشرة عربة غولف فقط. وبينما نحن نرشف أنصاف الليترات الأولى، يُنجز ألان الإجراءات الروتينية الصعبة التي تتضمّن تصنيف مراحل وأدوار البطولة، وتحديد المعوّقات، وجمع المال. وتكلف لعبة الغولف القذرة 200 دولار عن كلّ مشترك، ويأخذ الفائز كلّ المال، وهو مبلغ ليس قليلاً، لكنّني لم أفز به أبداً.

والفوز يحتاج إلى مهارة، بالطبع، لكنّه يحتاج أيضاً إلى قدرة أعلى على المراوغة وقدرة على الغشّ من دون انكشاف الأمر. والقواعد مرنة. فعلى سبيل المثال، الضربة السيئة التي تتعدّى حدود الممرّات تُعتبر ضمن اللعب دائماً إذا أمكن العثور عليها. وفي الحقيقة، لا وجود لشيء اسمه خارج الحدود في أولد ريكو. إذا وجدتها، العبها. والضربة الخفيفة من مسافة ثلاثة أقدام أو أقل معترف بها دائماً، ما لم يودّ المعترض قضاء ليلة مزعجة والتقيّد الصارم بأصول اللعب. ولكلّ لاعب الحقّ في الطلب من أي لاعب آخر ضرب كلّ شيء. وفي اللعبة الرباعية يمكن القبول بأنّ كلّ لاعب يمكنه أخذ فرصة أخرى، أو ضربة حرّة إثر أخرى سيّئة.

كان الأربعة في مزاج جيّد، فيمكن لكلّ لاعب أن يأخذ فرصتين أخريين، واحدة قبل الحفرة السابعة وأخرى بعدها. وغني عن القول أن إسفنجية القواعد تؤدّي غالباً إلى الخلاف والنزاع. وباعتبار أن أيّ لاعب غولف من بين كلّ عشرة لاعبين لا يعرف قواعد اللعب الحقيقية، فإن كلّ دورة من دورات الغولف القذر تتخلّلها انتقادات مستمرّة، وإساءات، وشكاوى، وحتى تهديدات.

يجرّ الرفيق عربة الغولف خاصّتي، ولست الوحيد هنا المصحوب بحارس شخصي. وحيث أنّني ألعب الليلة وحيداً، فقد انضمّ إلي توبـي كالك، وهو عضو سابق في مجلس المدينة كان قد سُجن أربعة أشهر في أعقاب سقوط ديوي. وهو يجرّ عربة الغولف بنفسه. ذلك أن حاملي المضارب ممنوعون في أولد ريكو.

بعد ساعة من الشرب والتمهيد، توجّهنا إلى مضمار اللعب. وكان الظلام قد بدأ يهبط، فأنيرت الأضواء، فبدونا في الحقيقة مثل أصحاب الامتيازات الذين يلعبون الغولف ليلاً. أُطلقت طلقة البداية. وقد عيِّن لنا أنا وتوبـي مربع الانطلاق الخامس، وعندما صرخ ألان «انطلقوا»، شرعنا نتسابق، تتأرجح خلفنا عربتا المضارب، ونحن نصخب ونتشاحن كرجلين بالغين نصف مخمورين ننفث دخان سيجارين كبيرين ونصيح ونصرخ بسعادة في ذلك الليل.

ابتسم الرفيق ابتسامة عريضة وهزّ رأسه. رجال بيض مجانين.

الجزء الثالث
الشرطة المقاتلون

.1

هذا ما حدث:

زبونيّ، السيّد والسيّدة دوغلاس رينفرو، أو دوغ وكيتي كما يعرفهما الجميع، عاشا معاً لمدّة ثلاثين سنة بهدوء وسعادة في شارع تظلّله الأشجار في ضاحية سكنية جميلة. وكانا جارين جيّدين، وناشطين في المنظمات الخيرية المحليّة وفي الكنيسة، ومستعدّين دائماً لتقديم المساعدة. وكانوا في أوائل السبعينيات من العمر، متقاعدين، ولديهما أولاد وأحفاد، وزوج من الكلاب، وبيت للإجازات مشاطرة مع آخرين في فلوريدا. وهما يستدينان أية أموال ويدفعان مستحقّات بطاقات الائتمان كاملة كلّ شهر. كما أنهما مرتاحين وفي حالة صحيّة جيّدة نسبياً، على الرغم من أن دوغ كان يعاني من الرجفان الأذيني وكيتي تتعافى من الإصابة بسرطان الثدي. وقد قضى دوغ أربع عشرة سنة في الجيش، ثمّ

عمل بعد ذلك في بيع الأدوات الطبية طوال حياته المهنية. أمّا هي فقد توصّلت إلى تسوية مالية في نزاع مع شركة تأمين. ولكي يشغلا نفسيهما، تطوّعت هي في مستشفى بينما تسلّى هو بالعبث في أحواض الزهور ولعب التنس في متنزّه المدينة. وبإصرار من أولادهما وأحفادهما، ابتاع السيّد والسيّدة رينفرو حاسوباً نقّالاً لكلّ منهما وانضمّا إلى العالم الرقمي، على الرغم من أنّهما كانا يقضيان وقتاً قصيراً على الإنترنت.

والبيت المجاور لبيتهما اشتُري وبيع عشرات المرّات على مرّ السنين، ومالكوه الحاليون غريبو الأطوار ومنعزلون لا يخالطون أحداً. ولديهم ابن مراهق، اسمه لانس، هامشي وعديم التلاؤم يقضي أغلب وقته حبيساً في غرفته يمارس ألعاب الفيديو ويبيع المخدّرات عبر الإنترنت. ولإخفاء نشاطه المشبوه، كان يعمد بشكل دوري إلى التسلّل إلى شبكة آل رينفرو اللاسلكية. وهما لم يعلما بذلك بالطبع. فهما لا يعرفان تشغيل حاسوبيهما النقّالين من حين لآخر، وإرسال البريد الإلكتروني واستقباله، وإجراء بعض عمليات التسوّق البسيطة، والتحقّق من حالة الطقس، أمّا فيما عدا ذلك فليست لديهما فكرة حول كيفية عمل تلك التقنية، وليس لديهما سوى القليل من الاهتمام بها. ولم يعبأا بأيّ نوع من كلمات السرّ أو احتياطات الأمن.

وكانت شرطة الولاية قد أطلقت عملية واسعة لاتّخاذ إجراءات صارمة ضدّ تجارة المخدّرات عبر الإنترنت وتعقّبت عنوان بروتوكول إنترنت أوصلها إلى بيت رينفرو. إذاً، ثمّة شخص ما في ذلك البيت كان يبيع ويشتري الكثير من حبوب النشوة إكستازي، فتمّ اتّخاذ القرار بشنّ

هجوم شامل يقوم به فريق من قوات النخبة سوات. وقد استُحصل على تفويضين - أحدهما لتفتيش البيت والآخر لاعتقال دوغ رينفرو - وفي الساعة الثالثة فجراً من ليلة هادئة تزيّن سماءها النجوم، أسرع فريق مؤلّف من ثمانية رجال من شرطة المدينة متسترّين بالظلام وأحاطوا ببيت رينفرو. كانوا ثمانية ضبّاط - جميعهم مدجّج بالسلاح الحربي الكامل والسترات المضادّة للرصاص، واللباس العسكري المموّه، والخوذ من نمط سلاح المدرّعات، ومناظير الرؤية الليلية، وأجهزة الإرسال التكتيكية، والمسدّسات نصف الآلية، والبنادق الهجومية، وواقيات الرُكب، وبعضهم مقنّع الوجوه، وعدد منهم دهن وجهه بالأسود لمزيد من التأثير - يتقرفصون وينحنون ويتحرّكون من دون خوف عبر أحواض الزهور في حديقة منزل آل رينفرو، وأصابعهم على الزناد متحفّزين لبدء المعركة. اثنان منهم يحملان قنابل تخدير صاعقة، واثنان آخران يحملان مدكّين لخلع الأبواب.

شرطة محاربون. لكنّ الأغلبية العظمى منهم، كما سنعلم لاحقاً، كانوا غير مدرّبين، لكنهم مأخوذون جميعاً بفكرة الانخراط في المعركة. وقد اعترف لاحقاً ستّة منهم على الأقل باستهلاك مقدار كبير من مشروبات الطاقة المنبّهة للبقاء مستيقظين في تلك الساعة السيئة.

وبدلاً من الضغط على جرس الباب بكلّ بساطة وإيقاظ آل رينفرو وتبيان أنّهم، أي الشرطة، يريدون التحدّث إليهم وتفتيش البيت، شنّت الشرطة الهجوم بقوّة برفس الأبواب الأمامية والخلفية بشكل متزامن. ثمّ

كذبوا لاحقاً مدّعين أنّهم صاحوا منبّهين السكان، لكن دوغ وكيتي كانا نائمين، كما هو متوقّع. لذلك لم يسمعا شيئاً إلى أن بدأ احتلال بيتهما.

وما حدث خلال الثواني الستّين التالية تطلّب أشهراً عدّة ليتكشّف وتتّضح تفاصيله. والمصاب الأول كان سبايك، وهو كلب أصفر من فصيلة لبرادو كان نائماً على أرضية المطبخ. وسبايك المذكور كان عمره اثنا عشر عاماً، وهو عمر متقدّم بالنسبة لهذه الفصيلة من الكلاب، وهو ثقيل السمع. لكنّه سمع بالتأكيد تحطّم الباب على بعد بضعة أقدام فقط. أمّا خطؤه فكان أن قفز عالياً وبدأ النباح، فتلقى في تلك اللحظة ثلاث طلقات متتالية من مسدّس نصف آلي عياره 9 ملليمتر. وفي ذلك الوقت كان دوغ رينفرو يندفع خارج السرير ويتناول بندقيته الخاصة، وهي بندقية مسجّلة بحسب الأصول ومحفوظة في جارور قريب على سبيل الحماية. وهو يملك أيضاً بندقية براونينغ عيار 12 ملليمتر يستخدمها مرّتين في السنة لاصطياد الإوز، لكنّها مخبّأة في حجرة أخرى.

وفي محاولة للدفاع عن عملية احتلال البيت، زعم مدير الشرطة المتلعثم لاحقاً أنّ هجوم فريق سوات كان ضرورياً لأنهم عرفوا مسبقاً أن دوغ رينفرو مسلّح بشدّة.

وكان دوغ قد وصل إلى المدخل حين رأى عدّة أشخاص قاتمي المظهر يتسلّقون الدرجات. وكعسكري متمرّس، انبطح أرضاً وبدأ بإطلاق النار. ثمّ رُدّ على النار بمثلها. وكان الاشتباك قصيراً وقاتلاً. حيث أصيب دوغ بطلقتين إحداهما في الساعد والأخرى في الكتف. وأصيب شرطي يدعى كيسلير في رقبته على يد دوغ، كما هو مفترض. أمّا كيتي التي أسرعت

مرعوبة خارج غرفة النوم لتلحق بزوجها، فقد تلقت ثلاث طلقات في الوجه وأربعاً في الصدر وماتت على الفور. كما تلقى كلب العائلة الآخر، وهو من فصيلة الكلاب الألمانية وينام مع صاحبيه في الغرفة، طلقة واحدة أردته قتيلاً.

نُقل دوغ رينفرو وكيسلير على عجل إلى المستشفى. وأُخذت كيتي إلى مشرحة المدينة. وقد حدّق الجيران مذهولين في ما يحدث حيث أنار وميض الأضواء شارعهم بينما كانت سيارات الإسعاف تنطلق مسرعة لإجلاء المصابين.

بقيت الشرطة في البيت لساعات وجمعت كلّ دليل ممكن، بما في ذلك الحاسوبين النقّالين. وخلال ساعتين، وقبل شروق الشمس، علموا أن حاسبي آل رينفرو لم يسبق أن استُخدما لبيع المخدّرات. عرفوا أنّهم ارتكبوا خطأً فادحاً، لكنّ الاعتراف بالخطأ ليس وارداً بكلّ بساطة في قاموسهم. بدأت تغطية الخطأ فوراً عندما صرّح قائد فريق سوات لمراسلي شبكات التلفزة في موقع الأحداث، وبلهجة بالغة الجدّية، حول الاشتباه بأن شاغلي كانوا يوزّعون المخدّرات، وأن رجل البيت، السيّد دوغ رينفرو، حاول قتل عدّة ضبّاط.

وبعد تحسّن وضعه الصحّي إثر العلميات الجراحيّة التي خضع لها، وبعد ستّ ساعات من إصابته، علم دوغ بموت زوجته. وعلم أيضاً أنّ الذين اقتحموا بيته كانوا في الحقيقة ضبّاط شرطة. فلم تكن لديه أيّة فكرة. فقد اعتقد أنّهم مجموعة من المجرمين المسلّحين الذين اجتاحوا بيته.

.2

رنّ هاتفي الخلوي في الساعة 6:45 صباحاً. وكنت حينها أحدّق في كرات البلياردو متفكّراً في كيفية تنفيذ ضربة غير مباشرة وشبه مستحيلة تدخل الكرة التاسعة في فتحة الزاوية لتنهي اللعبة. وكنتُ قد شربت قهوة قوية وأضعتُ الكثير من الضربات خلال الساعة الماضية. التقطتُ الهاتف ونظرتُ إلى اسم المتّصل، وقلت: «صباح الخير».

«هل أنت مستيقظ؟» سألني الرفيق.

«خمّن»، أجبت. مع العلم أنّني لم أنم حتى الساعة 6:45 منذ سنوات. وكذلك الأمر بالنسبة للرفيق.

«ربّما ترغب في الاطّلاع على الأخبار».

«حسناً، ما الأمر؟».

«يبدو وكأن جنودنا الدمى قد اقتحموا بطريقة خرقاء للتوّ بيتاً آخر. ثمة إصابات».

«اللعنة!»، قلتُ والتقطت جهاز التحكّم. ثمّ أضفت: «نلتقي لاحقاً». واتّجهتُ إلى إحدى زوايا عريني حيث حُشرت أريكة صغيرة وكرسي، وعُلّقت بالسقف شاشة إتش دي عريضة أمام الجدار. ثمّ ألقيتُ بنفسي على الكرسي مع ظهور الصورة الأولى على الشاشة.

وكانت الشمس بالكاد قد أشرقت، لكن كان هناك ما يكفي من الضوء لمشاهدة الفوضى في المكان. وقد عجّت الساحة الأمامية لبيت آل رينفرو برجال الشرطة وعناصر الإسعاف. وكانت الأضواء تومض في الخلفية وراء مراسلي الأخبار الذين يتأتئون وتكاد تتقطّع أنفاسهم. أمّا الجيران الذين خرجوا بثياب النوم فكانوا يحدّقون إلى المشهد من ناصية الشّارع الأخرى. وظهرت في الصورة أشرطة مسرح الجريمة الصفراء الفاقعة وهي تتأرجح صعوداً وهبوطاً وفي كلّ الاتّجاهات. وهو مسرح جريمة بالفعل، لكنّني ارتبتُ في الأمر. فمن هم المجرمون الحقيقيون؟ لذا، اتّصلتُ بالرفيق وطلبت منه الذهاب إلى المستشفى واستطلاع الأمر.

هذا وقد وقفتْ في ممرّ بيت آل رينفرو دبابة ذات مدفع قطره ثمانية بوصات وعجلات مطاطيّة سميكة بدلاً من الجنازير، وهي ذات طلاء تمويهي وبرج مفتوح برز منه حينذاك شرطي مقاتل أخفى وجهه وراء نظّارات سائقي الدرّاجات الشمسية العريضة، تعبّر ملامحه عن الاستنفار التامّ. وتجدر الإشارة إلى أن قسم شرطة المدينة يمتلك دبابة

واحدة فقط، وهي موضع فخرهم. وهم يستخدمونها حيث أمكنهم ذلك. وأنا أعرف تلك الدبابة؛ تعاملتُ معها من قبل.

قبل عدّة سنوات، بعد فترة ليست طويلة من هجمات الحادي عشر من سبتمبر/أيلول الإرهابية، استطاع قسم شرطتنا الاحتيال على سلطات الأمن الوطني فسحبت منهم بضعة ملايين دولار من أجل التسلّح والانضمام إلى الهوس الوطني المسمّى «مكافحة الإرهاب المتطرّف». وذلك بغضّ النظر عن بُعد مدينتنا عن المناطق الحضرية الرئيسة والمدن الكبرى، وعدم وجود ما يشير إلى وجود الجهاديين قريباً منا، وأنّ لدى شرطتنا الكثير من الأسلحة ومعدّات النينجا. بغضّ النظر عن ذلك كلّه؛ كان لزاماً علينا جميعاً أن نكون مستعدّين! لذا، وخلال سباق التسلّح الذي تلى ذلك، استحصلت شرطتنا بطريقة ما على دبابة جديدة. وعندما تعلّموا كيف يقودونها، كان وقت استخدامها اللعين قد حان.

أمّا الضحيّة الأولى فكان رجلاً ريفياً يدعى سوني ويرث، يقطن عند الحدود الخارجية للمدينة، في جزء من البلدة يتفاداه سماسرة العقارات. وكان سوني وصديقته وطفلين لهما نائمين في الساعة 2:00 فجراً عندما بدا لهم البيت وكأنه سينفجر. وهو في الحقيقة لم يكن بيتاً كبيراً، لكن لم يكن ذلك أمراً مهمّاً حقاً. فقد اهتزّت الجدران وكان هناك صخب وهدير، فظنّ سوني في بادئ الأمر أنّ إعصاراً قد ضرب البيت.

لا، إنها الشرطة فحسب. وقد زعموا لاحقاً أنّهم قرعوا الباب، ثمّ جرّبوا جرس الباب، لكنّ لم يسمع أحد داخل البيت أيّ شيء إلى أن اندفعت الدبابة عبر النافذة الأمامية ثمّ توقّفت داخل الوكر. وقد حاول

كلب هجين ومغفّل الهرب عبر فتحة في الجدار لكنّه أُردي بطلقة من محارب شجاع. ومن حسن الحظّ أنّه لم تكن هناك إصابات أخرى، على الرغم من أن سوني أمضى ليلتين في المستشفى بسبب ألم في الصدر، ثمّ دخل بعد ذلك السجن لمدّة أسبوع قبل أن يُطلق سراحه. أمّا جرائمه فهي: المراهنات والقمار. وادّعت الشرطة والمدّعون العامّون أن سوني كان جزءًا من شبكة، وبالتالي فهو متآمر، ثمّ هو عضو في عصابة للجريمة المنظّمة، وهكذا.

وبالوكالة عن سوني ولمصلحته، أقمت الدعوى على سلطات المدينة بسبب استخدام «القوة المفرطة» فحصلت له على مليون دولار كتعويض. وبالمناسبة، لم يخرج سنت واحد من ذلك المبلغ من جيوب رجال الشرطة الذين خطّطوا للهجوم. بل خرج ذلك المال كالعادة من جيوب دافعي الضرائب. وقد أُسقطت لاحقاً التهم الجنائيّة ضدّ سوني، لذا كان ذلك الهجوم مضيعة تامّة للوقت، والمال، والجهد.

وبينما كنتُ أرتشف قهوتي وأراقب المشهد، قلتُ في نفسي أن آل رينفرو محظوظون حقّاً إذ لم تجتح تلك الدبابة بيتهم كما اعتادت. ولأسباب لن نعرفها أبداً، اتُّخذ القرار بإبقاء تلك الدبابة في الممرّ، ربّما على سبيل الاحتياط. فإذا كان الجنود الثمانية غير كافين، أو إذا شنّ آل رينفرو هجوماً مضادّاً بطريقة ما، فستكون لهم تلك الدبابة بالمرصاد وستدمّر وكرهم.

ركّزت الكاميرا عدستها على شرطيين يقفان بجانب الدبابة، كلاهما مسلّح ببندقية هجومية. وكلاهما يزن أكثر من ثلاثمئة رطل. وكان

أحدهما يرتدي زيّاً عسكرياً مموّهاً باللونين الأخضر والرمادي، وكأنّه كان يطارد الظباء في الغابة. أمّا الآخر فقد ارتدى زيّاً عسكرياً مموّهاً باللونين البنّي والبيج، وكأنّه كان يطارد المتمرّدين في الصحراء. وكان المهرّجان المشار إليهما يقفان، بالزيّ العسكري المموّه، في ممر بيت مديني لا يبعد سوى خمس عشرة دقيقة تقريباً من وسط مدينة متحضّرة ومزدهرة يقطنها مليون شخص. والجانب المحزن والمخيف فيما يتعلّق بتلك الصورة هو أنّ الرجلين لم يكونا يعلمان أبداً كم بدوا غبيين. بل كانا متغطرسين وفخورين بنفسيهما. وقد عرضا على المشاهدين كرجلين صلبين يحاربان الأشرار. ذلك أن أحد زملائهما أصيب، وجرح، وسقط أثناء تأدية الواجب؛ وهما شديدا الغضب من أجله. وما فتئا يعبسان في وجوه الجيران الذين يعبرون الشّارع. كلمة خاطئة واحدة، وقد يبدأان بإطلاق الرصاص. إصبعاهما على الزناد.

تحسّنت حالة الطقس فدخلتُ الحمّام لآخذ حمّاماً سريعاً.

ثمّ أقلّني الرفيق في الساعة الثامنة وتوجّهنا إلى المستشفى. وعند وصولنا كان دوغ رينفرو لا يزال في غرفة العلميات الجراحيّة. أمّا إصابة الضابط كيسلير فلم تكن خطرة. وكان هناك رجال شرطة في كلّ مكان. وفي غرفة الانتظار المزدحمة، أشار الرفيق إلى جمهرة من الناس المنذهلين مما حدث؛ وكانوا يجلسون متراصّين جنباً إلى جنب بأيدٍ متشابكة.

ولم تكن تلك هي المرة الأولى التي أطرح فيها السؤال الواضح التالي على نفسي: لماذا لم يقرع رجال الشرطة جرس الباب، بكلّ بساطة وفي ساعة معقولة، ويتحدّثوا إلى السيّد رينفرو؟ شرطيان بملابس مدنية، أو

ربّما واحد فقط بالزيّ الرسمي؟ لم لا؟ أمّا الجواب فبسيط: يعتقد هؤلاء الرجال أنّهم جزء من قوة نخبوية متقدّمة؛ وهم يحتاجون بالتالي إلى القيام بأعمال مثيرة، لذلك ها نحن هنا في مستشفى آخر مضطرب بمعالجة الإصابات.

توماس رينفرو في حوالى الأربعين من العمر. طبقاً لما قاله الرفيق، وهو أخصّائي نظارات يدير عملاً في الضواحي، أمّا شقيقتاه فلا تقطنان في مكان قريب، لذا لم تحضرا بعد إلى المستشفى. وهكذا، ابتلعتُ ريقي بقوّة واقتربتُ منه. لكنّه أراد صرفي فكرّرتُ له أكثر من مرّة أنّ من المهم أنّ نتحدّث. فسار معي بعد ذلك لنتحدّث على انفراد في إحدى الزوايا. وكان المسكين بانتظار شقيقتيه ليذهبوا معاً إلى المشرحة من أجل الشروع في ترتيبات الدفن لأمّهم الميتة؛ وفي تلك الأثناء، كان أبوهم تحت الجراحة. وقد اعتذرتُ له عن تطفّلي، لكنّني استرعيت انتباهه عندما بيّنتُ له أنّني توليت أمراً كهذا من قبل مع هؤلاء الشرطة.

مسح عينيه الحمراوين ثمّ قال: «أعتقد أنّني رأيتك من قبل».

«من المحتمل في الأخبار. فأنا أتولى بعض القضايا الجنونية».

تردّد قليلاً، ثمّ تابع قائلاً: «وما هو نوع هذه القضية؟».

«هذا ما سيحدث، السيّد رينفرو، والدك، لن يعود إلى البيت في وقت قريب. فعند انتهاء الأطباء منه، ستأخذه الشرطة إلى السجن. وسيُتّهم بمحاولة قتل شرطي. وسيُحكم عليه بالعقوبة القصوى البالغة عشرين عاماً. أمّا الغرامة التي سيضطر إلى دفعها فستكون مليون دولار

أو نحو ذلك - وهو أمر شنيع - ولن يستطيع توفيرها لأن المدّعي العامّ سيُجمد أصوله، مثل البيت، والحسابات المصرفية، وغيرها. لن يستطيع مسّ أيّ شيء لأنهم يتلاعبون بالمحاكمات بهذه الطريقة».

وكأنّ المسكين لم يتلقَّ ما يكفي من الصدمات في الساعات الخمس الماضية. فقد أغلق عينيه وهزّ رأسه، لكنّه كان يستمع. تابعتُ الحديث: «إنّ السبب الذي يدفعني لازعاجك بهذا الحديث هو ضرورة التقدّم بدعوى مدنية فوراً. أو غداً إذا أمكننا ذلك. وستتضمّن الدعوى التسبّب بوفاة أمّك، والهجوم على أبيك، واستخدام القوّة المفرطة، وعدم كفاءة الشرطة، وانتهاك الحقوق، إلخ. وسوف أحمّلهم مسؤولية كلّ شيء. وقد فعلتُ ذلك من قبل. وإذا قُيّض لنا القاضي المناسب، فسأتمكّن فوراً من الوصول إلى سجلاتهم الداخلية. فهم يقومون الآن، ونحن نتحدّث، بالعمل على إخفاء أخطائهم، وهم بارعون جدّاً في ذلك».

انهار الرجل، ثمّ قاوم، وسيطر على نفسه قليلاً، ثمّ قال: «هذا كثير جدّاً».

سلّمته بطاقتي الشخصية وقلت: «أتفهّم حالك. اتّصل بـي حالما تستطيع. أنا أحارب هؤلاء اللقطاء على الدوام، وأنا أعرف اللعبة. وأنت تعاني الأمرّين الآن، لكن، لسوء الحظ، سيسوء الحال أكثر.

تمكّن من قول «شكراً».

.3

وفي وقت لاحق من عصر ذلك اليوم، أتى بعض رجال الشرطة وتحدّثوا إلى لانس، وهو الفتى الكسول القاطن بجوار آل رينفرو. ثلاثة رجال شرطة فقط، بثياب مدنية، اقتربوا من البيت بمنتهى الشجاعة ومن دون أسلحة هجومية أو سترات مضادّة للرّصاص. وحتى إنهم لم يجلبوا دبابتهم. وقد سارت الأمور بيسر؛ ولم يتلقَّ أحد أيّة طلقة.

لانس عمره تسعة عشر عاماً، وهو عاطل عن العمل، منعزل في البيت، وهو فاشل حقيقي، ويوشك عالمه أن يتغيّر بشكل مثير. وكان لدى رجال الشرطة أمر تفتيش. لذا، وبعد أن صادروا حاسوبه النقّال وهاتفه الخلوي، بدأ لانس يتكلّم. وكان في البيت عندما عادت أمّه إلى البيت، وقد اعترف بكلّ شيء. وقال إنّه ظلّ يتطفّل على شبكة آل رينفرو اللاسلكيّة لمدة سنة تقريباً. وكان يتاجر بالممنوعات عبر شبكة الويب المظلمة عبر موقع يدعى سوق ميلي، حيث يمكنه أن يشتري من هناك أيّة كمية من أيّ عقار، بطريقة غير شرعية أو بوصفة. وقد واظب على

حبوب النشوة لأنها متوفرة ولأن الأولاد، زبائنه، يحبّونها. وكان يدير عمله باستخدام عملة بيتكوين الرقمية، وقد بلغت قيمة أعماله الجارية 60 ألف دولار. وفي المحصلة، صبّت جميع التفاصيل التي أدلى بها في سيل إدانته، وبعد ساعة اقتيد مكبلاً بالأصفاد.

لذا وفي الساعة 5:00 مساء، أو بعد أربعة عشر ساعة تقريباً من الهجوم، اكتشفت الشرطة الحقيقة أخيراً. لكنّهم كانوا يعملون في تلك الأثناء على إخفاء آثار أخطائهم. وقد سرّبوا بعض الأكاذيب هنا وهناك، وفي وقت مبكّر من صباح اليوم التالي كنتُ أقرأ صحيفة كرونيكل على الإنترنت وأتصفّح أخبار الصفحة الأولى، فرأيت صور دوغلاس وكاثرين رينفرو، التي رحلت، والضابط كيسلير الذي يبدو كبطل؛ أمّا آل رينفرو فظهروا كمجرمين. وقد قيل عن دوغ أنه مشتبه به في شبكة لتهريب المخدّرات عبر الإنترنت. وقال جار له أن الأمر مريع. أمّا الجيران الآخرون الأكثر لطفاً فقالوا إنهم ليس لديهم فكرة حول الموضوع. وقيل أيضاً أن كيتي سقطت في تبادل إطلاق النار عندما أطلق زوجها النار على ضبّاط الشرطة المسالمين الذين ينفذّون القانون. وكُتب أيضاً أنّ الراحلة ستُدفن في الأسبوع القادم. أمّا زوجها فستوجّه له التهم بعد قليل. ومن المتوقّع أن ينجو الضابط كيسلير. هذا ولم ترد كلمة واحدة حول لانس.

بعد ساعتين من ذلك، قابلتُ نيت سبوريو في دكان للكعك في مركز للتسوّق شمال البلدة. ونحن نحرص أن لا يرانا أحد معاً علناً، أو أن يتعرّف إلينا أيّ شخص قد يكون شرطياً أو يعرف أحداً من الشرطة؛ لذا تتبدّل أمكنة اجتماعاتنا السرية بين آ، بـي، كي، ثمّ دي. والمكان آ هو

مطعم آربـي للحم البقر المشوي في الضواحي. أما المكان بـي فهو أحد دكانين للكعك. في حين أن المكان كي هو كهف سمك السلّور الذي يقع على بُعد ستّة أميال شرق المدينة. وأخيراً، المكان دي هو متجر دوناتس. وعندما نحتاج للتحدّث، نختار بكلّ بساطة حرفاً من لعبة الأبجدية الصغيرة ونتّفق على الوقت. أمّا سبوريو فهو ثلاثيني خبير من قوّة الشرطة، وهو شرطي صادق ونزيه يلعب طبقاً للأصول ويحتقر جميع زملائه الموجودين في القسم تقريباً. ويجمعني به تاريخ قديم بدأ مذ كنتُ في الجامعة، فتى في العشرين من العمر، حيث حدث أن شربت كثيراً في قاعة للمشروبات، ووجدتُ نفسي في الخارج ملقى على الرصيف أتلقى معاملة خشنة من قبل عدد من رجال الشرطة، من بينهم نيت سبوريو. وقد قال إنّني شتمته ودفعته؛ وبعد أن استيقظتُ في السجن، أتى للاطمئنان عليّ. فاعتذرتُ له بشدّة. ثمّ قبِل اعتذاري وتأكّد من إسقاط التهم عني. ثمّ شفي فكّي المكسور تماماً، وصُرف الشرطي الذي ضربني لاحقاً من الخدمة. وقد ألهمتني تلك الحادثة دخول كليّة الحقوق. وعلى مرّ السنين، رفض سبوريو ممارسة الألعاب السياسية اللازمة للترقية والترفيع، وبقي يراوح في المكان والرتبة نفسها. وهو يظلّ عادة متسمّراً إلى منضدة، يُصنّف الأوراق ويراجعها، ويحسب الأيام. لكن هناك أيضاً شبكة من الضبّاط الآخرين المنبوذين من قبل القوى النافذة في المركز، حيث يقضي سبوريو الكثير من الوقت في الاستماع إلى ثرثراتهم. وهو ليس واشياً بأيّ معنى من المعاني. بل هو بكلّ بساطة شرطي نزيه يكره الحال الذي أصبح عليه مركز عمله.

وخلال اجتماعنا بقي الرفيق في الشاحنة، في موقف السيارات، على أهبة الاستعداد في حال أتى بعض رجال الشرطة الآخرين لتناول شيء من الكعك. أمّا نحن فحشرنا نفسينا في إحدى الزوايا وراقبنا الباب. فإذا دخل شرطيّ ما، فسيقول سبوريو: «يا ولد... أوه يا ولد، هذا واحد كبير».

«لننتهِ من الأمر».

بدأ بالحديث حول توقيف لانس، ومصادرة كمبيوتره، وهو البرهان الواضح أن الفتى موزّع صغير، بالإضافة إلى احتوائه على تفاصيل دخوله على شبكة آل رينفرو اللاسلكية. أما حاسبـي رينفرو فهما نظيفان تماماً، لكن دوغ سيُتّهم بعد غد، وسيبرّئ الضابط كيسلير من جميع الأخطاء. هذا هو التستّر المثالي.

«من الذي كان موجوداً؟»، سألته وهو يسلّمني ورقة مطوية. قال: «ثمانية، جميعهم من قسمنا. لا فتية حكوميين، ولا محقّقين اتّحاديين».

إذا نجحتُ في تحقيق خطتي، فستُعلن أسماء هؤلاء الثمانية كمتّهمين في دعوى المطالبة بتعويض مقداره..åæÃ... لا أدري، ربّما 50 مليون دولار.

«من الذي قاد الحفلة؟»، سألت.

«من تعتقد؟».

«سوميرال؟».

«أصبت. يمكن معرفة ذلك من مشاهدة الأخبار. مرة أخرى، قاد الملازم أوّل شيب سوميرال جنوده الشجعان إلى بيت هادئ جميع سكّانه نائمون، فتمكّن من اعتقال المطلوب. هل ستقاضيهم؟»

أجبت: «لم أحصل على التوكيل إلى الآن، لكنّني أعمل على ذلك».

«ظننتُ أنّك الأفضل في مطاردة سيارات الإسعاف».

«التي أريدها فقط. وسأمسك بهذه».

مضغ سبوريو كعكة بنكهة البصل، بعد غمسها بالقهوة،

قال: «يجب السيطرة على هؤلاء الرجال يا رود. يجب أن توقفهم».

«لا يمكن يا نيت. لا أستطيع وقفهم. ربّما أستطيع إحراجهم من وقت لآخر، وتغريم المدينة بعض المال، لكن ما يفعلونه هنا يحدث في كلّ مكان. نحن نعيش في دولة بوليسية والجميع يدعم الشرطة».

«إذاً أنت خطّ الدفاع الأخير؟»

«نعم».

«ليساعدنا الله».

«آمين. شكراً على المعلومات. سأكون على اتّصال».

«لا داعي للشكر».

.4

كان دوغ رينفرو يعاني من إصابات جسدية شديدة واضطرابات عاطفية تمنعه من لقائي، وباعتبار أن الاجتماع يجب أن يحدث في غرفته في المستشفى، فهي فكرة سيئة على أية حال. وكانت الشرطة تحرس الباب الوحيد للغرفة كما لو أنّه محكوم بالإعدام، مما يعني أن الخصوصية في الاجتماع مستحيلة. لذلك سألتقي توماس رينفرو وشقيقتيه في مقهى في الشارع قرب المستشفى. وفي الاجتماع كان المساكين الثلاثة كأنّما يسيرون وهم نيام؛ كانوا مرعوبين، ومستنزفين، ومذهولين؛ غاضبين، يلفّهم الحزن، ومستميتين على نصيحة. وقد أهملوا قهوتهم، وأبدوا ارتياحاً حين بدأتُ أنا بالحديث. ومن دون أي قدر من المبالغة أو الحماس الزائد، قدّمتُ لهم نفسي، وبيّنتُ لهم عملي، ومنبتي، وطريقتي في حماية زبائني والدفاع عنهم. وقلت لهم أيضاً أنّني لست محامياً عادياً. فأنا لا أدير مكتباً جميلاً مفروشاً بخشب الماهوغوني والجلد. وأنا لا أنتمي إلى مؤسّسة كبيرة، أو رفيعة المستوى، أو ما شابه

ذلك. كما أنّني لا أتولى الأعمال من خلال نقابة المحامين. فأنا مقاتل وحيد، ملتوٍ يصارع النظام ويكره الظلم. وأنا موجود معهم لأنّني أعرف جيّداً ما الذي يوشك أن يحدث لأبيهم، ولهم.

قالت فيونا، الأخت الأكبر سنّاً: «لكنّهم قتلوا أمّنا».

«نعم فعلوا ذلك، لكن لن يُتّهم أحد بقتلها. سيحقّقون، وسيرسلون الخبراء، وهكذا؛ وفي النهاية سيقبل الجميع أنّها سقطت بكلّ بساطة في تبادل لإطلاق النار. وسيتّهمون أباك وسيُحمّلونه مسؤولية البدء بإطلاق النار».

أمّا سوزان، الأخت الأصغر، فقالت: «لكنّنا تحدّثنا إلى أبينا، يا سيّد ÑæÏø. وكانوا في نوم عميق عندما تحطّم شيء ما داخل البيت. فظنّ أبــي أنّهم يتعرّضون للسرقة، فحمل بندقيته واتّجه نحو المدخل، ثمّ انبطح أرضاً حين رأى الأشخاص في العتمة. ثمّ أطلق شخص ما رصاصة، فردّ على إطلاق النار. ويقول إنه يتذكّر أن أمّي كانت تصرخ وتجري نحو المدخل للاطمئنان عليه».

قلت: «من حسن حظّه أنّه لا يزال حيّاً. أطلقوا النار على الكلبين، أليس كذلك؟».

«من هم هؤلاء البلطجيّة؟»، سأل توماس بنبرة العاجز.

«رجال الشرطة، الأخيار». ثمّ رويتُ لهم قصّة موكّلي سوني ويرث الذي اقتحمت الدبابة مسكنه، والدعوى التي ربحناها. وشرحتُ لهم أنّ الدعوى المدنية هي خيارهم الوحيد الآن. ذلك أن أباهم سيُتّهم ويحاكم،

وعندما تظهر الحقيقة أخيراً - ووعدتهم أنّنا سنكشف كلّ شيء - سيكون هناك ضغط هائل على سلطات المدينة كي ترضخ. وستكون الغاية النهائية من كلّ ذلك هي الحؤول دون دخول أبيهم السجن. ونصحتهم أن ينسوا مسألة تحقيق العدالة بالنسبة لما حدث لأمّهم. فالدعوى المدنية، التي يتولاها محامٍ قدير بالطبع، سوف تضمن الحصول على أكبر قدر ممكن من المعلومات. وقد كرّرت القول أكثر من مرّة إنّ التستّر على ما حدث جارٍ على قدم وساق.

وقد بذلوا جهدهم للاستماع، لكنّهم كانوا في عالم آخر. ومن ذا الذي يستطيع لومهم؟ فانتهى الاجتماع والمرأتين تبكيان وتوماس غير قادر على الكلام.

لقد حان الوقت كي أنسحب.

.5

وصلتُ إلى الكنيسة الميثودية الكبرى من دون دعوة، حيث أن المناسبة مفتوحة للعموم، وذلك قبل دقائق فقط من بداية طقوس تأبين كاثرين رينفرو. ثمّ وجدتُ السلّم فصعدتُ إلى الشرفة وجلست في ما يشبه العتمة. وكنتُ وحيداً في الأعلى، في حين كانت صالة القدّاس مكتظة. ثمّ نظرتُ إلى الحشد في الأسفل: جميعهم من البيض، وكلّهم من الطبقة الوسطى، وكلّهم غير مصدّق لما حدث لصديقتهم التي تلقّت من الشرطة سبع رصاصات وهي في ثياب النوم.

ألا يفترض بهذه المآسي غير المعقولة أن تحدث في أجزاء أخرى من البلدة؟ فهؤلاء الناس شديدو الانضباط والتقيّد بالقوانين. وهم يصوّتون لليمين ويريدون قوانين صارمة. وإذا حدث وأن فكّروا بشأن قوّات التدخّل السريع «سوات»، فهم يعتقدون أنّها ضرورية لمحاربة الإرهاب والمخدّرات في أماكن أخرى. فكيف يحدث لهم هذا؟

أما الغائب عن هذه المراسم فهو دوغ رينفرو. وطبقاً لما أوردته صحيفة كرونيكل أمس فقد وُجّهت إليه التّهم. وهو لا يزال في المستشفى، لكنّه يتعافى ببطء. وكان قد استجدى الأطباء والشرطة للسماح له بحضور جنازة زوجته. فوافق الأطباء؛ لكن الشرطة رفضت رفضاً باتّاً. فهو في رأيهم يشكّل خطراً على المجتمع. أما الجانب الأقسى من هذه المأساة فهو أنّ دوغ سيعيش بقية حياته تحت مظلّة إدانته بالارتباط، بطريقة ما، بتهريب المخدّرات. وأغلب هؤلاء الناس سيصدّقونه وسيأخذون بدفاعه عن نفسه، لكنّ البعض الآخر من الناس ستكون لديهم شكوك بشأنه. وماذا بشأن ماضي دوغ العجوز؟ بالتأكيد ليست لديه جنح أو جنايات سابقة وإلا لكان رجال شرطتنا الشجعان قد لاحقوه.

شعرتُ بالمعاناة أثناء طقوس التأبين، مثل جميع الحاضرين. فالجوّ كان مثقلاً بالأسى والغضب. وقد حاول الكاهن تهدئة النفوس، لكنّه بدا أحياناً غير متأكد تماماً ممّا حدث. لذلك حاول إضفاء بعض المنطق على الحادثة، لكنّ مهمّته كانت مستحيلة. وبينما كان على وشك اختتام المراسم، وحين تصاعد صوت البكاء، سارعتُ بنزول السلّم وخرجتُ من باب جانبـي.

بعد ساعتين من ذلك، رنّ هاتفي. وكان المتّصل دوغ رينفرو.

.6

محامٍ مثلي مضطر للعمل في الظلّ والخفاء. فخصومي يحتمون بالشارات، والأزياء الرسمية، وكلّ البهارج التي لا تعد ولا تحصى والمستمدّة من السلطة الرسمية. وقد أقسم هؤلاء على التقيّد بالقانون وعلى تنفيذه، لكنّهم لا يتورّعون عن الغشّ أبداً، لذلك أنا مضطر للغشّ أكثر منهم بكثير.

وأنا لديّ شبكة من جهات الاتّصال والمصادر. ولا أستطيع تسميتهم أصدقاء، لأن الصداقات تتطلّب بعض الالتزامات. والضابط نيت سبوريو أحد الأمثلة؛ فهو شرطي نزيه لا يطلب شيئاً أبداً مقابل المعلومات السريّة. مع العلم أنّني عرضتُ عليه المال. وهناك شخص آخر يعمل مراسلاً في صحيفة كرونيكل، ونحن نتبادل الثرثرة متى أمكن ذلك. لكنّنا لا نتبادل النقود. أما المفضّل لديّ فهو أوكي شوين الذي يأخذ المال دائماً.

أوكي موظف مكتبـي متوسط الدرجة يعمل في ديوان كاتب المحكمة الاتّحادية ضمن مبنى المحكمة في وسط المدينة. وهو يكره عمله، ويحتقر زملاءه في العمل، ويبحث على الدوام عن طريقة سهلة لكسب المال. وهو مطلّق كثير الشرب، ولا ينفكّ عن اقتراف جناية التحرّش في موقع العمل. أما قيمة أوكي فتكمن في قدرته على معالجة التوزيع العشوائي للقضايا من قِبل المحكمة. فعندما تقام دعوى مدنية، يفترض أن تذهب تلك القضية مصادفة إلى أحد قضاتنا الاتّحاديين الستّة. ويستطيع الكمبيوتر القيام بهذه المهمّة، بالإضافة إلى إجراءات أخرى بسيطة. وفي معظم الأحيان لا بدّ أن يكون لديك قاضٍ مفضّل، بناء على نوع القضية التي بين يديك، أو بحسب خبرتك في قاعات المحاكم المختلفة؛ لكن من يهتمّ بهذه المسألة حين يكون التعيين عشوائياً جداً؟ أما أوكي فيعرف كيف يتلاعب بالبرنامج ليجد لك القاضي الذي تريده حقاً. وهو يتقاضى المال مقابل ذلك، دون وجل، بالرغم من أنّه قد يُضبط متلبساً، لكنّه يؤكّد لي استحالة ذلك. وإذا كُشف أمره فسيُطرد من عمله وربّما حوكم وسُجن، لكنّ أوكي يبدو غير مكترث بهذه الاحتمالات.

وقد التقينا، بناءً على اقتراحه، في حانة فاسدة فيها مسرح للراقصات بعيداً عن وسط المدينة. أمّا جمهور الحانة فمعظمه من العمّال والحرفيين. لذا، أدرتُ ظهري لخشبة المسرح كي لا أنظر إلى العرض. وفي خضمّ الضجيج قلت: «سأقيم دعوى غداً. رينفرو، البيت الأخير الذي اجتاحه صبيان قوّة التدخّل السريع».

ضحك أوكي وقال: «يا للمفاجأة. دعني أحزر، أنت تعتقد أن العدالة ستتحقّق على أفضل وجه إذا تولى القضية سعادة القاضي آرني سامسون».

«هو ذاك».

«عمره 110 أعوام. معمّر وشبه ميّت. لماذا لا نسمح لهؤلاء الرجال بالتقاعد؟»

«ذلك أمر بينكم وبين الدستور. سيتولّى هذه القضيّة. الأتعاب المعتادة؟».

«نعم. لكن ماذا لو رفض ومرّرها لتسلك التوزيع المتّبع؟».

«يجب أن أنتهز هذه الفرصة»، قلتُ ذلك وناولته مغلفاً يحتوي ثلاثة آلاف دولار نقداً. هذه هي أتعابه المعتادة. دسّ المغلّف في جيبه بسرعة، حتى من دون كلمة شكر، ثمّ حوّل انتباهه إلى الفتيات.

.7

في الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي، دخلتُ ديوان الكاتب وتقدّمتُ بأوراق دعوى قضائية ضدّ سلطات المدينة، وقسم الشرطة، ورئيس الشرطة، وعناصر قوّة التدخّل السريع الذين هاجموا بيت آل رينفرو قبل ستّة أيام، مطالباً بتعويض مقداره 50 مليون دولار. وفي مكان ما من الأعماق المظلمة للمكتب، كان أوكي يمارس سحره الذي جعل القضيّة تذهب «عشوائياً وتلقائياً» إلى القاضي آرنولد سامسون. ثمّ أرسلتُ بالبريد الإلكتروني نسخة من الدعوى إلى صديقي في صحيفة كرونيكل.

وتقدّمتُ أيضاً بطلب إصدار تقييد مؤقت يمنع المدّعي العامّ من تجميد ممتلكات دوغ رينفرو. والتجميد المذكور أسلوب عقابـي مفضّل تستخدمه الحكومة لمضايقة المتّهمين الجنائيين. وكانت الغاية الأصلية من تجميد الممتلكات هي التحفّظ على الأصول التي ربّما تكون جُمعت من أي نشاط إجرامي مارسه المتّهم؛ وبشكل أساس من تهريب المخدّرات.

وفي المحصلة الاستيلاء على المكاسب غير المشروعة والتسبّب بالمصاعب للعصابات. ومثل العديد من القوانين، لم يحتج المدّعون العامّون الكثير من الوقت ليبدعوا ويتوسّعوا في استخدامه. وفي قضيّة دوغ، استعدّت الحكومة للمجادلة والقول إنّ ممتلكاته، مثل البيت، والسيارات، والحسابات المصرفية وحساب التقاعد، اكتُسبت، جزئياً، من المال القذر من خلال بيع حبوب النشوة إكستازي.

ماذا تقول؟ أثناء انعقاد الجلسة الطارئة للبتّ بطلب التقييد المؤقت، تراجع المدّعون العامّون وبحثوا عن مخرج. لكنّ القاضي سامسون، ذو المعنويات العالية، وبّخهم، وحتى أنّه هدّدهم بالحبس بتهمة ازدراء المحكمة. ربحنا الجولة الأولى.

أما الجولة الثانية فكانت جلسة تقديم كفالة إطلاق السراح في محكمة الولاية، حيث وُجّهت لموكّلي تهمة محاولة الاغتيال. فبعد تحرير ممتلكاته، استطعتُ تقديم الحجج أن دوغ رينفرو لا يشكّل بالتأكيد أي خطر على رحلات الطيران وسيظهر في المحكمة كلّما استدعي. وقلتُ إنّ بيته يساوي 400 ألف دولار ولا يوجد عليه أي قرض عقاري، ثمّ عرضتُ تقديمه كضمانة لإطلاق سراحه. ففوجئت بموافقة القاضي، ثمّ خرجتُ مع موكّلي من باب المحكمة. ربحنا الجولة الثانية، لكن هذه كلّها أمور سهلة.

إذاً، بعد ثمانية أيام من إصابته وخسارته لزوجته وكلبيه، عاد دوغ رينفرو إلى البيت، حيث كان أولاده الثلاثة بانتظاره، إضافة إلى سبعة

أحفاد وبعض الأصدقاء. وكانت عودته إلى البيت هادئة. وقد طلبوا مني بمنتهى اللطف أن أنضمّ إليهم، لكنّني رفضت وانصرفت.

أحاربُ بأسناني وأظافري دفاعاً عن زبائني، ولا أتردّد في خرق معظم القوانين لحمايتهم، لكنّني لا أوافق أبداً على الاندماج بهم.

8.

في الساعة العاشرة من صباح يوم سبت رائع، كنتُ أجلس منتظراً على مقعد في ملعبٍ للأطفال لا يبعد سوى بضعة مربّعات سكنية عن شقّتي، وهو مكان اجتماعنا المعتاد. وعلى الرصيف، اقتربت امرأة جميلة برفقتها ولد في السابعة من العمر. هذا هو ابني. وتلك هي زوجتي السابقة. وقد سمح لي قرار المحكمة برؤيته مرة واحدة كلّ شهر لمدّة ستّ وثلاثين ساعة. وحين يكبر، سيكون لدي الحقّ في رؤيته أكثر، لكن اللقاء به مقيّد الآن ومشروط. وثمّة أسباب خلف ذلك، لكنّني لا أودّ الحديث عنها الآن.

لم يبتسم ستارتشر عندما وصلا إلى المقعد حيث أجلس. أما أنا فوقفتُ وطبعت قبلة سريعة على خدّ جوديث، وذلك لفائدة الطفل وليس حبّاً بها.

فهي تفضّل أن لا تُمسّ.

«مرحباً يا صاحبـي»، قلتُ له وأنا أفرك رأسه.

«مرحباً»، قال ثمّ تخطاني نحو إحدى الأراجيح وقفز فوقها، في حين جلست جوديث بجانبـي على المقعد لنراقبه وهو يرفس الأرض ويبدأ بالتأرجح جيئة وذهاباً.

«كيف حاله؟»، سألتها.

«جيّد. معلموه سعداء به». ثمّ أضافت بعد فترة صمت: «أرى أنّك كنت مشغولاً جداً».

«بالفعل. وأنت؟».

«الطحن المعتاد».

«وكيف حال أفا؟»، سألتها عن رفيقتها.

«عظيمة. ما هي خططك لهذا اليوم؟».

لا تحبّ جوديث ترك ابننا برفقتي. ذلك أنّني نجحتُ، مرّة أخرى، في إزعاج الشرطة؛ وهذا يُقلقها. وهو أمر يقلقني أنا أيضاً، لكنّني لن أعترف بذلك.

قلت: «أعتقد اننا سنتغدّى. ثمّ هناك لعبة كرة قدم في الجامعة بعد ظهر اليوم».

وهي تعتقد أن لعبة كرة القدم آمنة تماماً. قالت: «أودّ استعادته هذه الليلة، إذا سمحت».

«حصلتُ على ستّ وثلاثين ساعة مرة كلّ شهر، فهل هذا كثير جداً؟».

«لا يا سيباستيان، ليس كثيراً جداً. أنا قلقة فحسب، هذا كلّ ما في الأمر».

لقد انتهت تقريباً أيام شجاراتنا، كما أرجو. ولكي تعلم ما حصل بيننا، خذ محاميين اثنين لكلّ منهما مرفقين حادّين ولساناً أشدّ حدّة، وضع بينهما حملاً غير مرغوب فيه، وطلاق سيّئ خلّف لدى كلّ منهما صدمات وحشية، وستجد حينئذٍ شخصين قادرين على إيقاع ضرر بالغ. ونحن ما زلنا مجروحين ومنهكين، لذا لا نتقاتل كثيراً.

«لا بأس»، قلت متراجعاً تماماً. ولا بدّ لي من الاعتراف صادقاً أن لا شيء مغرٍ في شقّتي، وستارتشر لا يحبّ بالفعل المكوث هناك؛ ليس بعد على أية حال. هو أقصر بكثير من أن يستطيع لعب البلياردو على منضدتي الممتازة، وليس لديّ أيّ ألعاب فيديو. وقد يحبّ ذلك حين يصبح أكبر سنّاً.

وهو الآن تحت رعاية امرأتين قد يتملّكهما الرعب إذا دفعه طفل آخر في المدرسة. ولست متأكّداً من قدرتي على تقويته بمجرّد الظهور في حياته مرة كلّ شهر، لكنّني أحاول. وخلال المرحلة اللاحقة من حياته، أعتقد أنّه سيتعب من العيش مع امرأتين انفعاليتين وحادّتي الطباع، وسيرغب في قضاء وقت أطول مع والده العجوز. ويكمن التحدّي الذي أواجهه في أن أظل مهتماً به ومتواجداً في حياته لتقديم هذا الخيار له.

«متى سنلتقي؟»، سألتْ.

«متى شئت».

«سأقابلك هنا في الساعة 6:00 مساءً»، قالت ذلك وهي تنهض منصرفة. أما ستارتشر، الذي كان يدير ظهره لنا، فكان يتأرجح مرتفعاً في الهواء ولم يرها وهي تغادر. هذا ولم يفتني أن جوديث لم تعبأ بجلب حقيبة ملابس ليلية للطفل، لأنها لم تكن تنوي السماح له بالنوم في مسكني.

أقطنُ في الطابق الخامس والعشرين لأنّني أشعر بأمان أكثر هناك. ولا أزال أتلقى بشكل دوري تهديدات بالقتل لمختلف الأسباب، وكنت صادقاً مع جوديث حول هذه المسألة. وهي ليست مخطئة بشأن رغبتها في إبقاء الطفل في بيتها حيث الحياة أهدأ وأكثر أماناً. قد يكون الأمر هكذا، لكنّني لست متأكداً تماماً. لكنّ ستارتشر أخبرني الشهر الماضي أن «والدتيه» لا تتوقفان عن الصراخ والشجار في ما بينهما.

ذهبنا لتناول الغداء في صالة البيتزا المفضّلة لديّ، وهي مكان لن تصطحبه إليه والدتاه. وفي الحقيقة ليست لديّ تحفظات حول نوعية الطعام الذي يتناوله وهو برفقتي. فأنا أشبه، من عدّة نواحٍ، الجدّ الذي يفسد الأطفال قبل إعادتهم إلى البيت. فإذا أراد تناول مثلجات بن وجيري قبل الغداء وبعده، فليكن.

وخلال تناولنا للطعام، دبّت فيه الحيوية وأنا أسأله عن المدرسة. وهو في الصفّ الثاني في مدرسة عامّة ليست بعيدة من الحيّ الذي

ترعرتُ فيه. وقد أصرّت جوديث في أول الأمر على إرساله إلى إحدى المؤسّسات التعليميّة الخاصّة ذات التوجّه الاجتماعي المنفتح على الأفكار المتحرّرة والمتطرّف بيئياً حيث يُمنع تماماً استخدام كلّ أنواع الأدوات البلاستيكية، وحيث يرتدي جميع المعلمين الجوارب الصوفية السميكة والصنادل القديمة. ونظراً إلى أن كلفة الدراسة هي أربعين ألف دولار في السنة، رفضتُ ذلك رفضاً قاطعاً، فأسرعت جوديث بالتوجّه إلى المحكمة؛ وفي هذه المرّة فقط وقف القاضي في صفّي. لذلك التحق ستارتشر بمدرسة طبيعية مع أطفال من كلّ الألوان ومعلّمة لطيفة جداً، طُلّقت مؤخراً.

وكما قلتُ سابقاً، ستارتشر كان خطأ غير مقصود. كنتُ وجوديث في خضمّ إنهاء علاقتنا الفوضوية عندما حبلتْ بطريقة ما. ثمّ أصبح الشقاق فيما بيننا أكثر حدّة وتعقيداً. بعد ذلك، غادرتُ البيت فافترضت هي امتلاكه كليّاً. أما أنا فقد كنت متصلّباً في موقفي في كلّ نقطة؛ لكن مع ذلك، ولكي أكون صادقاً، لم أنازع في الأمر أبداً لكي أنفرد كأب برعايته. وهو كلّه لها، في رأيها على الأقل، لذا كنتُ فرحاً برؤيته وهو ينمو ليصبح صبياً صغيراً يشبهني بالضبط. وقد عثرت أمّي على صورتي المدرسيّة وأنا في الصفّ الابتدائي الثاني. فبدونا أنا وستارتشر في السابعة من العمر كتوأمين.

ثمّ تحدّثنا عن العراك، وعن النزاعات في باحة المدرسة. وسألته إن كان قد رأى عراكاً خلال إحدى الاستراحات، فقال: «من حين لآخر». وقد روى لي قصّة ذلك اليوم عندما بدأ الأطفال بالصراخ: «عراك! عراك!»؛ ليتجمهر الجميع للمشاهدة. اثنان من طلبة الصف الثالث، أحدهما

أسود والآخر أبيض، كانا على الأرض يرفس كلّ منهما الآخر ويتلوّيان ويعضّان ويخمشان بعضهما بعضاً، ويتبادلان اللكمات، والجمهور المحتشد يهتف مشجّعاً.

«هل كانت المشاهدة مسليّة؟»، سألته.

ابتسم وقال: «بالتأكيد. كان ذلك رائعاً».

«وماذا حدث بعد ذلك؟»

«جاء المعلمون وفصلوا بينهما ثمّ أخذوهما إلى المكتب. أعتقد أنهما وقعا في مشاكل».

«أنا متأكّد من ذلك. هل سبق وأن تحدّثت أمّك معك حول العراك؟».

هزّ رأسه نافياً.

«حسناً. هذه هي القواعد. العراك أمر سيئ وسيعود عليك بالمشاكل فقط، لذلك لا تتعارك. ولا تبدأ أبداً بالعراك. لكن، إذا ضربك شخص آخر، أو دفعك، أو استفزّك، أو إذا اعتدى شخصان على صديق لك، فقد يتوجّب عليك أحياناً أن تقاتل. وحين يبدأك شخص آخر بالقتال فلا تتراجع أبداً. وعندما تقاتل، لا تستسلم أبداً، أبداً، أبداً».

«وهل اشتركتَ أنت في أيّ قتال؟».

«طوال الوقت. لكنّني لم أكن عدوانياً أبداً، ولم أبدأ بالقتال. ولم أحب التقاتل، لكن إذا اضطرني شخص آخر إلى ذلك، فسأضربه بالمقابل».

«وهل وقعتَ في مشكلة؟».

«نعم. وتحمّلت العقاب».

«ماذا يعني ذلك؟».

«يعني أن المعلّم وبّخني وأمّي وبّختني، وربّما طُردتُ من المدرسة لنصف يوم أو شيء من هذا القبيل». مرّة أخرى، يا بُرعم، التقاتل خطأ».

«لماذا تدعوني بُرعم دائماً؟».

قلتُ في نفسي لأنّني أحتقر الاسم الذي اختارته لك أمّك.

«مجرّد لقب، هذا كلّ ما في الأمر».

«تقول أمّي أنّك لا تحبّ اسمي».

«ليس صحيحاً، يا بُرعم».

لا تتوقّف جوديث أبداً عن خوض الحرب من أجل الاستيلاء على روح ابنها. وهي لا تستطيع مقاومة الرغبة الرخيصة والشديدة السخافة في الإيذاء. فلِمَ قد يخبر أحد الوالدين ولداً في السابعة من عمره أن والده الآخر لا يحبّ اسمه؟ وأنا متأكّد من أنّني سوف أكتشف السخافات الأخرى التي قالتها له.

الرفيق في يوم عطلة، لذا قدتُ شاحنتي الصغيرة بنفسي إلى ملعب كرة القدم الكائن ضمن الحرم الجامعي. وقد وجد ستارتشر أن الشاحنة رائعة باحتوائها على الأريكة، والكرسي الدوّار، والمنضدة الصغيرة،

والتلفزيون. ولم يدرك تماماً سبب استخدامي لها كمكتب، كما أنّني لم أتطرّق إلى التفاصيل المتعلّقة بالنوافذ المضادة للرّصاص والمسدّس الآلي الموضوع فوق الخزانة الصغيرة.

كانت مباراة كرة قدم نسائية، ولم أكن مهتمّاً بها. فأنا لستُ من محبـي رياضة كرة القدم عموماً، وإذا أُجبرتُ على مشاهدة إحدى مبارياتها فإنّني أفضّل مشاهدة الفتيات بسراويلهن القصيرة بدلاً من الرجال بسيقانهم المشعرة. أما ستارتشر فيحبّ الإثارة والحماس، لكنّ والدتاه لا تستسيغان الألعاب الرياضية الجماعية، لذا لم تُتح له سوى دروس التنس. ولا عيب في التنس، لكن إذا تعلّم حركاتي فلن يصمد طويلاً. فأنا أحب أن أضرب دائماً. وفي كرة السلة أيام الشباب الأولى كنتُ الولد الذي يرتكب أربعة أخطاء في النصف الأول من الوقت. وكانت أخطائي دائماً أكثر من النقاط التي أسجلها. وضمن نشاطات بوب وارنر الرياضية للناشئة، لعبتُ كرة القدم الأمريكية في مركز الظهير لأنّني أحببت الاحتكاك.

أخيراً، وبعد ساعة من اللعب أحرزت إحداهن هدفاً، لكنّني كنتُ في تلك اللحظة أفكّر في قضية آل رينفرو وكان اهتمامي في مجريات اللعبة قد تبخّر تماماً. تشاطرنا أنا وستارتشر تناول علبة من الذرة الصفراء المحمّصة وتحدّثنا عن أمور شتّى. وفي الحقيقة، تبيّن لي أنّني منفصل تماماً عن عالمه الصغير إلى درجة أنّني لا أستطيع إدارة محادثة مفيدة معه.

أنا أب مثير للشفقة.

.9

بدأ التعقّل يسود ببطء فيما يتعلّق بالكارثة التي حلّت بآل رينفرو. فتحتَ ضغطٍ من أطراف عديدة، خصوصاً من قِبل زميلي في صحيفة كرونيكل، شرعت السلطات تتخبّط في ردودها وتبريراتها. وقد التزم مدير الشرطة الصمت، مدّعياً أنّه لا يستطيع التعليق لأن القضية أصبحت لدى القضاء. أمّا عمدة المدينة فلم يكن له همّ سوى حماية نفسه، ومن الواضح أنه يحاول إبعاد المسؤولية عنه. وهو يعاني من حرب مستمرّة يشنّها عليه العديد من أعدائه في مجلس المدينة الذين يستمتعون برؤيته عرضة للهجوم والتجريح ويودّون الاستيلاء على منصبه. لكنّ المطالبين بمحاسبة المسؤولين لا يزالون أقلية، فلا أحد يريد حقاً الاصطدام مع قسم الشرطة.

ومن المحزن حقاً أن المعارضة تعتبر في الوقت الحاضر خروجاً عن الوطنية؛ ففي الأجواء التي تلت أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر أصبح أيّ نقد لأولئك الذين يرتدون الزيّ الرسمي، أيّ زيّ رسمي، أمراً

مستنكراً. وأصبح التعامل الناعم مع الجريمة، أو التروّي في المسائل المتعلّقة بالإرهاب، لعنة سياسية.

وكنتُ أُزوّد صاحبـي في الصحيفة بكلّ شيء. أما هو فكان يستشهد بمصادر غير مسماة ليمعن في فضح أخطاء الشرطة ووسائلها، وارتكاباتها، ومحاولات التستّر على أفعالها. وباستعمال بعض المواد المستقاة من ملفاتي، نشر تحقيقاً طويلاً حول تاريخ الغزوات الفاشلة التي شنّتها الشرطة والقوة المفرطة التي استخدمتها.

ومن جهتي فأنا أحاول الحصول على أكبر قدر ممكن من اهتمام الصحافة ووسائل الإعلام. ولا يمكنني الكذب بالقول إنني لا أحبّ ذلك؛ في الحقيقة، أعيش من أجل ذلك.

هذا، وقدّم المتّهمون طلباً للقاضي سامسون طالبين منه لجم «جميع المحامين المشاركين في الدعوى المدنية» من التصريح أو التحدّث عن القضيّة. لكن القاضي سامسون رفض الطلب، حتى من دون عقد جلسة للبتّ في ذلك الطلب. ونتيجة لذلك، دبّ الفزع في قلوب المحامين المدافعين عن سلطات المدينة من القاضي فتراكضوا بحثاً عن مكان آمن. كنتُ أطلق الرصاص قدر استطاعتي.

أزاول عملي وحيداً، من دون مكتب حقيقي، وبالتأكيد من دون موظّفين حقيقيين. ومن الصعب جدّاً على رجل محارب وحيد مثلي أن يعمل في المقاضاة المدنية والجنائية الشائكة والخطرة من دون بعض الدعم؛ وهنا تبرز أهمية الثنائي هاريس وفائدتهما. يدير المدعوان هاري

غروسّ وهاري سكولنيك دكاناً للمحاماة يعمل فيه خمسة عشر محامياً في مخزن قريب من وسط المدينة على ضفّة النهر. وهم يتولون القضايا الاستئنافية في الغالب ويحاولون تفادي المحاكمات التي تجري أمام هيئة محلّفين، وهكذا يقضون ساعات عملهم غارقين في الكتب، ولا يتوقّفون عن تسطير المذكرات القانونية والرسائل وتكديسها فوق مناضدهم.
والاتفاق بيننا بسيط: ينجزون لي الأبحاث والأعمال الكتابية، وأنا أعطيهم ثلث الأتعاب. وهذا يتيح لهم اللعب بأمان، وذلك من خلال المحافظة على بعض المسافة بيني وبينهم، وبينهم وبين زبائني، بالإضافة إلى الابتعاد عن أولئك الذين لا أتورّع عن إغضابهم. وهم يُعدّون لي عادة أكداساً من المذكرات القانونية التي يبلغ سُمك الواحد منها بوصة أو أكثر، ثمّ يسلّمونها لي لمراجعتها والتوقيع عليها، وهي لا تحتوي على شيء يمكن أن يقود إليهم. وعلى هذا النحو، يكدحون وراء الأبواب المغلقة، ولا يساورهم القلق أبداً بالنسبة للشرطة. وفي قضية سوني ويرث - الموكّل الذي استيقظ على الدبابة وهي تهدر في مسكنه - وافقت السُلطات مضطرة على دفع مليون دولار. وكانت حصّتي 25 بالمئة. أما الثنائي هاريس فقد حصلا على شيك بمبلغ محترم، وكان الجميع سعداء، باستثناء سوني.

وفي هذه الولاية، حُدّدت جميع الأضرار في القضايا المدنيّة بمبلغ مليون دولار. وذلك لأن الحكماء الذين يسنّون القوانين في مجلسنا التشريعي الرسمي قرّروا قبل عشر سنوات أنّ أحكامهم أرفع وأعدل من أحكام وآراء المحلّفين الفعليين الذين سيسمعون الأدلة ويقيّمون الأضرار.

وهم، أي المشرّعين، كانت لديهم ارتباطات ومصالح مع شركات التأمين التي ما زالت تموّل الحملة الوطنية لإصلاح قانون التعويض عن الأضرار الناجمة عن التقصير أو الخلل في المسؤولية، وهي حملة سياسية شرسة كانت ناجحة جداً. وفي واقع الأمر فإن كلّ ولاية في البلاد وجدت طريقة ما للتهرّب من التعويض عن الأضرار، وسنّ القوانين المصمّمة لإبعاد الناس عن مباني المحاكم. ولم ير أحد حتى الآن هبوطاً في أرباح شركات التأمين. وفي تحقيق استقصائي أجراه صاحبـي في صحيفة كرونيكل تبيّن 90 äÃ بالمئة من مشرّعينا يتلقون أموالاً لتمويل حملاتهم الانتخابية من صناعة التأمين. وهذه تعتبر ممارسة ديمقراطية.

ويمكن لأي محامٍ من محامي الشوارع في هذه الولاية أن يروي لك قصّة مرعبة حول موكّل أصيب بإعاقة جزئية مؤقتة أو كليّة دائمة، ولم يحصل بعد النفقات الطبية على شيء تقريباً.

ولم تمض فترة طويلة على إغلاق أبواب مبنى المحكمة، حتى سنّ هؤلاء المشرّعين الحكماء والشجعان أنفسهم قانوناً آخر يمنع سكّان البيوت من إطلاق النار على رجال الشرطة الذين يغزون بيوتهم، بغض النظر عمّا إذا كانت الشرطة قد اقتحمت البيت الصحيح أم لا. لذا عندما انبطح دوغ رينفرو أرضاً وبدأ بإطلاق النار، كان ينتهك القانون، من دون سند دفاعي حقيقي.

وماذا عن المجرمين الحقيقيين؟ حسناً، سنّ مشرّعونا قانوناً آخر يمنح الحصانة الجنائية لفرق التدخّل السريع التي قد تندمج قليلاً وتردي الشخص الخطأ. وفي كارثة رينفرو، أطلق أربعة من رجال الشرطة ثمان

وثلاثون طلقة على الأقلّ، ومن غير الواضح تماماً من الذي أصاب بالفعل دوغ وزوجته، وهو أمر لا أهميّة له. فهم جميعاً محصّنون ضدّ المسؤولية الجنائية.

وقد قضيتُ ساعات طويلة مع دوغ محاولاً توضيح هذه المبادئ القانونية التي لا يبدو أي منها معقولاً. وهو أراد أن يعرف لماذا لا تساوي حياة زوجته سوى مليون دولار فقط. فأوضحتُ له أنّ السيناتور الذي يمثّله في مجلس الشيوخ صوّت لصالح قانون التعويض عن الأضرار هذا - وأنّ السيناتور يتلقى أيضاً الأموال من تكتلات المدافعين عن شركات التأمين - لذا ربما توجّب على دوغ الاتّصال بذلك المسؤول المنتخب وتعنيفه حول طريقة تصويته.

ثمّ سأل دوغ: «إذاً، لماذا نطلب 50 مليون دولار في حين أنّنا لن نحصل على أكثر من مليون؟»، وهو سؤال آخر يتطلّب إجابة طويلة. أولاً، يسمّى هذا تقديم البيان. وينبغي أن نقول في ذلك البيان أنّنا غاضبون ومستعدّون للقتال، وحين نطلب 50 مليون دولار فسنبدو أشد شراسة مما لو طالبنا بمليون واحد فقط. ثانياً، نجحت المراوغات التشريعية في هذا المجال بسنّ قانون يمنع المحلّفين من الاطلاع على حصر التعويض عن الأضرار بمبلغ مليون دولار فقط. ويمكن لهؤلاء المحلّفين أن يستمعوا لمدّة شهر إلى الشهادات، وأن يقيّموا الدلائل، ويدرسوا القضية بإنصاف، وأن يتّخذوا قراراً منصفاً، مثل الحكم بتعويض يتراوح بين 5æ10 ملايين دولار. ثمّ يذهبون إلى بيوتهم، وفي اليوم التالي يخفّض القاضي قرار التعويض بكلّ هدوء ليجعله تحت السقف الأعلى المحدّد مسبقاً. وقد

تعلن الصحيفة عن قرار بتعويض كبير آخر، لكن المحامين والقضاة (وشركات التأمين) يعرفون الحقيقة.

ولا معنى أو منطق في ذلك كلّه، لكن ضع في الاعتبار أن هذا القانون كتبه المتآمرون أنفسهم الذين أدرجوا كلّ ذلك الهراء الذي لا نهاية له في مستندات التأمين.

وسأل دوغ: «لكن، كيف يمكن لشرطي أن يركل بابي ويطلق النار عليّ وهو يتمتّع بالحصانة، وإذا أردتُ الردّ على إطلاق النار فأنا مجرم ينتظر الحكم بالسجن عشرين سنة؟». والجواب البسيط هو لأنهم شرطة. أمّا الجواب المعقّد فهو أنّ مشرّعينا يسنّون في أغلب الأحيان القوانين غير العادلة.

لا زال موكّلي في فترة الحداد، لكنّ الصدمة والحزن بدأا بالانحسار. وأصبح تفكيره أوضح؛ وبدأت الحقيقة تترسّخ. فزوجته رحلت، قتلها رجال لن يُحاسبوا على ما فعلوه. وحياتها لا تساوي أكثر من مليون دولار. وهو، أي السيّد دوغ رينفرو، يواجه اتّهاماً جنائياً سيسحبه يوماً ما إلى قاعة المحكمة حيث سيكون أمله الوحيد هو الوقوف أمام هيئة محلّفين منقسمة الآراء.

فالطريق إلى تحقيق العدالة مملوء بالموانع والألغام الأرضية التي زرع أغلبها رجال ونساء يزعمون أنّهم يسعون إلى تحقيق العدالة.

.10

ربح ملاكم الأقفاص الصغير الذي أرعاه، تاديو زابات، مبارياته الأربع الأخيرة كلّها بالضربات الوحشية القاضية. وقد لعب حتى الآن إحدى عشرة مباراة على التوالي، ولم يخسر منها سوى ثلاث مباريات، خسرها كلّها بالنقاط. وقد أصبح ترتيبه الآن الثاني والثلاثين في التصنيف العالمي لوزن الديك، وهو يصعد بشكل رائع، فأصبح محطّ أنظار مروّجي بطولة القتال المتكامل. وثمة حديث حول اشتراكه في مباراة ستقام في فيغاس خلال ستّة أشهر، إذا استمرّ في الفوز. وقد أخبرني كلّ من مدرّبه أوسكار ومديره ونوربيرتو أنهما لا يستطيعان إبعاد الفتى عن قاعة التدريب. فهو شديد التصميم، شره، ومهووس في مسعاه للحصول على لقب مرموق. لذلك، درّباه تدريباً شاقّاً، وهما مقتنعان بقدرته على الوصول إلى مرتبة المتنافسين الخمسة الكبار.

وسيتقاتل الليلة مع فتى أسود صلباً سمّى نفسه كراش، أي المحطّم. وسبق لي أن رأيت كراش في مبارايتين وهو لا يقلقني. فهو مجرّد

مشاكس، ومقاتل شوارع ذو تدريب محدود في فنون الدفاع الذاتي المختلطة. وفي كلتا المباراتين اللتين رأيته فيهما أُطيح به في الجولة الثالثة بسبب الإعياء. فهو يبدأ بقوّة، ولا يستطيع تمالك نفسه، فيدفع ثمن ذلك في النهاية.

استيقظتُ قلقاً مع شعور بتقلّصات في المعدة، وليس في ذهني سوى التفكير في المباراة، فلم أستطع تناول الفطور. وكنتُ أتسكّع في الشقّة في وقت متأخر من بعد الظهر عندما اتّصلت جوديث بـي هاتفياً. إنها حالة طوارئ؛ شريكتها في السكن الجامعي تعرّضت لإصابة خطرة في حادث سيارة في شيكاغو. وجوديث على وشك الإسراع إلى المطار. أمّا رفيقتها أفا فهي خارج البلدة، لذا يتوجّب عليّ التصرّف كأب وتحمّل مسؤولية ابني. لذلك بلعتُ لساني ولم أخبرها أن لدي خططي الخاصّة. إنّها ليلة المعركة!

التقينا في المتنزه وسلّمتني ابننا، مع كيس ملابسه، ووابل من التحذيرات والأوامر. وفي الأحوال المعتادة كنتُ سأستفزّ وسنتجادل، لكن ستارتشر بدا في حالة نفسية جيّدة وكان متلهّفاً للابتعاد عنها. هذا، ولم يسبق لي أن التقيت زميلتها في الغرفة أيام الدراسة الجامعية، لذا لم أستفسر عن الأمر. بعد ذلك قفزت بسرعة في سيارتها واختفت. ثمّ سألتُ ستارتشر، ونحن نتناول البيتزا، ما إذا كان قد شاهد مرة إحدى مباريات القتال في القفص على شاشة التلفزيون. وهو بالطبع لم يفعل! ذلك أن والدتيه تراقبان كلّ ما يقرأه، ويشاهده، ويأكله، ويشربه، ويفكّر فيه.

على الرغم من ذلك، حدث في الشهر الماضي أن أمضى الليل مع صديق له اسمه توني؛ ولتوني أخ أكبر يدعى زاك. وفي وقت متأخر من

تلك الليلة سحب زاك حاسوباً نقالاً ليشاهدوا معاً الكثير من كلّ أنواع الشرّ، بما في ذلك مباراة قتالية نهائية.

سألته: «كيف كانت؟».

«رائعة جداً»، قال عابساً. ثمّ أضاف: «ألستَ غاضباً بسبب ذلك؟».

«بالطبع لا. أنا أحبّ تلك المباريات».

واصلتُ الكلام لأشرح له كيف ستمضي ليلتنا تلك. أضاء وجه الصبي كما لم أره أبداً من قبل. ثمّ جعلته يقسم أنّه لن يخبر والدتيه، تحت أية ظروف، حول ذهابنا لحضور المباراة القتالية. وأوضحتُ له أنّني مضطر للتواجد هناك باعتباري جزء من فريق؛ وأنّه في الظروف الطبيعية لن يدعى إلى هناك. «دعني أتولى أمر أمّك»، قلتُ له، من دون ثقة كثيرة بالنتيجة، لكنّني أدركتُ أنّه يتحرّق شوقاً لحضور تلك المناسبة.

«لنقل فقط أنّنا تناولنا البيتزا وشاهدنا التلفزيون في شقّتي، وستكون تلك هي الحقيقة لأننا نأكل الآن البيتزا وسوف نشاهد التلفزيون عندما نصل إلى شقّتي».

وقد بدا عليه الارتباك لمدّة ثانية، ثمّ أضاء وجهه ثانية.

وحين وصلنا إلى شقّتي، شاهدَ بعض أفلام الرسوم المتحركة بينما كنتُ أغيّر ملابسي. وهو يحبّ سترتي الصفراء البرّاقة التي كُتب على ظهرها «تاديو زابات»، وقد احتجتُ لبعض الوقت كي أشرح له أنّني أعمل كمساعد في زاوية الحلبة. فكلّ ملاكم لديه فريق في الزاوية

لمساعدته بين الجولات، وأنا مسؤول عن توفير الماء وأي شيء آخر قد يحتاجه تاديو. وما أقوم به ليس أمراً ضرورياً حقاً، لكنّه يتضمّن بالتأكيد الكثير من المرح.

أقلّنا الرفيق في الشاحنة الصغيرة السوداء ثمّ توجّهنا إلى صالة المدينة. وخلال الساعتين اللتين تلتا ذلك عمل الرفيق كجليس أطفال، وهو دور جديد له. فهو السائق، والحارس الشخصي، والساعي، والمحقّق، والمستشار، والمخطّط الاستراتيجي، والآن هذه المهمّة. وهو لا يمانع. تدبّرتُ الأمر وحصلتُ لهما على مقعدين في الصالة على بُعد ستّة صفوف من القفص. وبعد أن موّنتهما بالذرة الصفراء والصودا، قلتُ لستارتشر أنّني مضطر للذهاب من أجل الاطمئنان على ملاكمي. فاستبد به الحماس واتّسعت عيناه، وانخرط في دردشة متواصلة مع الرفيق، صديقه المفضّل. وعلى الرغم من علمي أن الصبـي في مأمن، إلا أنّ القلق لم يفارقني. كنتُ قلقاً من أنّ أمّه ستكتشف الأمر وستقاضيني مجدداً بسبب الإهمال، وإفساد قاصر، وأي شيء آخر يمكنها اتّهامي به. وكنتُ قلقاً أيضاً من أنّ أيّ شيء يمكن أن يحدث بوجود هذا الحشد. لقد سبق لي وأن شاهدت الكثير من المباريات القتالية، لذا أعتقد أن الوضع داخل الحلبة أكثر أماناً، في أغلب الأحيان، منه في الخارج بين الجمهور. المشجّعين يخمرون، ويشاغبون، ويريدون رؤية الدماء.

وفي مكان ما حاولت المدعوة ويتشيتا، وهي عضو في مجلس المدينة، تمرير قانون يمنع من هم دون الثامنة عشرة من العمر من حضور مباريات القتال في القفص. لكنّها فشلت، بالرغم من الحكمة في ما

أرادته. ونظراً إلى عدم وجود مثل هذا القانون في مدينتنا، فقد احتلّ الفتى ستارتشر وايتلي مقعداً قريباً من الحلبة.

زابات ضدّ كراش؛ هذا هو الحدث الأهم في الأمسية، وهو أمر رائع، بالطبع، ونحن نسير في الاتّجاه الصحيح، لكنّ الأمر يتطلّب انتظاراً طويلاً وتخطي الكثير من المباريات الثانوية. وفي هذه الأمسية هناك خمس مباريات إحماء، لذا سيمرّ الوقت بطيئاً بشكل مؤلم.

تفقّدت الأحوال مع فريق زابات، فوجدتُ أن معنويات الجميع عالية. متوتّرون، كالعادة، لكنهم واثقون جداً. أما تاديو فما زال في ملابس الشارع، ممدّداً على منضدة والسماعات في أذنيه، لكنّ أخاه ميغيل قال أنّه مستعدّ. بينما همس أوسكار أنّها ستكون جولة واحدة تنتهي بضربة قاضية. بعد ذلك، تسكّعتُ في المكان لبضع دقائق لكنّني لم أستطع تحمّل التوتّر، فغادرت وسرتُ عبر نفق إلى طابق أدنى حيث تنتظر عصابتي الإجرامية الصغيرة في غرفة للتجهيزات. أمّا المدعو سلايد، المدان بجريمة قتل، فقد كان يخسر مؤخراً، لذا قلّل من قيمة رهانه. في حين أن نينو، تاجر دواء الميثامفيتامين المخدّر، جيوبه محشوّة كالعادة بالنقود التي ينثرها في كلّ مكان. ولم يحبّ ديناردو، الذي يطمح إلى أن يكون زعيم مافيا، أيّ من المباريات التي ستقام الليلة. وجوني غائب. أمّا فرانكي، أكبرنا سنّاً وحافظ سجّل رهاناتنا، فكان يعاقر كأساً مزدوجاً من الشراب، وقد لا يكون ذاك كأسه الأول. استعرضنا المباريات الثانوية ثمّ وضعنا رهاناتنا. ولم يقبل أحد، كالعادة، بالمراهنة ضدّ ملاكمي. وبّختهم، وعنّفتهم، ولعنتهم، لكنّهم لم يتزحزحوا. عرضتُ عشرة آلاف دولار رهاناً

على ضربة قاضية في الجولة الأولى، لكنّني لم أجد مراهناً. غادرتُ بعدها محبطاً، تاركاً خلفي خمسة آلاف دولار فقط على المنضدة، مراهناً بمبلغ ألف دولار على كل واحدة من المباريات الخمس التمهيدية.

دفعتُ ثمانية دولارات ثمناً للشراف المخفف وصعدتُ إلى قسم الإثارة والحماس المكتظ بالحضور. ويبدو أن جميع البطاقات قد بيعت، وليس ثمة مكان خال سوى لمن أراد الوقوف. هذا، وقد عمّت شهرة تاديو وجاذبيته آفاق مدينته الأصلية، فضغطتُ على مروّج الرهانات للحصول منه على صفقة مضمونة؛ ثمانية ألف دولار تربح، أو تخسر، أو تنسحب. بعد ذلك، اتكأتُ على حاجز معدني فوق الصفّ الأعلى وشاهدتُ من هناك الجولة الأولى من المباراة. وبالكاد استطعتُ رؤية طفلي بين الجمهور، هنالك في الأسفل.

خسرتُ رهاناتي على أول أربع مباريات، ثمّ ربحتُ الخامسة، واندفعتُ بعدها إلى غرفة الملابس، لأجد فريق زابات محتشداً حول بطله الذي يرتدي أيضاً لباسه الأصفر البرّاق. وقد بدونا معاً مثل كيس من الليمون العضوي. ثمّ قدناه عبر النفق نحو الأضواء، حيث استقبله الجمهور بحماس. لوّحتُ لستارتشر ولوّح لي بدوره مع ابتسامة عريضة على وجهه.

بدأت الجولة الأولى. ثمّ مرّت ثلاث دقائق من السأم حيث فاجأنا كراش بعدم الاندفاع عبر الحلبة مثل كلب مجنون. بل لعب، بدلاً من ذلك، بأسلوب دفاعي وتفادى الإصابة بأي ضرر بالغ. لكن، وباستعمال ضربات الكوع اليسرى التي صعب رؤيتها أحياناً، أحدث تاديو جرحاً

فوق عين كراش اليمنى. وفي وقت لاحق، ردّ كراش التحيّة بأسوأ منها، وذلك على شكل جرح بليغ عبر جبهة تاديو. وقد تمكّن أوسكار من معالجته وتضميده بين الجولات. والجروح لا تشكّل خطورة شديدة في مباريات القفص لأن الجولات قصيرة جداً. أما في الملاكمة العادية، فالجرح في الجولة الأولى مرعب لأنه يصبح هدفاً خلال نصف الساعة التالي.

بدأت الجولة الثانية. اندفعا نحو وسط الحلبة وتصارعا خلال النصف الأوّل من الجولة. وكراش ذو جسم أضخم وأقوى من تاديو الذي لم يستطع الإطاحة به. هذا، وقد بدأت تعلو في الصالة أصوات الاستنكار بسبب الرتابة. وحين وقفا مجدداً، تلاكما وترافسا، من دون أن يحرز أيّ منهما نتيجة تذكر. لكن، وقبل أن يقرع جرس نهاية الجولة مباشرة، وجّه تاديو ضربة يمنى عنيفة إلى فكّ خصمه كانت ستُطيح أرضاً بأيّ واحد من دزينة أو أكثر من الرجال الذين واجههم مؤخراً، لكن كراش ظلّ واقفاً على قدميه. وبينما كان تاديو يهاجم بضراوة، استطاع كراش الإمساك به من خصره وظلّ متعلّقاً به حتى دقّ الجرس. وفجأة لم تعد تعجبني هذه المباراة. فتاديو متقدّم جدّاً بالنقاط، لكنّني لا أثق بالحكّام.

وقد يكون السبب في ذلك هو طبيعة مهنتي.

فأنا أحبّ الضربات القاضية، وليس القرارات.

بدأت الجولة الثالثة. وبعد أن ظلّ مسيطراً على نفسه في الجولتين السابقتين، اعتقد كراش أنّ خزّانه قد امتلأ بالوقود. لذلك اندفع عبر

الحلبة مهاجماً ففوجئ الجميع باندفاعته الهوجاء التي أشعلت حماس الجمهور. وقد كانت هجمة مثيرة جداً، لكنّها لم تُحدث ضرراً يذكر. فقد دافع تاديو عن نفسه جيّداً، فسدّد كوعين حادّين أسالا مزيداً من الدم. ثمّ هاجم كراش مرة ثانية، وثالثة. أما تاديو، الملاكم، فقد تصيّد الفجوات الدفاعية وسدّد ضربات الكوع التي أصابت أهدافها بشكل رائع.

كنتُ أصرخ، والجمهور يصرخ، والأرضية تبدو وكأنها تهتزّ. وفي هذه الأثناء، كان الوقت يمضي وكراش ما زال صامداً، يهاجم ويهاجم، ووجهه فوضى دامية. ثمّ سدّد يمنى طائشة أطاحت بتاديو أرضاً، لكن لمدّة ثانية فقط. قفز بعدها كراش فوقه فترافسا وتخامشا، ثمّ استطاع تاديو الإفلات منه أخيراً. ولم يسبق لتاديو أن أمضى كلّ هذا الوقت في مباراة من قبل، لذا فقد بدأ يشعر بالضغط. وها هو كراش يهاجم مجدداً، وخلال الدقيقة الأخيرة ظلا يتقاتلان وجهاً لوجه في منتصف الحلقة، مثل كلبين مجنونين يتعاوران ويضرب أحدهما الآخر حتى الإنهاك.

كان قلبي يخفق بشدّة، ومعدتي تتقلّص، ولم أكن سوى الصبي الذي يقدّم الماء. وقد كنا مطمئنين إلى أن تاديو هو الفائز مجدداً ونحن ننتظر وننتظر. وأخيراً، أحضر الحكم المتقاتلين إلى منتصف الحلقة. ثمّ أعلن المذيع قراراً سريعاً بفوز كراش بفارق نقطة واحدة. فهزّت الصالة موجة مدوّية من الاحتجاج والصراخ. أمّا تاديو فقد بدا مصدوماً ومنذهلاً، وفمه مفتوح على وسعه، وعيناه المنتفختان مليئتان بالحقد. ثمّ بدأ المشجّعون بإلقاء الأشياء نحو القفص، وكنّا على وشك الوقوع في فوضى واضطرابات.

أما الثواني الخمس عشرة التي تلت ذلك فقد غيّرت حياة تاديو إلى الأبد.

التفّ تاديو فجأة وسدّد ضربة يمنى حادّة إلى الجانب الأيسر من وجه كراش. كانت لكمة خاطفة، وغادرة لم يستطع كراش تفاديها أبداً، فتكوّم على أرض الحلبة من دون حراك. ثمّ وعلى الفور هاجم تاديو الحكم، الذي كان أسود البشرة أيضاً، ووجّه له عاصفة من الضربات المتتالية، فتعثّر الحكم ولم يقع تماماً، بل استند إلى شباك القفص، وحاول الاعتدال مجدداً، فانقضّ عليه تاديو بوابل عنيف من اللكمات. ولمدّة بضع ثوانٍ كان الجميع في حالة ذهول تامّ وعجزٍ عن التصرّف. فهم موجودون، على أية حال، في قفص؛ والأمر يتطلب بعض الوقت لتنفيذ عملية إنقاذ. وبينما كان نوربيرتو يُثبّط تاديو، كان الحكم المسكين قد غاب عن الوعي.

بعد ذلك، عمّ الهياج والفوضى في الصالة حيث اندلع القتال في كلّ مكان. فاشتبك أنصار تاديو، ومعظمهم من أصول إسبانية، مع أنصار كراش، وأغلبهم من السود الذين يفوقون أنصار تاديو عدداً، فهاجموا بعضهم بعضاً مثل العصابات في الشوارع. وانهمرت كؤوس الشراب وعلب الذرة الصفراء كالمطر. وتلقى حارس أمن قريب ضربة على الرأس بكرسي مطويّ. وقد عمّت الفوضى ولم يكن أحد في مأمن. نسيتُ المجزرة داخل القفص وانطلقتُ بحثاً عن ابني فلم أجده في مقعده، لكنّني رأيت في خضمّ المعركة هيئة الرفيق الضخمة بينما كانا يسلكان سبيلهما هاربين. ثمّ لحقتُ بهما فأصبحنا خلال ثوانٍ في مأمن. وخلال فرارنا من

الصالة، كنّا نمرّ من بين رجال الشرطة الذين يتراكضون مضطربين نحو مسرح الأحداث. وفي الشاحنة، ربطتُ حزام ستارتشر في المقعد الأمامي بينما سلك الرفيق الشوارع الفرعية. قلت: «هل أنت بخير يا بُرعم؟».

قال: «لنفعلها ثانية».

بعد دقائق، دخلنا شقّتي وأخذنا نفساً عميقاً. جلبتُ بعض المشروبات - شراب للرفيق ولي، وصودا لستارتشر - ثمّ بدأنا بمشاهدة الأخبار المحليّة. ما زالت القصّة تتكشّف والمراسلون مسعورون. وكان الفتى شديد الحماس، وكان يتحدّث من دون انقطاع ليؤكّد لي أنّه لم يصدم بما حدث. وقد حاولتُ من دون جدوى توضيح ما حدث.

نام الرفيق على الأريكة. ثمّ أيقظته في الساعة 4:00 صباحاً لمناقشة استراتيجية التصرّف. توجّه بعدها إلى سجن المدينة ليحاول العثور على تاديو، ثمّ إلى المستشفى ليتسقّط الأنباء حول الحكم. هذا ولم أستطع التخلص من صورة تاديو وهو يقصف وجه الرجل. لقد ترنّح من اللكمة الأولى، ثمّ تلتها عشرات اللكمات التي سدّدها جميعاً رجل فقد صوابه بالكامل. وكنتُ أحاول أن لا أفكّر بشأن الخطوة التالية بالنسبة إلى مقاتلي.

طحنتُ حبيبات القهوة، وبينما كانت القهوة تتخمّر على النار، فتحتُ شبكة الإنترنت للتحقّق من الأخبار. ومن حسن الحظ أن أحداً لم يمت حتى الآن، لكن هنالك عشرون شخصاً على الأقل في المستشفى. ولا يزال المسعفون وعمّال الإنقاذ في موقع الأحداث. وقد تكدّست اللائمة

على شخص واحد هو تاديو زابات الذي يبلغ من العمر اثنين وعشرين عاماً، وهو مقاتل أقفاص صاعد وواعد زُجّ به الآن في سجن المدينة.

اتّصلت جوديث في الساعة 6:30 للاطمئنان على ابنها. وهي على بُعد ساعات ولا تعلم شيئاً حول الاضطرابات التي مررنا بها ونجونا منها. ثمّ سألتها عن زميلتها في الجامعة، فقالت إنها لا تزال حيّة، لكن الأمور تبدو سيّئة. وستكون جوديث في البيت غداً الأحد، فأكّدتُ لها أن الطفل سيكون بخير. كلّ شيء على ما يرام.

ومع بعض الحظّ، لن تعلم بما حدث.

لكنّ الحظّ، مع ذلك، لم يسلك طريقي. فبعد بضع دقائق من دردشتنا القصيرة، راجعتُ موقع صحيفة كرونيكل على الإنترنت، حيث استطاعت الطبعة المتأخرة من الصحيفة التقاط الخبر العاجل حول ما حدث في الصالة القديمة، فظهرت على صفحتها الأولى صورة كبيرة وملوّنة لشخصين يعدوان نحو المخرج. أحدهما هو الرفيق الذي ظهر ممسكاً بطفل. وبدا ستارتشر محدّقاً إلى المصور، كما لو أنّه في وضعية الوقوف أمام المصوّر. هذا، ولم تنشر الصحيفة اسميهما؛ فلم يكن ثمّة وقت للسؤال. لكن بالنسبة لمن يعرفهما، فلا جدال في إثبات هويتهما.

كم سيمرّ من الوقت قبل أن يرى أحد أصدقاء جوديث الصورة ويتّصل بها؟ كم سيمرّ من الوقت قبل أن تفتح حاسوبها النقال وترى بأم عينها؟ وبينما كنتُ أنتظر، فتحتُ التلفزيون وذهبت إلى برنامج

سبورتسينتر. فالقصّة لا تقاوم لأنها متوفّرة بأكملها، بالفيديو، ضربة إثر ضربة إثر ضربة. وقد أصابني الغثيان من مشاهدتها مراراً وتكراراً.

اتّصل الرفيق من المستشفى ليبلغني بالأخبار التي تقول إن الحكم، المدعو شون كينغ، لا يزال في غرفة العمليات الجراحية. وليس ثمّة مفاجأة في أن الرفيق ليس الشخص الوحيد الذي يتسقّط الأخبار في الممرات بحثاً عن أية معلومة أو خبر. وقد سمع عن «جروح هائلة في الرأس»، لكن من دون تفاصيل. وسبق أن ذهب إلى السجن، حيث أكّد له أحد المصادر أنّ السيّد زابات محتجز في مكان آمن ولا يستقبل الزوّار.

في الساعة 8:00 صباحاً، قرّر مدير شرطتنا المتخبط أن العالم يجب أن يسمع منه. لذلك، رتّب لعقد مؤتمر صحفي، أو ما يمكن تسميته استعراضاً صغيراً للعضلات حيث يتراصف خلف الرئيس جدار سميك من الرجال البيض ببذاتهم الرسمية وهم يعبسون في وجوه المراسلين، ويتصرّفون كأنهم لا يحبّون الظهور حقاً. ولمدّة ثلاثين دقيقة تحدّث الرئيس وأجاب عن الأسئلة، لكنّه لم يكشف حقيقة واحدة لم تنشر على الإنترنت قبل ساعتين. ومن الواضح أنّه كان يستمتع باللحظة، فليس ثمّة ما يمكن أن يُلام عليه هو أو أحد من رجاله. وحينما بدأ السأم يسيطر عليّ، اتّصلت جوديث.

كانت المحادثة كما هو متوقّع؛ توتّر، ومشاكسة، واتّهام.

وكانت قد رأت صورة ابنها الفارّ من المعركة على الصفحة الأولى، وتريد الأجوبة اللعينة الآن. طمأنتها أن ابننا نائم بعمق ويحلم بيوم

جميل قد يقضيه مع أبيه. قالت إنّها سوف تلحق برحلة مبكّرة وستكون في المدينة بحلول الساعة 5:00 مساء، وفي تلك اللحظة الدقيقة يتوجّب عليّ مقابلتها في المتنزه وتسليمها الطفل. وقالت إنّ أوّل ما ستفعله صباح الاثنين هو تقديم الأوراق اللازمة لإنهاء كلّ حقوقي في الزيارة. قدّميها، قلتُ لها، لأن الأمر لن ينجح. فلا يوجد قاضٍ في البلدة يمكنه حرماني كليّاً من رؤية ابني مرة كلّ شهر. ومن يعلم، فقد يكون القاضي الذي سيحكم بيننا من مشجّعي قتال الأقفاص. شتمتني وشتمتها، ثمّ أنهينا الاتّصال أخيراً.

يبدو وكأنّنا على وشك الانخراط في معركة.

.11

شنّت صحف الأحد حملة مناهضة لقتال الأقفاص، فأتت الإدانات غير المبرّرة من كلّ الاتّجاهات. وقد اشتعلت مواقع الإنترنت بمناقشة القصّة. وحقّق مقطع الفيديو المنشور على يوتيوب والذي يُظهر الهجوم على الحكم أربعة ملايين مشاهدة قبل الظهر، فأصبح تاديو على الفور مقاتل الأقفاص الأكثر شهرة في العالم، على الرغم من أنّه لن يقاتل ثانية. وشيئاً فشيئاً، غادر الجرحى المستشفيات، ومن حسن الحظ أنّه لم تكن هناك إصابات جدّية بين الجمهور الذي لم يكن سوى مجموعة من السكارى الذين يتبادلون اللكمات ويقذفون الكراسي. أمّا شون كينغ فظلّ في غيبوبة وفي حالة صحّة حرجة، في حين تحسّنت حالة كراش، لكنّه خرج بفكّ مكسور بشدّة، مع ارتعاشة.

وفي وقت متأخر من بعد الظهر، سُمح لي بزيارة موكّلي في إحدى غرف المحامين في السجن. وكان يجلس في الجانب الآخر من الحاجز الشبكي المعدني السميك حين دخلتُ وجلست. كان وجهه مجروحاً

ومنتفخاً بشكل سيئ من آثار المعركة، لكنّ هذه هي أبسط مشاكله. وكان هادئاً جدّاً، حتى إنني تساءلتُ ما إذا كان مخدّراً. ثمّ دردشنا قليلاً.

«متى يمكنني الخروج من هنا؟»، سألني.

أردتُ أن أقول له أنّ من الأفضل أن يعتاد على وجوده هنا، فأجبت: «ظهورك الأول سيكون غداً صباحاً في المحكمة، وسأكون هناك. ولن يحدث الكثير. سينتظرون ليروا ما سيحدث للحكم. فإذا مات، فأنت في ورطة شديدة. أمّا إذا تعافى، فسيوجّهون إليك مجموعة من التهم، لكنّها لن تكون جناية القتل. وربّما عدنا خلال أسبوع أو نحو ذلك إلى المحكمة لنطلب إخلاء سبيل بكفالة معقولة، لكنّني لا أستطيع تخمين ما سيفعله القاضي. لذا، فإن الإجابة عن سؤالك هي ثمّة فرصة لخروجك بكفالة خلال بضعة أيام؛ وهناك احتمال أقوى في أن تظلّ في السجن حتى موعد المحاكمة».

«وكم سيستغرق ذلك؟».

«المحاكمة؟».

«نعم».

«من الصعب الجزم. ستّة أشهر على الأقل؛ ومن المحتمل أن تستغرق أكثر من ذلك، ربّما سنة. والمحاكمة نفسها لن تدوم طويلاً جدّاً، إذ لن يكون هناك الكثير من الشهود، بل سيكتفون بمشاهدة تسجيل الفيديو».

نظر إلى الأسفل كما لو أنّه يريد البكاء. أحبّ هذا الفتى، لكن ليس هناك الكثير ممّا يمكنني فعله من أجله، الآن أو خلال ستّة أشهر. «هل تتذكّر ما حدث؟»، سألته.

بدأ يهزّ رأسه ببطء. ثمّ قال: «انفعلتُ وتهوّرت. غشّوني وسرقوا مني فوزاً واضحاً. اضطرني الحكم للقتال بطريقته هو، وليس بطريقتي. ولم يكفّ الحكم عن الوقوف بطريقي؛ يا رجل، لم أستطع أن أخوض معركتي. أعني أنّني لم أرد إيذاء الحكم. لكنّني تصرّفتُ من دون وعي. كنت غاضباً جداً ومقهوراً حين رفع يد ذلك الشخص. رفست مؤخرته، أليس كذلك؟».

«كراش أم الحكم؟».

«هيّا يا رجل. كراش. رفست مؤخرته، أليس كذلك؟».

«لا، لم تفعل. لكنّك ربحت المعركة».

رأيتُ كلّ ثانية من المباراة ولم أشعر أنّ الحكم كان منحازاً. وحين تبدأ المرافعات الدفاعية القانونية، لا أظنّ أن من الصواب اعتماد الحجّة التالية: تحامل عليّ الحكم وسلبني الفوز بالمباراة، لذا جوّفت وجهه. لقد نال عقابه.

«سلبوا الفوز مني»، قال.

«الحكم ليس قاضياً يا تاديو. القضاة الثلاثة هم الذين قرّروا النتيجة. لقد هاجمتَ الرجل الخطأ».

بدأ يعبث بالقُطب في جبهته، ثمّ قال: «أعرف، أعرف. ارتكبتُ خطأ يا سيباستيان، لكن يجب أن تفعل شيئاً من أجلي، أليس كذلك؟».

«أنت تعرف أنّني سأفعل كلّ شيء ممكن».

«وهل سأسجن لفترة؟».

أنت مسجون الآن؛ اعتد على ذلك. وكنتُ قد بدأتُ بإجراء العملية الحسابية. فإذا مات شون كينغ، فقد يُحكم عليه بالسجن عشرين عاماً بجريمة القتل من الدرجة الثانية، وربّما خمسة عشر عاماً للقتل غير المتعمّد. وإذا لم يمت، فقد يُسجن من ثلاث إلى خمس سنوات بجريمة الاعتداء العنيف. وحيث أنّني لست مستعدّاً لمشاطرته هذه الأفكار، فضّلتُ القول: «دعنا نقلق حول ذلك لاحقاً».

«قد يكون ذلك أفضل، أليس كذلك؟»

«ربّما كان كذلك».

حدثت بعد ذلك فجوة في المحادثة حيث سمعنا صفق الأبواب في الخلفية. وسمعنا أيضاً أحد السجّانين يتفوّه بكلام بذيء. ثمّ انهمرت دمعة من عين تاديو اليسرى المنتفخة وسالت على خدّه المتورّم. «لا أستطيع تصديق ما حدث يا رجل. لا أصدّق ذلك فحسب». كان صوته ناعماً ومؤلماً.

إذا كنت لا تستطيع تصديق ما حدث، فكّر إذاً بالحكم المسكين وعائلته.

«يجب أن أنطلق يا تاديو. سأراك في الصباح، في المحكمة».

«هل سأرتدي هذه في المحكمة؟»، سأل وهو يشدّ ثياب السجن البرتقالية.

«أخشى ذلك. إنّه الظهور الأول فقط».

.12

في الساعة 9:00 من صباح يوم الاثنين، كنتُ في إحدى قاعات المحكمة المكتظة بمجموعة من محامي الدفاع والمدّعين العامّين. وفي إحدى زوايا القاعة كان هناك مجموعة من الرجال، غير الواضحة ملامحهم، يرتدون ثياب السجن البرتقالية، وكلّهم مقيّدون معاً، تحرسهم مجموعة من المأمورين المسلّحين. هؤلاء هم الموقوفون الجدّد، وهذه هي محطتهم الثانية ضمن نظام التجميع القضائي. أما المحطة الأولى فهي السجن. تُليت أسماؤهم واحداً بعد الآخر، وبعد فكّ القيد عن كلّ واحد منهم، تمّ اقتياده إلى موضع محدّد أمام المنصّة التي يجلس إليها قاضٍ، هو واحد من عشرين قاضياً يتولون القضايا التمهيدية في نظامنا القضائي. ثمّ طرح القاضي عليهم بعض الأسئلة التي تضمّنت السؤال الأكثر أهمية: «هل لديك محام؟». ونظراً إلى أن القليل جدّاً منهم من كان لديه محام يدافع عنه، فقد عيّن القاضي مكتب محامي الدفاع العامّ للدفاع عمّن ليس لديه محامٍ منهم. ثمّ يظهر فجأة محام غرّ بجانب

موكّله الجديد ويخبره أن لا يقول أي شيء آخر غير ما قاله حتى الآن. وتُحدّد بعد ذلك تواريخ الزيارات التالية لقاعة المحكمة.

أما تاديو زابات فلديه محامٍ خاصّ. وبعد أن تُلي اسمه التقينا أمام المنصّة، وكان وجهه قد أصبح في حالة أسوأ مما كان عليه بالأمس. وقد توقّفت جميع الهمهمات والمحادثات الخافتة عندما أدرك الحاضرون أن هذا هو الرجل الذي يتحدّث عنه الجميع؛ المقاتل الواعد في فنون الدفاع الذاتي المختلط الذي أصبح الآن نجم يوتيوب.

«هل أنت تاديو زابات؟»، سأله القاضي باهتمام، وهي المرة الأولى هذا الصباح التي يبدو فيها متفاعلاً.

«نعم يا سيدي».

«وأفترض أن السيّد سيباستيان رودّ هو محاميك».

«نعم يا سيدي».

أسرع مدّعٍ عامّ مساعد بالوقوف خلفه.

ثمّ تابع القاضي: «أنت متّهم، في هذه المرحلة، بالاعتداء العنيف. هل تفهم هذا؟».

«نعم يا سيدي».

«السيّد رودّ، هل وضّحت لموكّلك أنّ التهم قد تتغيّر إلى شيء آخر أكثر خطورة؟».

«نعم يا سيدي، يفهم ذلك».

«بالمناسبة، ما هي آخر الأخبار عن الحكم؟»، سأل القاضي المدّعي العامّ المساعد، كما لو أنّ الأخير هو الطبيب المعالج.

«آخر ما سمعته هو أن حالة السيّد كينغ لا تزال حرجة».

«حسن جداً»، قال سعادته. ثمّ أضاف: «دعنا نلتقي هنا مجدداً خلال أسبوع لنرى أين وصلت الأمور. وحتى ذلك الحين يا سيّد رودّ، لن نناقش مسألة الكفالة».

«بالتأكيد سيّدي القاضي»، قلت.

صُرفنا بعد ذلك. وبينما كان تاديو يهمّ بالانصراف، همستُ له: «سأراك غداً في السجن».

«شكراً»، قال، ثمّ نظر إلى جمهور الحاضرين وأومأ لأمّه التي كانت تجلس بين مجموعة كاملة من الأقرباء الباكين. وكانت أمّه قد هاجرت من السلفادور قبل خمسة وعشرين عاماً، ثمّ حصلت على بطاقة الإقامة الخضراء، وعملت في نوبة عمل ليليّة في أحد المطاعم، وربّت العديد من الأطفال، والأحفاد، وعدداً كبيراً من الأقرباء الآخرين. وكان تاديو ومهاراته في قتال الأقفاص بمثابة تذكرتها إلى حياة أفضل. وفي تلك الأثناء، أمسك ميغيل يدها وهمس في أذنها شيئاً باللغة الإسبانية. وقد سبق له أن وقع في شرك نظامنا القضائي بضع مرات، لذا فهو يعرف اللعبة.

تحدّثتُ إليهم باختصار، وطمأنتهم إلى أنّني سأفعل كلّ ما هو ممكن، ثمّ سرتُ معهم لنخرج من قاعة المحكمة حيث وجدنا بعض المراسلين بانتظارنا في أحد الممرّات، وكان اثنان منهم يحملان الكاميرات.

هذا هو حلم حياتي.

.13

كان صباحاً حافلاً بالفعل. فبينما كنتُ في المحكمة مع تاديو، فعلت جوديث ما وعدت به بالضبط فتقدّمت بطلب سيئ يتضمّن إنهاء كلّ حقوقي بزيارة ابني، بما في ذلك الساعات الثلاث التي حصلتُ عليها عشية عيد الميلاد، إضافة إلى الساعتين في عيد ميلاد ابني. وقد زعمت في شكواها أنّني أب غير سوي، وأشكّل خطراً على سلامته البدنية، وأن لي «تأثير مروّع» على حياة الطفل. وقد طلبتْ عقد جلسة معجّلة - بطريقة مسرحية - كما لو أنّ الطفل في حال الخطر.

هذا، وقد أعدّ مكتب هاري آند هاري ردّاً شريراً على طلبها حيث قدّمته للمحكمة عصر يوم الاثنين. وقد تأهّبنا مرة أخرى للتصدي لحربها المقدّسة والمستمرة ضدّي، والتي تهدف منها إلى تلقيني دروساً ثمينة. وهي تعلم جيّداً أن أي قاضٍ لن يلبّي طلباتها، لكنّها تفعل ذلك لأنها غاضبة، وهي تعتقد أنّها إذ تسحبني عبر مطحنة اللحم هذه مرة أخرى

فسأستسلم أخيراً وأخرج من حياتهم. أمّا أنا فأكاد أنتظر تلك الجلسة بشوق.

لكن، لدينا قبل ذلك مشكلة أخرى. فيوم الأربعاء اتّصلت جوديث بـي هاتفياً حوالى الظهر لتعلن بكلّ وقاحة أن «لدينا اجتماع في المدرسة بعد ظهر اليوم».

أوه حقاً؟ ربّما كانت هذه هي المرة الثانية التي يُطلب مني فيها الحضور إلى المدرسة والتصرّف كوالد. وكانت جوديث قد نجحت تماماً حتى الآن في إبعادي عن كلّ شؤون ابننا.

سألتها: «حسناً، ما الأمر؟».

«ستارتشر في مشكلة. تشاجر في المدرسة وضرب طفلاً آخر».

غمرني شعور بالفخر الأبوي، حتى كدتُ أن أضحك. لكنّني عضضتُ على لساني وقلت: «أوه، أوف، ماذا حدث؟». وكنتُ أريد إضافة أسئلة أخرى مثل «هل فاز؟»æ¡«كم مرّة ضربه؟»æ¡«هل الطفل الآخر أحد طلبة الصف الثالث؟». لكنّني تمكّنت من السيطرة على حماسي.

«هذا هو موضوع الاجتماع. سأراك في مكتب المديرة في الرابعة».

«الرابعة من هذا اليوم؟».

«نعم»، قالت بلهجة لئيمة وحازمة.

«موافق»، قلت؛ مع العلم أنّني سأضطر إلى التغيّب عن إحدى الجلسات في المحكمة، لكن لا مشكلة في ذلك. ولن أتأخّر عن هذا

الاجتماع مقابل أي شيء في هذا العالم. ذلك أن ابني - الولد الصغير واللطيف الذي لم تتح له الفرصة أبداً ليكون شخصاً قاسياً - قد ضرب أحدهم!

كنت أبتسم طوال الطّريق إلى المدرسة. وكان مكتب المديرة واسعاً وفيه عدّة كراسٍ موزّعة حول منضدة قهوة، حيث اجتمعنا هناك في جوّ عادي جداً. اسمها دوريس، وهي خبيرة متمرّسة عملت مدّة أربعين سنة على الأقل في التعليم العامّ، ولديها ابتسامة لطيفة وصوت مريح. ومن يعلم عدد الاجتماعات التي عقدتها وعانت منها مثل هذا الاجتماع. جوديث وأفا كانتا هناك حين وصلتُ فأومأتُ إليهما من دون كلام. وكانت جوديث ترتدي ثوباً أنيقاً ومذهلاً. أما أفا، عارضة الأزياء الداخلية السابقة، فقد ارتدت سروالاً جلدياً ضيّقاً جدّاً وبلوزة ضيّقة. وربّما كان لديها دماغ جربوع، لكنّها لا تزال تحتفظ بجسد ينتمي إلى أغلفة المجلات. وقد بدتا رائعتين حقاً. ومن الواضح، بالنسبة إليّ على الأقل، أنّهما صرفتا وقتاً لا بأس به في التأنّق لهذه المناسبة بالذات. لكن لماذا؟.

ثمّ وصلت الآنسة تارانت، فأصبحت الأمور أكثر وضوحاً. إنّها معلّمة ستارتشر، وهي ذات جمال مثير وفي الثالثة والثلاثين من العمر، طُلّقت مؤخراً؛ وطبقاً لمصدر خاص، فقد عادت مجدداً إلى اللعبة. أمّا شعرها فأشقر قصير، قُصّ بشكل ذكي، وعيناها بنّيتان واسعتان تجبران كلّ من تقابله على التحديق إليهما مرّتين على الأقل. وبعد وصولها، لم تعد جوديث وأفا الفتاتان الأكثر إثارة في الغرفة. وفي الحقيقة، أصبحتا باهتتين. وقد وقفتُ وأحدثت بعض الجلبة حول الآنسة تارانت التي

أسعدها الاهتمام الذي لقيته. ثمّ دخلتْ جوديث فوراً في مزاج العهر التامّ - وهي بطبيعتها كذلك تقريباً - لكنّ عينا أفا ذبلتا تقريباً عندما نظرت إلى المعلّمة. عيناي ذبلتا أيضاً والتصقت نظراتي بها.

زوّدتنا دوريس بالمعلومات الأساسية: أثناء الاستراحة من بعد ظهر أمس، كان بعض أولاد الصفّ الثاني يلعبون الكرة في ساحة اللعب. ثمّ حدث تلاسن، ثمّ شجار، ثمّ دفع ولدٌ اسمه براد ستارتشر الذي صفع عندئذٍ براد على فمه. وقد سبّبت الصفعة جرحاً صغيراً، فسال بعض الدم، وبالتالي أصبحت حادثة بارزة. ولم يكن مستغرباً أن يهدأ الصبيّان ويلتزما الصمت حين وصل المعلّمون.

قلت: «يبدو أمراً بسيطاً وليس ثمة أذى. فالأولاد يتصرّفون كأولاد».

لم توافق أيّ من النساء الأربع على ما قلت، ولم أكن أتوقّع منهنّ ذلك. ثمّ قالت الآنسة: «أخبرني أحد الأولاد أنّ براد كان يسخر من ستارتشر لأن صورته ظهرت في الصحيفة».

«من الذي سدّد اللكمة الأولى؟»، سألتُ في ما يشبه الوقاحة.

بدا عليهن الامتعاض من السؤال. «هل ذلك مهمّ حقاً؟»Ê ÏÑ¡ جوديث بحدّة.

«اللعنة. نعم هو كذلك».

ولشعورها بقرب حدوث مشكلة، أسرعت دوريس بالقول: «لدينا قواعد صارمة ضدّ الشجار يا سيّد رودّ، بغض النظر عمّن يبدأ المشاجرة. وقد علّمنا طلابنا أن لا ينخرطوا في نشاط من هذا النوع».

«فهمتُ ذلك، لكن لا يمكنك أن تتوقّعي من طفل أن يُهان ويُرهّب من دون أن يدافع عن نفسه».

ومن الواضح أن لكلمة «يُرهّب» وقعها. إذاً، وبعد أن أصبح طفلي الآن في موقع الضحيّة، لم تعد النسوة متأكّدات تماماً من كيفية الردّ على ما قلت، لذلك قالت الآنسة تارانت: «حسناً، لست متأكّدة من تعرّضه للترهيب».

«هل براد هذا تفاحة سيئة؟»، سألتُ المعلّمة.

«لا، بالتأكيد ليس كذلك. لديّ مجموعة رائعة من الأطفال هذه السنة».

«متأكّدٌ من ذلك. ومن ضمنهم طفلي. وهؤلاء مجرّد أولاد صغار، أليس كذلك؟ وهم لا يستطيعون إيذاء بعضهم بعضاً. ولذلك فهم يتدافعون ويحتكّون ببعضهم في ساحة اللعب. اللعنة! مجرّد أولاد. دعوهم يكونوا أولاداً، ولا تعاقبوهم كلّما اختلفوا».

«نحن نلقّنهم الدروس، يا سيّد رودّ»، قالت دوريس بلهجة التقوى والورع.

لكنّ جوديث زمجرت: «هل حدّثته عن القتال؟».

«نعم فعلت. أخبرته أنّ التقاتل خطأ، وأن لا يبدأ هو أبداً المعركة؛ لكن إذا حدث أن بدأ شخص آخر بذلك، فعليه أن يحمي نفسه بكل الوسائل. فما هو الخطأ في ذلك بالضبط؟».

لم تبادر أيّ من النسوة الأربع بالردّ على ما قلت، لذا تابعتُ القول: «من الأفضل أن نعلّمه الآن كيفية الدفاع عن نفسه، وما لم نفعل فسيشعر بالخوف والترهيب لبقية حياته. وهؤلاء مجرّد أطفال. سيتشاجرون، وسيربحون بعض المعارك، وسيخسرون بعضها الآخر، لكنّهم سينمون وتشتدّ أعوادهم. صدّقوني، عندما يكبر الولد ويكون قد تعرّض للضرب عدّة مرات، سيفقد حماسه للقتال».

وللمرّة الثانية، ضبطتُ أفا وهي تختلس النظر إلى ساقي الآنسة تارانت.

وكنتُ أختلس النظر أيضاً؛ لا يمكن مقاومتهما. فهما يستحقّان الكثير من الانتباه.

أمّا دوريس فكانت تراقب تلك الطقوس التزاوج تلك، فقد سبق وأن رأتها قبل ذلك.

قالت: «والدا براد منزعجان تماماً».

فسارعتُ بالقول: «إذاً، يسعدني التحدّث إليهما، وذلك للاعتذار، ولكي يعتذر ستارتشر أيضاً. هل هذا مناسب؟».

«سأتولى هذا الأمر»، نبحت جوديث.

«إذاً لماذا دعوتني إلى هذه الحفلة الصغيرة؟ أنا سأخبرك. تريدين التأكّد تماماً من إلقاء كلّ اللائمة على عاتقي. فمنذ خمسة أيام مضت اصطحبتُ الطفل إلى مباراة قتال الأقفاص؛ وقد تشاجر الآن في ساحة اللعب. وهذا برهان واضح أنّني المخطئ. لقد فزتِ. لقد أردتِ بعض الشهود، لذلك نحن هنا. فهل تشعرين بتحسّن الآن؟».

وقد أفرغ هذا، بالطبع، الغرفة من الهواء، واشتعلت عينا جوديث بالكراهية، وكدتُ أن أرى البخار وهو ينبعث من أذنيها. أمّا دوريس، المحترفة، فسارعت بالقول: «حسناً، حسناً. أعجبتني فكرة أن يدردش أحدكم مع والدي براد».

«أحدنا نحن الاثنان، أم أحدنا نحن الثلاثة؟»، سألتُ متذاكياً. ثمّ أضفتُ: «أنا آسف، لكن يبدو أن ثمة زحام هنا».

رمتني أفا بنظرة حادّة فألقيت نظرة على ساقي المعلّمة. يا لهذا الاجتماع المضحك.

بعد ذلك أظهرت دوريس نوعاً من الحزم حيث نظرت إلي وقالت: «أعتقد أنك أنت من يجب أن يفعل ذلك. أنت محقّ؛ مجرّد مسألة بين أولاد. اتّصل بوالدي براد واعتذر لهما».

«وهو كذلك».

«وما هي عقوبة ستارتشر؟»، سألتْ أفا لأن جوديث عجزت عن الكلام في تلك اللحظة.

قالت دوريس: «ما رأيك آنسة تارانت؟».

«حسناً، يجب أن يكون هناك عقاب».

زدتُ عندئذٍ الأمور سوءًا حين قلت: «لا تقولي لي أنّك ستطردين الطفل».

قالت الآنسة تارانت: «لا، أصبحا صديقين هو وبراد، وأعتقد أنّهما تجاوزا الأمر. ماذا عن أسبوع من دون استراحة؟».

«وهل سيظلّ بإمكانه تناول الغداء؟»، سألتُ، فقط لأحاول عرقلة عجلات العدالة. فأنا محامٍ؛ وتلك هي فطرتي.

ابتسمتْ لكنّها تجاهلت ما قلتُ. توصلنا إلى اتفاقية وكنت أول المغادرين. وخلال انطلاقي بالسيارة مبتعداً عن موقف السيارات، أدركتُ أنّني كنت أبتسم. لقد دافع ستارتشر عن نفسه وأثبت جدارته!

وفي وقت متأخر من تلك الليلة، أرسلتُ بريداً إلكترونياً إلى الآنسة تارانت - نعومي اسمها الأول - وشكرتها لما قامت به من عمل ممتاز. وبعد عشر دقائق، ردّت برسالة مماثلة لتقول شكراً. ولم أنتظر طويلاً حتى أردّ على رسالتها مجدداً لأطلب منها الخروج لتناول العشاء. وبعد عشرين دقيقة أعلمتني أنّها فكرة غير صائبة أن تواعد أحداً من أولياء أمور طلابها. بعبارة أخرى، ليس الآن، ربّما في المستقبل.

إنه يوم الأربعاء وهي تمطر. وقد لعبنا الغولف القذر عدّة مرات في الطقس السيئ، لكنّ ألان قال لا هذه الليلة؛ لا مزيد من الأخاديد في

الممرات. نادي أولد ريكو مغلق هذا المساء. وكنتُ مستيقظاً تماماً، وضجراً، ويتملكني القلق بشأن تاديو ودوغ رينفرو، وكنتُ أستعجل الفرص البسيطة المتاحة لاصطياد الآنسة تارانت. لذلك، جافاني النوم، مجدداً، فالتقطتُ مظلّة وهبطتُ متّجهاً إلى حانة «Ð íÑÇß». وعند منتصف الليل، كنتُ أخسر عشرة دولارات في لعبة من تسع كرات أمام صبـي بدا لي أن عمره لا يتجاوز خمسة عشر عاماً. سألته ما إذا كان يذهب إلى المدرسة، فأجاب: «من حين لآخر».

أمّا كورلي الذي كان يراقبنا، فقد تحيّن الفرصة ليهمس لي: «لم أره هنا من قبل. مدهش». ومن حسن حظي أن كورلي أغلق المكان في الساعة 1:00 بعد منتصف الليل. لكن الصبـي كان قد أفرغ تسعين دولاراً من جيوبـي؛ لذا سأتفاداه في المرة القادمة. وفي الساعة 2:00 بعد منتصف الليل أغمضتُ عيناي وغططت في النوم.

.14

اتّصل بـي الرفيق في الساعة الرابعة فجراً ليخبرني أن شون كينغ قد مات بسبب نزيف في المخّ. أعددتُ قهوة وشربتها في الظلام وأنا أتأمل مشهد المدينة التي كان الهدوء لا يزال يلفّها في تلك الساعة. وكان القمر بدراً تامّاً وضوؤه ينعكس عن العمارات العالية في وسط المدينة.

يا لها من مأساة. سيقضي الآن تاديو زابات العقد القادم من عمره، على الأقل، خلف القضبان. وهو الآن في الثانية والعشرين من عمره، لذا عندما يخرج سيكون أكبر سنّاً بكثير من أن يتمكّن من القتال. وسيكون قد أصبح مسنّاً بالنسبة للعديد من الأشياء. فكّرتُ بمسألة المال، لكن لمدّة دقيقة واحدة فقط. ذلك أنّني استثمرتُ مبلغ ثلاثين ألف دولار في ذلك الفتى مقابل ربع المداخيل المتأتية من مهنته، والتي بلغت حتى الآن ما مجموعه حوالى ثمانون ألف دولار. إضافة إلى ذلك، كسبتُ مبلغ عشرين ألف دولار من الرهانات عليه؛ لذا أنا متقدّم قليلاً على الجانب المادّي.

وقد حاولتُ أن لا أفكّر بشأن مداخيله التي كانت متوقّعة مستقبلاً، والتي كانت كبيرة، إذ أصبح كلّ ذلك عديم الأهمية الآن.

وقد فكّرتُ، بدلاً من ذلك، بعائلته، وبحياتهم الصعبة والأمل الذي منحه لهم. فقد كان تذكرتهم إلى الخروج من حياة الشوارع والعنف، ليصعدوا إلى الطبقة المتوسطة وما بعدها. أمّا الآن فسيغرقون إلى مستويات أعمق من الفاقة بينما يتعفّن هو في السجن.

وليس هناك دفاع ممكن، ولا استراتيجية قانونية موثوقة يمكنها إنقاذه. وقد شاهدت الفيديو مئات المرّات حتى الآن. وقد تبيّن أن الموجة الأخيرة من الضربات على وجه شون كينغ وُجّهت بينما كان فاقداً الوعي. ولن يكون من الصعب إيجاد الخبير الذي سيقول إن تلك الضربات هي التي أحدثت الضرر القاتل. لكن لا حاجة للخبير. فهذه القضية لن تذهب إلى المحاكمة. ذلك أنّني سأخدم موكّلي جيّداً إذا تمكّنت من الضغط على سلطات الولاية بطريقة ما لتقدّم لنا عرضاً محترماً. وأنا أتمنّى فقط أنّ يكون الحكم عشر سنوات وليس ثلاثين، لكن ثمة شيء ما يقول لي أنّني أحلم. إذ لا يوجد مدّعٍ عامّ واحد في هذه البلاد قد يرفض اغتنام فرصة سانحة مثل هذه تتيح له النيل من قاتل ذو مواصفات عالية كموكّلي.

ثمّ أجبرتُ نفسي على التفكير بشون كينغ، لكنّني لم أعرف الرجل. وأنا متأكّد من أن عائلته دُمّرت وكلّ ما إلى هنالك، لكن أفكاري كانت تعود تلقائياً إلى تاديو.

في الساعة السادسة صباحاً اغتسلت، وارتديت ملابسي، ثمّ توجّهتُ إلى السجن. يجب أن أخبر تاديو أنّ حياته، كما عرفها، قد انتهت.

.15

وفي يوم الاثنين التالي، مثُلنا أنا وتاديو زابات أمام المحكمة ثانية، مع العلم أن المزاج العامّ كان مختلفاً جداً هذه المرّة. فهو متّهم بالقتل الآن، وقد أصبح شهيراً بفضل الإنترنت. ويبدو وكأنّ قلة من الناس فقط أمكنهم مقاومة إغراء مشاهدته وهو يقتل شون كينغ بيديه العاريتين.

وكما هو متوقّع، رفض القاضي قبول الكفالة فأعادوا تاديو إلى السجن. وقد أجريتُ محادثتين قصيرتين مع المدّعي العامّ فاتّضح لي أنّهم مصرّون على الثأر. والإدانة بجريمة قتل من الدرجة الثانية تعني الحكم بالسجن ثلاثين سنة كحدّ أقصى. وبعد الالتماس، سيوافقون على تخفيض الحكم إلى عشرين. وبناء على نظام إطلاق السراح المشروط، وغير الواضح تماماً، سوف يمضي في السجن عشر سنوات على الأقل. ويتوجّب عليّ الآن أن أوضّح ذلك لموكّلي، الذي لا يزال في حالٍ من النكران، ولا يزال في تلك الحالة الضبابية الناجمة عن أسفه لما حدث. وهو لا يستطيع شرح ما

حدث، لكنّه لا يزال يعتقد أنّ المحامي الجيّد يمكنه ممارسة بعض الألاعيب وإخراجه مما هو فيه.

كان يوماً حزيناً، لكنّه لم يكن عديم الفائدة تماماً. ففي المدخل الكبير والمفتوح خارج قاعة المحكمة، كان هناك حشد من المراسلين الذين ينتظرونني. وحيث أن منع التحدّث عن القضية لم يبدأ إلى حد الآن، فلديّ الحرّية التامّة في قول كلّ تلك الأشياء المضحكة التي يقولها المحامون قبل فترة طويلة من بدء المحاكمات. موكّلي شخص جيّد تسرّع في التصرّف حين شعر بالإجحاف. وهو مدمّر الآن بسبب ما حدث. وهو يبكي تعاطفاً مع عائلة شون كينغ. وهو مستعدّ لدفع كل ما لديه مقابل استرجاع تلك الثواني القليلة وتدارك حدوثها. وسوف نشنّ حملة دفاع فعّالة. نعم، بالطبع، يتمنّى أن يعود إلى حلبة القتال مجدداً. كان يساعد أمّه الفقيرة التي تدعم عائلتها وترعى بيتاً مليئاً بالأقرباء.

وهكذا.

.16

مع إنجاز مكتب هاري آند هاري للأعمال الكتابية، ومع مواصلة القاضي سامسون التصدي لمحامي السلطات كلّما اقتربوا من قاعة محكمته، تقدّمت إجراءات الدعوى المدنية في قضيّة دوغ رينفرو تقدّماً سريعاً جداً.

وكما يبدو فنحن هنا في سباق لن نربحه أبداً. وقد وددتُ لو أن المحاكمة في قضيّة دوغ رينفرو المدنيّة جرت في قاعة محكمة مكتظة قبل الشروع في قضيّة تاديو زابات الجنائية. لكنّ المشكلة تكمن في أن نظامنا القضائي يُسرّع إجراءات المحاكمة في القضايا الجنائية، بخلاف القضايا المدنية. ومن الناحية النظرية، فإن القضية الجنائية يجب أن تأتي إلى المحكمة ويبتّ فيها، وإلا فسيتمّ إسقاطها خلال 120 يوماً من تاريخ توجيه الاتّهام؛ وهذا الأمر موضع اعتراض شبه دائم من قبل محامي المتّهم لأنه يحتاج إلى وقت أطول للاستعداد للدفاع. أمّا في القضايا المدنية فلا يوجد مثل هذه القاعدة، لذا فهي تمتدّ في أغلب الأحيان إلى

سنوات. وبحسب السيناريو المفضّل لديّ، سوف نشرع أولاً في إجراءات القضية المدنيّة، ثمّ نحصل على قرار ضخم سيكون الخبر الأبرز على الصفحات الأولى؛ والأمر الأكثر أهميّة هو أنّه سيؤثّر على المحلّفين المتوقّعين في إجراءات المحاكمة في القضية الجنائية. وبالتالي، لن تشبع الصحافة أبداً من تناول تفاصيل وتداعيات كارثة رينفرو، وسوف أستمتع بفرصة استجواب الشرطة استجواباً مضنياً على منصّة الشهود نيابة عن جميع سكّان المدينة.

أمّا إذا بُدِئ بالقضيّة الجنائيّة أولاً، وإذا وُجّه الاتّهام لدوغ رينفرو، فسيصبح الفوز في القضية المدنيّة أكثر صعوبة بكثير.

وسيكون دوغ رينفرو، كشاهد، أكثر قابلية للإدانة بسبب الاتهام الذي وُجّه إليه. والقاضي سامسون يفهم هذا ويحاول المساعدة. وخلال أقل من ثلاثة أشهر على الغزوة الفاشلة لفرقة التدخّل السريع المسمّاة سوات، استدعى القاضي رجال الشرطة الثمانية للمثول أمامه لكي أتمكّن من أخذ إفاداتهم. ولا يوجد قاضٍ، أو مأمور اتّحادي أو خلاف ذلك، يمكنه تحمّل المعاناة الناجمة عن أخذ إفادة واحدة؛ سيكون ذلك امتهاناً شديداً لكرامته أو كرامتها. لكن، ومن أجل تهيئة الجوّ العام وإبلاغ رجال الشرطة، والمحامين المدافعين، والرسالة التي تقول بوجود ارتياب شديد فيهم، طلب القاضي سامسون أن تُدوّن الإفادات في حضرته، وبحضور كاتبه القانوني وموظّفه القضائي.

إنه سباق متوحش يدفع بـي إلى حدود التحدي القصوى. وقد بدأتُ بالملازم أوّل شيب سوميرال، قائد فريق سوات، حيث انتزعت منه إفادة

تتعلّق بخبراته، وتدريبه، ومشاركته في اجتياحات أخرى للبيوت. وخلال ذلك، مثّلتُ، عامداً متعمداً، دور البليد، الممل، وذي الوجه الخالي من أي تعبير. وما فعلناه مجرّد أخذ إفادات الغاية منها التأسيس لشهادة تحت القَسَم. وباستعمال الخرائط، والصور، والفيديوات، استعرضنا قضية رينفرو لساعات.

وقد استغرقت عملية أخذ إفادات رجال الشرطة الثمانية ستّة أيام كاملة، فأصبحت تلك الإفادات مدوّنة في السجلات الآن، ولم يعد باستطاعتهم تغيير ما سردوه، لا في المحاكمات الجنائية ولا في المحاكمات المدنية.

.17

المرّة الوحيدة التي قضيتُ فيها وقتاً في محكمة العلاقات الزوجية كانت عندما استُدعيت كي أفسّر ذنوبـي. وأنا لا أتولى أية قضية تتعلّق بالطلاق أو التبني ولو وضع مسدّس في رأسي. أمّا جوديث فتكسب عيشها من خلال الحروب التي تخوضها بين الأعمدة وأروقة محاكم الطلاق، وهذا مضمارها. وسعادة القاضي اليوم هو ستانلي ليف، وهو مخضرم ومسنّ وغريب الأطوار انتهت صلاحيته منذ سنوات. وقد مثّلتْ جوديث نفسها كما فعلتُ أنا. ومن أجل هذه المناسبة جاءت برفيقتها أفا، التي جلست في القاعة كمشاهدة وحيدة مرتدية تنورة قصيرة جدّاً. وقد ضبطتُ القاضي ليف متلبساً باستراق النظر.

وباعتبار أنّ كلينا محامٍ، ويمثّل كلّ منا نفسه، تجاوز القاضي ليف الشكليات وسمح لنا أن نجلس فقط ونتكلّم، كما لو أنّنا في جلسة تحكيم. ثمّ بدأ تسجيل وقائع الجلسة فشرع كاتب مختزل بتدوين كلّ ما قيل.

بدأت جوديث الكلام أولاً، فسردت الوقائع، وجعلتها تبدو كما لو أنّني أسوأ أبٍ في التاريخ لأنّني أخذت ابني إلى مباراة في قتال الأقفاص. ثمّ، وبعد أربعة أيام، خاض ستارتشر معركته الأولى في المدرسة. واعتبرت أن ذلك هو البرهان الواضح على أنّني حوّلته إلى وحش.

عبس القاضي ليف كما لو أنّ هذا أمر سيّئ بالفعل.

وبأكبر قدر من التمثيل المسرحي الذي يمكنها ابتداعه، أعلنت جوديث أنّ كلّ حقوقي في الزيارة يجب إبطالها لكي لا يتعرّض الطفل مجدداً إلى تأثيري. ثمّ رماني القاضي ليف بنظرة خاطفة كمن يقول: «هل هي مجنونة؟».

لكنّنا لسنا هنا من أجل تحقيق العدالة، نحن هنا من أجل الاستعراض. فجوديث أمّ غاضبة وقد سحبتني مرة أخرى إلى المحكمة. وعقابـي ليس خسارة حقوق الزيارة؛ بل هو بالأحرى مجرّد الإزعاج الناجم عن التعامل معها. وهي لن تستسلم بسهولة! ستحمي طفلها بأي ثمن!

ومن مقعدي، رويتُ القصّة من وجهة نظري، ومن دون تزيين أية كلمة.

ثمّ عرضتْ نسخة من الصحيفة التي يظهر فيها «ابنها» على الصفحة الأولى. يا للعار! كان يمكن أن يُصاب إصابة خطيرة. القاضي ليف كان نائماً تقريباً.

ثمّ استدعت خبيرة هي الدكتورة سالابار المتخصّصة في علم النفس للأطفال. وقد قالت الدكتورة المذكورة للمحكمة أنها قابلت ستارتشر، حيث قضت معه ساعة كاملة، فتحدّث عن قتال الأقفاص و«شجار» ملعب المدرسة، ثمّ أبدت رأيها في أن المجزرة التي شهدها، حين كان تحت إشرافي، كان لها تأثير ضارّ عليه؛ وقد شجّعه ذلك على خوض معركته في المدرسة. وقد نجحت جوديث في تمرير هذه الشهادة بينما كان القاضي ليف فاقداً الوعي عملياً.

وحين أتى دوري في الاستجواب، سألتُ الشاهدة: «هل أنت متزوّجة؟».

«نعم».

«هل لك ابن أو أبناء؟».

«نعم، ولدان».

«هل أخذت أيّ منهما يوماً إلى مباريات الملاكمة، أو المصارعة، أو قتال الأقفاص؟».

«لا».

«هل حدث أن تقاتل أي من ابنيك مرّة مع طفل آخر؟».

«حسناً، أنا متأكّدة من أنّهما فعلا ذلك، لكنّني لا أستطيع الجزم بذلك».

وهي في الحقيقة لم تجب عن السؤال، كما أوحت نبرة صوتها. هزّ القاضي ليف رأسه.

«هل حدث وأن تشاجر ابناك في ما بينهما؟».

«لا أتذكّر».

«لا تتذكّرين؟ هل كنتِ الأُمّ المحبّة التي تعطي أبناءها كلّ اهتمام ممكن؟».

«أودّ أن أعتقد ذلك».

«إذاً، كنتِ مهتمّة بهما؟».

«قدر المستطاع، نعم».

«ولا يمكنك أن تتذكّري مرّة واحدة تعارك فيها أحدهما مع غيره؟».

«حسناً، لا؛ ليس الآن».

«ماذا عن وقت آخر؟. انسَ ذلك. ليس لدي شيء آخر». استرقتُ نظرة خاطفة إلى القاضي فرأيته محبطاً. لكن الأمور أصبحت أكثر بهجة بكثير عندما جلس الشاهد التالي على المنصّة. إنّها نعومي تارانت، معلّمة ستارتشر، وهي ترتدي ثوباً ضيّقاً وحذاءً بكعبين مستدقّين وعاليين. وعندما بدأت بترديد القَسم بقول الحقّ، استيقظ القاضي المسنّ ليف تماماً. وكذلك فعلتُ أنا.

يكره معلّمو المدارس استدراجهم إلى معارك الأهل حول الزيارة والرعاية. ونعومي ليست استثناءً، لكنها تعرف كيف تتعامل مع مثل هذه الحالات. وقد تبادلنا الرسائل البريدية الإلكترونية لمدّة شهر حتى الآن. وهي لم توافق حتى الآن على دعوة العشاء، لكنّني أحرز تقدّماً. وقد شهدت بأنّ ستارتشر لم يسبق له أن أظهر أيّ ميول عنيفة، سوى بعد بضعة أيام تلت زيارته الأولى إلى مباريات قتال الأقفاص. ثمّ وصفت حادثة ساحة اللعب من دون الإشارة إليها كمعركة أو شجار. مجرّد ولدين حدث بينهما سوء تفاهم.

ولقد استدعتها جوديث كشاهدة ليس لكي تساعدها في البحث عن الحقيقة، بل لكي تُثبت لنعومي، وغيرها، أنّ لديها القوّة التي تتيح لها سحبهم إلى المحكمة وترهيبهم.

وعلى منصّة الاستجواب دفعتُ نعومي للاعتراف بأنّ كلّ ولد طبيعي تقريباً من الأولاد الذين علّمتهم سوف يشارك، عاجلاً أم آجلاً، في نوع من أنواع الشجار في ساحة اللعب. وقد تحدّثتْ على نحو متقطّع على منصّة الشهود لمدّة خمس عشرة دقيقة، وعندما صرفها القاضي ليف بدا خائب الأمل نوعاً ما.

وفي الختام، كرّرت جوديث ما كانت قد قالته وقدّمت الالتماس الشديد بإنهاء كلّ حقوقي في الزيارة.

لكنّ القاضي ليف أوقفها عن الكلام بلهجة جافّة، قائلاً: «لكن الأب لديه ستّ وثلاثون ساعة شهرياً فقط. وليس ذلك بكثير».

«شكراً لكم»، قلت.

«ذلك كافٍ»، قالت جوديث لتوبّخني.

«آسف».

ثمّ نظر إليّ القاضي وسأل: «سيّد رودّ، هل توافق على إبقاء الطفل بعيداً عن قتال الأقفاص، بالإضافة إلى مباريات الملاكمة والمصارعة؟».

«نعم، أعدُ بذلك».

«وهل توافق على تعليم الطفل أيضاً أن القتال طريقة سيئة لحلّ النزاعات؟».

«نعم، أعدُ بذلك».

ثمّ حدّق إلى جوديث وقال: «طلبك مرفوض. هل لديك أيّ شيء آخر؟».

تردّدت جوديث لمدّة ثانية، ثمّ قالت: «حسناً، سيتوجّب عليّ أن أستأنف».

«لديك الحقّ في ذلك»، قال وهو ينقر بمطرقته. ثمّ أضاف «رُفعت هذه الجلسة».

.18

بدأت جلسات المحاكمة الجنائية لدوغ رينفرو في صباح الاثنين، وكانت قاعة المحكمة مكتظّة بالمحلّفين المرشّحين لعضوية هيئة المحلّفين. وبعد استقبالهم وإجلاسهم من قبل حجّاب قاعة المحكمة، اجتمع المحامون في مكتب سعادة القاضي رايان بوندر الذي يتمتّع بخبرة عشر سنوات من محاكمنا الدورية وأحد أفضل رؤساء المحاكم. وكما هي العادة في اليوم الأول من أيّ محاكمة هامّة، كان المزاج متوتراً والقلق يسيطر على الجميع. وبدا كما لو أن المحامين لم يناموا طوال عطلة نهاية الأسبوع.

جلسنا حول منضدة كبيرة وناقشنا بعض الأمور التمهيدية. وحين أوشكنا على إنهاء ما نحن فيه، نظر إليّ القاضي بوندر وقال: «أريد استيضاح المسألة منك مباشرة يا سيّد رودّ. عرضت سلطات الولاية على موكّلك صفقة يعترف بموجبها بالذنب عن جناية أقل، أو جنحة أعلى

درجة، فلا يقضي أي فترة في السجن. يُطلق سراحه. وبالمقابل، يوافق على إسقاط دعواه المدنيّة ضدّ المدينة وضدّ كلّ المتّهمين الآخرين. صحيح؟».

«ذلك صحيح، يا سيدي».

«وقد رفض تلك الصفقة؟».

«صحيح».

«لندوّن ذلك في السجلّ».

جيء بدوغ رينفرو من غرفة الشهود إلى مكتب القاضي. وكان يرتدي حلّة صوفية قاتمة، وقميصاً أبيض، وربطة عنق قاتمة، فكان أنيق الملبس أكثر من أيّ من الموجودين في الغرفة، ربّما باستثنائي. وقد وقف ببنيته الطويلة، منتصباً، وفخوراً، كجندي قديم يتهيّأ لمعركة. وكانت قد مرّت عشرة أشهر منذ اجتاحت الشرطة بيته، وعلى الرغم من أنّه شاخ كثيراً خلال تلك المدّة، إلا أن جروحه اندملت وبدا أكثر ثقة بنفسه.

وبعد أن استحلفه القاضي بوندر أن يقول الحقّ، قال له: «والآن، يا سيّد رينفرو، عرضت الولاية عليك صفقة، اتفاقية تسوية. وهي مكتوبة. هل قرأتها وناقشتها مع محاميك؟».

«فعلت، نعم يا سيدي».

«وهل تدرك أنّك إذا وافقت على اتفاقية التسوية هذه ستتفادى هذه المحاكمة، وستخرج من هنا حرّاً طليقاً، ولن تخشى بعدها أبداً من دخول السجن؟».

«نعم، أفهم ذلك. لكنّني لن أعترف بارتكاب أي ذنب. اقتحمت الشرطة بيتي وقتلت زوجتي. وهم لن يدانوا وذلك خطأ. وأنا سآخذ فرصي مع هيئة المحلّفين». ثمّ ألقى نظرة اشمئزاز على المدّعين العامّين، وعاد بعدها بنظره إلى القاضي بوندر.

أمّا المدّعي العامّ، وهو متمرّس يدعى تشوك فينّي، فقد أخفى وجهه خلف بعض الأوراق والملفات. وفينّي المذكور ليس رجلاً سيئاً ولا يريد أن يكون حيث يجلس الآن. ومشكلته بسيطة وواضحة؛ شرطي مندفع ومتحمّس أصيب في هجوم فاشل، والقانون يقول، من دون مواربة، أن الشخص الذي أطلق النار عليه مذنب. وهو قانون سيئ كتبه أناس جهلة، ويتوجّب على فينّي الآن فرضه وتنفيذه. وهو لا يستطيع إسقاط التهم بكلّ بساطة، فاتّحاد الشرطة يضايقه.

وثمة ما يجب قوله هنا حول ماكس مانسيني. وماكس هذا هو المدّعي العامّ الرئيس في المدينة، والذي عيّنه عمدة المدينة وصدّق على تعيينه مجلسها. وهو شخص لامع وذا حضور وطموح؛ شخص مندفع ويريد الوصول إلى مراتب ومناصب ليست معروفة بالضبط. وهو يحبّ الكاميرات، بقدر ما أحبها أنا، ولا يتورّع عن دفع الناس عن طريقه ليتمكّن من الوقوف أمام إحداها. كما أنّه محتال ومراوغ في قاعة المحكمة، ويتبجّح بتحقيق نسبة 99 بالمئة من الإدانات للمتّهمين، مثل كلّ مدّعٍ عامّ آخر في أمريكا. ولأنه الرئيس، فلديه القدرة على التلاعب بالأرقام، وبالتالي لديه برهان حقيقي أن نسبة 99 بالمئة المذكورة هي نسبة موثقة قانونياً.

عادة، وفي قضية كبرى كقضية دوغ رينفرو، التي تحظى بتغطية إخبارية على الصفحات الأولى مع لقطات حيّة صباحاً، وظهراً، ومساءً، سوف يرتدي ماكس أفضل ملابسه ويحتلّ الأضواء. لكنّ هذه القضية خطرة وماكس يعرف ذلك. والجميع يعرف ذلك أيضاً. فرجال الشرطة مخطئون. وآل رينفرو ضحايا. وقرار الإدانة لا يبدو محتملاً، وإن كان هناك شيئاً واحداً لا يستطيع ماكس مانسيني المخاطرة بتحمل تبعاته فهو الحكم الخاطئ.

لذلك فقد اختفى المدّعي العامّ الرئيس ولم ينبس ببنت شفة. وأنا متأكّد من أنّه يترصّد في مكان ما في الظلال، محدّقاً إلى كلّ تلك الكاميرات ويكاد يموت غيظاً. كما أن ماكس لن يظهر أثناء هذه المحاكمة. فقد تخلّص من عبئها وألقاه على عاتق تشوك فينّي.

.19

تطلّب الأمر ثلاثة أيام من أجل انتقاء هيئة المحلّفين، ومن الواضح أنّ المحلّفين الاثني عشر يعرفون جميعاً الكثير عن القضيّة. وقد تصارعت مع الطلب الذي قُدّم من أجل تغيير المكان، فرفض الطلب. وثمة سببين لمقاومتي لذلك الطلب، الأول قانوني والثاني يستند إلى الأنانية الخالصة. السبب الأول هو أنّ العديد من الناس في هذه المدينة مستاؤون من رجال الشرطة ومن أساليبهم الوحشية. أما السبب الثاني فهو وجود المراسلين وكاميرات في كلّ مكان، وهذا هو مضماري الأكثر أهمية. لكن الأهمّ من ذلك كلّه هو أن موكّلي يفضّل أن يُحاكم أمام هيئة محلّفين من مواطني مدينته.

إذاً، وفي قاعة محكمة مزدحمة بالحضور، قال القاضي بوندر: «أيها السيدات والسادة في هيئة المحلّفين، سنبدأ الآن بهذه المحاكمة بتقديم البيانات الافتتاحية. سيبدأ أولاً محامي الولاية، السيّد فينّي، ثمّ يليه محامي الدفاع السيّد رودّ. وأنا أنبّهكم إلى أنّ لا شيء ممّا توشكون على

سماعه يعتبر دليلاً حقيقيّاً. فالدليل يأتي من مصدر واحد فقط، وهو كرسيّ الشهود الموجود ها هنا. سيّد فينّي».

نهض المدّعي العامّ بمنتهى الجدية من مقعده خلف المنضدة، وهي منضدة يحتشد خلفها نائب المدّعي العامّ وعدد من المساعدين عديمي الفائدة. وقد بدأ باستعراض عضلاته القانونية، محاولاً استثارة إعجاب هيئة المحلّفين بجاذبية القضيّة ضدّ السيّد رينفرو. أما أنا فلديّ استراتيجية مختلفة، حيث جلسنا أنا ودوغ وحدنا؛ نحن الاثنان فقط. رجلان ضعيفان يواجهان جبروت الحكومة ومصادرها غير المحدودة. فبدت منضدة الدفاع خالية تقريباً بالمقارنة مع الجيش المرابط على منضدة الادّعاء. وهذا هو حلمي في الحياة؛ صورة داوود ضدّ جالوت.

تشوك فينّي بليد حقاً، فقد بدأ بعبارة خشبية مبتذلة: «أيها السيدات والسادة، هذه قضيّة مأساوية». بلا مزاح، تشوك. هل هذا أفضل ما لديك؟

وقد لا يكون قلب فينّي مع هذه القضيّة، لكنّه لن يستسلم بسهولة. فهناك الكثير من المشاهدين، والكثير ممّن يتهدّدهم سوء المصير. والآن، وبعد أن قُرع جرس البداية، بدأت اللعبة. واللعبة هنا ليست حول تحقيق العدالة؛ فابتداءً من هذه النقطة سيدور الصراع كلّه حول الفوز. وقد أجاد المدّعي العامّ في وصف الأخطار المرتبطة بعمل الشرطة، خصوصاً في هذه الأيام حيث تنتشر الأسلحة الهجومية، والمجرمين المحنّكين، وعصابات المخدّرات، والإرهابيين. ورجال الشرطة اليوم أصبحوا في أغلب الأحيان أهدافاً وضحايا للمجرمين العنيفين جدّاً

الذين ليس لهم أدنى احترام للسُلطات. وثمّة حرب تدور هناك في الخارج، وهي حرب على المخدّرات، وحرب على الإرهاب، وحرب على كلّ شيء تقريباً، وضباطنا الشجعان المسؤولون عن تطبيق القانون لديهم كلّ الحقّ في تسليح أنفسهم إلى أقصى حدّ. لهذا السبب قرّر أولئك الأذكياء الذين انتخبناهم ليسنّوا لنا القوانين قبل ستّ سنوات أن يجرّموا أيّ شخص - نعم، حتى مالك البيت - يُطلق النار على رجال شرطتنا وهم يؤدّون وظائفهم بكلّ بساطة. ولهذا السبب فإن دوغ رينفرو مذنب بحسب القانون. لقد أطلق النار على رجال الشرطة فأصاب الضابط المتمرّس سكوت كيسلير، والذي يقوم بوظيفته فقط.

عزف فينّي في مطالعته على الأوتار المناسبة وأحرز بعض النقاط هنا. وقد نظر اثنان من المحلّفين باستنكار إلى موكّلي. فهو، بعد كلّ شيء، أطلق النار على شرطي. لكن فينّي حذِر. فالحقائق ليست في صالحه، بغض النظر عمّا يقوله القانون. ولقد أوجز القول، بدقّة، ثمّ جلس بعد عشر دقائق فقط. لقد سجّل المدّعي العامّ هدفاً.

قال القاضي بوندر: «السيّد رودّ، من جهة الدفاع».

وأنا كمحامي دفاع في القضايا الجنائية، لديّ منذ البداية الحقائق التي تعمل لصالحي في هذه القضية. وحين أستخدم تلك الحقائق، سيكون من المستحيل تجاهلها. لذلك سأتّبع أسلوب اضربهم سريعاً وبشدّة، وراقبهم وهم يتخبطون. ولقد اعتقدتُ منذ اليوم الأول أنّني يمكن أن أربح هذه القضية من خلال البيان الافتتاحي. لذلك ألقيت دفتر

ملاحظاتي القانونية على المنصّة ونظرتُ إلى المحلّفين. تواصلتُ بالنظر مع كلّ واحد منهم.

ثمّ بدأتُ: «أطلقوا النار أولاً على كلبه المسمّى سبايك، وهو من فصيلة لابرادور، أصفر اللون عمره اثنا عشر عاماً، وكان يغطّ في نوم عميق على سريره في المطبخ. فماذا فعل سبايك ليستحقّ القتل؟ لا شيء، سوى أنّه كان فقط في المكان الصحيح في الوقت الخطأ. لماذا قتلوا سبايك؟ سيحاولون الإجابة عن هذا السؤال بإحدى أكاذيبهم المعتادة. سيقولون أنّ سبايك هدّدهم، مثل كلّ كلب آخر سيقتلونه عند اجتياحهم للبيوت الخاصّة في أنصاف الليالي. وفي السنوات الخمس الأخيرة، أيها السيدات والسادة، قتل فتيان فرقة سوات الشجعان ثلاثون كلباً بريئاً على الأقل في هذه المدينة، وهي كلاب تتراوح بين تلك البلهاء المسنّة والجراء الصغيرة؛ وكانت جميعها تتدبّر شؤونها الخاصة فقط».

وقف تشوك فينّي خلفي وقال: «اعتراض، سعادة القاضي، حول الصلة بالموضوع. لستُ متأكّداً من العلاقة بين المداهمات الأخرى لفرقة سوات وهذه القضية».

التفتُّ إلى القاضي، قبل أن يبتّ بالأمر، وقلت: «أوه، بل هناك علاقة، يا صاحب السعادة. دعنا نتيح لهيئة المحلّفين أن يسمعوا بالضبط كيف تتمّ تلك المداهمات. وسنثبت أنّ رجال الشرطة هؤلاء متحمّسون لإطلاق النار ومستعدّون لإرداء أيّ شيء قد يتحرّك».

رفع القاضي بوندر يده وقال: «هذا كافٍ، يا سيّد رودّ. سأردّ الاعتراض. فهذا مجرد بيان افتتاحي وليس دليلاً».

ذلك صحيح، لكن المحلّفين سمعوا ما قلت. عدتُ إذاً إليهم وقلت: «لم تكن لدى سبايك أيّ فرصة. فقد رفس فريق سوات الأبواب الأمامية والخلفية في آن معاً، ثمّ تسابق ثمانية مقاتلين مسلّحين بشدّة من رجال الشرطة على اقتحام بيت رينفرو. وقبل أن يحرّك سبايك قدمه وينبح، أصبح ميتاً؛ مزّقته ثلاث رصاصات من مسدس نصف آلي، وهو النوع نفسه من المسدسات التي يستخدمها مغاوير الجيش. وهكذا بدأ القتل».

توقّفتُ قليلاً ونظرت إلى المحلّفين، فرأيت أن بعضهم مسّه الحزن بلا شكّ على الكلب القتيل أكثر من أي شيء آخر حدث تلك الليلة.

«ثمانية من رجال الشرطة؛ فريق سوات مؤلّف من ثمانية أعضاء، كلّهم مدجّجون بالعتاد والدروع أكثر من أيّ جندي أمريكي قاتل في فيتنام أو في الحرب العالمية الثانية. سترات مضادّة للرّصاص، نظارات للرؤية الليلية، أسلحة متطوّرة جداً، وحتى وجوه مصبوغة باللون الأسود لإضافة بعض الإثارة. لكن لماذا؟ لِمَ كانوا هناك؟». وكنت آنذاك أتمشى ذهاباً وإياباً أمام مجلس المحلّفين. ثمّ نظرتُ إلى الحضور الذين اكتظّ بهم المكان، فرأيتُ مدير الشرطة جالساً في الصفّ الأمامي، وكان يقطر حقداً عليّ. ومن الروتين المعتاد للشرطة في أيّ قضية من القضايا التي تكون الشرطة طرفاً فيها أن يتراصف حوالى أربع وعشرون شرطياً بلباس الشرطة الرسمي في الصفوف الأمامية، حيث يجلسون من دون حراك

سوى التحديق إلى المحلّفين. أما القاضي بوندر، من جهته، فلا يعير هؤلاء أدنى اهتمام. فقدّمت حينئذ اقتراحاً بإخراج رجال الشرطة الذين يرتدون الزيّ الرسمي من قاعة المحكمة، وقد وافق القاضي على ذلك. وأُبقي فتيان فريق سوات الثمانية أيضاً في غرف الشهود ففاتهم الكثير من المرح.

«بدأت هذه الكارثة بالولد القاطن في البيت المجاور، وهو فتى مضطرب السلوك يدعى لانس ويبلغ من العمر تسعة عشر عاماً ولا يذهب إلى أي مكان. كان لانس عاطلاً عن العمل من الناحية القانونية، لكنه لم يكن عديم الإنتاج كليّاً. فقد كسب مالاً جيّداً من بيع المخدرات غير الشرعية، وبشكل أساسيّ من عقار النشوة إكستازي. وكان لانس أذكى بكثير من أن يعمل في الشوارع، لذا استخدم الإنترنت. لكن ليس الإنترنت التي نعرفها. عاش لانس في العالم المظلم والمحرّم المعروف باسم دارك ويب، وهو مكان لا تصل إليه غوغل وياهوو ومحرّكات البحث العظيمة الأخرى. وظلّ لانس يشتري المخدّرات ويبيعها على شبكة الويب المظلمة، دارك ويب، لمدّة سنتين حتى اكتشف أن لدى آل رينفرو اتّصال لاسلكي غير محمي بالإنترنت. وبالنسبة لولد ذكي مثل لانس، كان من السهل امتطاء ذلك الاتّصال سرّاً. ولمدّة سنة ظلّ لانس يشتري ويبيع عقار إكستازي، باستخدام الشبكة اللاسلكية العائدة لآل رينفرو، الذين لم تكن لديهم بالطبع أية فكرة حول الأمر. وهذه القضية، مع ذلك، لا تتعلّق بتهريب المخدّرات، فلا ينطلينّ الأمر عليكم. بل تدور هذه القضية حول الإخفاق الهائل لإدارة شرطتنا. ذلك أن المحقّقين الحكوميين كانوا

يلاحقون تجّار المخدّرات على الإنترنت فصادفوا عنوان بروتوكول الإنترنت الخاصّ بآل رينفرو. ثمّ، ومن دون دليل آخر ولا تحقيق حقيقي، شنّوا غارة ساحقة ومفاجئة. وكانوا قد حصلوا على تفويضين: مذكرة اعتقال بحقّ دوغ رينفرو، وأمراً بتفتيش بيته». مكتبة الرمحي أحمد

توقّفتُ هنا قليلاً وتناولتُ جرعة ماء. هذا ولم يسبق لي أن شهدتُ مثل هذا السكون في قاعة محكمة. كانت العيون كلّها شاخصة نحوي. وكانت الآذان كلها صاغية تستمع. ثمّ عدتُ إلى هيئة المحلّفين وأتّكأتُ على المنصّة، كما لو كنت أجري دردشة ودّية مع جدّي. «والآن، لنعد إلى أيام زمان، لكن ليس إلى عهد بعيد جداً، بل إلى الزمن الذي كانت فيه أعمال الشرطة تُنفّذ من قبل رجال شرطة يعرفون واجباتهم ويعرفون كيفية القبض على المجرمين؛ لنعد إلى الزمن الذي كان فيه رجال الشرطة يعرفون أنّهم شرطة وليسوا قوات النخبة والمهام الخاصة في سلاح البحرية؛ في ذلك الزمن، أيتها السيدات والسادة، كان أمر الاعتقال يقضي أن يتوجّه ضابطان إلى بيت السيّد رينفرو، في ساعة معقولة، وأن يدقّا جرس الباب، ثمّ يدخلا بيته، ويخبراه أنّه رهن الاعتقال. وبعد ذلك يقيّداه ويأخذاه معهما، ويفعلان ذلك بالكثير من المهارة. ثمّ يظهر ضابطان آخران ومعهما أمر التفتيش فيصادران كمبيوتر السيّد رينفرو. وخلال ساعتين من الزمن، كانت الشرطة ستدرك خطأها فتعتذر بشدّة من السيّد رينفرو وتعيده إلى بيته. بعد ذلك، كانت ستعمل جاهدة على حلّ لغز الجريمة. قارنوا ذلك مع ما يحصل الآن. الآن، في هذه المدينة على الأقل وبقيادتها الحالية، تشنّ الشرطة هجوماً مفاجئاً على المواطنين

الغافلين والخاضعين للقوانين في منتصف الليل. ثمّ يُطلقون النار عليهم وعلى كلابهم، وعندما يدركون أنّهم استهدفوا البيت الخطأ، يكذبون ويتستّرون على ما فعلوا». توقّفتُ مرة أخرى، لفترة أطول من سابقتها، ثمّ سرتُ إلى خلف المنصّة وألقيت نظرة على بعض أوراق الملاحظات التي لا أحتاجها، وعدتُ بعد ذلك بنظري إلى المحلّفين الذين لم أستطع الجزم أن أيّاً منهم كان يتنفّس. «أيتها السيدات والسادة، لدينا قانون سيئ في هذه الولاية يقول إنّ صاحب البيت، مثل دوغ رينفرو، الذي يطلق النار على الشرطة، حتى إذا كان الشرطي في البيت الخطأ، مدانٌ ومذنب تلقائياً. إذاً، لماذا نرهق أنفسنا بهذه المحاكمة؟ لماذا لا يقرأ أحدهم القانون بكلّ بساطة ويقول للسيّد رينفرو أن يذهب إلى السجن ليقضي فيه السنوات الأربعين القادمة؟ حسناً، لأن ليس هناك شيء اسمه الإدانة التلقائية. ولهذا السبب لدينا هيئات المحلّفين، والمهمّة الملقاة على عاتقكم هي أن تقرّروا ما إذا كان دوغ رينفرو قد عرف حينها ما كان يفعله. هل عرف أن الشرطة هي التي اقتحمت بيته؟ وعندما كافح للوصول إلى المدخل ورأى أشخاصاً يتحرّكون في الظلام، ماذا فكّر واعتقد؟ أنا سأخبركم. كان فزعاً جداً. وظنّ أن بعض المجرمين الخطرين قد اقتحموا بيته وبدأوا بإطلاق النار. والأمر الأكثر أهمية هو أنّه لم يعرف أنّهم كانوا رجال شرطة. وإذا لم يعرف، فلا يمكن إدانته. وهم لا يمكن أن يكونوا رجال شرطة، أليس كذلك؟ لماذا تأتي الشرطة إلى بيته وهو لم يرتكب أي خطأ؟ ولماذا قد يأتون في الساعة الثالثة فجراً حين كان الجميع نياماً؟ لماذا لم يقرعوا الباب أو يضغطوا على الجرس؟ لماذا خلعوا البابين

الأمامي والخلفي؟ لماذا، لماذا، لماذا؟ رجال الشرطة لا يتصرّفون بمثل هذا الأسلوب الشنيع. أليس كذلك؟»

.20

كان الشاهد الأول مسؤولاً كبيراً من شرطة الولاية. اسمه روسكين، وقد وُضع على منصّة الشهادة ليبدأ المهمّة المستحيلة الهادفة إلى تبرير ما قامت به الشرطة ليلة الهجوم على بيت آل رينفرو. ومن خلال طرح المدّعي العامّ فينّي للأسئلة المباشرة التي تدرّب عليها كثيراً فبدت غير عفويّة، شرع هو والشاهد في استعراض التزايد «الخبيث» لتهريب المخدّرات عبر الإنترنت، والارتفاع «المحزن» في عدد المراهقين الذين يشترونها ويبيعونها هناك، وهكذا. وكنت خلال ذلك واقفاً على قدميّ أواصل الاعتراض من غير انقطاع: «سعادة القاضي، أنا أعترض على أساس عدم صلة ذلك بالموضوع. ما علاقة هذه الشهادة بدوغ رينفرو؟».

وبعد أن رفض القاضي بوندر اعتراضي ثلاث مرات، بدأ يشعر بالإحباط. وقد أحسّ فينّي بذلك فاستمرّ فيما كان يفعل. ولم يتوانَ هو وشاهده عن سرد قصة مضجرة من أجل شرح كيف بدأت شرطة الولاية في مسح الإنترنت للقبض على تجّار المخدّرات. وفي الإجمال، كان ذلك

عملاً ناجحاً جداً. لقد أمسكوا حوالى أربعين شخصاً في ولايتنا. أليسوا رجال شرطة أذكياء؟

«هل سبق لك وأن قتلت أي شخص؟». كان هذا هو سؤالي الأول الذي أطلقته من مقعدي، مفتتحاً به ما سيكون استجواباً صعباً ومعقّداً.

ثمّ سألتُ روسكين حول التوقيفات الأخرى. هل كانت فرق سوات تنفّذ أوامر المحكمة؟ وهل كانت هناك غزوات أخرى للبيوت في الثالثة فجراً؟ هل فقد أي شخص آخر كلبه؟ هل أرسلتَ الدبابات؟ وفي منتصف استجوابـي له، أجبرته على الاعتراف بما يعرفه العالم منذ شهور: لقد داهمو البيت الخطأ. وقد أدّى تردّده في الاعتراف إلى التشكيك بمصداقيته.

وخلال ساعتين حوّلتُ روسكين إلى مجرّد أحمق ثرثار، ينتظر بفارغ الصبر لحظة النزول عن منصّة الشهود.

وأنا أكون في أغلب الأحيان كثير التذلّل وشديد النفاق عندما يكون موكّلي مذنباً جداً. أمّا إذا كان موكّلي بريئاً، فستجدني أكاد أطير من التكبّر والتعالي. وأنا أدرك ذلك وأكافح بقوّة لأعطي هيئة المحلّفين الانطباع بأنّني محبوب بالفعل. ولستُ أهتمّ حقاً ما إذا كانوا يكرهونني، طالما هم لا يكرهون موكّلي. لكن عندما أمثّل قدّيساً مثل دوغ رينفرو، فمن الضروري أن أكون متحمّساً، لكن ليس هجومياً. وينبغي أن أكون مرتاباً من الظلم الذي قد يلحق بموكّلي، لكن جديراً بالثقة أيضاً.

شاهدهم التالي كان شيب سوميرال، وهو قائد الاجتياح ويحمل رتبة ملازم ضمن القوّة. وقد جُلب من غرفة الشهود وأقسم على قول الحقيقة. وكما جرت العادة، كان يرتدي زيّه الرسمي مع أكبر عدد ممكن من النياشين والأوسمة. أتى بالزيّ الرسمي الكامل والأوسمة والتبرّج، ولم يكن ينقصه سوى المسدّس والأصفاد. لكنه لم يكن سوى حمار مغرور ومتغطرس، مفتول الذراعين، وقصير الشعر. وكنت قد بادلته الحديث أثناء أخذ إفادته فتولّد لدي انطباع أنه كان يكذب. وقد قاده فينّي خلال سرد روايتهم لما حدث. ثمّ أسهب في سرد تفاصيل تدريبه الشامل وخبراته، وسجلّه المجيد. ثمّ استعرضا بشكل منهجي التسلسل الزمني لحادثة رينفرو. وقد سرد وقائع الاشتباك بأفضل طريقة استطاعها، وقال أكثر من مرة أنّه كان يتّبع الأوامر فقط.

أحسستُ أن قاعة المحكمة بأكملها تنتظر مني إبادته خلال استجوابي له، وقد كافحتُ من أجل السيطرة على نفسي. فبدأتُ أولاً بالتعليق على زيّه الرسمي، مثنياً على روعته واحترافه. وسألته كم مرّة ارتداه؟ وماذا تُثبت بعض الأوسمة؟ ثمّ طلبت منه وصف الزيّ الرسمي الذي كان يرتديه في الليلة التي خلع فيها باب بيت رينفرو. فبدأنا بسرد الألبسة والمعدّات طبقة بعد طبقة، وأداة بعد أداة، وسلاحاً بعد سلاح، من الجزمة العسكرية ذات العُقب الحديدية إلى الخوذة القتالية من نمط سلاح المدرّعات، فلم نترك جزءًا منه إلا واستعرضناه. وسألته عن مدفعه الرشاش، فقال أنّه من طراز هيكلير وكوتش إم بي 5 المصمّم للالتحام القتالي والذي يعتبر الأجود في العالم، قال ذلك متفاخراً. ثمّ سألته

عمّا إذا كان قد استعمله تلك الليلة فقال أنّه فعل. واستجوبته بشدّة حول ما إذا كان قد أطلق الرصاصات التي قتلت كيتي رينفرو، فزعم أنّه لا يعرف. قال إن الظلام كان دامساً وأن الأمور حدثت بسرعة. كان الرصاص يتطاير؛ وكانت الشرطة «تشعل النار».

وبينما كنت أتجوّل في قاعة المحكمة، لمحتُ دوغ. كان وجهه بين يديه وهو يعيش ذلك الكابوس من جديد. ثمّ ألقيتُ نظرة على المحلّفين؛ بعضهم كان غير مصدّق لما يسمع.

«قلتَ أن الظلام كان دامساً، أيّها الضابط. لكنّك كنتَ مجهّزاً بمناظير الرؤية الليلية، أليس كذلك؟».

«نعم». لقد دُرّب بشكل جيّد فأبقى أجوبته قصيرة بقدر الإمكان.

«وتلك مصمّمة لتمكين الضبّاط من الرؤية في الظلام، أليس كذلك؟».

«نعم».

«حسناً، لِمَ لم تستطع الرؤية في الظلام إذاً؟».

والجواب ينبغي أن يكون واضحاً؛ إلا أنّه تلوّى قليلاً في بادئ الأمر وأبدى صلابة ملحوظة، وحاول تجنّب الردّ مباشرة بالقول: «حسناً، مرّة ثانية، حدث كلّ ذلك بسرعة فائقة. فقبل أن أتمكّن من التركيز، أُطلقت علينا النار فرددنا عليها».

«ولم تستطع رؤية كيتي رينفرو في نهاية الممرّ، على بُعد ثلاثين قدماً، وهي في ثياب النوم البيضاء؟».

«لا، لم أرها».

واصلتُ إزعاجه والضغط عليه حول ما رآه أو ما كان ينبغي له أن يراه. وعندما أحرزت كلّ نقطة ممكنة في هذا المجال، قفزتُ عائداً إلى قضية إجراءات الشرطة. من الذي أعطى الإذن بتنفيذ مهمّة فريق سوات؟ من الذي الذي كان موجوداً في الغرفة عندما اتّخذ القرار؟ هل كان لديه، هو أو أي شخص آخر، الحصافة والتدبّر للقول إن هذه المهمّة قد لا تكون ضرورية؟ لماذا انتظرتم حتى الساعة الثالثة فجراً لدخول البيت، حين كان الظلام دامساً؟ ما الذي دفعك للاعتقاد أن دوغ رينفرو رجل خطر إلى هذا الحدّ؟ بدأ الرجلُ بالتصدّع وفَقدَ هدوءه. ثمّ نظر إلى فينّي طالباً العون، لكن لم يكن بوسع الأخير أن يفعل شيئاً. ونظر إلى هيئة المحلّفين فلم ير سوى الشكّ.

تابعتُ الضغط ففضحتُ بلاهة إجراءاتهم. ثمّ تحدّثنا عن تدريبهم وعن معداتهم وأجهزتهم. وحتى إنّني استطعتُ إدراج مسألة الدبابة ضمن الإجراءات، وسمح لي القاضي بوندر بعرض صورة مكبّرة لها على هيئة المحلّفين.

وقد بدأ المرح الحقيقي عندما سُمح لي باستعراض الهجمات الأخرى الفاشلة. وكان سوميرال قد أوقف عن العمل في مناسبتين سابقتين بسبب استخدامه للقوة المفرطة، فجرجرته مرغماً على استعراض تفاصيل الحادثتين. فكان وجهه يحمرّ أحياناً، وفي أحيان أخرى كان يتعرّق. أخيراً، في الساعة 6:00 مساء، بعد أن قضى سوميرال أربع ساعات قاسية على

منصّة الشهادة، سألني القاضي بوندر ما إذا كنتُ قد أوشكت على الانتهاء.

«لا يا سيدي، الآن بدأتُ»، قلتُ ذلك بمتعة حقيقية وأنا أحدّق إلى سوميرال. ففي الواقع كنتُ متحمّساً ومستعداً للمتابعة حتى منتصف الليل.

«حسنا جداً، إذاً، سوف نتوقّف حتى التاسعة من صباح الغد».

.21

في الساعة التاسعة بالضبط من صباح يوم الجمعة، جُلب المحلّفون إلى القاعة ورحّب بهم القاضي بوندر. ثمّ نودي على الضابط سوميرال فجلس على منصّة الشهادة من جديد. وكان بعض غروره قد تبخّر، لكن ليس كلّه.

«سيّد رودّ، واصل استجوابك، رجاءً»، قال بوندر. عندئذٍ، وبمساعدة من أحد كتّاب المحكمة، نشرتُ وعرضتُ مخططاً كبيراً لبيت رينفرو يتضمّن خريطة الطابقين الأول والثاني. ثمّ سألتُ سوميرال، كقائد للفريق المهاجم، أن يبيّن لنا كيف تمّ انتقاء أعضاء الفريق الثمانية، والذين قُسّموا إلى فريقين، واحد للباب الأمامي، والآخر للباب الخلفي؟ وماذا كان دور كلّ واحد من أولئك الرجال؟ وما هي الأسلحة التي كانت بحوزة كلّ شرطي؟ ومن الذي اتّخذ القرار بعدم الضغط على جرس الباب، بل الاتّجاه، بدلاً من ذلك، إلى التحطيم والاقتحام؟ وكيف فُتحت

الأبواب؟ ومن الذي فتحها؟ ومن هم الشرطيون الأوائل في الدخول؟ ومن الذي أطلق النار على سبايك، ولماذا؟

لم يستطع سوميرال، أو لم يرغب، في الإجابة عن أغلب أسئلتي، ثمّ لم يلبث أن بدا مثل أبله. وهو ذلك القائد الذي كان فخوراً بنفسه، أصبح على منصّة الشهود غير متأكّد من الكثير من التفاصيل.

ثمّ واصلتُ ضربه لمدّة ساعتين قبل أن نأخذ استراحة. وخلال تناولنا للقهوة، قال لي دوغ إن المحلّفين أصبحوا شكّاكين ومرتابين؛ وأن عدداً منهم كان كمن يغلي. «كسبناهم»، قال. لكنّني حذّرته من الإفراط في التفاؤل. فأنا قلق من ناحية اثنين من المحلّفين بشكل خاص لأن لديهما روابط مع دائرة الشرطة، طبقاً لصديقي القديم نيت سبوريو. وكنا قد اجتمعنا في الليلة السابقة لتناول بعض الشراب، فأخبرني أن الشرطة تعتمد على عدد يتراوح بين أربعة وسبعة محلّفين. وهذا أمر سأتعامل معه لاحقاً.

قاومتُ الرغبة في مطاردة سوميرال طوال ذلك اليوم، وهو أمر كنتُ أبالغ فيه في أغلب الأحيان أكثر ممّا ينبغي. فهناك فنّ للاستجواب، والتوقّف حين تكون متفوقاً جزء من المهارة. لكنّني لم أتعلّم ذلك إلى الآن لأن غريزتي تدفعني إلى أن أرفس بقوّة، مراراً وتكراراً، شخصاً بهيماً مثل سوميرال حين يسقط أرضاً.

أمّا دوغ فأبدى رأياً حكيماً حين قال: «أعتقد أنّك فعلت ما يكفي مع هذا الشاهد».

وقد كان محقّاً، لذا أخبرتُ القاضي أنّني انتهيت من سوميرال. وكان الشاهد التالي هو سكوت كيسلير، الشرطي الذي أصيب على يد دوغ رينفرو، كما يبدو. فأخذه فينّي أولاً فبذل ما في وسعه لاستدرار بعض التعاطف معه. والحقيقة هي - ولدي جميع التقارير الطبيّة - [illegible] الرصاصة التي جرحت رقبته كانت أكثر خطورة بقليل فقط من الجرح السطحي. وفي معركة حقيقيّة، كان يمكن معالجته بزوج من ضمادات الإسعاف الأولي وإعادته إلى الجبهة. لكنّ الادّعاء يحتاج إلى تسجيل بعض النقاط هنا، وكيسلير يبدو كمن تلقى رصاصة بين العينين. وقد استمرّ استجواب الادّعاء للشاهد مدّة طويلة لم يُنهها سوى ذهابنا أخيراً للغداء.

وعندما عدنا إلى قاعة المحكمة، قال فينّي: «ليس لديّ مزيد من الأسئلة، سعادة القاضي».

«السيّد رودّ».

حينئذ، انقضضتُ على كيسلير بأعلى صوتي قائلاً: «أيها الضابط، هل قتلت كيتي رينفرو؟».

ويمكن للمرء لحظتها أن يتحدّث عن انقطاع الأنفاس وكأن الهواء قد سُحب من القاعة. ثمّ تعثّر فينّي قبل أن يتمكّن من الوقوف على قدميه معترضاً. وقال القاضي بوندر: «سيّد رودّ، إذا كنتَ...».

«نحن نتحدّث هنا عن جريمة قتل، سيّدي القاضي، أليس كذلك؟ كانت كيتي رينفرو عزلاء عندما أطلق عليها النار شخص ما وقتلها في بيتها الخاص. تلك جريمة قتل».

صاح فينّي بصوت عالٍ: «ليست كذلك. لدينا قانون حول هذه النقطة. ضبّاط الأمن ليسوا مسؤولين قانونياً...».

قاطعته بالقول: «قد لا يكونون مسؤولين قانونياً». ثمّ أضفت: «لكنها لا تزال جريمة قتل». ثمّ لوّحتُ بذراعي نحو هيئة المحلّفين وسألتهم: «ماذا تسمّونها غير ذلك؟».

وفي الحقيقة، فقد أومأ ثلاثة أو أربعة منهم بالإيجاب.

قال القاضي بوندر: «رجاءً، امتنع عن استعمال كلمة "قتل"، سيّد Ñæaøï».

أخذتُ نفساً عميقاً؛ وكذلك فعل الآخرون. أمّا كيسلير فبدا كمن يواجه فرقة إعدام. ثمّ عدتُ إلى منصّة الشهود وحدّقت إليه، ثمّ خاطبته بأدب قائلاً: «أيها الضابط كيسلير، في ليلة هجوم فرقة سوات، ماذا كنتَ ترتدي؟».

«عفواً!».

«ماذا كنتَ ترتدي، رجاءً؟ أخبر هيئة المحلّفين حول كلّ ما كنتَ ترتديه على جسمك».

ازدرد ريقه بصعوبة، ثمّ بدأ بسرد أنواع العتاد والدروع، والأسلحة، وغيرها. كانت قائمة طويلة. «تابع»، قلت له. ثمّ انتهى إلى القول: «سروال داخلي قصير، فانيلة، جوارب رياضية بيضاء».

«شكراً لك. هل هذا كلّ شيء؟»

«نعم».

«هل أنت متأكّد؟».

«نعم».

«متأكّد تماماً؟».

«نعم، أنا متأكّد».

حدّقتُ إليه كمن ينظر إلى كذاب قذر، ثمّ سرتُ إلى منضدة عرض الأدلّة والتقطتُ صورة كبيرة وملونة لكيسلير وهو على نقّالة الإسعاف العاجل إلى قسم الطوارئ. وكان وجهه واضحاً جداً في الصورة. وحيث أن تلك الصورة قدّمت كدليل، سلّمتها إلى كيسلير وسألته: «هل هذا أنت؟».

نظر إليها، فارتبك قليلاً، ثمّ قال: «هذا أنا».

ثمّ سمح لي القاضي بتمرير الصورة إلى المحلّفين، فأخذوا وقتهم في تأمّل الصورة، ثمّ استعدتها منهم. «والآن، يا ضابط الأمن كيسلير، بعد النظر إليك في هذه الصورة، ما هي تلك المادة السوداء التي تغطّي وجهك؟».

ابتسمَ وشعر بالارتياح. ثمّ فاجأ مستمعيه بالقول: «أوه ذلك... ذلك مجرّد صباغ أسود للتمويه».

«وهو معروف كذلك بصباغ التمويه في الحرب؟».

«أظنّ ذلك. له عدّة أسماء».

«ما هو الغرض من صباغ التمويه في الحرب؟».

«هو لأغراض التمويه».

«لذا فهو مهم جداً، هاه؟»

«بالتأكيد، نعم».

«وهو ضروري لتأمين سلامة الرجال على الأرض، أليس كذلك؟».

«بالتأكيد».

«كم عدد الذين صبغوا وجوههم بصباغ التمويه الحربي الأسود من بين ضبّاط الأمن الثمانية في فريق سوات؟».

«لم أعدّهم».

«هل وضع جميع ضبّاط الأمن على وجوههم صبغة التمويه الحربية السوداء تلك الليلة؟».

وهو يعرف الجواب ويعتقد أنّني أعرفه أيضاً. قال: «لستُ متأكّداً حقّاً».

اسرتُ إلى منضدتي والتقطتُ وديعة سميكة. وتأكّدتُ من أنّه رآها، ثمّ قلتُ: «والآن، يا ضابط الأمن كيسلير...».

لكنّ فينّي وقف وقال مقاطعاً: «والآن، يا سعادة القاضي، أنا أعترض هنا. ما انفكّ يستعمل تعبير "ضابط الأمن". أعتقد أن...».

«أنت من استعمله أولاً»، ردّ القاضي بوندر عليه. ثمّ كرّر القول: «أنت من استعمله أولاً. اعتراض مرفوض».

وفي النهاية ثبّتنا القول أنّ أربعة أفراد من رجال الشرطة صبغوا وجوههم بلون التمويه الحربـي الأسود، بعد أن أظهرتُ كيسلير بمظهر المغفل الذي لا يعدو كونه مراهقاً يلعب بالطباشير الملوّن. ثمّ حان الوقت لبعض المرح الحقيقي. قلت: «والآن، يا ضابط الأمن كيسلير، لعبتَ الكثير من ألعاب الفيديو، أليس كذلك؟».

وقف فينّي مجدداً ليقول: «اعتراض، يا سعادة القاضي. الصلة بالموضوع».

«اعتراض مرفوض»، قال سعادته بقسوة، حتى من دون أن ينظر إلى المدّعي العامّ. فالقاضي بوندر أصبح مستاءً، على نحو واضح ومتزايد، من الشرطة ومن أكاذيبهم ووسائلهم. وقد امتلكنا الزخم المطلوب - وهو أمر نادر بالنسبة إليّ - لكنّني لم أكن متأكّداً من كيفية الإمساك به واستثماره. فهل أسرِّع الأمور فأحوِّل القضية إلى هيئة المحلّفين ما داموا إلى جانبنا؟ أم أتثاقل من أجل إحراز كلّ نقطة ممكنة؟.

إحراز النقاط ممتع جداً، إضافة إلى تسلّحي بوجود عدد من أعضاء هيئة المحلّفين إلى جانبـي، وهم يستمتعون بهذا النبش في الجانب الشخصي. «ما هي بعض ألعاب الفيديو التي تستمتع باللعب بها؟»؛ سألته.

سمّى عدداً منها؛ وهي في معظمها تقريباً من صنف ألعاب الأولاد، ممّا جعله أشبه بطالب ضخم في الصف الخامس الابتدائي. وهو وفينّي يعرفان ما هو آتٍ، وهما يحاولان التخفيف من وقع الضربة. وخلال سعيه إلى ذلك، بدا كيسلير في حالة أسوأ.

«كم عمرك، سيّد كيسلير؟».

«ستّ وعشرون»، قال مبتسماً، بعد أن عثر أخيراً على إجابة صادقة.

«ولا تزال تلعب بألعاب الفيديو؟».

«حسناً، نعم يا سيدي».

في الحقيقة، قضيتَ آلاف الساعات في اللعب بألعاب الفيديو، أليس كذلك؟».

«أظنّ ذلك».

«وإحدى ألعابك المفضّلة هي "الهجوم القاتل ثلاثة"، أليس كذلك؟»؛ سألته وأنا أحمل إفادته، وهي إفادة سميكة أدلى بها تحت القسَم، وكنتُ قد استطعت التوصّل من خلالها إلى حقيقة إدمانه على ألعاب الفيديو منذ طفولته، وإلى أنّه لا يزال يحبّها.

«أظنّ، نعم»، قال.

لوّحتُ بإفادته كما لو أنّها سمّ قاتل، وقلت: «حسناً، ألم تشهد، في إفادتك تحت القسَم، أنّك كنت تلعب "الهجوم القاتل ثلاثة" خلال السنوات العشر الماضية؟».

«نعم يا سيدي».

نظرتُ عند ذلك إلى القاضي بوندر وقلت: «سعادة القاضي، أريد أن أعرض على هيئة المحلّفين مقطعاً من لعبة "الهجوم القاتل ثلاثة"».

استدار فينّي بحركة سريعة. وكنّا قد تجادلنا حول هذه المسألة لمدّة شهر، لكنّ بوندر أجّل قراره بشأنها حتى هذه اللحظة بالذات. أخيراً، قال: «أنا متشوّق. دعنا نلقي نظرة».

حينها ألقى فينّي بكراسة ملاحظات قانونية على منضدته بحركة تنمّ عن إحباط تامّ. فهدر بوندر قائلاً: «كفّ عن الحركات المسرحيّة يا سيّد فينّي. اجلس!».

نادراً ما كسبتُ القاضي في صفّي، لذا لم أعد متأكّداً من كيفية التصرّف.

بعد ذلك عُتّمت أضواء قاعة المحكمة وهبطت شاشةٌ من السقف. وكان أحد التقنيين قد حرّر مقطعاً مدّته خمس دقائق من لعبة الفيديو. وبناءً على أوامري، رفع المحرّر مستوى الصوت، فارتجّت هيئة المحلّفين بالصورة المفاجئة لجندي ضخم يرفس باباً مع أصوات انفجارات تمزّق السكون في الخلفية. ثمّ اندفع إلى الأمام حيوان يشبه الكلب، لكنّه ذو أسنان حادّة تلمع ومخالب ضخمة، فقتله البطل. وظهر بعد ذلك الأشرار عند الأبواب والنوافذ، فأُرسلوا جميعاً إلى حتفهم وإلى الجحيم. وكانت طلقات الرصاص، من النوع الذي يمكن للمرء رؤيته، تنطلق وترتدّ في جميع الأنحاء. وتناثرت أعضاء الأجساد وتمزّقت. وسال الدم عميقاً حتى

الركبة. وكان الناس يصرخون ويُصابون ويموتون في مشهد درامي عظيم، فرأينا خلال دقيقتين ما يكفي.

وبعد خمس دقائق، احتاج جميع الموجودين في قاعة المحكمة إلى استراحة. فاختفت الصور عن الشاشة وسطعت الأضواء. فنظرتُ إلى كيسلير، الذي كان لا يزال على منصّة الشهود، وقلت: «منتهى المرح واللعب، أليس كذلك، يا ضابط الأمن كيسلير؟».

لم يردّ على ما قلت. راقبته وهو يغرق في صمته لبضع ثوانٍ، ثمّ قلت: «وأنت تستمتع أيضاً بلعبة أخرى "اجتياح البيوت"، أليس كذلك؟».

هزّ كتفيه استهجاناً، ثمّ نظر نحو فينّي طالباً المساعدة، وشخر أخيراً: «أظنّ ذلك».

أما فينّي فقد وقف وقال: «سعادة القاضي، هل لهذا علاقة بالقضيّة؟». اتّكأ القاضي على مرفقيه مستعداً لسماع المزيد. ثمّ قال: «أوه، أعتقد أن لهذا علاقة وثيقة يا سيّد فينّي. دعنا نرى الشريط».

خفتت الأضواء، وظللنا نشاهد لمدّة ثلاث دقائق الفوضى الطائشة نفسها وسفك الدماء. ومن جهتي، إذا أمسكتُ بابني ستارتشر وهو يلعب بهذه القمامة، فسوف أرسله إلى أحد مراكز التأهيل. أمّا في قاعة المحكمة، وفي مرحلة من ذلك العرض، فقد همس المحلّف رقم ستّة بصوت مسموع: «يا إلهي... يا إلهي!». وقد راقبتُ المحلّفين وهم يحدّقون إلى الشاشة، فرأيت أن حالة من القرف التامّ كانت تعتريهم.

وعندما انتهى عرض الفيديوات، أجبرتُ كيسلير على الاعتراف بأنّه يحبّ أيضاً لعبة تسمّى "بيت المخدّرات - العمليات الخاصّة". واعترف أيضاً أن لدى أفراد الشرطة غرفة خزانات في قبو قسم الشرطة. ومن أموال دافعي الضرائب، جُهّزت تلك الغرفة بشاشة تلفزيونية مسطّحة مقاسها أربع وخمسون بوصة، حيث يتجمّع هنالك الفتيان ليمرحوا في الأوقات الفاصلة بين مناورات فرقة سوات وعملياتها، من خلال تنظيم المباريات في لعبة الفيديو. وعلى الرغم من اعتراضات فينّي غير المجدية، سحبتُ هذا الاعتراف من كيسلير، تدريجياً. ثمّ انتهى به الأمر إلى أنّه لا يريد التحدّث عن ذلك، وهو الأمر الذي جعل الأمور أسوأ بالنسبة إليه وللادّعاء. وعندما انتهيتُ منه، تركته وهو محطّم وعديم المصداقية.

وحين جلست، نظرت إلى المعرض، فوجدتُ إنّ مدير الشرطة قد انصرف، وهو أمر جيّد.

ثمّ سأل القاضي بوندر: «من هو شاهدك التالي، سيّد فينّي؟».

نظر فينّي تلك النظرة الذليلة لمدّعٍ عامّ لا يريد استدعاء المزيد من الشهود. وكان في الحقيقة كمن يودّ في قرارة نفسه اللحاق بالقطار التالي ومغادرة المدينة كلّها. وأخيراً نظر في دفتر ملاحظاته وقال: «الضابط بويد». أطلق بويد سبع رشقات تلك الليلة. وحين كان في السابعة عشرة من عمره، أدين بتهمة القيادة تحت تأثير الكحول، لكنّه استطاع لاحقاً حذف تلك الواقعة من سجلّه العدلي. وينبغي القول هنا أن فينّي لا يعرف شيئاً حول مسألة القيادة تحت تأثير الكحول، لكنّني أعرف. وحين كان في العشرين من عمره، سُرّح بويد تسريحاً غير مشرّف من الجيش.

وعندما كان في الرابعة والعشرين من العمر اتّصلت صديقته برقم الطوارئ 911 واشتكت من تعرّضها للعنف المنزلي. لُفلفت القضية وحُفظ التحقيق ولم توجّه أية تهمة. وكان بويد قد شارك أيضاً في مداهمتين أخريين من المداهمات الفاشلة لفرقة سوات، كما أنّه مدمن أيضاً على ألعاب الفيديو نفسها التي تستهلك وقت كيسلير وتبقيه منشغلاً جداً.

وبالنسبة إليّ، يمكن لاستجواب بويد أن يشكّل علامة مضيئة في مسيرتي المهنية كمحام.

لكنّ القاضي بوندر قال فجأة: «سنتوقّف حتى الساعة التاسعة من صباح الاثنين. أريد رؤية المحامين في مكتبـي».

.22

وحالما أُغلق الباب، حدّق القاضي بوندر إلى فينّي وهدر قائلاً: «قضيتك خاسرة. تجري محاكمة الشخص الخطأ».

وفينّي المسكين يعرف ذلك، لكنّه لا يستطيع قول ما يعرف. وفي الحقيقة، لم يكن قادراً في تلك اللحظة على قول أي شيء على الإطلاق. ولم يمهله القاضي طويلاً حيث أضاف: «هل تنوي وضع أعضاء فريق سوات الثمانية جميعاً على منصّة الشهود؟».

استطاع فينّي القول: «ابتداءً من الآن، الجواب لا».

وفي تلك اللحظة انقضضتُ بالقول: «عظيم، إذاً سأستدعيهم أنا كشهود معاكسين. أريد أن يواجه هؤلاء الثمانية هيئة المحلّفين». نظر إليّ القاضي بتخوف. لديّ الحقّ الكامل في أن أفعل ذلك، وهما يعرفان ذلك جيّداً. ثمّ مضت الثواني وهما يحاولان تخيّل الكابوس المتمثّل في مواجهة جنود الألعاب الستّة الآخرين لهيئة المحلّفين وأنا أقصفهم كالمجنون.

نظر سعادته إلى فينّي وسأل: «هل فكّرت في إسقاط التهم؟».

بالطبع لا. فقد يُحبط فينّي ويرتبك، لكنّه ما زال مدّعياً عامّاً.

وفي الحالات المعتادة خلال المحاكمات الجنائية، يستطيع القاضي استثناء دليل سُلطات الولاية وتوجيه القرار نحو مصلحة المتّهم. وهذا أمر نادر الحدوث. وفي هذه القضيّة، تجدر الإشارة إلى أن القانون ينصّ على أنّ أيّ شخص يطلق النار على شرطي دخل بيته، سواء توجّهت الشرطة إلى العنوان الصحيح أو الخطأ، فسوف يُدان بمحاولة اغتيال ضابط شرطة. وهو قانون سيئ، سُنّ بشكل سيئ وكُتب بنصّ مخيف جداً؛ لكن في رأي القاضي بوندر فهو لا يحتمل خيار رفض النظر في القضيّة.

إذاً، نحن نتّجه إلى إصدار قرار نهائي.

.23

خلال عطلة نهاية الأسبوع، أُدخل أحد الستّة المتبقين من أفراد فرقة سوات إلى المستشفى فجأة ولم يعد قادراً على الإدلاء بشهادته. واختفى واحد آخر بكلّ بساطة. ثمّ قضيتُ يوماً ونصف اليوم لإبادة الأربعة الباقين.

هذا وقد حظينا بتغطية إعلامية على الصفحات الأولى من الصحف، ولم يسبق لدائرة الشرطة أن ظهرت بهذا السوء على الإطلاق. وقد بذلتُ ما في وسعي للاستمتاع بتلك اللحظات المجيدة لأنها قد لا تتكرّر أبداً.

وفي اليوم الأخير من أيام الإدلاء بالشهادات، قابلتُ عائلة رينفرو على مأدبة فطور مبكّر. وكان موضوع اللقاء حول ما إذا كان ينبغي على دوغ أن يشهد أم لا. وكان أولاده البالغون الثلاثة - توماس، وفيونا، وسوزانا - حاضرين. وكانوا قد حضروا جلسات المحاكمة كلّها ولم يكن

لديهم شكّ في أن هيئة المحلّفين لن تدين والدهم، وذلك بغض النظر عن بعض ما تقوله نصوص القانون الرديء.

وقد أوضحتُ لهم سيناريو أسوأ الأحوال: سوف يزعجه المدّعي العامّ فينّي خلال الاستجواب وسيحاول إغضابه. وسيدفع دوغ إلى الاعتراف بأنّه أطلق خمس طلقات من مسدسه وحاول عامداً قتل الضبّاط. والطريقة الوحيدة أمام سلطات الولاية لكسب القضيّة تكمن في دفع دوغ إلى الانهيار على منصة الشهود، وهو أمر لا نتوقّعه بكلّ بساطة. فالرجل صلب، وهو مصرّ على الإدلاء بشهادته. وفي هذه المرحلة من أيّة محاكمة، للمتهم الحقّ بالإدلاء بشهادته، بغض النظر عن رأي محاميه. وقد ضغطوا عليّ بالنسبة لهذا الأمر. وغرائزي تملي عليّ ما ينبغي أن يفعله أيّ محامٍ مدافع في قضية جنائية: إذا أخفقت سلطات الولاية في إثبات قضيتها، أبعد موكّلك عن منصّة الشهود.

لكن لا يمكن ثني دوغ رينفرو عمّا يريد.

.24

بدأتُ بسؤال دوغ عن سيرته العسكرية. وكان قد قضى أربعة عشر عاماً مرتدياً الزيّ الرسمي، وخدم بلاده بكلّ فخر من دون أيّة شوائب في سيرته. جولتان في فيتنام، وسام القلب الأرجواني، ثمّ أسبوعان كأسير قبل أن يتمّ تحريره. ثمّ ستّة ميداليات، وتسريح مشرّف. إنّه جندي حقيقي، وليس من النوع الرخيص المتكاثر هذه الأيام.

وهو مواطن ملتزم بالقانون وليس في سجلّه سوى مخالفة سرعة واحدة. والمقارنات بينه وبين خصومه فاقعة وتتحدّث عن نفسها.

وفي ليلة الحادثة شاهد هو وكيتي التلفزيون حتى الساعة 10:00 مساءً، ثمّ قرأ لبعض الوقت قبل أن يُطفئ الأضواء. قبّلها وتمنّى لها ليلة سعيدة، وأخبرها أنّه يحبّها كالعادة، ثمّ ناما. بعد ذلك انتُزعا من أحلامهما عندما بدأ الهجوم، حيث اهتزّ البيت، وأطلق الرصاص. ثمّ اندفع دوغ باحثاً عن مسدّسه وطلب من كيتي الاتّصال برقم الطوارئ

911. وخلال الهيجان الذي تلى ذلك، أسرع نحو المدخل المعتم ورأى ظلّين ينبثقان بسرعة من عمود السلّم. وكانت الأصوات تأتي من الطابق السفلي. فانبطح أرضاً وبدأ بإطلاق النار. وقد أُصيب فوراً في الكتف. لا، قال مؤكّداً أن أحداً لم ينطق بكلمة تتعلّق بالشرطة. وفي تلك الأثناء صرخت كيتي وركضت نحو المدخل لتتعرض لوابل الرصاص.

ثمّ انهار دوغ عندما وصف الأصوات التي أطلقتها زوجته وهي تتعرّض لطلقات البنادق.

وكذلك بكى نصف المحلّفين أيضاً.

.25

لم يرغب فينّي في تناول أي جزء من سيرة دوغ رينفرو، بل حاول إثبات أن دوغ أطلق النار متعمداً على الشرطة، لكن دوغ سحقه بالقول مراراً وتكراراً: «لم أعرف أنّهم كانوا من الشرطة. اعتقدت أنّهم مجموعة مجرمين اقتحموا بيتي».

أما أنا فلم أستدع أي شهود آخرين. لست بحاجة إليهم.

ثمّ ألقى فينّي مرافعة ختامية شبه فاترة، رفض خلالها النظر في عيني أيّ واحد من المحلّفين. وعندما أتى دوري، لخّصتُ الوقائع المهمّة واستطعتُ السيطرة على نفسي. وقد كان من السهل بالنسبة لي سلخ جلود رجال الشرطة، بسبب تورطهم في الإسراف غير المنضبط في القتل، لكن هيئة المحلّفين كان لديها ما يكفي.

ثمّ أرشد القاضي بوندر المحلّفين للعمل بحسب نصوص القانون المعمول به، ثمّ قال إن الوقت قد حان بالنسبة لهم للاختلاء وتدارس القضية. لكن لم يتحرّك أحد منهم.

وما حدث بعد ذلك أصبح واقعة من وقائع التاريخ.

المحلّف رقم ستّة رجل يدعى ويلي جرانت. وقف المذكور ببطء وقال: «أيها القاضي، أنا انتخبتُ كرئيس لأعمال هيئة المحلّفين هذه، ولديّ سؤال».

أمّا القاضي، وهو خبير قانوني رابط الجأش، فقد بوغت ونظر إلى فينّي وإليّ نظرة حادّة. وخلال ذلك، ساد الصمت التامّ مجدداً على قاعة المحكمة. وأنا شخصياً لم أعد أتنفّس. ثمّ قال سعادته: «حسناً، لست متأكّداً من هذه النقطة. أمرتُ هيئة المحلّفين بالاختلاء وبدء المشاورات». لكن المحلّفين لم يتحرّكوا أيضاً.

فقال السيّد جرانت: «لسنا بحاجة إلى أن نتدارس، يا سعادة القاضي. نحن نعرف ما سنفعله».

«لكنّني حذّرتك مراراً وتكراراً من مغبّة مناقشة القضيّة»، قال بوندر بصرامة.

فردّ السيّد جرانت من دون انزعاج: «لم نناقش القضيّة، لكن لدينا قرار. فلا شيء هناك لمناقشته أو تدارسه. سؤالي هو: لماذا تتمّ محاكمة السيّد رينفرو وليس رجال الشرطة الذين قتلوا زوجته؟».

هبّت عندئذٍ عاصفة فورية من اللهاث والدردشة في كافة أرجاء قاعة المحكمة. ثمّ حاول القاضي بوندر استعادة السيطرة فتنحنح منظّفاً حنجرته بصوت عال وسأل: «هل قرارك جماعي؟».

«نعم هو كذلك. نحن نجد أن السيّد رينفرو غير مذنب، ونعتقد أن رجال الشرطة هؤلاء يجب أن يُتّهموا بالقتل».

«سأطلب من المحلّفين أن يرفعوا أيديهم إذا كانوا موافقين على قرار عدم التجريم».

ارتفعت عندها اثنتا عشرة يداً في الهواء.

أمّا أنا فقد أحطتُ دوغ رينفرو بذراعي حيث انهار مجدداً.

الجزء الرابع
التبادل

.1

في أغلب الأحيان أختفي عن الأنظار بعد الانتهاء من محاكمة كبرى، خصوصاً تلك التي تحظى بتغطية على الصفحات الأولى وعلى الكثير من أوقات البثّ التلفزيوني. وليس السبب في ذلك هو أنّني لا أحبّ الظهور. فأنا محامٍ؛ وحبّ الظهور كامن في جيناتي. لكن في محاكمة رينفرو استطعتُ إذلال دائرة الشرطة، وأحرجتُ بعض رجال الشرطة، بعض الرجال القساة جدّاً الذين لم يعتادوا على مساءلتهم حول أسباب آثامهم. وكما يقولون، «الشوارع ملتهبة الآن»، وقد حان وقت لأخذ استراحة. لذا، حمّلتُ بعض الملابس في الشاحنة، إضافة إلى عصي الغولف، وبعض الكتب ذات الأغلفة الورقية، ونصف صندوق من زجاجات الشراب الصغيرة، ثمّ غادرتُ البلدة في اليوم الذي تلى صدور القرار. وكان الطقس شتوياً وعاصفاً، وأكثر برودة من أن يصلح للعب الغولف، لذا اتّجهتُ جنوباً مثل طيور الثلج التي لا يحصى عددها بحثاً عن الشمس. وكنتُ قد تعلّمت من خلال سفراتي المتعرّجة أنّ كلّ بلدة صغيرة تقريباً يزيد

عدد سكانها عن عشرة آلاف نسمة يوجد فيها بالتأكيد ملعب غولف عامّ. وتكون تلك الملاعب مزدحمة عادة في عطل نهاية الأسبوع، لكنها لا تكون مزدحمة جدّاً خلال أيام العمل. إذاً، سلكتُ طريقي جنوباً، وعثرتُ على ملعب واحد على الأقل في اليوم، وعثرتُ أحياناً على اثنين، وكنتُ ألعب من دون الاستعانة بحاملٍ لأدوات الغولف ومن دون بطاقة نتائج، وكنتُ أدفع نقداً لغرف الفنادق الرخيصة، وآكل قليلاً، وأرتشف الشراب لساعة متأخرة من الليل وأنا أقرأ آخر أعمال جيمس لي بورك أو مايكل كونيلي. ولو توفّرت لدي كومة من المال، فيمكن أن أصرف بقية حياتي على هذا النحو.

لكنّني لا أملك ذلك، لذا فإنّني أعود في النهاية إلى المدينة، حيث يلحق بـي فوراً سوء سمعتي.

.2

قبل حوالى سنة، اختطفت شابّة تدعى جيليانا كيمب بعد زيارتها لصديق في أحد المستشفيات. وقد وُجدت سيارتها سليمة في الطابق الثالث لمرأب للسيارات قرب المستشفى. وكانت كاميرات المراقبة قد التقطتها وهي تسير نحو سيارتها، لكنّها فقدتها حين خرجت عن نطاق المراقبة. بعد ذلك، حُلّلت مقاطع الفيديو التي أُخذت من جميع كاميرات المراقبة البالغ عددها أربع عشرة. وظهر في مقاطع الفيديو لوحات تسجيل جميع السيارات التي دخلت وخرجت خلال فترة أربع وعشرين ساعة، لكن لم تتبيّن من ذلك سوى إشارة هامّة واحدة فقط. فبعد ساعة من مشاهدة جيليانا وهي تسير نحو سيارتها، غادرت المرأب سيّارة فورد ذات دفع رباعي زرقاء اللون. أما السائق فكان ذكراً أبيض يضع على رأسه قبّعة بيسبول ونظّارات. ثمّ تبيّن أن لوحات تسجيل سيارة الدفع الرباعي مسروقة من ولاية آيوا. وخلال الليل لم يرَ الحاضرون في المكان شيئاً مريباً، وذلك الذي أخذ التذكرة من الذكر الأبيض لم يتذكّره. هذا

وقد عبرت أربعون عربة من باب الخروج في الساعة التي سبقت مغادرة سيارة الدفع الرباعي.

فتّش المحقّقون كلّ بوصة من المرأب ولم يعثروا على شيء. ولم يعلن مختطفها عن أي مطلب كفدية. ثمّ انتهى البحث المكثّف والمسعور إلى نتيجة عقيمة. كما أن الجائزة الأولية البالغ مقدارها 100 ألف دولار لم تأتِ بنتيجة. ثمّ عُثر بعد أسبوعين على سيارة الدفع الرباعي الزرقاء متروكة في أحد المتنزّهات العامّة على بعد مئة ميل. وكانت قد سُرقت قبل شهر من ذلك في تكساس؛ أمّا لوحات تسجيلها فكانت من بينسلفانيا، وكانت مسروقة بالطبع.

كان الخاطف يمارس الألعاب. فقد نظّف سيارة الدفع الرباعي تماماً؛ لا يوجد بصمات، ولا شَعر، ولا دم، لا شيء. وقد أفزع المحقّقين بسبب اتّساع نطاق عمله ودقّة تخطيطه. لذا، لم يكونوا يطاردون مجرماً عادياً.

وبالإضافة إلى الحاجة الملحّة لكشف جريمة الخطف، كان ثمة حقيقة أخرى في القضية، وهي أن والد جيليانا كيمب أحد مديرين مساعدين اثنين لدائرة الشرطة في المدينة. ولا حاجة للقول إن القضية أُعطيت الأولوية الأعلى داخل قسم الشرطة. أمّا ما لم يُعلن في ذلك الوقت فهو أن جيليانا كانت حبلى في الشهر الثالث من الحمل. وحال اختفائها، أخبر خليلها الذي يعيش معها في بيت واحد أبويها عن مسألة الحمل. وقد كتما الأمر خلال انشغال الشرطة في البحث عنها على مدار السّاعة.

لم يُسمع شيء من جيليانا ولم يُعثر لها على أثر. ولم يُعثر على جسدها، وربّما تكون ميتة، لكن متى قُتلت؟ أمّا السيناريو المحتمل الأسوأ، والأكثر وضوحاً أيضاً، فهو أنّها لم تقتل فوراً، بل احتجزت أسيرة حتى وضعت حملها.

وبعد تسعة أشهر من اختفائها، وخلال استمرار تراكم مال الجائزة، قاد دليل صغير رجال الشرطة إلى محل رهونات غير بعيد من العمارة السكنية التي أقطنها. ذلك أن قلادة ذهبية تتضمّن عملة معدنية يونانية صغيرة قد رُهنت مقابل مبلغ 200 دولار. وقد تعرّف صديق جيليانا على القلادة لأنه هو الذي أهداها لها في عيد الميلاد السابق. وتحت ضغط كامل من المحكمة، عمل المحققون بشراسة على امتلاك سلسلة من الأدلة والقرائن. وقد أدّى ذلك إلى محل رهونات آخر، ثمّ إلى صفقة أخرى، وأخيراً إلى مشتبه به يدعى آرك سوانجير.

وسوانجير المذكور، وهو في الواحد والثلاثين من العمر وليس لديه مصدر عيش ظاهر، صاحب تاريخ من اللصوصية التافهة وتوزيع المخدّرات لفترة من الزمن. وعاش في متنزّه في مقطورة خربة مع أمّه السكيرة التي تعتاش من شيكات إعانة العجزة. وبعد شهر من المراقبة والتدقيق المكثّف، جُلب سوانجير أخيراً للاستجواب. وخلال التحقيق كان مراوغاً وخجولاً، وبعد ساعتين من الاستجواب غير المثمر امتنع عن الكلام وطلب محامياً. ونظراً إلى الافتقاد إلى دليل صلب، أخلت الشرطة سبيله، لكنّها استمرّت في مراقبة جميع حركاته. وظلّ قادراً على التملّص والاختفاء بعيداً عدّة مرات، لكنّه كان يعود دائماً إلى البيت.

وفي الأسبوع الماضي، التقطوه ثانية للاستجواب. فطلب محامياً.

«حسناً، من هو محاميك؟»، سأله المحقّق.

«ذلك المدعو رودّ، سيباستيان رودّ».

3.

إنّ آخر ما أحتاجه هو مشكلة أخرى مع الشرطة. لكن، وكما نقول في الأعمال التجارية، لا نستطيع دائماً اختيار زبائننا. ومن حقّ كلّ متهم، بغض النظر عن حقارته أو طبيعة جريمته، الحصول على محام. وأكثر القانونيين غير المتخصّصين لا يفهمون هذا الأمر ولا يهتمّون به. وأنا أيضاً لا أهتمّ. لكن هذا هو عملي. ولكي أكون صادقاً، أبهجني ابتداءً اختيار سوانجير لي، وأثارني أن يُتاح لي أن أدسّ أنفي في مجريات قضيّة مثيرة أخرى.

وذلك على الرغم من أن هذه القضيّة ستطاردني إلى الأبد. وسألعن اليوم الذي حضرت فيه إلى مبنى الشرطة المركزي لأجري محادثتي الأولى مع آرك سوانجير.

ودائرة الشرطة تعاني من تسرّبات تفوق ما تعاني منه شبكة تمديدات صحيّة مهترئة؛ فعند وصولي إلى المبنى المركزي كان السرّ قد

ÚÐ. فقد اعترض سبيلي مراسل برفقته مصوّر أثناء دخولي إلى المبنى وطلب معرفة ما إذا كنتُ سأمثّل آرك سوانجير. قدّمتُ له الإجابة الوقحة «لا تعليق» وتابعتُ السير. ومع ذلك، واعتباراً من تلك اللحظة، عرف الجميع في البلدة أنّني محاميه. توافق تامّ ومثالي، أليس كذلك؟ قاتل بشع ومحامٍ شرّير مستعدّ للدفاع عن أي شخص.

وكنتُ قد دخلتُ فيما مضى مبنى الشرطة المركزي عدّة مرات، وأعلم أن المكان متّقد على الدوام بطاقة متأهبة. ورجال شرطة الشوارع يندفعون بأزيائهم الرسمية في أرجاء المكان، مداعبين بهمجية أولئك الجالسين خلف مناضدهم. أمّا المحقّقون فيتبختررون ببدلاتهم الرخيصة عبر القاعات، عابسين كما لو أنّهم قد تبوّلوا على العالم. في حين تجلس العائلات الخائفة على المقاعد بانتظار الأخبار السيئة. وهناك دائماً محامٍ مشتبك مع شرطي في مفاوضات متوترة، أو يجري مسرعاً للوصول إلى موكّل قبل أن تندلق أحشاؤه.

واليوم، الهواء ثقيل بشكل خاص، والمزاج متوتّر في المركز. وقد صُوّبت نحوي نظرات أكثر من المعتاد حين عبرت الباب الأمامي. ولِمَ لا؟ فقد أمسكوا القاتل؛ وهو موجود أسفل القاعة مباشرة. وهذا محاميه أتى لإنقاذه. لذا، يجب الإمساك بهما معاً ووضعهما على الرفّ.

وكان حاضراً في الجوّ أيضاً الأثر القاسي والممتدّ لمحاكمة رينفرو. فلم يمضِ على انتهاء تلك المحاكمة سوى ثلاثة أسابيع، ولدى رجال الشرطة ذكريات طويلة حولها. وبعض هؤلاء الرجال يودّ لو أنه أمسك بهراوة وكسّر بها عدداً من عظامي، أو أن يفعل ما هو أسوأ من ذلك.

قادوني عبر المتاهة إلى غرف الاستجواب. وفي أسفل القاعة رأيتُ اثنين من محققي جرائم القتل يدخّنان وينظران عبر زجاج مرآة أحادية الاتّجاه. أحدهما هو لاندي ريردون، وهو الشرطي الذي زوّدني بالأخبار التي تقول أنّني انتُقيتُ من بين جميع المحامين في المدينة للدفاع عن المتّهم. ويعتبر ريردون أفضل محقّق في جرائم القتل في دائرة الشرطة. وهو يقترب الآن من التقاعد وقد فعلت به السنون فعلها، حيث ناهز الستّين، لكنه يبدو أكبر من ذلك بعشر سنوات بشعره الأبيض السميك غير المهذب في معظمه. وهو لا يزال يدخّن ولديه تلك التجاعيد المتعرجة كبرهان على ذلك.

رآني فأومأ أن تعال هنا. أمّا المحقّق الآخر فاختفى.

إنّ الجانب الجيد في شخصية لاندي ريردون هو أنّه صادق بشدّة ولن يضيّع وقته في قضيّة لا يستطيع إثبات وقائعها بالأدلة. لذا، فهو يحفر عميقاً ويُنقّب بحثاً عن الدليل، فإذا لم يجده فذلك يعني أنّه غير موجود. وخلال ثلاثين عاماً من خدمته، لم يتّهم أبداً المشتبه به الخطأ بجريمة قتل. أمّا إذا أمسك لاندي بياقتك بتهمة القتل، فسيتوافق رأي القاضي مع رأي هيئة المحلّفين وربّما قضيت نحبك في السجن.

وقد تولى أمر التحقيق بقضيّة جيليانا كيمب منذ البداية. وقبل أربعة أشهر، داهمته نوبة قلبية خفيفة فنصحه طبيبه بالتقاعد. لكنّه عثر على طبيب آخر. وقفتُ بجانبه ونظرنا معاً عبر المرآة، من دون أن نتبادل التحيّة. فهو يعتقد أن جميع محامي الدفاع حثالة، لذا لم يكلّف نفسه عناء مصافحتي.

كان سوانجير وحده في غرفة الاستجواب. وكان قد أمال كرسيّه القابل للطيّ إلى الخلف ووضع قدماه على المنضدة، ضجراً تماماً من كلّ شيء. «ماذا قال؟»، سألتُ.

«لا شيء. الاسم، الرتبة، والرقم المتسلسل، ثم استدعاك. قال إنه رأى اسمك في الصحيفة».

«إذاً فهو يستطيع القراءة؟».

«لديه معدّل ذكاء بمقدار 130، كما أظن. لكنه يبدو غبياً في الظاهر فحسب».

في الحقيقة هو كذلك. بدين ذو لغد؛ تكسوه بقع النمش البنيّة الكبيرة من الرقبة فما فوق؛ رأسه حليق عملياً باستثناء بضع خصلات يلمعن كالشمع، مثل قصة الشعر القصيرة التي كانت شائعة قبل ستّين عاماً، قبل عصر البيتلز. ولجذب الانتباه، أو لإثارة السخرية، وضع على عينيه نظارة مستديرة الإطار، كبيرة جدّاً وذات لون أزرق مائي.

«بشأن تلك النظارات»، قلتُ.

«تباع في الصيدليات، رخيصة ومزيفة. وهو لا يحتاج إلى نظارات، لكنّه يحسب نفسه ذكياً عندما يتعلق الأمر بالتنكّر. وهو في الحقيقة ماهر جداً في ذلك. وقد تمكّن من الإفلات من مراقبتنا بضع مرات في الشهر الماضي، لكنه كان يعود إلى البيت دائماً».

«ماذا لديك ضدّه؟».

زفر لاندي بنوع من الإعياء والإحباط. «ليس لديّ الكثير»، قال؛ وأنا أحترم نزاهة الرجل. فهو شرطي رائع ويعرف الكثير من الأمور التي لن يطلعني عليها، لكنّه يوحي بالثقة.

«ما يكفي لاتّهامه؟».

«أتمنّى ذلك. لكنّنا لسنا قريبين حتى من توقيفه. يريد الرئيس احتجازه لمدّة أسبوع أو اثنين. كنوع من الضغط، كما تعرف، لنرى ما إذا كان سينهار ويعترف. لكن في الحقيقة نريد أن نرى ما إذا كان البرق سيضرب ويحالفنا الحظ. ستكون فرصة ثمينة. لكنّنا على الأرجح سنتركه ينصرف ثانية. بيني وبينك، رودّ، لم نحصل على الكثير».

«يبدو كما لو أنّ لديك الكثير من الشكوك».

شخر لاندي وضحك. «نحن جيّدون في ذلك. أنظر إليه باعتباره مشتبهاً به. أنا أعطيه عشر سنوات في زنزانة انفرادية استناداً فقط إلى الانطباع الأول».

«ربّما خمسة»، قلت.

«تحدّث إليه، وإذا أردتَ، سأريك الملف غداً».

«حسناً، سأدخل، لكنّني لم يسبق لي أن قابلت هذا الرجل أبداً، ولستُ متأكّداً من أنّني سأكون محاميه. هنالك دائماً قضية دفع الأتعاب، وهو لا يبدو ميسوراً جداً. فإذا كان فقيراً، فسيتولى أمره محامي الدفاع العامّ وسأخرج أنا من الصورة».

«وقتاً ممتعاً».

4.

رفع سوانجير قدميه عن المنضدة، ثمّ وقف وتعارفنا. مصافحة قويّة، وتواصل بالنظر، وصوت هادئ لا أثر فيه للقلق. ولكي أبقي الأمور رسمية وباردة، منعتُ نفسي من مطالبته بنزع تلك النظارات اللعينة. فإذا كان مغرماً بها، فأنا مهووس بها أيضاً.

«رأيتك على التلفزيون»، قال. ثمّ أضاف: «مقاتل الأقفاص ذلك الذي قتل الحكم. ماذا حدث له؟».

«لا تزال القضيّة معلّقة بانتظار المحاكمة. هل كنت تحضر مباريات قتال الأقفاص؟».

«لا. كنت أشاهدها على شاشة التلفزيون مع أمّي. فكّرتُ بدخول عالمها قبل بضع سنوات».

كدتُ أضحك. فحتى لو خسر ثلاثين باونداً من وزنه وتدرّب لثماني ساعات يومياً، فلن يصمد هذا الرجل عشر ثوانٍ في القفص. وربّما غاب

عن الوعي في غرفة الملابس. جلستُ إلى المنضدة، فارغ اليدين، وسألته: «والآن، ما الأمر الذي أردتَ التحدّث عنه؟».

«تلك الفتاة، يا رجل، تعرف القضيّة. يعتقد هؤلاء الرجال أنّني متورّط فيها بطريقة ما وهم يزعجونني. ما زالوا راكبين على ظهري منذ شهور، يتخفّون دائماً في الظلال كما لو أنّني أنا لا أعرف ماذا يجري. وهذه هي المرة الثانية التي يسحبونني فيها إلى هنا كما يحدث على شاشة التلفزيون. هل تشاهد مسلسل "القانون والنظام"؟ حسناً، شاهدَ هؤلاء الرجال الكثير جدّاً من حلقاته، لكنّهم ممثلون سيئون جداً، هل فهمتَ ما أعني؟ ذلك العجوز ذو الشعر الأبيض، اسمه ريردون كما أعتقد، هو الرجل الجيد، فهو يبحث دائماً عن الحقيقة فقط ويحاول إيجاد الطرق لمساعدتي. نعم. وهناك ذلك النحيل، باركلي، الذي لا يفتأ يأتي ويبدأ بالصراخ. ذهاباً وإياباً. شرطي جيّد، وشرطي سيئ، كما لو أنّني لا أعرف اللعبة. هذه ليست مسابقة رعاة البقر الأولى لي، يا صاحبـي»

«لكنها تهمة القتل الأولى ضدّك، أليس كذلك؟»

«مهلاً، يا سوبرمان. لم أُتّهم بعد».

«حسناً، يفترض أنّك متّهم بالقتل، وفهمتُ أنك تريد أن أدافع عنك».

«حسناً، نعم. كيف يمكنني إذاً مخاطبتك، السيّد رودّ؟ لستُ متأكّداً من حاجتي إلى محامٍ الآن، لكنّني متأكّد من شعوري بالحاجة اللعينة إلى ذلك».

«فهمت. هل تعمل؟»

«هنا وهناك. كم تتقاضى عن قضيّة قتل؟»

«يعتمد الأمر على قدرة الشخص على الدفع. في قضيّة مثل هذه، سأحتاج إلى عشرة آلاف مقدماً، وهي أتعاب معالجة مرحلة الاتّهام فقط. وعندما نصل إلى المحاكمة، سوف نتّفق على الأتعاب الفعليّة. فإذا لم نستطع الاتّفاق، فستذهب إلى مكان آخر».

«أين هو المكان الآخر؟».

«مكتب محامي الدفاع العامّ. هم يتولّون عملياً كلّ قضايا جرائم القتل».

«بعض الإيضاحات. إنّ ما لم تأخذه بعين الاعتبار هنا، يا سيّد رودّ، هو كلّ تلك الدعاية والإعلان. لا يوجد الكثير من القضايا الكبرى كهذه. فتاة جميلة، وعائلة مهمّة، إضافة إلى الجانب المتعلّق بالطفل الرضيع. فإذا كان لديها طفل، فأين هو، أليس كذلك؟ وهو أمر مثير جداً بالنسبة للإعلام. لذا يجب أن تضع في اعتبارك أن هذه القضية ستتصدّر أخبار الصفحات الأولى، ابتداءً من الآن تقريباً. رأيتك على شاشة التلفزيون. وأعرف كم تحبّ النباح والهدير والتهادي أمام الكاميرات. ستكون هذه القضيّة منجم ذهب للمحامي المدافع عني. ألا توافقني الرأي، سيّد [illegible]؟».

كان كمن يدقّ مسماراً في الرأس، لكنّني لا أستطيع الاعتراف بذلك. قلت: «أنا لا أعمل مجاناً، يا سيّد سوانجير، وبغض النظر عن الدعاية والإعلان. لديّ الكثير من الزبائن الآخرين».

«بالطبع لديك. أنت محامٍ كبير. ولستُ أبحث عن مبتدئ ليحمي مؤخرتي. يتحدّثون هنا عن عقوبة الإعدام، يا رجل، وهم يعنون ما يقولون؛ سأحصل على المال، بشكل أو بآخر. لكنّ السؤال هو هل ستتولى قضيتي؟».

عادة، وعند هذه النقطة من المقابلة الأولى، ينكر المتّهمون التهم الموجّهة إليهم. وقد دوّنتُ ملاحظة عقلية أن سوانجير لم يفعل ذلك، وهو لم يتطرّق من قريب أو بعيد إلى مسألة ذنبه أو براءته. في الحقيقة، يبدو مرحّباً باتّهامه وخوضه في وقائع محاكمة كبيرة. قلت: «نعم، سأمثّلك، على افتراض أنّنا يمكن أن نتّفق على المال وعلى افتراض أنّهم سيتّهمونك بالفعل. وأعتقد أن لديهم طرقهم في ذلك. وفي هذه الأثناء، لا تقل أي كلمة للشرطة، أيّ شرطي. مفهوم؟».

«فهمت، يا رجل. هل يمكنك إبعادهم عني؛ أن يوقفوا المضايقة؟».

«سأرى ما يمكنني فعله». تصافحنا مجدداً ثمّ غادرتُ الغرفة. وكان المحقّق ريردون في مكانه لم يغادره. كان يراقب اجتماعنا الصغير، وربّما كان يستمع إلى حديثنا أيضاً، بالرغم من عدم شرعية ذلك. وكان يقف إلى جانبه، بملابس مدنية، روي كيمب والد الفتاة المفقودة. حدّق إليّ الأخير بنظرات تملؤها كراهية واضحة، كما لو أنّ الدقائق القليلة التي قضيتها

مع المشتبه به الأول، وربّما الأضعف، برهان واضح على تورطي في اختفاء ابنته.

أشعر بتعاطف مع الرجل وعائلته، لكنه يريد الآن إطلاق رصاصة على مؤخرة رأسي.

خارج المبنى تجمّع المزيد من المراسلين. وعندما رأوني بدأوا بالقفز والتدافع. لكنّني صددتهم بالقول: «لا تعليق، لا تعليق، لا تعليق»[illegible] على أسئلتهم الغبيّة. وفي الحقيقة، صرخ أحدهم سائلاً: «سيّد رودّ، هل اختطف موكّلك جيليانا كيمب؟». فأردتُ التوقّف والتوجّه نحو ذلك المهرّج لأسأله حول كيفية توصله إلى طرح سؤال سخيف كهذا. لكنّني اندفعتُ، بدلاً من ذلك وبسبب تدافعهم أيضاً حولي، وقفزتُ إلى الشاحنة مع الرفيق.

.5

في السّاعة السّادسة، بدأ مذيعو نشرات الأخبار بالصراخ معلنين أن الشرطة لديها مشتبه به في قضية كيمب. ثمّ عرضوا مقاطع فيديو تُظهر آرك سوانجير وهو يُهاجَم من قبل المراسلين خلال محاولته مغادرة المبنى المركزي بعد وقت قصير من مغادرتي. وطبقاً للمصادر، غير المسمّاة بالطبع لكنّها بلا شك من داخل المبنى، فقد استجوبته الشرطة وسيعتقل قريباً وسيُتّهم بجريمتي الاختطاف والقتل. وعلى سبيل إثبات ذنبه، قالوا إنّه وكّل سيباستيان رودّ للدفاع عنه! ثمّ عرضوا صورتي عابساً أمام الكاميرات.

أخيراً، استطاعت سلطات المدينة أن تتنفّس الصعداء. أصبح القاتل في قبضة الشرطة. وللتخفيف من الضغط الهائل عليهم، ولبدء عملية تسميم الرأي العام وتأسيس فرضية الإدانة، استعانوا بالصحافة، كالعادة. تسريب هنا وتسريب من هناك، ثمّ تظهر الكاميرات لالتقاط ذلك الوجه

الذي يستميت الجميع لرؤيته.æ«الصحفي» بطبيعته يطارد ذيله، فكيف إذا كان آرك سوانجير ممتازاً كمدان.

لماذا يتعبون أنفسهم بالمحاكمة إذاً؟

وإذا لم تستطع الشرطة إدانة المتّهم بالدليل، فلتستخدم وسائل الإعلام لإدانته بالشكّ.

.6

قضيتُ الكثير من الوقت في مبنى معروف رسمياً وعاطفياً باسم مبنى المحكمة القديم. وهو مبنى كبير كان قد بني حوالى نهاية القرن الماضي، ويتميّز بارتفاع أعمدته القوطية وأسقفه العالية، ومداخله الرخامية العريضة التي تصطف على جوانبها التماثيل النصفية والصور الشخصية للقضاة الراحلين، إضافة إلى السلالم المتعرّجة التي تفضي إلى أربعة طوابق تضمّ قاعات المحاكم والمكاتب. وهو يغصّ عادة بالناس والمحامين الذين يؤدّون أعمالهم، والمتقاضين الذين يبحثون عن قاعة محكمة صحيحة، وعوائل المتّهمين بالجنايات التي تتجوّل والخوف يتملكها، والمحلّفين المحتملين الذين يحملون مذكرات حضورهم، ورجال الشرطة الذين ينتظرون الإدلاء بشهاداتهم. يوجد خمسة آلاف محامٍ في هذه المدينة، وفي بعض الأحيان يبدو كما لو كنّا جميعاً نعدو مسرعين في مبنى المحكمة القديم أو حوله.

وبينما كنتُ أغادر المبنى في صباح أحد الأيام بعد جلسة استماع، نبت فجأة بجانبـي رجل بدا لي مألوفاً بشكل غامض وقال: «مرحباً يا رودّ، هل لديك دقيقة من الوقت؟».

لم تعجبني نظراته، ولا نغمة صوته، أو وقاحته. ثمّ ماذا بشأن «السيّد رودّ» كبداية؟ تابعت السير؛ وكذلك فعل هو. «هل سبق لنا وأن التقينا؟»، سألته.

«لا يهمّ. لدينا أمر لمناقشته».

نظرتُ إليه ونحن نسير. حلّة سيئة، قميص كستنائي، ربطة عنق قبيحة، وندبتان صغيرتان على وجهه، من النوع الذي تخلّفه القبضات وزجاجات الشراب. «أوه حقاً»، قلتُ بأكبر قدر ممكن من الوقاحة.

«يجب أن نتحدّث عن لينك».

عقلي يقول لي تابع السير، لكن قدماي توقّفتا عن الحركة بكلّ بساطة. أمّا معدتي فقد انقبضت طويلاً كما لو كنت على وشك التقيؤ، في حين تسارعت دقّات قلبـي.

حدّقتُ في المجرم وقلت: «حسناً، حسناً، أين هو لينك هذه الأيام؟».

وكان قد مضى شهران منذ هروبه المثير من تنفيذ حكم الإعدام، ولم أسمع عنه أية كلمة. ولستُ راغباً في سماع أخباره بالطبع؛ لكنّني لم أفاجأ كثيراً، على أية حال. وربّما كنتُ خائفاً، لكنّني لم أكن مصدوماً. اتّجهنا نحو حافة المدخل بحثاً عن شيء من الخصوصية. ثمّ قال المجرم أن اسمه

فانجو؛ وهناك بالطبع نسبة 10 بالمئة من الحقيقة في أن يكون الاسم فانجو مدوّناً على شهادات ميلاده.

في الزاوية، ومع إدارة ظهري إلى الجدار لأتمكّن من ملاحظة حركة أقدام العابرين، تحدّثنا بصوت منخفض، إلى درجة أن شفاهنا بالكاد كانت تتحرّك. قال فانجو: «يواجه لينك صعوبات جمّة، كما تعرف. تضييق شديد على حركة المال، لأن الشرطة تراقب الجميع حتى التواصل من بُعد مع الأعمال. يراقبون ابنه، وأناسه، ويراقبونني، ويراقبون الجميع. فإذا اشتريتُ تذكرة طائرة اليوم إلى ميامي، فستعرف الشرطة بالأمر. حصار خانق، هل تعرف ما أعني؟».

في الواقع لم أعرف ما يعني، لكنّني أومأتُ برأسي فقط. ثمّ تابع قائلاً: «على أية حال، يعتقد لينك أنّك مدين له ببعض المال. دفع لك كومة من المال ولم يحصل على شيء بالمقابل، وقد خذلته حقاً، أنت تعرف، ويريد لينك الآن استعادة المبلغ».

تصنّعتُ ضحكة وكأنّني سمعت أطرف مزحة على الإطلاق. وهو أمر مضحك بالفعل؛ موكّل خسر قضيته ويريد استعادة ماله بعد انتهاء القضيّة. لكنّ فانجو لم يكن مع ذلك في مزاج مرح.

«أمر مضحك»، قلتُ. «وما هو مقدار المبلغ المتوجب إعادته؟»؛ أضفت.

«كلّه. مئة ألف. نقداً».

«فهمت. لذلك سيكون كلّ العمل الذي قمتُ به فعلياً بالمجان، هل الأمر كذلك، فانجو؟».

«يقول لينك إن كلّ عملك كان عديم النفع حقاً. لم تنفعه في شيء. وكّلك لأنك حامل سلاح القانون حيث يفترض بك تبرئته وإخراجه من السجن. لم يحدث ذلك، بالطبع؛ وفي الحقيقة أتته الإدانات من كل حدب وصوب. وهو يعتقد أنّك أديت عملاً رديئاً، لذا يجب عليك إعادة المبلغ».

«أُدين لينك لأنه قتل قاضياً. وهو أمر فظيع ونادر الحدوث؛ وحين حدث، غضب القضاة الآخرون بشدّة. وقد بيّنتُ كلّ ذلك للينك قبل أن يوكّلني. حتى إنّني سجّلته كتابة. أخبرته أن الفوز في قضيته سيكون صعباً جدّاً بسبب امتلاك سلطات الولاية للأدلة المؤكّدة ضدّه. وصحيح أنّه دفع لي أتعابـي نقداً، لكنّني دوّنتها في السجلات وأرسلتُ للعمّ سام حوالى ثلثها. أمّا ما تبقى منها فقد أنفقته منذ زمن طويل. لذا، لم يبقَ شيء للينك. آسف».

اقترب الرفيق فأومأتُ إليه. رآه فانجو، وهو يعرفه، فقال: «هذا مجرّد تنبيه، يا رودّ، ولا يزال لدى لينك المزيد. لديك ثلاثون يوماً لجمع المال. وسأعود». ثمّ استدار واصطدم عامداً بالرفيق قبل مغادرته. فهمَّ الرفيق بكسر رقبته، لكنّني أومأتُ إليه أن اهدأ. فلا فائدة من القتال في وسط مبنى المحكمة القديم، مع العلم أنّني رأيت العديد من الشجارات هنا.

رأيت الكثير من المحامين المتخاصمين وقد تملّكهم الغضب فانهالوا على بعضهم البعض بالرفس واللكمات.

7.

لم يمض وقت طويل على شهرة تاديو بسبب قتله لحكم المباراة، حتى بدأتُ بتلقي مناشدات من أطباء يزعمون قدرتهم على التقدّم كشهود خبراء، وكلّهم يريد المشاركة في الاستعراض. كانوا أربعة، يحملون جميعاً درجات طبية عالية وملخّصات رائعة، ولديهم جميعاً خبرة سابقة في قاعات المحاكم وأمام هيئات المحلّفين. وقالوا إنهم قرأوا عن القضيّة، ورأوا مقاطع الفيديو، وقد عرضوا جميعاً، وبدرجات مختلفة، الرأي نفسه؛ زبدة القول: تاديو كان مجنوناً قانونياً عندما هاجم شون كينغ في الحلبة. لم يكن يميّز بين الصواب والخطأ، ولم يُقدّر طبيعة ما كان يفعله.

æ«الجنون» مصطلح قانوني، وليس طبياً.

تحدثتُ إلى الأطباء الأربعة، وأجريتُ بعض الأبحاث، ثمّ اتّصلتُ بمحامين آخرين كانوا قد استعانوا بهم، ثمّ استقرّ رأيي على المدعو الدكتور تاسلمان، من خارج سان فرانسيسكو. وقد أبدى استعداده،

مقابل 20 ألف دولار إضافة إلى النفقات، للشهادة لمصلحة تاديو وأن يمارس سحره على هيئة المحلّفين. ومع أنّه لم يقابل المتهم حتى الآن، فهو مقتنع أنّه يعرف الحقيقة.

والحقيقة يمكن أن تكون باهظة الثمن، خصوصاً عندما تأتي من طرف شهود خبراء. ونظامنا مليء بمن يسمّون «الخبراء» الذين لا يبذون سوى القليل من الجهود في مجال التعليم، والبحث، أو الكتابة. بل هم، بدلاً من ذلك، يجوبون البلاد كشهود مأجورين يشهدون مقابل مبالغ عالية. انتقِ قضية ما، أو مجموعة من الوقائع، أو سبباً غامضاً، أو نتيجة غير مفسرة، أو أيّ شيء، حقاً، وستجد عندئذٍ جيشاً من حملة درجات الدكتوراه الراغبين في الشهادة وتقديم كلّ أنواع النظريات الغريبة. وهؤلاء يعلنون عن أنفسهم. ويتوسّلون. ويطاردون القضايا. ويتسكّعون في القاعات والصالات حيث يتجمّع المحامون لتناول المشروبات ومقارنة الملاحظات. وهم يتفاخرون بما حققوه من «قرارات».

أمّا خسائرهم فنادراً ما تذكر.

وهم يكذّبون من حين لآخر خلال عمليات الاستجواب السيئة، في المحاكمات العلنية، لكنّهم يستمرّون في العمل لأنهم فعّالون جداً في أغلب الأحيان. وفي محاكمة جنائية، يجب على الخبير أن يقنع محلّفاً واحداً فقط لعرقلة الأمور وإبطال المحاكمة. وحين يتقدّم الدفاع بطلب إعادة المحاكمة، ستستسلم سلطات الولاية، في معظم الأحيان.

قابلتُ تاديو في غرفة الزيارة في السجن، في مكاننا المعتاد، وحدّثته حول دور الدكتور تاسلمان المحتمل في الدفاع عنه. وقلتُ له إن الخبير سيشهد بأنّه، أي تاديو، قد فقد صوابه وجنّ، ولا يتذكّر ما حدث. فأحبّ تاديو هذه النظرية الجديدة. نعم، فعند التفكير بالمسألة، كان في حالة جنون بالفعل. ثمّ ذكرتُ له أجر الخبير فقال أنّه مفلس. وكنتُ قد ذكرت له سابقاً أتعابـي فقال أيضاً أنه مفلس. ولا حاجة بـي للقول إنّني سأمثّل تاديو زابات بكلّ بساطة لأنّني أحبّه. إضافة إلى الشهرة التي سأحققها.

إنها نظرية أو. جي. سيمبسن حول الأتعاب القانونية: أنا لا أدفع لك؛ أنت محظوظ لأنّك هنا؛ اذهب واكسب المال من كتابك.

باستخدام الأعمال الكتابية التي أنجزها مكتب هاري آند هاري، تقدّمتُ بالمذكّرة المناسبة التي تقول للمحكمة إنّنا سنعتمد الدفاع على أساس الجنون. السيّد أيس بروزكتور، أو المدّعي العامّ ماكس مانسيني، بدأ كالعادة بالصراخ والولولة في ردّه على الطلب. وماكس مسيطر بالكامل على مسألة زابات، بداية بسبب برهان الإدانة الثابت، بالإضافة إلى الرغبة في اكتساب الشهرة. وهو لا يزال يعرض الحكم بخمس عشرة سنة على أساس جريمة قتل من الدرجة الثانية. أمّا أنا فقد تمسّكتُ بعشر، مع العلم أنّني لست متأكّداً من موافقة موكّلي على ذلك. ومع مضيّ الأسابيع واستفادة تاديو من ساعات النصائح القانونية المجّانية التي تُقدّم في السجن، أصبح أشدّ تصلّباً في اعتقاده أنّ باستطاعتي سحب الخيوط المناسبة بطريقة ما وإخراجه من السجن. وهو يريد اللجوء إلى

إحدى تلك الألاعيب التقنية القانونية التي يعرف بشأنها جميع رفاقه في الزنزانة.

أتى الدكتور تاسلمان إلى البلدة وتناولنا طعام الغداء معاً. وهو طبيب نفساني متقاعد لم يحبّ أبداً مهنة التعليم أو الاستماع إلى المرضى. وقد سحرته على الدوام مسألة الجنون القانوني؛ الجريمة العاطفية، قوّة الدفع التي لا تقاوم، وتلك اللحظة عندما يمتلئ العقل بالمشاعر والحقد الذي يأمر الجسم بالتصرّف بقسوة وبطريقة منفلتة من كلّ تبصّر. وهو يفضّل أن يتحدّث هو طوال الوقت. وتلك طريقته في إقناعي بمدى روعته. وقد استمعتُ إلى كلامه الفارغ محاولاً تحليل كيفية استجابة هيئة المحلّفين لما سيقوله. وهو ذو مظهر أنيق وشخصية محبّبة، كما أنه متحدث بارع. إضافة إلى ذلك، فهو من كاليفورنيا، أي على بعد ألفي ميل. ويعرف جميع المحامين في المحاكمات أنّه كلّما كانت المسافة التي يقطعها الخبير أطول وأبعد، زادت مصداقيته لدى هيئة المحلّفين.

وفي النهاية كتبتُ له شيكاً بنصف أتعابه. أمّا النصف الآخر فسيستحقّ خلال المحاكمة.

بعد ذلك قضى ساعتين من الوقت في تقييم تاديو، فتأكّد فجأة، نعم فجأة، أن الفتى فقد صوابه، وجنّ، ولا يتذكّر أنّه ضرب الحكم.

إذاً، أصبح لدينا الآن أساس للدفاع، لكنه قد يكون ضعيفاً بعض الشيء. ولم أكن متشجّعاً جداً لأن سُلطات الولاية سوف تستدعي بالتأكيد خبيرين اثنين أو ثلاثة، وسيكونون جميعاً موثوقين مثل تاسلمان، وسوف

يكتسحوننا بتألقهم. وسيدلي تاديو بشهادته وسيقوم بدور مهمّ ومباشر، وربما تمكّن من ذرف بعض الدموع، ثمّ سيعلكه مانسيني خلال الاستجواب.

لكن الفيديو لا يكذب. وظللتُ مقتنعاً أن المحلّفين سيشاهدونه مراراً وتكراراً وسيرون الحقيقة. وسيسخرون من تاسلمان خفية وسيضحكون من تاديو، ثمّ سيتّخذون قرارهم بالإدانة. والإدانة تعني من عشرين إلى ثلاثين عاماً. وقد أتمكّن في يوم المحاكمة من إقناع المدّعي العام بالتخفيف إلى اثني عشر أو خمسة عشر عاماً.

لكن كيف سأقنع فتى متهوّراً في الثانية والعشرين من العمر بالاعتراف بالذنب وقبول الحكم بخمسة عشر عاماً؟ هل ينبغي أن أخيفه بثلاثين؟ أشكّ في ذلك. لم يسبق لتاديو زابات العظيم أن خاف بسهولة.

.8

اليوم هو ذكرى ميلاد ستارتشر الثامن. وقرار المحكمة الذي خُولف وانتهك مراراً يحدد الوقت الذي يسمح لي بقضائه مع ابني. وهو ينصّ بشكل واضح على أنّني أستطيع قضاء ساعتين معه في كل عام في ذكرى ميلاده.

والساعتان تعتبران وقتاً أطول من اللازم، طبقاً لأمّه. فهي تعتقد أن ساعة واحدة تكفي؛ وهي تفضّل، في الحقيقة، أن لا أقضي معه أي وقت. ذلك أن هدفها هو إبعادي عن حياته بالكامل، لكنّني لن أدع ذلك يحدث. فقد أكون أباً مثيراً للشفقة، لكنّني أحاول أن أكون أفضل. وربّما أتى اليوم الذي يريد فيه الطفل قضاء مزيد من الوقت معي.

لذا، جلستُ في مطعم ماكدونالد، منتظراً أن تبدأ ساعتاي. ثمّ ظهرت جوديث في النهاية في سيارتها الجاغوار، سيارتها كمحامية، وخرجت منها برفقة ستارتشر. ثمّ دخلت تتقدّمه فرأتني وعبست كما لو

أنّها تفضّل أن تكون في أي مكان آخر سوى هذا المكان. سلّمتني الطفل وقالت: «سأعود في السّاعة الخامسة».

«إنها الرابعة وخمس عشرة دقيقة»، قلتُ، لكنّها لم تلقِ بالاً إلي. اندفعتْ منصرفة بينما جلس الطفل في مقابلي. ابتسمتُ له وقلت: «كيف الحال، يا برعم؟».

«بخير»، غمغم قائلاً، لكنه بدا تقريباً كمن يخشى الحديث مع أبيه؛ ولم أستطع تخيّل الأوامر الصارمة التي انهالت عليه بها أثناء الرحلة في السيارة. لا تأكل الطعام. لا تتناول المشروبات. لا تلعب في ساحة اللعب. اغسل يديك. لا تجب عن الأسئلة إذا سألك «هو» عنّي أو عن أفا أو عن أيّ شيء يتعلّق ببيتنا. لا تقضِ وقتاً طيباً.

وأنا أمنحه عادة بضع دقائق ليتخلّص من آثار تلك النواهي، ليتمكّن بعد ذلك من الشعور بالارتياح معي.

«ميلاد سعيد»، قلتُ له.

«شكراً».

«أخبرتني أمّك أنّك ستحظى بحفلة كبيرة يوم السبت. وسيأتي الكثير من الأطفال والكعكة وما شابه. يجب أن تكون حفلة مرحة».

«أظنّ»، قال.

لم أدعَ بالطبع إلى الحفلة. فهي ستُقام في بيته، في المكان الذي يعيش فيه نصف حياته مع جوديث وأفا. وهو المكان الذي لم أره أبداً.

«هل أنت جائع؟».

نظر حوله. إنه ماكدونالد، جنة الأطفال، حيث صُمّم كلّ شيء بعناية لإثارة شهيّة الناس لتناول الطعام الذي يبدو في الصور المنشورة على الجدران أكثر لذّة بكثير من ذلك الموضوع على المناضد. وأخيراً ركّز بصره على ملصق كبير يعلن عن آيس كريم جديد يدعى ماك غلاسير. يبدو جيّداً جداً. قلت: «أعتقد أنّني سأجرّب واحدة من تلك. وأنت؟».

«قالت أمّي أنّني يجب أن لا آكل أيّ شيء هنا. قالت إنّ الطعام هنا كلّه سيئ بالنسبة إليّ».

هذا هو وقتي، وليس وقت جوديث. ابتسمتُ وانحنيت إلى الأمام كما لو كنا نتآمر، ثمّ قلت: «لكن أمّك ليست هنا، أليس كذلك؟ وأنا لن أخبرها، وأنت لن تخبرها. هذا أمر بيننا نحن الأولاد، موافق؟».

ابتسم ابتسامة عريضة وقال: «موافق».

ومن تحت المنضدة سحبتُ صندوقاً ملفوفاً بورق هدايا حفلات الميلاد ووضعته على المنضدة. «هذا لك، يا برعم. عيد ميلاد سعيد. هيا افتحه». أمسكه بينما توجّهتُ أنا إلى واجهة شراء الطعام.

وعندما عدتُ بالمثلجات، وجدته محدّقاً إلى لعبة طاولة الزهر الصغيرة الموضوعة أمامه على المنضدة. حين كنتُ صغيراً، علّمني جدّي لعبة الداما، ثمّ طاولة الزهر، ثمّ الشطرنج. وقد سُحرتُ بجميع تنويعات ألعاب الألواح هذه، وتلقيت الكثير منها حين كنتُ طفلاً في حفلات أعياد ميلادي وغيرها. وحين بلغتُ العاشرة من عمري كان لدي أكوام منها في

غرفتي؛ مجموعة واسعة اعتنيتُ بها عناية دقيقة. ونادراً ما أضعتُ أيّاً من تلك الألعاب. أمّا لعبتي المفضّلة فكانت طاولة الزهر، وكنت أضايق جدّي، وأمّي، وأصدقائي، وأي شخص آخر كي يلعبوا معي. وعندما أصبحت في الثانية عشرة من عمري، حللتُ في المركز الثالث في بطولة المدينة للأطفال. أما حين بلغتُ الثامنة عشرة، فكنت أتنافس بكفاءة في بطولات البالغين. وفي الجامعة، لعبتُ من أجل كسب النقود إلى أن توقّف الطلاب الآخرون عن المقامرة معي.

أتمنّى أن ينعكس بعض هذا على ابني. ومن الواضح أنّه سيصبح مثلي تقريباً، فهو يمشي مثلي، ويتحدّث مثلي. وهو ذكي جداً، ويجب أن أعترف أنّه ورث الكثير من ذكاء أمّه. كما أن جوديث وأفا يبعدانه عن ألعاب الفيديو. فبعد محاكمة رينفرو، تملّكني القلق من مسألة الألعاب تلك.

بعد أن أخذ المثلجات، سألني وهو ينظر إلى اللوح: «ما هذا؟».

«يسمّى طاولة الزهر، إحدى ألعاب الطاولة المعروفة منذ قرون. سأعلّمك كيف تلعبها».

«تبدو صعبة»، قال وهو يتناول ملعقة من المثلجات.

«ليست صعبة. بدأت ألعبها حين كان عمري ثماني سنوات. وأنت ستفعل».

«حسناً»، قال مستعدّاً للتحدي. فرتّبتُ الأحجار وبدأتُ بالأساسيات.

9.

أوقف الرفيق شاحنتنا في موقف سيارات مزدحم ودخل مركز التسوّق. سيدخل مطعماً مؤلفاً من طابقين يحتل أحد أجنحة مركز التسوّق، ثمّ سيجد مقعداً قرب النافذة في القسم المخصّص لحانة صغيرة في الطابق الأعلى. ومن هناك سيراقب الشاحنة ليرى من الذي يراقبها أيضاً.

في الساعة 4:00 مساءً، طرق آرك سوانجير على باب الشاحنة المنزلق. فتحت له الباب، ورحّبت به في مكتبـي، فجلس في المقعد الوثير ونظر حوله. ابتسم وهو يتفحّص المفروشات الجلدية، والتلفزيون، والمسجلة، والأريكة، والثلاجة. «رائع جداً»، قال. ثمّ أضاف: «هل هذا حقاً مكتبك؟».

«هو كذلك».

«تخيّلتُك شخصاً مهمّاً يجلس في مكتب فخم في إحدى تلك العمارات العالية في وسط المدينة».

«كان لدي واحد في وقت ما، لكنّه تعرّض لتفجير حارق. والآن أصبحتُ أفضّل الهدف المتحرّك».

حدّق إليّ لبرهة كما لو أنّه ليس متأكّداً من أنّني جادّ في ما قلت. وقد لاحظتُ أنّه استبدل نظارته الزرقاء البلهاء بأخرى سوداء للقراءة، والتي نجحت في الحقيقة في جعله يبدو أكثر ذكاء بعض الشّيء. وهو يضع على رأسه قبّعة سوداء تبدو أصلية من تلك التي يعتمرها السائقون. مظهر لطيف، وتنكّر فعّال. ومن مسافة عشرة أقدام لن تعرف أنّه الشخص نفسه. أخيراً قال: «هل تعرّض مكتبك حقاً لتفجير حارق؟».

«نعم، حصل ذلك قبل حوالى خمس سنوات. ولا تسأل عن الفاعل لأنني لا أعرف. وهو إمّا تاجر مخدّرات أو بعض رجال الشرطة السريّين. شخصياً، أعتقد أنّ الفاعل بعض ضبّاط مكافحة المخدّرات لأن الشرطة لم تُبدِ الكثير من الحماس حين أتت للتحقيق في الأمر».

«هل رأيت، هذا ما أحبّه فيك، يا سيّد رودّ. هل أستطيع مناداتك سيباستيان؟».

«أفضّل السيّد رودّ، إلى أن يتمّ توكيلي. بعد ذلك، يمكنك أن تدعوني سيباستيان».

«موافق، يا سيّد رودّ، يعجبني أن رجال الشرطة لا يحبّونك وأنت لا تحبّهم».

«أعرف الكثير من الرجال في سلك الشرطة وبيننا علاقة حسنة»؛ قلت، على سبيل القليل من الغشّ فقط. وأنا أحبّ نيت سبوريو واثنين آخرين.

«دعنا نناقش العمل. دردشت مع المحقّق، زميلنا لاندي ريردون، ووجدت أن ليس لديهم الكثير فيما يتعلّق بالدليل. وهم متأكّدون تماماً من أنك الشخص المطلوب؛ لكنّهم فقط لا يستطيعون إثبات ذلك حالياً».

وهذا سيكون الوقت المثالي بالنسبة له لإنكار ذنبه. لذلك توقّعتُ أن يقول شيئاً بسيطاً ومستهلكاً جدّاً مثل: «لقد أمسكوا بالشخص الخطأ». لكنّه قال، بدلاً من ذلك: «كان لدي محامون من قبل، العديد منهم، ومعظمهم من أولئك الذين تعيّنهم المحكمة، ولم أشعر أبداً أنّني أستطيع الوثوق بهم؛ هل تعلم ذلك؟ لكنّني أشعر أنّني أستطيع الوثوق بك، يا سيّد رودّ».

«لنعد إلى مسألة الاتفاق، يا آرك. الأتعاب هي 10 آلاف دولار مقابل تمثيلك خلال مرحلة الاتّهام. وعندما تُتّهم وتواجه احتمال المحاكمة، سينتهي تمثيلي لك. وفي تلك المرحلة سنجلس لمناقشة مستقبلنا سوية».

«ليس لديّ 10 آلاف دولار وأعتقد أن ذلك كثير للوصول إلى مرحلة الاتّهام فقط. أعرف كيف يعمل النظام».

وهو ليس مخطئاً بالكامل من هذه الناحية. فعشرة آلاف من أجل المناوشات الأولية يعتبر مبلغاً كبيراً نوعاً ما، لكنّني أبدأ دائماً بالجانب المرتفع.

«لن أتفاوض، يا آرك. أنا محام مشغول مع الكثير من الزبائن».

من جيب قميصه سحب شيكاً مصرفياً مطوياً. «هذه خمسة آلاف، من حساب أمّي. وهذا كلّ ما لدينا».

فتحتُ الشيك المصرفي، فوجدتُ أنّه مسحوب على المصرف المحليّ والمبلغ خمسة آلاف. وهو موقّع من قبل لويز باول. قال: «باول كان زوجها الثالث، وهو ميت. طُلّق والداي حين كنت طفلاً. ولم أر أبّي العجوز العزيز منذ مدّة طويلة».

خمسة آلاف تبقيني في مضمار اللعبة وفي خضمّ الأخبار، وهي ليست أجراً سيئاً للدورة الأولى أو الثانية. طويتُ الشيك ثانية، ثمّ دسسته في جيب قميصي، وسحبتُ عقداً للخدمات القانونية. وكان هاتفي الخلوي موضوعاً على منضدة صغيرة أمامي. وكان يتذبذب. اتّصال من الرفيق. «أعذرني لثانية. يجب أن أتلقى هذا».

«إنه من مكتبك».

قال الرفيق: «لديك شرطيان في سيارة جيب بيضاء على بعد خمسين قدماً، جاءا للتوّ فقط وهما يراقبان الشاحنة».

«شكراً. أبقني على اطلاع». قلتُ لسوانجير: «أمسك أصحابك بذيلك. يعرفون أنّك هنا، وهم يعرفون شاحنتي. ولا شيء خاطئ في اجتماع محام بموكّله».

هزّ رأسه وقال: «يتبعونني في كلّ مكان. يجب أن تساعدني».

شرحتُ له ببطء تفاصيل العقد. وعندما أصبح كلّ شيء واضحاً، وقّعه كلانا. وعلى سبيل اتباع الإجراء السليم، قلت: «سأتّجه إلى المصرف مباشرة. فإذا لم يُصرف الشيك، فالعقد باطل. مفهوم؟».

«هل تعتقد أنّني قد أكتب شيكاً بلا رصيد؟».

لم أستطع منع نفسي من الابتسام. أجبت: «أمّك كتبته. وأنا لا أعتمد على الاحتمالات».

«تشرب كثيراً لكنّها ليست محتالة».

«أنا آسف، يا آرك. لم أقصد التلميح إلى ذلك. المسألة هي فقط أنّني نلتُ نصيبـي من الشيكات التي لا رصيد لها».

لوّح لي بيده أن كفى، وقال: «لا بأس».

حدّقنا إلى المنضدة لمدّة دقيقة أو نحو ذلك، ثمّ قلتُ أخيراً: «هل هناك شيء تودّ أن تحدّثني عنه؛ الآن بعد أن أصبح لديك محام؟».

«هل لديك شراب في تلك الثلاجة الصغيرة الجميلة؟».

ملتُ نحو الثلاجة وفتحتُ بابها، ثمّ سحبتُ علبة شراب. نزع سدادتها وجرع منها جرعة طويلة. ثمّ قال ضاحكاً أنّه أحبّها، وأضاف: «أعتقد أن هذا هو الشراب الأغلى ثمناً الذي تناولته على الإطلاق».

«هذه إحدى طرق النظر إليها. تذكّر أنه لا يوجد محام آخر يقدّم لك الشراب في مكتبه».

«فهمتُ ذلك جيّداً. أنت الأول». جرعة أخرى، ثمّ قال: «إذاً يا سيباستيان، أنت سيباستيان الآن، بعد أن دفعتُ الأتعاب ووقّعنا العقد، أليس كذلك؟».

«نعم، سيباستيان مقبول».

«حسناً، يا سيباستيان، بالإضافة إلى بعض الشراب، على ماذا سأحصل أيضاً مقابل الخمسة آلاف ظبـي؟».

«نصيحة قانونية، للمبتدئ. وحماية؛ فالشرطة لن تجرؤ على سحبك وضربك في أحد استجواباتهم السيئة السمعة التي تمتدّ إلى عشر ساعات. ستكون الحماية من قبيل كفّ اليد بحسب ما ينصّ عليه القانون. ولدي علاقة جيّدة مع المحقّق ريردون وسأحاول إقناعه بعدم وجود دليل كافٍ لديهم للاستمرار في توجيه الاتّهام. وإذا عثروا على أيّ دليل، فثمة فرصة في أن أعلم به».

رفع العلبة، ثمّ أفرغها تماماً، ومسح فمه بكمّه. ولم يكن باستطاعة أي فتى آخر شديد الظمأ أن ينهي علبة الشراب بأسرع مما فعل. وكانت تلك لحظة مثالية أخرى ليقول شيئاً مثل: «نعم، ليس هناك دليل». لكنّه تجشّأ بدلاً من ذلك وقال: «وإذا اعتقلتُ؟».

قلت: «سأحضر عندئذٍ إلى السجن وسأحاول إخراجك، وهو أمر سيكون مستحيلاً. فتهمة القتل في هذه المدينة تعني عدم قبول أي كفالة. سأتقدّم بعدد من مذكرات إخلاء السبيل وسأحدث بعض

الضوضاء. ولدي أصدقاء في الصحيفة وسأسرّب حقيقة أنّ الشرطة ليس لديها دليل موثوق. سأبدأ بإخافة المدّعي العامّ».

«لا يبدو ذلك كثيراً مقابل الخمسة آلاف. هل يمكنني الحصول على شراب أيضاً؟».

تردّدتُ لمدّة ثانية، ثمّ قرّرتُ بسرعة أنّ اثنتين هما حدّه الأقصى، على الأقل في مكتبـي. ناولته علبة أخرى وقلت: «سأعيد لك المال الآن، يا آرك، إذا كنتَ غير مرتاح لاتفاقنا. وكما سبق وأن قلت لك، أنا محام مشغول مع الكثير من الزبائن. وخمسة آلاف ظبـي لن تغيّر حياتي».

انتزع السدادة وأخذ رشفة معقولة.

سألته: «هل تريد استعادة الشيك؟».

«لا».

«إذاً، توقّف عن الإساءة إليّ حول الأتعاب».

حدّق إليّ فلمحتُ للمرة الأولى تلك النظرة الجوفاء الباردة لقاتل. رأيتها من قبل. قال: «سيقتلونني، يا سيباستيان. لا تستطيع الشرطة إثبات أيّ شيء ضدّي؛ وهم لا يستطيعون إيجاد الشخص المطلوب، كما أنّهم واقعون تحت طنّ من الضغط. وهم خائفون مني لأنّهم إذا اعتقلوني فسيتوجب عليهم أن يتعاملوا معك، وبما أنّهم لا يملكون دليلاً فلن يرغبوا في الذهاب إلى المحاكمة. تخيّل عدم صدور قرار إدانة بعد محاكمة كبرى. لذا، وعلى سبيل اختصار كلّ شيء، سيتخلّصون مني ولن

يعرّضوا أحداً للمشاكل. أعرف هذا لأنهم أخبروني به. ليس المحقّق ريردون. وليس المسؤول الكبير في أسفل المبنى المركزي. بل شرطة الشوارع، بعض أولئك الرجال الذين يتتبّعونني باستمرار، أربع وعشرون ساعة في اليوم وسبعة أيام في الأسبوع. حتى إنّهم يراقبون المقطورة حين أكون نائماً. يضايقونني، يتحرّشون بـي، ويهدّدونني. وأنا أعرف أنّهم سيقتلونني، يا سيباستيان. أنت تعرف كم أن هذه الدائرة متعفّنة حقاً». صمت بعد أن أخذ رشفة أخرى.

«أشكّ في ذلك»، قلت. ثمّ أضفت: «بالتأكيد، لدينا بعض التفاح الفاسد، لكنّني لم أعلم أبداً قد تخلّصوا من مشتبه به بجريمة قتل، فقط لأنهم لا يستطيعون النيل منه».

«أعرف رجلاً قتلوه، تاجر مخدّرات. وقد جعلوا الأمر يبدو وكأنّه عملية تسليم فاشلة».

«لن أجادلك حول هذا الأمر».

«هنا المشكلة، يا سيباستيان. إذا أطلقوا رصاصة على رأسي، فلن يجدوا جثّة تلك الفتاة».

انقلبت معدتي لكنّني بقيت متجهّم الوجه. من المألوف أن ينكر المتّهم الذنب. ومن غير المعتاد أن يعترف المتّهم بالجريمة، خصوصاً في مثل هذه المرحلة الأولى. ولم يسبق لي أبداً أن سألت متّهماً بجناية عمّا إذا كان مذنباً؛ تلك مضيعة للوقت، وهو سيكذب على أية حال. تابعتُ الحديث بتروّ وسألته: «إذاً، أنت تعرف مكان جثّتها؟».

«دعني أوضّح هذا الأمر، يا سيباستيان. أنت الآن محاميّ ويمكنني أن أخبرك بأيّ شيء، أليس كذلك؟ إذا قتلتُ عشر فتيات وأخفيت جثثهن وأخبرتك بكلّ شيء حول ذلك، فأنت لا تستطيع تكرار كلمة من ذلك، أليس كذلك؟».

«نعم هو كذلك».

«أبداً؟»

«هناك استثناء وحيد لهذه القاعدة. إذا أخبرتني بشيء ما سرّاً، ثمّ رأيتُ أنّه سيعرّض للخطر أناساً آخرين، فيُسمح لي بإفشائه إلى السلطات. ما عدا ذلك، لا يمكنني الإفشاء أبداً».

أرضاه ما قلت، فابتسم وأخذ شيئاً من شرابه. «ارتح، لم اقتل عشر فتيات. ولا أقول أنّني قتلت جيليانا كيمب أيضاً، لكنّني أعرف أين دُفنت».

«هل تعرف من قتلها؟».

توقّف قليلاً، ثمّ قال: «نعم». ثمّ صمت ثانية. من الواضح أنّه لن يكشف أسماء المتهمين. ملتُ نحو الثلاجة وتناولتُ علبة جعة لنفسي. شربنا لبضع دقائق. وكان يراقب خلال ذلك كلّ حركة، كما لو أنّه يعرف أن قلبـي يخفق بقوّة. أخيراً، قلت: «حسناً، لن أسأل عن أيّ معلومات، لكن هل تعتقد أن من المهمّ لشخص ما، ربّما أنا، أن يعرف أين هي؟».

«نعم، لكنّ يجب أن أفكّر في الموضوع. وربّما أخبرك غداً. وقد لا أفعل».

اتّجهت أفكاري مباشرة إلى عائلة كيمب وكابوسهم الشنيع. وكنتُ في تلك اللحظة أكره ذلك الرجل وأحبّ رؤيته مداناً، أو حتى ما هو أسوأ من ذلك. أمّا هو فكان يرتشف الشراب في شاحنتي كما لو أنّه جو كول خلال معاناة العائلة.

«متى قُتلت؟»، سألته مستدرجاً.

«لست متأكّداً. لم أفعلها، أقسم على ذلك. لكنّها لم تلد في الأسر، إذا كان ذلك ما تريد معرفته. لم يكن هناك طفل رضيع بيع في السوق السوداء».

«أنت تعرف الكثير، أليس كذلك؟».

«أعرف الكثير وهو ما يوشك على التسبّب في قتلي. يجب أن أختفي، هل تعلم ذلك؟».

«الهرب إشارة واضحة إلى الذنب. وسيُستخدم ضدّك في المحكمة. أنا لا أنصح به».

«إذاً، تريدني أن أبقى هنا وأتلقى رصاصة».

«رجال الشرطة لا يقتلون المشتبه بهم بجرائم القتل. هل أنت موافق يا آرك؟ هل تثق بـي حول ذلك».

سحق علبته وتركها على المنضدة. «ليس لديّ شيء آخر لأقوله الآن، يا سيباستيان. سأراك لاحقاً».

«لديك رقم هاتفي».

فتح الباب وخرج. راقبه الرفيق وهو يتفحّص المكان، بحث عن رجال الشرطة، ثمّ دخل مركز التسوّق واختفى.

اتّجهنا أنا والرفيق بالشاحنة إلى المصرف مباشرة. فتبيّن أن الشيك بلا رصيد. ثمّ ظللتُ أحاول الاتّصال بآرك لمدّة ساعة حتى أدركته أخيراً. اعتذر ووعد أن يكون الشيك مغطى غداً. وقد راودني شعور بأنّني سأكون أحمق إذا صدّقته.

.10

إنها الساعة 4:33 فجراً وهاتفي يدقّ بلا انقطاع. حملته ونظرت فلم أعرف الرقم المتّصل. وهذه مشكلة دائمة. «مرحباً»، قلت. قال المتصل: «يا سيباستيان، أنا آرك. هل لديك دقيقة من الوقت؟».

بالطبع، يا آرك. أمر غريب جداً، فلستُ كثير المشاغل في مثل هذا الوقت من الليل. أخذتُ نفساً عميقاً وقلت: «بالتأكيد يا آرك، عندي دقيقة. لكنّها الرابعة فجراً، لذا يُستحسن أن يكون الأمر جيّداً».

«أنا خارج البلدة؛ حسناً، أنا رسمياً في حالة هرب. خدعتهم وانزلقتُ من بين خيوط شبكتهم ولن أرجع؛ لذا لن يمسكوا بـي».

«هذا خطأ كبير، آرك. ومن الأفضل أن تجد لنفسك محامٍ جديد».

«أنت محاميّ، يا سيباستيان».

«الشيك المصرفي بلا رصيد يا آرك. هل تذكر ماذا قلت لك؟».

«لا يزال لديك؛ اصرفه اليوم. أقسم أنّه سيُصرف». كانت كلماته سريعة ومقتضبة، ويبدو كما لو أنّه يركض. «مهلاً يا سيباستيان، أريدك أن تعرف أين هي الفتاة، موافق؟ وذلك في حال حدوث أمر ما لي. هناك آخرون متورّطون في المسألة، ويمكن أن ينتهي بـي الأمر بسهولة إلى أن أكون الطرف الخاسر، هل فهمت ما أعني؟».

«في الواقع لا».

«لا أستطيع شرح المسألة كلّها يا سيباستيان. إنّها معقّدة. أنا ملاحق من قبل العديد من الناس؛ مثل رجال الشرطة بالإضافة إلى بعض الرجال الذين تبدو الشرطة بالمقارنة معهم أشبه بأشبال الكشافة».

«أمر سيئ جداً يا آرك. لا أستطيع مساعدتك».

«هل سبق لك وأن رأيتَ لوحة الإعلانات أسفل الطريق السريع، على بعد حوالى ساعة إلى الجنوب من هنا، لوحة لامعة وكبيرة في حقل ذرة، وفيها إعلان يقول: "قطع القناة المنوية الدافقة". هل سبق لك وأن رأيتها يا سيباستيان؟».

«لا اعتقد ذلك»، قلت. وكانت الأفكار والخواطر والغرائز الفطرية تقول لي أن أنهي هذه المكالمة فوراً. اقطع الاتّصال فحسب، يا غبـي. ولا تتكلّم معه ثانية أبداً. أمّا جسدياً، فبقيت بالرغم من ذلك متجمّداً ولم أفعل.

أصبح صوته أكثر حيويّة، كما لو أنّه مستمتع تماماً بما يفعل. «"قطع القناة المنوية الدافقة لدى الدكتور وو. جميع أنواع التأمين مقبولة. اتّصل

أربعاً وعشرين ساعة يومياً. رقم هاتف مجاني". هنالك دُفنت يا سيباستيان، تحت لوحة الإعلانات تلك، بجانب حقل الذرة مباشرة. والدي أجرى عملية القطع تلك قبل سنتين من مولدي، ولا أعرف ما هو الخطأ الذي حصل؛ حتى أمّي حيّرها الأمر بالتأكيد. ربّما كانت تقابل شخصاً ما سرّاً. لذا، من هو أبـي، أليس كذلك؟ أظنّ أنّنا لن نعرف أبداً. على أية حال، كنتُ مسحوراً على الدوام بعملية قطع القناة المنوية الدافقة. قطع صغير هنا وقطع صغير هناك، ثمّ عد بنفسك بالسيارة إلى البيت وأطلق رصاصاً فارغاً لبقية حياتك. إجراء بسيط لكن نتائجه مهمّة ومثيرة».

«إذاً، فقد دفنتها، أهذا ما تقوله يا آرك؟».

«لم أقل شيئاً، يا سيباستيان. باستثناء مع السّلامة وشكراً لكتمان هذا السرّ. سأعود لاحقاً».

.11

لففتُ نفسي ببطانية وجلستُ في الخارج في الشرفة الصغيرة.

الجو بارد والظلام دامس والشوارع في الأسفل البعيد هادئة وخالية. وفي لحظات مثل هذه، أتساءل لماذا أصبحت محامياً جنائياً. لماذا اخترتُ أن أقضي حياتي محاولاً حماية أناس ارتكبوا، في أغلب الأحوال، أفعالاً مروّعة؟ يمكنني تبرير ذلك استناداً إلى المقولات المعتادة، لكن في أوقات مثل هذا أشعر بالأسى في قرارة قلبي. وأفكّر حينئذٍ في كلية الهندسة المعمارية، والتي كانت خياري الثاني. ثمّ أقول لنفسي إنّني أعرف بعض المعماريين الذين يعانون أيضاً من مشاكلهم الخاصّة.

السيناريو الأول: سوانجير يقول الحقيقة. وفي تلك الحالة، هل أنا ملزم أخلاقياً ومهنياً أن ألزم الصمت وأظل ساكناً؟ والسؤال الأهم هو: هل أنا محاميه حقاً؟ الجواب: لا ونعم. وقّعنا عقداً، لكنّه أخلّ بالعقد بالدفع بشيك مصرفي بلا رصيد. وإلغاء العقد يعني عدم التمثيل؛ لكنّ

الأمر ليس بهذا الوضوح أبداً. ذلك أنّني التقيته في مناسبتين، وخلالهما اعتبرني محاميه. واللقاءان كانا بكل وضوح اجتماعين بين موكّل ومحاميه. طلب النصيحة. وأنا قدّمتها له. وقد اتّبع أغلب ما جاء فيها. وثق بـي. وعندما أخبرني عن الجثة، اعتقد بالتأكيد أنّه كان يتكلّم مع محاميه.

السيناريو الثاني: لنقل إنني محاميه، وإنني لن أراه ثانية أبداً، ثمّ قرّرتُ إخبار الشرطة بما أخبرني به. فسأكون عندئذٍ قد خرقتُ خرقاً جدّياً ثقة الموكّل بـي، وربّما إلى درجة إقصائي عن ممارسة المهنة. لكن من الذي سيشتكي؟ فإذا كان هو في حالة هرب، أو ميتاً، فكم من المشاكل سيلحق بـي؟

السيناريو الثالث: الكثير من الاحتمالات. فإذا كانت الجثة موجودة حيث قال، ثمّ أخبرتُ الشرطة بذلك، فسيُطارد سوانجير، وسيُعثر عليه، وسيحاكم، ثمّ سيُدان ويُعدم. سيلومني وسيكون محقاً. وستكون مهنتي قد انتهت.

السيناريو الرابع: لا أستطيع إخبار الشرطة، تحت أية ظروف. وهم لا يعرفون ما أعرف، ولستُ أنوي إخبارهم. أفكّر بعائلة كيمب وكابوسهم، لكن لا توجد طريقة لخرق سرّية العلاقة بين المحامي وموكّله. ومع بعض الحظّ، لن تعرف العائلة ما أعرفه.

السيناريو الخامس: سوانجير يكذب. بدا متلهّفاً جدّاً لإخباري بما قال. وهو يمارس الألعاب ويحاول جرّي للوقوع في حبائل خطّة بشعة

ستكون نهايتها سيئة. وقد علم أن الشيك المصرفي سيُعاد لأنه بلا رصيد. فأمّه الفقيرة لم يسبق لها أن رأت 5000 دولار في حياتها، ولا هو حتى.

السيناريو السادس: سوانجير لا يكذب. ويمكنني تسريب المعلومات إلى نيت سبوريو، جاسوسي العميق في الدائرة. وسيُعثر على الجثة. وسيُمسك بسوانجير وسيحاكم وسأكون بعيداً جدّاً عن مبنى المحكمة. فإذا كان هو من قتل الفتاة، فأودّ أن أراه خلف القضبان.

قلّبتُ عدّة سيناريوهات أخرى حتى أصبحت الأمور أكثر ضبابية، وليس أكثر وضوحاً. في الساعة 5:30 صباحاً، جهّزتُ القهوة. وبينما كانت تختمر رصفتُ كرات البلياردو الخمس عشرة، ثمّ بدأتُ اللعب بضربة خفيفة نسبياً. اعترض جارٌ على الضوضاء التي أحدثها صوت الكرات في البيت المجاور في ساعة مبكرة، لذا تابعت اللعب بأقل قدر ممكن من الضوضاء. أعددتُ المنضدة مجدداً، ثمّ أدخلت الكرة رقم 8 في الزاوية. صببتُ لنفسي كوباً من القهوة القوية، وأعددتُ المنضدة من جديد. جولة أخرى انتهت ببقاء الكرة رقم 4 على بعد بوصة واحدة من الجيب. ثلاث وثلاثون على التوالي. نتيجة مقبولة.

قطع القناة المنوية الدافقة؟

.12

الشرطة تتبعني، لكن بتراخ ومن غير حماس شديد. ويقول الرفيق أنّهم يتعقّبونني نصف الوقت تقريباً، ذلك أنّ الحماسة دبّت فيهم بعد أن قابلني سوانجير في الشاحنة؛ لكن حدث ذلك قبل أكثر من أسبوع. أنزلني الرفيق في معرض كين للسيارات المستعملة الرخيصة في الجزء الإسباني من البلدة. وكنت قد أنجزتُ سابقاً بعض الأعمال لكين؛ أنقذته من السجن، وكلانا يعرف أنّ أيام رفقتنا تلك لم تنته بعد. فهو يحبّ صفقات الظلّ، وكلّما كان الظلّ قاتماً كان ذلك أفضل. وهو يعلم أيضاً أنها مسألة وقت فقط قبل أن يظهر فريق سوات مع أمر آخر بالقبض عليه.

وفي مقابل عشرين دولاراً في اليوم، «يؤجّرني» كين سيارة نافعة من موجودات معرضه البائس، مع عدم طرح أية أسئلة. وأنا أفعل ذلك من حين لآخر عندما أعتقد أنّني مراقب. فشاحنة الفورد السوداء من السهل التعرّف عليها وملاحقتها. أمّا سيّارة السوبارو المطعونة التي انتقاها لي

كين، فلن تلفت الانتباه. قضيتُ بضع دقائق معه، وتبادلنا بعض الإهانات، ثمّ انطلقت.

توغلتُ عبر جزء خرب من البلدة، ثمّ استدرتُ هنا وهناك، مع إبقاء إحدى عينيّ على المرآة. وفي نهاية المطاف وجدتُ طريقاً جانبياً قادني إلى الطريق السريع؛ وعندما تأكّدتُ من أن أحداً لا يلاحقني، توجّهتُ جنوباً، وعلى بُعد اثنين وخمسين ميلاً من حدود المدينة، عبرتُ لوحة إعلان الدكتور وو على الجانب الآخر من الطريق. وكما قال سوانجير، إنها لوحة إعلانات كبيرة عند حافة حقل من الذرة. وبجانب كلمات «قطع القناة المنوية الدافقة»، ثمة صورة كبيرة تُظهر الوجه الأبله للدكتور وو وهو ينظر نظرة استصغار نحو العابرين المتّجهين شمالاً. استدرتُ عند المخرج التالي، ثمّ عدتُ مسافة أربعة أميال إلى لوحة الإعلان وتوقفتُ قربها. وكان هدير حركة المرور متّصلاً بلا انقطاع تقريباً، في حين أن موجات الهواء الناجمة عن مرور الشاحنات الكبيرة تكاد ترفع سيارة السوبارو الصغيرة. وبجانب حافّة الطريق هنالك خندق تغطيه الأعشاب الضارة وتسدّ مجراه المهملات، وبعد الخندق هنالك سياج من أسلاك معدنية متشابكة نمَت عليه وتخللته حصيرة من نبتة تشبه الكرمة. ويوجد خلف السياج طريق غير معبّد تكسوه الحصى ويلتفّ حول حقل الذرة. وقد اقتطع المزارع الذي يمتلك المكان مستطيلاً ضيّقاً من حقله لتأجيره إلى شركة الإعلانات صاحبة اللوحة، وفي مركز ذلك المستطيل هناك أربعة أوتاد معدنية كبيرة تُثبّت لوحة الإعلانات. وقد نبتت أعشاب ضارة حول تلك الأوتاد، وتراكمت حولها المزيد من المهملات، بالإضافة إلى بضعة

قصبات ضالّة من الذرة. وفي أعلى ذلك كلّه يبتسم الدكتور وو ابتسامة عريضة للعابرين ليصطادهم بمهاراته المزعومة.

وهو بالتأكيد آخر شخص قد أأتمنه على خصيتيّ.

وعلى الرغم من انعدام خبرتي في هذا المجال، أفترض أن يتمكّن أحدهم من التسترّ بظلام الليل، ثمّ ينسلّ بهدوء إلى الطريق غير المعبّد ويحفر بجانبه قبراً لطيفاً، ثمّ يسحب الجثّة إليه، ويعيد ردم الحفرة، ثمّ يبعثر فوقها وحولها بعض البقايا والأوساخ فيخفيها كلّها. وبعد مرور بضعة أشهر ومع تغير الفصول سوف تضيع معالم الحفرة.

لكن لماذا قد ينتقي الفاعل بقعة قريبة إلى هذا الحدّ من طريق سريع بين الولايات تعبره عشرون ألف سيارة في اليوم؟ ليس لديّ فكرة، لكنّني أذكر نفسي بأنّني أحاول فهم تفكير شخص مريض جداً. فالاختباء في العراء ينجح دائماً، كما أظنّ. وأنا متأكّد بأن هذا المكان سيكون مهجوراً في الساعة 3:00 صباحاً.

حدّقتُ في الأعشاب الضارة تحت لوحة الإعلان وفكّرتُ في عائلة كيمب. ثمّ لعنتُ اليوم الذي قابلت فيه آرك سوانجير.

.13

بعد يومين، كنتُ أنتظر في مدخل في مبنى المحكمة القديم عندما وصلتني رسالة نصّية من المحقّق ريردون. يقول إننا يجب أن نتحدّث، وفي أقرب وقت ممكن. والأمر عاجل. وبعد ساعة من ذلك، أنزلني الرفيق عند المبنى المركزي فاندفعتُ متّجهاً نحو مكتب ريردون وجوّه المتوتّر والخانق. فاستقبلني من دون أي ترحيب، ولا مصافحة، ولا تحية من أيّ نوع، ولم أكن أتوقّع غير ذلك.

شخر قائلاً: «هل لديك دقيقة من الوقت؟».

«أنا هنا»، قلتُ.

«اجلس». يوجد مكان واحد فقط للجلوس، وهو مقعد جلدي يغطّيه الغبار والملفات. نظرتُ إلى المقعد وقلت: «لا بأس. أفضّل الوقوف».

«شأنك. هل تعرف أين سوانجير؟».

«لا، ليس لديّ فكرة. اعتقدتُ أنّكم تراقبونه مراقبة دقيقة».

«كنّا نفعل، لكنّه أفلت منا. لا أثر له منذ أكثر من أسبوع، لا شيء. اختفى». سقط على كرسيّه الخشبـي الدوّار ثمّ وضع قدميه فوق منضدته. «هل ما زلتَ محاميه؟».

«لا. عندما وكّلني دفع الأتعاب بشيك مصرفي من دون رصيد. لذا أصبح عقدنا باطلاً».

بسمة متكلّفة، بل ابتسامة مزيفة. «حسناً، هو يظنّ غير ذلك. جاءنا هذا بعد منتصف الليل مباشرة، إلى هاتف مكتبـي هنا». ثمّ مطّ نفسه وضغط على زرّين على جهاز تسجيل مكالماته القديم.

وبعد صوت الإشارة، انطلق صوت آرك: «هذه الرسالة للمحقّق لاندي ريردون. هذا اتّصال من آرك سوانجير. أنا منطلق على الطريق ولن أرجع. طاردتموني لشهور وقد تعبتُ من ذلك. وأمّي المسكينة فقدت صوابها بسبب مراقبتكم المستمرّة لنا وأساليبكم السيئة. رجاء اتركها وشأنها. وهي بريئة تماماً وكذلك أنا. وأنت تعرف جيّداً أنّني لم أقتل تلك الفتاة، ولا علاقة لي بمسألتها. وأودّ أن أوضّح هذا كلّه لشخص ما يريد الاستماع، لكن إذا عدتُ فسترفس مؤخرتي وترميني في السجن. ولقد حصلتُ على بعض المعلومات المفيدة، يا ريردون، وأودّ أن أتكلّم مع شخص ما. أعرف أين هي الآن بالضبط. ما رأيك في ذلك؟».

مرّت فترة صمت طويلة. نظرتُ إلى ريردون فقال: «اصبر».

سعل آرك مرتين، وعندما استأنف حديثه بدا صوته مهزوزاً، كما لو أنه أصبح عاطفياً: «ثلاثة أشخاص فقط يعرفون أين دُفنت، يا ريردون. ثلاثة فقط. أنا، والرجل الذي قتلها، ومحاميّ، سيباستيان رودّ. أخبرت رودّ لأنه كمحامٍ لا يستطيع إخبار أحد بالأمر. أليس هذا صائباً، يا ريردون؟ لماذا يتوجّب على المحامي أن يكون قادراً على كتمان مثل هذه الأسرار القاتلة؟ أحبّ رودّ، لا تفهمني بشكل خاطئ. اللعنة، لقد وكّلته. [illegible] حالفك بعض الحظّ واستطعتَ العثور عليّ، فسأستدعي رودّ لاصطحابـي». فترة صمت أخرى، ثمّ: «يجب أن أذهب، يا ريردون. لاحقاً».

خطوتُ إلى المقعد الجلدي وجلستُ على بعض الملفات. أطفأ ريردون جهاز تسجيل المكالمات ومال إلى الأمام مستنداً إلى مرفقيه. «أتت هذه المكالمة من هاتف خلوي مدفوع الأجرة سلفاً ولا نستطيع تعقّبه. وليس لدينا فكرة حول مكانه».

أخذتُ نفساً عميقاً وأنا أحاول ترتيب أفكاري. لا يوجد مبرّر لخطة أو سبب معقول يدفع سوانجير لإخبار الشرطة أنّني أعرف موضع دفن الجثّة. نقطة! كما أن حقيقة أنّه كان متلهّفاً جدّاً لإخباري، ثمّ تسريب المعلومة للشرطة، جعلتني أشكّ فيه أكثر. إذاً هو مخادع، وقد يكون قاتلاً محترفاً، أو أنّه مضطرب عقلياً ويستمتع بممارسة هذا النوع من الألعاب ويسعده الكذب. لكن مهما كانت حقيقته، ومهما كانت دوافعه، فقد رماني من منحدر عالٍ وها أنا أسقط سقوطاً حراً.

فُتح الباب فجأة ثمّ دخل روي كيمب، مدير الشرطة المساعد ووالد الفتاة المفقودة. ثمّ أغلق الباب خلفه وسار خطوة نحوي. وهو رجل صلب، جندي بحرية سابق ذو فكّ مربّع وقصة شعر قصيرة رمادية. أمّا عيناه

فمرهقتان وحمراوان، كدليل على عدد الخسائر التي لحقت به في السنة الأخيرة. وكانت عيناه تحملان أيضاً كراهية اقشعرّ لها جلدي. فبلّل العرق ياقة قميصي على الفور.

نهض ريردون على قدميه، ثمّ طقطق أصابع يديه كما لو أنّه على وشك استخدام قبضتيه، ثمّ حدّجني بنظرة قد تقتل، وربّما تفعل.

مقتل المرء يكمن في إظهار الضعف أمام شرطي، أو مدّعٍ عامّ أو قاضٍ، وحتى هيئة محلّفين، لكن الآن وفي هذا الموقف من المستحيل استحضار أي مقدار طفيف من الثقة بالنفس، ناهيك عن إظهار غروري المعتاد.

دخل كيمب في صلب الموضوع مباشرة بالقول: «أين هي، رودّ؟».

نهضتُ على قدميّ ببطء، ثمّ رفعتُ كلتا يديّ، وقلت: «يجب أن أفكّر في هذا الأمر، موافقان؟ لقد فوجئتُ هنا. أمّا أنتم فكان لديكم كلّ الوقت للتخطيط لهذا الكمين. أعطوني فرصة، موافقان؟».

قال كيمب: «أنا لا أعير أدنى اهتمام لسريّة عملك وأخلاقك وكلّ تلك الفضلات، يا رودّ. ليست لديك فكرة حول ما نعانيه. مررنا بأحد عشر

شهراً وثمانية عشر يوماً من الجحيم المطلق. زوجتي لا تستطيع الخروج من الفراش. وعائلتي تتفكّك بالكامل. نحن يائسون، رودّ».

مع كلّ هيبته، كان روي كيمب إنساناً يعاني ألماً شديداً، أبٌ يمشي في نومه تحت وطأة كابوسه الأسوأ.

وهو يحتاج إلى جثّة، وجنازة، وقبر دائم حيث يمكنه هو وزوجته أن يسجدا على العشب ويبكيان ابنتهما كما ينبغي. ومن المؤكّد أن الرعب والحيرة التي عانيا منها كانت ساحقة وممضّة.

وكان في تلك الأثناء يسدّ بجسده طريقي الضيّق نحو الباب، وقد تساءلت ما إذا كان سيتعامل بالقوة بالفعل.

قلت: «انظر أيها الرئيس، أنت تفترض أنّ كلّ ما قاله آرك سوانجير صحيح، وهذه قد تكون فرضية سيئة».

«هل تعرف أين بنتي؟».

«أعرف ما قاله آرك سوانجير، لكنّني لا أعرف ما إذا كان قد قال الحقيقة. بصراحة، أشكّ في ذلك».

«إذاً، أخبرنا على أية حال. سنذهب ونلقي نظرة».

«الأمر ليس بهذه البساطة. لا أستطيع إفشاء ما قاله لي كسرّ، أنت تعرف ذلك».

أغلق كيمب عيناه. استرقتُ النظر إلى الأسفل فلاحظتُ أن كلتا قبضتيه مشدودتان. لكنّه أرخاهما ببطء. نظرتُ إلى ريردون، الذي كان

يحدّق بدوره إليّ. ثمّ نظرتُ مجدداً إلى كيمب، الذي فتح عيناه الحمراوان بعض الشّيء. وكان يهزّ برأسه، كما لو أنّه يقول: «حسناً، يا رودّ، سنلعب على طريقتك. لكنّنا سننال منك».

بصراحة، أنا في صفّهم. وأحبّ أن أستجمع شجاعتي، وأن أساعد في دفن الفتاة بشكل صحيح، وأن أساعد في تعقّب سوانجير، وأن أراقب بارتياح هيئة المحلّفين وهي تدينه بجريمة القتل. لكن من المحزن، مع ذلك، أن ذلك الخيار ليس متاحاً. سرتُ خطوة صغيرة نحو الباب وقلت: «أودّ أن أغادر الآن».

لم يتحرّك كيمب، وبطريقة ما استطعتُ الإفلات منه من دون إثارة معركة. وبينما كنت أمسك قبضة الباب، أحسستُ وكأن سكيناً ينغرس في ظهري، لكنّني تماسكتُ وسرتُ باتّجاه المدخل. هذا ولم يسبق لي أبداً أن غادرت المبنى المركزي بعجلة أكبر.

14.

هذا هو يوم الجمعة الثالث من الشهر، وهو موعد مقابلة جوديث من أجل اجتماعنا الإلزامي لتناول كأسين من الشراب. وليس لدى أي منا رغبة في هذا اللقاء، لكن لا يريد أي منا أيضاً الاستسلام وقطع هذه العلاقة. ومن يفعل فسيكون ذلك كنوع من الإقرار بالضعف من طرفه، وهو أمر لا يستطيع أي منا بكلّ بساطة أن يفعله؛ ليس أمام بعضنا البعض على أية حال. وكلانا يقول لنفسه إننا نحتاج إلى إبقاء خطوط الاتّصال مفتوحة فيما بيننا لأننا نتشاطر المسؤولية عن ابن. ذلك الطفل المسكين.

وهذا هو لقاؤنا الأول منذ أن سحبتني إلى المحكمة في محاولتها العقيمة لإنهاء كلّ حقوقي في الزيارة. لذا، ومع بقاء آثار ذلك الشجار الصغير معلّقة في الجوّ، سيكون هناك طبقة إضافية أثخن من التوتّر فيما بيننا. بصراحة، كنتُ أتمنّى أنّ تلغي هي اللقاء. فأنا يمكن أن استثار بسهولة فأطلق العنان للساني.

وصلتُ إلى الحانة مبكراً وعثرتُ على مقصورة خالية. أمّا هي فقد وصلت في الوقت المحدد تماماً كالعادة، لكن بتعابير لطيفة على وجهها. وجوديث ليست شخصاً لطيفاً، وهي قلّما تبتسم. ومن المعروف أن معظم المحامين يحاربون الضغط والإجهاد، لكن لا يعمل معظمهم في مؤسسة تعمل فيها تسع نساء أخريات، كلّهن معروفات بأنهنّ لا يضيّعن فرصة للتعارك. ومكتبها عبارة عن وعاء ضغط، وأتوقّع أن حياتها في البيت ليست أفضل حالاً. وكلّما نما ستارتشر وكبر، تحدّث أكثر عن الصراخ بين جوديث وأفا. وأنا، بالطبع، أستدرج الطفل لكي أحصل منه على أكبر قدر ممكن من قذارتهما.

«كيف كان أسبوعك؟»، سألتها كبداية معتادة.

«الشيء نفسه. تبدو وكأنّك تحقّق نجاحاً. صورة أخرى في الصحيفة».

سجّل النادل طلباتنا، وهي نفسها على الدوام: الشراب الخفيف لها، والاسكتلندي مع ليمون لي. وأياً تكن الأفكار اللطيفة التي جلبتها معها إلى الحانة فقد تبخّرت الآن.

«لم تنضج القضية بعد»، قلت. ثمّ أضفت: «لم أعد أمثّل ذلك الشخص. لا يستطيع دفع الأتعاب».

«أوه، فكّر بكلّ الدعاية التي ستخسرها».

«سأجد غيرها».

«لا أشكّ في ذلك».

«لستُ في مزاج يسمح بتبادل الإهانات. سآخذ ستارتشر غداً لأقضي معه ساعاتي الستّ والثلاثين. هل لديك مشكلة في ذلك؟».

«ما هي خططك؟».

«وهل يجب أن أقدّم لك خططي لتوافقي عليها؟ متى أمرت المحكمة بهذا؟».

«مجرّد فضول، هذا كلّ ما في الأمر. تحتاج إلى شراب».

حدّقنا في المنضدة لبضع دقائق، بانتظار الشراب. وعندما وصل، تناول كلّ منّا كأسه. وبعد الجرعة الثالثة، قلت: «أمّي في البلدة. وسنأخذ ستارتشر إلى مركز التسوّق من أجل الطقوس المعتادة حيث يَقتل الآباء غير الحاضنين لأبنائهم بضع ساعات من الوقت في شرب القهوة بينما يركب الأطفال قطارات الألعاب ويتقافزون في ساحة اللعب. ثمّ سنتناول بيتزا سيئة وآيس كريم سيئ في ركن الطعام ونشاهد المهرّجين وهم يتشقلبون ويطلقون البالونات. بعد ذلك سنقود السيارة إلى النهر لنقوم بجولة بالمراكب في الميناء، ماذا تحبّين أن تعرفي سوى ذلك؟».

«هل تخطط لإبقائه لديك ليلة الغد؟».

«من حقي الحصول على ستّ وثلاثين ساعة، مرة كلّ شهر. وذلك يعني من الساعة 9:00 غداً صباحاً حتى الساعة 9:00 من مساء الأحد. احسبـي ذلك. ليست عملية معقّدة».

دخل النادل ليسألنا إن كنا نحتاج إلى شيء. طلبتُ دورة شراب أخرى، بالرغم من أنّ كأسينا لم يفرغ نصفيهما بعد. على مدى السنة الماضية، نجحتُ تقريباً في الاعتياد على هذه الاجتماعات القصيرة مع جوديث، بل وانتظارها. فكلانا محام وقد استطعنا من حين لآخر إيجاد أرضية مشتركة. أحببتها مرة، مع العلم أنّني لست متأكّداً تماماً من أنها بادلتني الشعور نفسه. كما أن لدينا ابن. وقد راودتني فكرة أنّنا يمكن أن نطوّر العلاقة بيننا إلى صداقة، وهو أمر أحتاجه نظراً إلى قلة عدد أصدقائي. أمّا الآن، مع ذلك، فلا أستطيع تحمّل رؤيتها.

شربنا بصمت، كحبيبين سابقين كئيبين يحبّ كلّ منهما أن يخنق الآخر حقاً. ثمّ كسرتْ الجوّ المتوتّر بالقول: «أيّ نوع من الأشخاص هو آرك سوانجير؟».

تحدّثنا عنه لبضع دقائق، ثمّ تحدّثنا حول الاختطاف والكابوس الذي ترزح تحته عائلة كيمب. وقالت أن محامياً تعرفه تولى مرة قضية القيادة تحت تأثير الكحول لصديق جيليانا الأخير، وهو الأمر الذي يفترض أن ينير قضية جيليانا بطريقة ما.

أنهينا مشروباتنا في ثلاثين دقيقة، وهو وقت قياسي، ثمّ افترقنا حتى من دون قبلة الوداع الإلزامية على الخدّ.

.15

يتمثّل التحدّي الشهري بالنسبة لي في التخطيط لنشاط يسلّي ستارتشر ويمتعه. وقد أخبرني مسبقاً أنّه ملّ من مركز التسوّق، وحديقة الحيوانات، ومحطّة الإطفاء، وملعب الغولف المصغّر، ومسرح الأطفال. وما يريد أن يفعله حقاً هو مشاهدة المزيد من مباريات قتال الأقفاص، لكن ذلك لن يحدث. لذا، اشتريتُ له مركباً.

قابلنا أمّي في مكان يسمّى «المهبط»، وهو عبارة عن مرفأ مفتعل في منتصف متنزّه المدينة. شربنا أنا وهي القهوة بينما عبّ ستارتشر الكاكاو الحارّ. وقالت أمّي إنها قلقة بشأن تربيته. فالطفل يفتقد إلى آداب المائدة ولا يلفظ أبداً كلمات التأدّب مثل «سيدي»¡æ«أمي»¡æ«رجاءً»¡æ«شكراً». وكنتُ قد وجّهته إلى ذلك وفشلتُ تماماً.

والمركب الذي اشتريته له عبارة عن نموذج تسابق يُقاد بالتحكّم من بُعد مزوّد بمحرّك يئنّ مثل منشار آلي مكتوم الصوت. أمّا البركة فدائرة

مائية صناعية في وسطها نافورة فوّارة. والبركة أشبه بمغناطيس لنماذج المراكب من كلّ الأصناف، ولكلّ الأعمار. وقد عبثنا أنا وستارتشر بجهاز التحكّم من بُعد لنصف ساعة قبل أن يسير كلّ شيء كما ينبغي. وعندما تمكّن من الأمر، تركته يلعب بمفرده وجلستُ بجانب أمّي على مقعد تحت شجرة.

كان يوماً جميلاً، رياحه لطيفة والسماء زرقاء رائعة.

وكان المتنزه يعجّ بالناس؛ عوائل تتمشّى ويتناول أفرادها الآيس كريم، وأمّهات صغيرات يدفعن عربات أطفال هائلة الأحجام، عشاق صغار يستترون خلف أوراق الشجر. ولا ينقص المشهد الكثير من الآباء المطلّقين الذين يمارسون حقوقهم في زيارة أطفالهم.

دردشنا أنا وأمّي حول أمور لا أهمية لها ونحن نراقب حفيدها الوحيد من بعيد. وهي تعيش في مكان يبعد ساعتين ولا تتابع أخبارنا المحليّة. وهي لم تسمع بشيء حول قضية سوانجير، ولم أرغب في إخبارها بشيء عن تلك القضيّة. فلديها الكثير من الآراء ولم تعجبها يوماً مهنتي. زوجها الأول، أبـي، كان محامياً كسب ثروة جيدة وحياة رغيدة من العقارات. وقد مات حين كنتُ في العاشرة. أمّا زوجها الثاني فقد جمع ثروة طائلة من صناعة الرصاص المطاطي ومات في الثانية والستّين من عمره. بعد ذلك خشيتْ المغامرة بزواج ثالث.

جلبتُ المزيد من القهوة في أكواب ورقية ثمّ استأنفنا محادثتنا. لوّح لي ستارتشر من بعيد، وعندما وصلتُ إلى هناك سلّمني جهاز التحكّم

وقال أنّه يريد الذهاب للتبوّل. غرفة الاستراحة ليست بعيدة، فهي على الجانب الآخر من البركة في مبنى يضمّ أكشاك بيع المشروبات والأطعمة الخفيفة ومكاتب إدارة المتنزه. سألته ما إذا كان يحتاج إلى مساعدة فرماني بنظرة قذرة. فهو الآن، بعد كل شيء، في الثامنة من العمر وبدأ يكتسب الثقة بالنفس. وقد راقبته وهو يسير إلى المبنى ويدخل غرفة استراحة الرجال. فأوقفتُ المركب وانتظرت.

اندلع اضطراب مفاجئ خلفي، وارتفعت أصوات غاضبة، ثمّ تردّد صدى طلقتين ناريتين في الهواء. وبدأ الناس بالصراخ. وعلى بعد خمسين ياردة تقريباً، انطلق مراهق أسود عبر المتنزه، ثمّ قفز فوق أحد المقاعد، ومرّ كالسهم بين بعض الشتلات ثمّ اختفى في الغابة، وكان يعدو كما لو أنّ حياته في خطر. ومن الواضح أنها كذلك. وركض خلفه مباشرة شاب أسود آخر، أشدّ غضباً وبين يديه بندقية. ثمّ أطلق الأخير الرصاص ثانية، فانبطح الناس على الأرض. ومن حولي بدأ الناس، الذين كانوا يتمتّعون بيومهم، بالاحتماء، أو الزحف، أو التقاط الأطفال، ثمّ الفرار للنجاة بأرواحهم؛ إنّه مشهد تلفزيوني، أشبه بشيء سبق وأن شهدناه من قبل، ولم يتطلّب الأمر سوى بضع ثوان لندرك أنّه ليس مشهداً تمثيلياً. تلك بندقية حقيقية!

فكّرتُ بستارتشر، لكنّه على الجانب الآخر من البركة في غرفة الاستراحة، وهي مسافة بعيدة نسبياً عن إطلاق النار. وحيث كنتُ محتمياً وأنظر باستغراب إلى ما يجري، اصطدم بـي رجل يعدو مسرعاً، فهمهم قائلاً: «آسف»، وواصل الركض.

وعندما اختفت الفريسة والصيّاد في الغابة، انتظرتُ قليلاً، خائفاً من مغبّة التحرّك. ثمّ سمعنا صوت طلقتين ناريتين أخريين من بعيد. فإذا لحق الرجل الثاني بالرجل الأول، فعلى الأقل لسنا مضطرين لرؤية ما حدث. توقّفنا عن الحركة، وانتظرنا قليلاً، ثمّ بدأنا بالتحرّك ثانية. وكان قلبـي يخفق بقوّة حين أقف وأحدّق إلى الأشجار الكثيفة كغيري من الناس. وعندما بدا لنا وكأن الخطر قد زال، أخذتُ نفساً عميقاً. ثمّ حدّق الناس إلى بعضهم بعضاً، وشعروا بالارتياح لكنهم ظلوا مذهولين. هل رأينا حقاً ما رأيناه؟ بعد ذلك أسرع شرطيان على دراجتين هوائيتين واختفيا في الغابة. ومن بعيد سُمع صوت صافرة إنذار.

نظرتُ إلى أمّي، التي كانت تتحدّث على الهاتف كما لو أنّها لم تلحظ شيئاً. ثمّ نظرتُ إلى غرفة استراحة الرجال؛ ستارتشر ما زال في الداخل. فانطلقتُ في ذلك الاتّجاه، وتوقّفتُ في طريقي لأضع جهاز التحكّم على المقعد بجانب أمّي. وفي تلك الأثناء ذهب وأتى العديد من الرجال والأولاد من غرفة الاستراحة.

«ما كان ذلك؟»، سألتني.

«الحياة في المدينة الكبيرة»، قلتُ لها وأن أنصرف.

ستارتشر ليس في غرفة الاستراحة. أسرعتُ إلى الخارج وبدأت بالبحث حول المكان. أمسكت بأمّي، وأخبرتها أنه اختفى، وطلبتُ منها تفقّد غرفة استراحة السيدات. ولعدّة دقائق طويلة، نظّفنا المنطقة بحثاً، وكان خوفنا يتصاعد مع كلّ ثانية. وهو ليس من الأطفال الذين يبتعدون

عن ذويهم. لا، ستارتشر سيتبوّل ويعود مباشرة إلى البركة لمواصلة السباق بزورقه. بدأ قلبـي يدقّ بعنف وبدأت أتعرّق.

ظهر شرطيا الدراجتين من الغابة، من دون الإمساك بمشتبه به، واتّجها نحونا. أوقفتهما، وأخبرتهما أن ابني مفقود، فتوجّها فوراً إلى المذياع. ومن شدّة هلعي أوقفت كل من صادفته وطلبتُ منهم المساعدة.

وصل شرطيان آخران على درّاجتين. وقد أصبحت المنطقة حول «المهبط» منطقة رعب الآن؛ ذلك أن الجميع عرفوا أن ثمة طفل مفقود. وقد حاول رجال الشرطة تطويق المتنزه بأكمله، وذلك لمنع أي أحد من المغادرة، لكن هناك أكثر من عشر نقاط للدخول والخروج. ثمّ وصل عدد من سيارات الدورية. فاختلط عويل صفّاراتها بجرس الإنذار. ثمّ رأيتُ رجلاً يرتدي سترة حمراء. فظننتُ أنّني رأيته يدخل غرفة استراحة الرجال. فأكّد أنه كان هناك ورأى طفلاً عند المبولة. وقال أن كلّ شيء بدا طبيعياً. ثمّ نفى أن يكون قد رأى الطفل يغادر المكان. بعد ذلك هرولتُ ذهاباً وإياباً على الأرصفة التي تلتفّ وتتقاطع في المتنزه، وسألتُ كلّ من صادفتهم في طريقي ما إذا كانوا قد رأوا ولداً في الثامنة بدا عليه أنه تائه. كان يرتدي سروال جينز وبلوزة بنية. لكن لم يره أحد.

ومع مرور الثواني، حاولتُ تهدئة نفسي. قلتُ لنفسي إنه ابتعد قليلاً فحسب. ولم يختطف. لكن لم ينجح الأمر؛ سيطر عليّ الرعب بالكامل.

وهذه إحدى القصص السيئة التي قد تقرأ عنها، والتي تعتقد أنّها لا يمكن أن تحدث لك أبداً.

.16

بعد نصف ساعة أصبحت أمّي على وشك الانهيار. فجلس مساعد طبيب بجانبها على مقعد المتنزّه واهتمّ بها. ثمّ طلب رجال الشرطة مني البقاء معها أيضاً، لكنّني لم أكن أستطيع الجلوس بهدوء. وثمة رجال شرطة في كلّ مكان. باركهم الله.

اقترب منّي شابّ يرتدي بدلة قاتمة وقدّم نفسه باسم لينّ كولفاكس. وهو المحقّق في قسم الأطفال المفقودين، من دائرة الشرطة في المدينة. أيّ نوع مريض من المجتمعات ذلك الذي يحتاج إلى قسم كامل في دائرة الشرطة مكرّس للأطفال المفقودين؟.

استعرضتُ وإياه اللحظات الأخيرة لما حدث. ووقفتُ بالضبط حيث كنت واقفاً عندما سار ستارتشر باتّجاه غرفة الاستراحة، على بعد أقل من مئة قدم. وكنت قد أبقيت نظري مركّزاً عليه حتى أصبح في الداخل، ثمّ

ذُهلتُ بصوت إطلاق النار. خطوة فخطوة، فكرة تلو فكرة، استعرضنا كلّ ما حدث.

غرفة استراحة الرجال لها باب واحد فقط ولا نوافذ لها. وقد بدا لي، وللمحقّق كولفاكس، أن من غير المعقول أن يتمكّن شخص ما من الإمساك بصبـي في الثامنة من العمر وأن ينقله جسدياً من ذلك المكان من دون أن يراه أحد. لكن، في تلك اللحظة، كان أغلب المتسكّعين حول «المهبط» إمّا جاثمين خلف المقاعد أو الشجيرات أو منبطحين على الأرض أثناء إطلاق النار. وقد أكّد الشهود الآخرون هذا الأمر. وقد قدّرنا أن الذهول الذي رافق الحدث قد دام خمس عشرة، أو عشرين ثانية. وهو وقت طويل، كما أظنّ.

بعد ساعة من الوقت، اعترفتُ أخيراً أنّ ستارتشر لم يته بكلّ بساطة. بل أُخذ.

.17

إن أفضل طريقة لإخبار جوديث بالأمر هي أن أجعلها ترى بنفسها. فإذا حدث شيء سيئ لابننا، فلن تغفر لي، وستزعم دائماً وكعادتها أنّني والد فاشل، وأنّني في الحقيقة سيئ جداً في كلّ ما يتعلّق بالتوجيه الأبوي، وأنّ المسؤولية عن اختفائه تقع على عاتقي بالكامل. عظيم، يا جوديث. لقد فزتِ؛ وأنا الملوم.

وقد يساعدها قليلاً أن ترى مسرح الجريمة، خصوصاً مع وجود كلّ رجال الشرطة هؤلاء في المكان.

حدّقتُ إلى هاتفي الخلوي لوقت طويل، ثمّ اتّصلت بها. فأجابت بالقول: «ما الأمر؟».

ابتلعتُ ريقي بصعوبة وحاولتُ أن أبدو هادئاً. «جوديث، ستارتشر اختفى. أنا في «المهبط» في متنزّه المدينة، مع جدته، ومع الشرطة. اختفى قبل حوالى ساعة. يجب أن تأتي إلى هنا الآن».

صرخت: «ماذا؟».

«سمعتني. ستارتشر مفقود. أعتقد أنّه اختطف».

صرخت ثانية: «ماذا! كيف! هل كنت تراقبه؟».

«نعم، في واقع الأمر كنتُ أفعل. وسنتجادل لاحقاً. تعالي إلى هنا فحسب».

بعد واحد وعشرين دقيقة، رأيتها وهي تسرع على طول الرصيف، ومن الواضح عليها أنها امرأة خائفة حتى الجنون. وحين اقتربت من «المهبط» ورأت ذلك العدد من رجال الشرطة، ثمّ رأتني، ثمّ رأت شريط مسرح الجريمة الأصفر ملتفاً حول غرف الاستراحة، توقّفت، ووضعت يدها على فمها، ثمّ انهارت. أسرعنا أنا ولين كولفاكس نحوها وحاولنا تهدئتها.

فقالت وهي تصرّ على أسنانها: «ماذا حدث؟».

كانت تمسح دموعها ونحن نقصّ عليها مرّة أخرى ما حدث. ثمّ أعدناه ثانية. فلم تقل لي شيئاً، كما لو أنّني لست جزءًا من الأحداث. وحتى إنها لم تنظر إليّ. ثمّ شوت كولفاكس بنار الاستجواب حتى نفدت منها كلّ الأسئلة. بعد ذلك تسلّمت المسؤولية الكاملة عن الجانب العائلي من القضيّة، وحتى إنها أخبرت المحقّق أنها الوصي على الطفل وأن كلّ الاتّصالات ستكون عبرها. أمّا أنا، فينبغي النظر إلي على أنّني لا أعدو كوني راعية أطفال مهملة.

ولدى جوديث صورة لستارتشر على هاتفها الخلوي. وقد أرسل كولفاكس الصورة بالبريد الإلكتروني إلى مكتبه. وقال إنّ الملصقات ستوزّع فوراً. وكلّ الإنذارات والتحذيرات قد اتّخذت. وكلّ شرطي في المدينة يبحث عن ستارتشر.

.18

في نهاية المطاف غادرنا «المهبط»، بالرغم من أنّ الأمر كان مؤلماً. وكنتُ أفضّل الجلوس هناك طوال فترة العصر وخلال الليل، فقط لأنتظر ولدي الصغير كي يأتي ويسأل: «أين زورقي؟». فهذا هو المكان الأخير الذي رأى فيه أباه. فهو تائه فقط، وربّما سيجد طريق عودته. وكنا أثناء ذلك كأنّما نسير ونحن نيام، مخدّرون ومذهولون، ونقول لأنفسنا إنّ ذلك لم يحدث حقيقة.

قال لنا لين كولفاكس إنّه عالج مثل هذه القضية من قبل، وإن أفضل ما يمكن أن نفعله الآن هو الاجتماع في المبنى المركزي، في مكتبه، وأن نتحدّث حول كيفية التصرّف. فهي إمّا عملية اختطاف، أو اختفاء، أو خطف مقابل فدية، وكلّ واحد من تلك الاحتمالات الثلاثة يستدعي مشاكل مختلفة.

أخذتُ أمّي إلى شقّتي، حيث قابلها هنالك الرفيق، الذي سيعتني بها لبضع ساعات. وهي تلوم نفسها لأنها لم تكن أكثر فطنة، وهي شديدة الانزعاج لأن تلك العاهرة جوديث لم تعر وجودها أدنى اهتمام. «لماذا تزوّجتَ تلك المرأة أساساً؟»، سألت. لم يكن الأمر اختياراً يا أمّاه. ثمّ، ألا يمكننا مناقشة هذا الأمر لاحقاً؟.

يجلس كولفاكس إلى مكتب لطيف وهو ذو حضور مهدّئ ومريح. لكن ذلك كلّه لم يعن لنا شيئاً أنا وجوديث. أمّا أفا، الأم الثانية أو الطرف الثالث في العلاقة الأسرية، فهي خارج البلدة. بدأ بأن روى لنا قصّة اختطاف، وهي واحدة من بضع حالات انتهت نهاية سعيدة. أما معظم الحالات فتنتهي بشكل سيئ، وأنا أعرف ذلك. وقد قرأتُ الخلاصات. فمع مرور كلّ ساعة، تصبح فرصة النهاية السعيدة أضعف فأضعف.

ثمّ سألنا عمّا إذا كان هناك أحد نعرفه وقد يكون مشتبهاً به؟ نسيب، أو جار، أو شخص منحرف في شارع قريب، أي أحد؟ فهززنا رأسينا نفياً. فكّرتُ بالمدعو لينك سكانلون فلم أكن مستعدّاً لربطه بهذه القضية. فالاختطاف لا يلائم مواصفاته الشخصية. وكلّ ما يريده منّي هو استعادة مبلغ 100 ألف دولار نقداً، ولا أظنّ أنّه سيلجأ إلى اختطاف ابني طلباً للفدية. يفضّل لينك كسر ساقي اليمنى هذا الأسبوع وساقي اليسرى الأسبوع الذي يليه.

وقال كولفاكس إنه من المفيد أن نعلن فوراً عن جائزة مقابل أي معلومات. ثمّ أشار إلى مبلغ 50 ألف دولار سيكون نقطة انطلاق جيدة. فبادرت جوديث، الوالدة المطلقة، بالقول: «يمكنني تدبّر ذلك». وقد

شككتُ في قدرتها على إصدار شيك مصرفي بذلك المبلغ، لكن لا بأس، هيّا افعليها يا فتاة. «سنقتسمه»، قلتُ، كما لو أنّنا نلعب الورق.

ولكي يصبح الوضع لا يطاق أكثر، وصل والدا جوديث واقتيدا إلى المكتب الذي كنّا فيه. وفور وصولهما أمسكا بابنتهما وانخرط الثلاثة في نوبة بكاء طويلة. أما أنا فوقفتُ مستنداً إلى الجدار، في أبعد موضع ممكن. وهم أساساً لم يعيروا وجودي أدنى اهتمام. وفي الحقيقة يعيش ستارتشر مع ذينك الجدّين نصف الوقت تقريباً، لذا فهما متعلّقان به تعلّقاً شديداً. وقد حاولتُ تفهّم حزنهما، لكنّني أحتقر هؤلاء الناس منذ فترة طويلة، ولا أستطيع تحمّل وجودهم. وعندما استقرّ القادمان، سألا عمّا حدث فأخبرتهما. وساعدني كولفاكس بسرد بضع وقائع هنا وهناك. وفي أثناء استعراضنا للقصة، كانا مقتنعين تماماً أنّني الملوم الوحيد على ما حدث. عظيم؛ وصلنا الآن إلى مكان ما.

لستُ مضطراً للبقاء في الغرفة. لذا استأذنتُ وغادرت المبنى، وعدتُ إلى «المهبط». وكان رجال الشرطة لا يزالون موجودين في المكان، وكانوا يتجوّلون حول مبنى المراكب، ويبعدون الناس عن غرفة استراحة الرجال. فتحدّثتُ إليهم وأبديت لهم امتناني؛ وكانوا متعاطفين معي.

وصل الرفيق، وقال إنها أمّي شربت شراباً وهدأت بعض الشّيء. ثمّ انفصلنا فذهب كلّ منا في اتّجاه وجبنا الممرات في المتنزّه. وكانت الشمس قد غربت؛ فازدادت الظلال طولاً. وقد جلب لي الرفيق مصباحاً كاشفاً، فواصلنا البحث جزءًا لا بأس به من الليل.

في الساعة 8:00 مساء اتّصلتُ بجوديث لأطمئنّ عليها. فوجدتُ أنها في البيت، مع أبويها، تنتظر قرب الهاتف. عرضتُ عليها المجيء والجلوس معهم، لكنّها قالت لا، شكراً. وقالت إن لديها الأصدقاء وإن وجودي لن يكون ملائماً. وقد كنتُ متأكّداً أنها محقّة في ذلك.

تجوّلتُ في المتنزّه لساعات، وكنتُ أسلّط ضوئي على كلّ جسر، ومجرى مائي، وشجرة، وكومة صخور. كان ذلك أسوأ يوم في حياتي؛ وفي نهاية ذلك اليوم، جلستُ على مقعد في منتصف الليل وبكيتُ أخيراً.

.19

وبمساعدة الشراب وحبة منوّم، استطعتُ النوم لثلاث ساعات على الأريكة لأستيقظ في بركة من العرق. استيقظتُ تماماً، لأعود إلى الكابوس من جديد. واغتسلتُ لقتل الوقت ثمّ تفقدتُ أمّي التي كانت قد تناولت بعض الحبوب المنوّمة فبدت وكأنها في غيبوبة. وعند الفجر عدنا أنا والرفيق إلى المتنزّه. فلا مكان آخر نذهب إليه. وما الذي يمكنني أن أفعله سوى ذلك؟ أجلس قرب الهاتف؟ فهو في جيبي وقد رنّ في الساعة 7:03. كان ذلك لين كولفاكس ويريد أن يطمئنّ عليّ. قلتُ له إنّني في المتنزّه، وما زلت أبحث. فقال إنّهم جرّبوا بضع وسائل، لكنها لم تأتِ بنتيجة مفيدة. ولم يحدث سوى أن بعض المجانين أبدوا اهتماماً بمال الجائزة. ثمّ سألني إن كنت قد ألقيت نظرة على صحيفة صنداي مورنينغ. فأجبت بنعم، رأيتها. الصفحة الأولى.

جلب الرفيق بعض الكعك والقهوة، فأكلنا على إحدى مناضد التنزّه وأهملنا النظر إلى بركة تستخدم للتزلّج في الشتاء. سألني: «هل فكّرت بلينك؟».

«نعم، فعلت، لكن لا أعتقد أنه الفاعل».

«لم لا؟».

«ليس هذا هو نوع جرائمه».

«ربّما كنتَ محقاً».

ثمّ عدنا إلى الصمت الذي هو سمة علاقتنا، والذي يمنحني هدوءًا طالما قدّرته عالياً. لكنّني أحتاج الآن إلى شخص أحادثه. أنتهينا من الأكل ثمّ انفصلنا مجدداً. بحثتُ في الطرق والمسالك نفسها، ونظرت تحت جسور المشاة نفسها، ومشيت على طول الجداول نفسها. وحين انتصف النهار، اتّصلتُ بجوديث، فأجابت أمّها على هاتفها الخلوي. قالت إن جوديث ترتاح، وإنهم لم يسمعوا شيئاً جديداً. ثمّ عدتُ إلى «المهبط»؛ فوجدت أن الشرطة قد أزالت شريط مسرح الجريمة فعادت الأمور إلى وضعها الطبيعي. بعد ذلك عجّ المكان بالناس من جديد، ويبدو أنهم لم يعلموا شيئاً عن الرعب الذي حدث أمس. راقبتُ بعض الأولاد وهم يتسابقون بمراكبهم في مياه البركة. ووقفتُ حيث كنت واقفاً أمس عندما رأيت ستارتشر للمرة الأخيرة. فمزّق ألم ضارٍ أمعائي فاضطررتُ للانصراف.

لقد انتهيت وانقطع نسلي، فستارتشر هو ابني الوحيد ولن أنجب بعده أبداً. وقد وُلد مصادفة كابنٍ غير مرغوب فيه، أتى في وسط حرب

ضارية بين والديه، لكنّه تفتّح بالرغم من ذلك فأصبح ولداً جميلاً. أمّا أنا فلم أكن أباً مثالياً، لكنّني أُبعدتُ أيضاً من حياته. ولم أكن أحلم أبداً أنّني قد أفتقد إلى إنسان آخر وأشتاق إليه كثيراً كما أفتقد ستارتشر الآن. ثمّ كيف لوالد أن يتخيّل أن ابنه مختطف؟

مرّت الساعات وأنا أجوب المتنزّه. وكدتُ أخرج من جلدي حين دقّ هاتفي، لكنّ المتّصل لم يكن سوى أحد معارفي عارضاً المساعدة. وفي وقت متأخّر من اليوم، جلستُ على أحد مقاعد المتنزّه قرب أحد مسارات رياضة الركض. ثمّ ظهر من العدم المخبر لاندي ريردون وجلس بجانبـي. وكان يرتدي حلّة تحت معطف عادي أسود اللون.

«ما الذي أتى بك إلى هنا؟»، سألته بغتة.

«أنا مجرّد رسول، يا رودّ. لا شيء أكثر من ذلك. ولستُ متورّطاً أبداً. لكن طفلك بخير».

أخذتُ نفساً عميقاً ثمّ ملت بجسدي إلى الأمام وأسندت مرفقيّ إلى ركبتيّ وأنا في حالة ضياع تامّ. ثمّ استطعتُ القول بصوتٍ أشبه بالشخير: «ماذا؟».

حدّقَ إلى الأمام مباشرة كما لو أنّه ليس هنا، ثمّ أجاب: «طفلك بخير. وهم يريدون التبادل».

«تبادل؟».

«فهمتَ المقصود. تخبرني؛ أخبرهم. تخبرني أين دُفنت الفتاة، فتستعيد طفلك بعد أن يعثروا عليها».

لم أعرف ما الذي يجب أن أفكّر فيه أو أقوله. لكنّني شكرتُ الله أن طفلي بخير؛ لكنّه بخير لأن الشرطة اختطفته واحتجزته كطعم! قلتُ لنفسي يجب أن أغضب وأثور كبركان، لكنّني لم أشعر بشيء سوى الراحة. ستارتشر بخير!

«هم؟ أنت تتحدّث عن بعض الناس من جماعتك، أليس كذلك؟».

«نوعاً ما. انظر يا رودّ، يجب أن تدرك أنّ روي كيمب قد خرج تقريباً من الخدمة. أعطوه إجازة إدارية لمدّة شهر أو نحو ذلك، لكن لا أحد يعلم بذلك. وهو منفلت، ويتصرّف فردياً».

«لكن لديه الكثير من الأصدقاء، أليس كذلك؟».

«أوه، نعم. يحظى كيمب باحترام كبير. لديه خدمة ثلاثين سنة، كما تعرف، ولديه الكثير من العلاقات، والكثير من النفوذ».

«إذاً هذا عمل داخلي. لا أصدّق ذلك. وهم أرسلوك للتفاوض!».

«أنا لا أعرف أين الطفل، أقسم. ولا أحبّ أن أكون حيث أنا الآن».

«وهذا شعور يجمعنا على الأقل. وأظنّ أنّني يجب أن لا أفاجأ بالأمر. في الحقيقة، كان ينبغي أن أعرف أن الشرطة ليست بعيدة عن اختطاف الأطفال».

«تراجع عمّا قلتَ، رودّ. أنت صاحب فم كبير، هل تعرف ذلك؟ صفقة أو لا صفقة؟».

«يفترض بـي أن أخبرك ما أخبرني به آرك سوانجير حول الفتاة، أليس كذلك؟ أي أين دُفنت. ولنفترض أن سوانجير قد قال الحقيقة، ثمّ عثرتم على الجثّة، فأُدين هو بجريمة كبرى، وانتهت مهنتي كمحام. ثمّ أعيد ابني سالماً إلى أمّه، وانتهى بـي الأمر إلى قضاء وقت أطول بكثير معه. في الحقيقة، سأكون أباً بدوام كامل».

«أنت على المسار الصحيح».

«وإذا قلتُ لا، ماذا سيحدث لطفلي؟ هل ينبغي أن أصدّق أنّ مدير الشرطة المساعد ومجرميه سيلحقون الأذى فعلياً بطفل على سبيل الانتقام؟».

«أظنّ أن عليك دحرجة أحجار النرد، يا رودّ».

الجزء الخامس
قانون شركة النقليات

.1

قاومتُ الرعب. وقلتُ لنفسي إن ابني بخير، وأنا أصدّق ذلك. لكن الحالة طارئة وعاجلة جدّاً بحيث يستحيل على المرء أن يفكّر تفكيراً منطقياً. لذا، توجّهنا أنا والرفيق إلى مقهى رخيص وتكوّمنا في إحدى زواياه. ثمّ استعرضتُ السيناريوهات المختلفة وهو يستمع.

وفي نهاية المطاف لم نجد أمامنا خياراً. أمّا الأمر الوحيد المهمّ فهو سلامة ابني ونجاته؛ وكلّ شيء آخر لا قيمة له بالمقارنة مع سلامة ابني. وإذا شاع السرّ وخسرتُ رخصة مزاولة مهنتي كمحام، فسوف أصمد وأنجو. اللعنة، حتى إنني قد أنجح في مكان آخر، ولن أتعامل بالتأكيد مرة أخرى مع أمثال آرك سوانجير. وقد تكون هذه تذكرتي للخروج من هذه المهنة، وربّما كانت فرصتي الجميلة والوحيدة للتخلّي عن مهنة القانون والبحث عن سعادة حقيقية.

أريد ذلك الولد الصغير بين ذراعي.

ثمّ ناقشنا أنا والرفيق مسألة ضرورة، أو عدم ضرورة الاتّصال بجوديث وإطلاعها على المستجدات. فقرّرتُ عدم الاتّصال، ليس الآن على أية حال. فهي لن تضيف شيئاً سوى المزيد من الضغط والتعقيدات. والأمر الأكثر أهمية هو أنّها قد تبوح لشخص آخر أن كيمب وشركاءه دبّروا مؤامرة داخلية. وقد حذّرني ريردون مشدّداً على ضرورة إسكاتها.

اتّصلتُ بجوديث على أية حال، فقط للاطمئنان عليها. وقد أجابت أفا على الهاتف قائلة أن جوديث في السرير، وقد تناولت بعض الأدوية، وليست على ما يرام. وقالت أن رجالاً من مكتب التحقيقات الفيدرالي قد غادروا البيت للتوّ. وهنالك حشد من المراسلين في الشارع. وقالت إن الأمور سيئة. كما لو أنّني لا أعرف ذلك.

في الساعة 7:00 من مساء الأحد، اتّصلتُ بريردون وقلتُ له أنّنا اتّفقنا.

ولم يستغرق الأمر أكثر من ساعة للحصول على أمر تفتيش. ومن الواضح أن الشرطة لديها قاضٍ متعاون وفي حالة تأهّب. في الساعة 8:30؛ غادرنا أنا والرفيق المدينة، ترافقنا سيّارتان لا تحملان إشارات خاصّة، إحداهما أمامنا والأخرى خلفنا، وذلك أمر معتاد في مثل هذه الحالات. وعند وصولنا إلى لوحة إعلان الدكتور وو، انتشر رجال الشرطة في المكان. ثمّ سطعت الأضواء المركّزة، وأُحضرت جرّافتان، وأربع وعشرون رجلاً على الأقل مزوّدين بالمجارف والمعاول، بالإضافة إلى فرقة من الكلاب في

صناديقها. أخبرتهم بكلّ ما أعرفه، ففحصوا الأرض بجانب حقل الذرة. وكانت مجموعة من شرطة الولاية تحرس جانبـي الطريق السريع لطرد أيّ سائق قد يتملكه الفضول.

وقد أوقف الرفيق الشاحنة حيث قيل لنا أن نوقفها، على بعد مئة قدم من لوحة الإعلان وموقع العمل. ثمّ جلسنا وراقبنا ما يجري يحدونا الأمل مع انقضاء لحظات السعار الأولى، ثمّ ابتداء ساعات الانتظار الطويلة. نقّبوا بشكل منهجي في كلّ بوصة مربّعة من التربة. شكّلوا شبكة، ثمّ بحثوا ضمنها، ثمّ شكّلوا واحدة أخرى. أما الجرافتان فلم تستخدما. والتزمت الكلاب الهدوء.

وعلى الجانب الآخر من لوحة الإعلان كانت هناك عدّة سيارات سوداء لا تحمل إشارات خاصّة متجمّعة معاً في الظلام. وكنتُ متأكّداً من أن المدير المساعد كيمب ينتظر في إحداها. أحتقر ذلك الرجل وأودّ أن أحفر شخصياً حفرة بين عينيه، لكنّه الآن هو من يستطيع إعادة ابني إليّ.

وتذكّرتُ بعد ذلك ما مرّ به: الرعب، والخوف، والانتظار، ثمّ التسليم النهائي عندما أدرك هو وزوجته أن جيليانا لن تعود إلى البيت. وها هو الآن جالس هناك يتضرّع أن يعثر رجاله على بعض العظام، أو شيء ما يمكنه أن يدفنه بشكل صحيح. وذلك أفضل ما يمكن أن يتوقّعه: هيكل عظمي. أمّا توقّعاتي فهي أعظم وأكثر واقعية بالتأكيد.

ومع حلول منتصف الليل، كنتُ ألعن آرك سوانجير.

.2

وخلال انخراطهم في العمل طوال الليل، تناوبنا أنا والرفيق على الإغفاء قليلاً. وكنّا جائعين وفي أمسّ الحاجة لاحتساء القهوة، لكنّنا لم نكن قد أوشكنا بعد على مغادرة المكان. وفي الساعة 5:20 صباحاً، اتّصل بـي ريردون على هاتفي الخليوي وقال: «جهد لا طائل منه، يا رودّ، لا يوجد شيء هنا».

«أخبرتك بكلّ ما أعرفه، أقسم».

«أصدّقك».

«شكراً».

«يمكنك المغادرة الآن. عُد عبر الطريق السريع، ثمّ توجّه جنوباً نحو مخرج "الزوايا الأربع". سأتّصل بك ثانية خلال عشرين دقيقة».

وعندما انسحبنا، كان عمّال البحث يحزمون معداتهم. وكانت الكلاب لا تزال مرتاحة في أقفاصها. وربّما كان آرك سوانجير يراقبنا من مكان ما ويضحك. توجّهنا جنوباً، ثمّ اتّصل بـي ريردون ثانية بعد عشرين دقيقة. قال: «هل تعرف استراحة الشاحنات في "الزوايا الأربع"؟».

«أعتقد ذلك».

«توقّف عند مضخات الوقود لكن لا تشتر أيّ وقود. ادخل وستجد المطعم إلى يمينك، وفي الطرف البعيد من المطعم، بعيداً عن منضدة البيع، يوجد صفّ من المقصورات. سيكون طفلك هناك يأكل الآيس كريم».

«فهمت». أردتُ بشدّة أن أقول شيئاً ما غبياً مثل «شكراً»، كما لو أنّني مدين بالامتنان لمن اختطف ابني، ولم يؤذه، وبعد ذلك أعاده إليّ. لكنّني، وبمنتهى الصدق، تغلّبتُ على كلّ ما مرّ بـي من خلال الشعور بالراحة، والبهجة، والامتنان، والتوقّع، وبعدم التصديق الغريب بأنّ هذا الاختطاف سينتهي هكذا بهذه النهاية السعيدة. هذا لا يحدث أبداً.

بعد دقيقة، رنّ هاتفي مجدداً. كان ذلك هو ريردون، حيث قال: «اسمع يا رودّ، لا فائدة مطلقاً من متابعة هذه المسألة. لا فائدة من طرح بعض الأسئلة، أو التوجّه إلى الصحافة، ومطاردة الكاميرات، كما هو الحال في روتينك المعتاد. نحن سنهتمّ بأمر الصحافة وسنسرّب لها أنّك أنجزت عملية إنقاذ مثيرة، بعد تلقيك لمكالمة هاتفية من مجهول.

وسيستمرّ تحقيقنا في عملية الاختطاف، لكنّه لن يخرج بنتيجة. هل نحن متّفقون على ذلك، يا رودّ؟».

«نعم، أنا معك». سأوافق على أيّ شيء الآن.

«مفاد القصّة أن شخصاً ما اختطف طفلك، ثمّ حدث أنّه استاء من الطفل لأنه يتصرّف على الأرجح مثلك تماماً، فقرّر الخاطف التخلّي عنه في استراحة الشاحنات. فهمتَ القصّة، يا رودّ؟».

«فهمتها»، قلت ذلك ثمّ استطعتُ البصق خارجاً وأنا أعضّ لساني لأمنع نفسي من التلفّظ بكلّ شتيمة أحفظها.

كانت استراحة الشاحنات مغمورة بالأضواء ومزدحمة بالشاحنات التي صُفّت بشكل جميل. توقّفنا عند المضخات ثمّ أسرعتُ بالدخول. وبقي الرفيق في الشاحنة ليراقب ما إذا كان أحدهم يراقبنا. كان المطعم مزدحماً بمتناولي وجبة الفطور. وكان الجوّ عابقاً برائحة الدهون السميكة. أما منضدة البيع فقد اصطفّ أمامها طابور من سائقي الشاحنات الأقوياء المتلهفين لالتهام الفطائر والمقانق. درتُ باتّجاه إحدى الزوايا فرأيت المقصورات، فمررتُ بالأولى، ثمّ الثانية، فالثالثة، وفي المقصورة الرابعة وجدتُ ستارتشر وايتلي وحيداً تماماً، فابتسم ابتسامة عريضة من وراء طاسة كبيرة من الآيس كريم بالشوكولاتة.

قبّلته على قمة رأسه، ثمّ بعثرتُ شعره بيدي، وجلست قربه. «هل أنت بخير؟»، سألته.

استهجن السؤال وقال: «بالطبع، كما أظنّ».

«هل تعرّض لك أحد بالأذى؟».

هزّ رأسه. لا.

«قل لي، ستارتشر. هل فعل أحدٌ ما أيّ شيء لإيذائك؟».

«لا. كانوا لطفاء جداً».

«ومن هم؟ من الذي كان برفقتك منذ غادرتَ المتنزّه يوم السبت؟».

«نانسي وجو».

توقّفتْ نادلة في المقصورة. فطلبتُ بعض القهوة والبيض المخفوق والمقلي. ثمّ سألتها: «من الذي جلب هذا الطفل إلى هنا؟».

نظرتْ النادلة حولها، ثمّ قالت: «لا أعرف. امرأة ما كانت هنا منذ لحظات؛ قالت إن الطفل يريد طاسة آيس كريم. ربّما تكون غادرتْ أو ما شابه. أظنّ أنّك ستدفع ثمن الآيس كريم».

«بكلّ سرور. هل لديكم كاميرات مراقبة؟».

أومأتْ نحو النافذة. «هنالك في الخارج، لكن ليس هنا. هل ثمّة مشكلة؟».

«لا. شكراً».

وحالما غادرت النادلة، سألتُ ستارتشرا: «من جلبك إلى هنا؟».

«نانسي»، قال ثمّ تناول بعض الآيس كريم.

«انظر يا ستارتشر، أريدك أن تضع الملعقة جانباً للحظة، وأريد منك أن تخبرني عمّا حدث منذ دخلتَ غرفة الاستراحة في المتنزّه. كنتَ تتسابق بمركبك، واضطررتَ للذهاب لتتبوّل، ثمّ دخلتَ إلى غرفة الاستراحة. والآن، أخبرني ما الذي حدث».

ألصق الملعقة ببطء بالآيس كريم وتركها هناك. «حسناً، فجأة، أمسك بـي ذلك الرجل الكبير. اعتقدتُ أنّه كان شرطياً لأنه كان يرتدي زيّاً رسمياً».

«هل كان يحمل سلاحاً؟».

«لا أعتقد ذلك. وضعني في شاحنة كانت تقف خلف غرفة الاستراحة مباشرة. كان هناك رجل آخر يقود الشاحنة وقد انطلقا بسرعة فائقة. قالا إنهما سيأخذاني إلى المستشفى لأن شيئاً ما سيّئاً حدث لجدتي. وقالا إنك ستكون في المستشفى. لذا سرنا وسرنا حتى أصبحنا خارج المدينة، بعيداً في الريف، وهنالك تركوني مع نانسي وجو. غادر الرجال المكان، وقالت نانسي أن جدتي ستكون بخير، وأنّك ستمرّ قريباً لاصطحابـي».

«حسناً. كان ذلك صباح السّبت. ماذا فعلتَ في ما تبقى من يوم السّبت، وطوال يوم أمس، الأحد؟».

«حسناً، شاهدنا التلفزيون، بعض الأفلام والبرامج القديمة، ثمّ لعبنا طاولة الزهر، كثيراً».

«طاولة الزهر؟».

åææÃ. سألتني نانسي عن الألعاب التي أحبها فقلتُ طاولة الزهر. لم يعرفا ما هي، لذا ذهب جو إلى المخزن واشترى واحدة، واحدة رخيصة. ثمّ علّمتهما كيف يلعبانها، وهزمتهما أيضاً».

«كانا إذاً لطيفين معك؟».

«لطيفين جداً. استمرّا بالقول لي أنّك في المستشفى ولا تستطيع المغادرة».

أخيراً أتى الرفيق وانضمّ إلينا في الداخل. وقد سرّه أن يرى ستارتشر فربت على رأس الطفل. ثمّ طلبت منه العثور على مدير استراحة الشاحنات وأن يحدّد مكان كاميرات المراقبة؛ ثمّ يخبر المدير أنّ مكتب التحقيقات الفيدرالي سوف يطلب مقاطع الفيديو، لذا ينبغي أن يهتمّ بها.

بعد ذلك وصل البيض الذي طلبته فسألتُ ستارتشر إن كان جائعاً. قال إنه ليس جائعاً. وقد أمضى اليومين الماضيين وهو يأكل البيتزا والآيس كريم. وحصل على كلّ ما أراده.

.3

باعتبار أنّني لم يسبق لي أن دُعيت إلى بيت ستارتشر، فقد قرّرتُ عدم اصطحابه إلى هناك. وليست لدي أيضاً الرغبة في مشاهدة المواقف الدرامية والمسرحية. لذا، وقبل نصف ساعة من وصولنا إلى المدينة، اتّصلتُ بجوديث أخيراً لأنقل لها الأخبار أن ابنها بخير. وكان في أثناء ذلك جالساً في حضني بينما كنّا نسلك الطريق السريع. وقد ذُهلتْ تقريباً فعجزت عن الكلام، لذا أعطيتُ هاتفي لستارتشر. قال: «مرحباً ماما»؛ وأعتقد أنها انهارت لحظتذاك بالكامل. وبعد أن منحتهما بضع دقائق، استعدتُ الهاتف وشرحت لها أنّني تلقيتُ اتّصالاً وتعليمات لالتقاطه من استراحة الشاحنات. وطمأنتها أنه لم يتعرّض إلى أي أذى، باستثناء احتمال تناوله السكّر أكثر من اللازم.

موقف السيارات خارج مكتبها ما زال خالياً، فالساعة ما زالت 7:30 ونحن ننتظر بسلام قبل هبوب العاصفة. ثمّ اندفعت سيارة الجاغوار السوداء إلى الموقف وعلا صوت مكابحها لتتوقّف بقوّة بجانب الشاحنة.

ثمّ خرجتُ مع ستارتشر بينما كانت جوديث تخرج من سيارتها وتندفع نحو الطفل؛ لتمسكه وتشرع في التوجّع وشدّ الطفل في حضنها؛ ثمّ ظهر خلفها والداها وأفا، فتناوبوا على عصر الطفل والبكاء. لا أستطيع تحمّل هؤلاء الناس، لذا اتّجهتُ إلى ستارتشر، ثمّ شعّثتُ شعره ثانية، وقلت: «سأراك فيما بعد يا برعم».

خنقته العبارة ولم يردّ. أمّا أنا فطلبتُ من جوديث الانفراد جانباً للحظة، وحين أصبحنا بمفردنا، قلت: «هل يمكننا الاجتماع هنا مع عناصر مكتب التحقيقات الفيدرالي في وقت لاحق من هذا الصباح؟ فهناك المزيد حول الموضوع».

«أخبرني الآن»، قالت هامسة.

«سأخبرك عندما أريد إخبارك، وذلك على مسمع من محقّقي مكتب التحقيقات الفيدرالي. موافقة؟».

وهي تكره الأوضاع التي لا تكون فيها هي المسيطرة. لذا، أخذتْ نفساً عميقاً، ثمّ صرّت على أسنانها، واستطاعت القول: «بالتأكيد».

انصرفتُ بعد ذلك، ولم أعر والديها أدنى التفاتة، وصعدتُ إلى الشاحنة. وأثناء ابتعادنا، نظرتُ إلى ستارتشر وتساءلتُ متى سأراه ثانية.

.4

في الساعة 9:00 صباحاً، كنتُ في المحكمة من أجل حضور جلسة تمهيدية. وفي تلك الأثناء، انتشرت الأخبار، تسريباً حصرياً من قبل الشرطة، أنّ ابني قد عُثر عليه وأعيد إلى والديه. ثمّ منحني القاضي إذناً فأسرعت بالخروج من قاعة المحكمة. فوجدتُ بانتظاري مجموعة من الزملاء المحامين الذين يريد عدد منهم الدردشة قليلاً وتقديم التهاني. لكنّني لم أكن في مزاج مناسب لذلك.

كان فانجو كامناً يتربّص بـي في المدخل، كما فعل قبل ثلاثة أسابيع. فتابعتُ السير رافضاً النظر إليه. لكنّه نبتَ بجانبـي وقال: «يقول لينك يا رودّ إنّه منزعج جدّاً بشأن المال. وقد أخبرته عن مسألة طفلك وكلّ ما هنالك؛ وبالمناسبة، فقد أبدى قلقه على الطفل».

«أخبر لينك أن يقلق بشأن مشاكله الخاصة»، وكنتُ أكاد أقفز ونحن نتقدّم بخطى واسعة.

«هو كذلك، وقد صدف أن إحدى مشاكله هي أنت والمال».

«أمر سيئ جداً»، قلت وأسرعتُ أكثر في المشي.

جاهد لمجاراتي في المشي، وأمعن التفكير لينطق بقول ذكيّ ما، لكنّه ارتكب خطأً كبيراً حين قال: «أتعرف، بعد كلّ شيء، قد لا يكون طفلك في مأمن تامّ».

استدرتُ ووجّهتُ له لكمة يمنى حادّة استقرّت على ذقنه تماماً. أمّا هو فظلّ يسير باتّجاه اللكمة ولم يلاحظها إلا بعد فوات الأوان. ارتجّ رأسه بقوة شديدة حتى إنّني سمعت طحن العظام في مكان ما، وقد اعتقدتُ للوهلة الأولى أن رقبته قد كسرت.

لكن رقبته قويّة؛ وقد ضُرب من قبل كثيراً، والندوب على وجهه تشهد على ذلك.

تمدّد فانجو على الأرضية الرخامية، وعندما استقرّ أخيراً لم يتحرّك. كان بارداً كأنّه ميّت. فقد كانت لكمة قاضية مثالية لن أتمكّن من تكرارها. ثمّ أردتُ أن أرفسه على رأسه عدّة مرات كإجراء جيّد، لكنّني رأيتُ من زاوية عيني حركة مفاجئة. ثمة مجرم آخر يتحرّك نحوي وهو يمدّ يده إلى جيبه ليُخرج منه سلاحاً. ثمّ صرخ شخص ما من خلفي.

سقط المجرم الثاني أرضاً سقوطاً شديداً مثل فانجو عندما ضربه الرفيق على رأسه بعصا حديدية مقاومة للصدأ يحملها في جيب معطفه. وتلك العصا مصمّمة لمثل هذه المناسبات بالضبط. فعندما تُقلّص يصبح طولها حوالى ستّ بوصات، لكن حين تُمدّد يصل طولها إلى ثماني عشرة

بوصة، وهي مجهّزة بنتوء فولاذي عند طرفها. وهي يمكن أن تكسر الجمجمة بسهولة؛ وفي الحقيقة صُمّمت لتفعل ذلك. طلبتُ من الرفيق أن يناولني العصا ويختفي. بعد ذلك، أتى حارس أمن مسرعاً وألقى نظرة على المجرمين الغائبين عن الوعي. فقدّمتُ له بطاقة نقابة المحامين، وقلت: «سيباستيان رودّ، محامٍ. حاول هذان البلطجيان الاعتداء عليّ».

ثمّ تجمّع حشد من الناس. فاستيقظ فانجو أولاً، ثمّ غمغم وفرك فكّه، وحاول الوقوف لكنّه لم يستطع العثور على قدميه. ثمّ نهض أخيراً، بمساعدة من حارس الأمن، وكان لا يزال يترنّح ويريد المغادرة. لكنّ الشرطي أجلسه على مقعد قريب بينما كان رجال الإسعاف يهتمّون برفيقه. وفي النهاية، استيقظ الثاني، مع عقدة كبيرة جدّاً في مؤخرة رأسه. فوضعوا على رأسه الثلج لبضع دقائق، ثمّ أجلسوه على المقعد نفسه بجانب فانجو. وقفتُ قريباً منهما وحدّقتُ إليهما. فبادلاني النظر. ثمّ ناولني المسعفون عبوة ثلج لأضعها على يمناي.

التعرض للضرب ليس أمراً مهمّاً بالنسبة لهذين الاثنين، وهما لا ينويان التقدّم بشكوى. فذلك يتطلّب كتابة الكثير من الأوراق، وطرح الكثير من الأسئلة، مع عدم إظهار أي مقدار صغير من التسامح من قبل الشرطة. وهما يعملان لصالح لينك سكانلون ولن يجيبا عن أية أسئلة. وهما لا يكادان يستطيعان الآن انتظار الخروج من المبنى والعودة إلى الشوارع، حيث يفرضان هنالك سيطرتهما.

قلتُ للشرطة إنني لا أريد التقدّم بشكوى. وخلال انصرافي ملتُ نحو فانجو وهمستُ: «أخبر لينك أنّني إذا سمعتُ كلمة واحدة أخرى منك، أو منه، فسأذهب إلى مكتب التحقيقات الفدرالي».

نظر فانجو إليّ باحتقار كما لو أنّه سيبصق في وجهي.

.5

افترضتُ أن بعض الأيام سوف تنقضي بالتعامل مع رجال مكتب التحقيقات الفدرالي. دخلتُ بهو مؤسّسة جوديث بعد الحادية عشرة ببضع دقائق. وكانت موظفة الاستقبال تبتسم وتدردش مع إحدى المساعدات القانونيات. ابتسمتا لي وانهالتا عليّ بالتهاني. لكنّني لم أدرك ما يجري فوراً، ثمّ تبيّن لي أنّهم يعتقدون أنّني قمتُ بعمل بطولي. بعد ذلك، مدّت إحدى المحاميات رأسها من باب مكتبها وهنّأتني. فبدا أن الجوّ العام مبتهج تقريباً، ولِمَ لا؟ فستارتشر أُنقذ وهو آمن في البيت، حيث مكانه الطبيعي. سيطر علينا جميعاً الفزع والتعب والخدر، وكنّا ننتظر أن يتحوّل الكابوس إلى مأساة. لكنّ الحظّ حالفنا، بدلاً من ذلك، وانتهى الأمر نهاية سعيدة.

كانت جوديث في غرفة الاجتماعات الكبيرة والجيّدة التجهيز مع اثنين من عملاء مكتب التحقيقات الفدرالي، بيتّي وأجنيو. وبالرغم من أن يدي اليمنى متورمة قليلاً وتؤلمني بعض الشيء، إلا أنّني استطعتُ

مصافحتهما من دون أن يبدو عليّ أيّ دليل على الألم. أومأتُ لجوديث بعدم رغبتي بتناول القهوة، وسألتها عن حال ستارتشر. قالت إنه على ما يرام، وأن كلّ شيء ممتاز.

أوضح بيتّي، وهو المتحدث الرئيس في الجلسة، أنّ جوديث اتّصلت بمكتب التحقيقات الفيدرالي في وقت متأخّر من عصر السبت، لكنّهم لم يشرعوا حتى الآن في التحقيق رسمياً، أمّا أجنيو، المكلّف بتدوين محضر الجلسة، فقد انشغل بالخربشة واكتفى بالإيماء برأسه؛ ويعني بذلك أن كلّ ما يقوله بيتّي صحيح تماماً. ومكتب التحقيقات الفيدرالي لا يتدخّل عادة في حوادث الاختطاف إلى أن تطلب منهم الشرطة المحليّة ذلك، أو إذا ظهر دليل يشير إلى أن الضحيّة قد نُقل خارج حدود الولاية. ثرثر بيتّي لبعض الوقت، مُظهراً أهميته بشيء من العجرفة. وقد تركته يستمرّ حتى النهاية.

«والآن»، قال بيتّي وهو ينظر إليّ، ثمّ أضاف: «أنت طلبتَ هذا الاجتماع؟».

«نعم»، أجبت. «أنا أعرف بالضبط من الذي اختطف ستارتشر، وأعرف لماذا».

توقّف قلم أجنيو في منتصف كلمة كان يكتبها حيث تجمّد الجميع. قالت جوديث وحاجباها متقوّسان: «قل».

لذا رويتُ القصّة، كلّها.

6.

الفرح الذي أحسّت به جوديث بعد عودة ابننا تلاشى في منتصف قصّتي. وعندما أصبح واضحاً أنّ عملية الاختطاف كانت نتيجة مباشرة لقضية أخرى من القضايا السيئة السمعة التي أتولاها، تغيّرت لغة جسدها بشكل مثير وبدأ عقلها يعمل بسرعة فائقة. الآن، أخيراً، أصبح لديها برهان واضح أنّني أشكّل خطراً على ستارتشر. لذا، قد تقدِّم الأوراق للمحكمة بعد ظهر هذا اليوم.

وخلال ذلك تفاديتُ النظر في عينيها مباشرة، لكن المشاعر كانت قوية بما يكفي لنشر التوتّر في الغرفة.

وعندما انتهيتُ، بدا بيتّي منذهلاً. أمّا أجنيو فقد ملأ دفتر الملاحظات القانونية بأكمله بكتابته التي تشبه خرابيش الدجاج.

قال بيتّي: «حسناً، أظنّ أن هناك سبب جيّد لعدم رغبة الشرطة في تدخلنا في القضية».

شخر أجنيو موافقاً. أمّا جوديث فسألت: «كيف تُثبت أيّاً مما قلته؟».

«لم أقل إنني أستطيع إثباته. البرهان على ذلك سيكون صعباً، إن لم يكن مستحيلاً. قد يكون هناك مقاطع فيديو من كاميرا المراقبة تُظهر نانسي في استراحة الشاحنات، عندما أودعتْ الطفل هناك، لكنّني أراهن أنّها كانت متنكّرة بطريقة ما. وأشكّ أيضاً إذا كان ستارتشر يستطيع التعرّف على الرجل الذي التقطه من المتنزّه. أنا لا أعرف، هل لديك أيّ اقتراحات؟».

قالت: «تبدو القصّة ملفقة تماماً؛ أعني نظرية أنّ الشرطة قد تختطف طفلاً».

«إذاً، أنتِ لا تصدقينني؟»، أجبتها.

وفي الحقيقة هي تريد تصديقي. تريد أن تكون قصّتي صحيحة؛ لأنها ستستخدمها حينذاك كدليل ضدّي عندما تجرّني إلى المحكمة. لكنّها لم تجب عن سؤالي. «إذاً، ما العمل؟»، سألتُ بيتّي.

«æç. لستُ متأكّداً. سنُجري دردشة مع المسؤول عنّا وسنتصرّف بناء على ذلك».

قلتُ: «لدي اجتماع بعد ظهر اليوم مع محقّق من طرف الشرطة. سيظهرون قلقهم، وسيطرحون الكثير من الأسئلة، لكنّ المسألة ستراوح مكانها. وسيغلقون القضيّة في نهاية الأسبوع وسيكونون سعداء بالنتيجة الجيّدة».

سألني بيتّي: «وأنت، هل تريدنا أن نفتح تحقيقاً؟».

نظرتُ إلى جوديث وقلت: «ربما يجب أن نتحدّث عن المسألة أولاً. أنا أميل للادّعاء على كيمب. ما رأيك؟».

قالت: «دعنا نتحدّث حول ذلك».

التقطَ بيتّي وأجنيو الإشارة فوقفا استعداداً للمغادرة. فشكرناهما ثمّ رافقتهما جوديث إلى الباب الخارجي. وعندما عادت إلى غرفة الاجتماع، جلستْ مقابلي وقالت: «لا أعرف ما العمل. لا أستطيع التفكير بوضوح في هذه اللحظة».

«لا نستطيع السماح للشرطة بأن تفعل هذا، يا جوديث».

«أعرف، لكن أليس لديك ما يكفي من المشاكل معهم؟ وإذا كان كيمب مستميتاً بما يكفي لاختطاف طفل، فقد يفعل أيّ شيء. والآن هل فهمتَ لماذا أشعر بالعصبية حين يكون ستارتشر معك؟».

لا أستطيع المجادلة حقاً حول هذا الأمر.

«هل تعتقد أن سوانجير هو من قتل الفتاة؟»، سألتْ.

«نعم، وربّما قتل غيرها أيضاً».

«عظيم. ها هو مجنون آخر يطاردك. أنت حطام قطار، يا سيباستيان، وستسبّب الأذى لشخص ما. وآمل فقط أن لا يكون ابني. وقد حالفنا الحظّ اليوم، لكنّه قد يخذلنا غداً».

طُرق الباب فقالت جوديث: «ادخل». أخبرتها موظفة الاستقبال بوجود مراسل مع مصوّر في الخارج. كما اتّصل اثنان آخران بالمكتب. «تخلّصي منهم»، قالت، ثمّ حدّقت إليّ. يا للفوضى التي أحدثتها.

ثمّ اتّفقنا أخيراً على عدم القيام بأي شيء لبضع ساعات. وعليّ أن ألغي بناء على ذلك الاجتماع مع محقّق الشرطة؛ فالتحقيق مجرّد كذب على أية حال. وخلال مغادرتي اعتذرتُ لها، لكنّها لم تكن في وارد قبول أي اعتذار.

تسلّلتُ بعد ذلك من باب خلفي.

.7

كان المراسلون يبحثون عنّي، لكنّني حصلتُ على نصيب وافٍ من القصّة. أمّا الآخرون الذين سيودّون العثور عليّ فهم: لينك وصبيانه؛ روي كيمب عندما يسمع أنّني تحدّثت مع عملاء مكتب التحقيقات الفدرالي؛ وربما حتى آرك سوانجير، الذي قد يتّصل في أيّة لحظة ليسأل لماذا سرّبتُ الخبر إلى الشرطة.

ذهب بـي الرفيق إلى معرض «كين كارس» للسيارات لأغادر بعدها المكان بسيارة مازدا قديمة يشير عدّادها إلى أنها سارت مئتي ألف ميل. وليس ثمة محامٍ، بغض النظر عن مدى فقره، يمكن الإمساك به وهو يقود مثل هذه العربة. وأنا أعرف واحداً كان يستأجر سيارة ماسيراتي حين كان يضطر إلى إعلان إفلاسه.

قضيتُ بقيّة اليوم في شقّتي مختبئاً وأعمل على قضيتين. وفي حوالى السّاعة الخامسة، اتّصلتُ بجوديث للاطمئنان على ستارتشر. فقالت إنه

بخير، وإن المراسلين قد انصرفوا. تابعتُ بعد ذلك نشرات الأخبار المحليّة فوجدتُ أنّ «عملية إنقاذ مثيرة» هي الموضوع الرئيس. وقد استخدموا في التقارير بعض مقاطع الفيديو القديمة التي أظهر فيها داخلاً إلى مركز الشرطة وجعلوا القصّة كما لو أنّني خاطرتُ بحياتي لأنقذ ابني. وقد ابتلع المراسلون الحمقى كلّ الطعم الذي ألقته لهم الشرطة. وهذا سيمرّ أيضاً.

ولأنّني لم أنمْ سوى ستّ ساعات تقريباً خلال الاثنتين والسبعين ساعة الأخيرة، انطرحتُ أخيراً على الأريكة وسقطتُ في غيبوبة. وبعد الساعة 10:00 مساء مباشرة، رنّ هاتفي الخلوي. فدقّقتُ في هوية المتّصل، ثمّ التقطتُ الهاتف. كانت نعومي تارانت، معلّمة ستارتشر، ذلك الشيء الصغير الرائع الذي حلمتُ به لشهور. وكنتُ قد طلبتُ منها الخروج للعشاء خمس مرات فتلقيتُ خمس لاءات على التوالي. لكن الرفض كان يبدو ألطف وأنعم تدريجياً. لكنّني لا أملك الموهبة ولا الصبر على طقوس التزاوج المعتادة، والملاحقة، واللقاءات العرضية، واللقاءات الأولى، والهدايا السخيفة، والمكالمات الهاتفية الصعبة، والإحالات من أصدقاء، والدردشة التي لا تنتهي على الإنترنت. وليس لديّ أيضاً الأحشاء التي تحتمل التواجد على الإنترنت وبثّ الأكاذيب حول نفسي للنساء الغريبات. كما أنّني أخشى أنّني قد احترقتُ إلى الأبد، وأنّني خائف من تكرار كارثة جوديث. كيف يستطيع إنسان ما امتلاك ذلك المقدار من الحقارة؟.

أرادت نعومي التحدّث عن ستارتشر، وكذلك فعلنا. وقد طمأنتها إلى أنّه لم يتأذَّ على الإطلاق. وهو لن يفهم أبداً ما حدث، وأنا أشكّ في أن

أحداً سيخبره بذلك. وهو بصراحة دُلّل لمدة خمس وأربعين ساعة تقريباً من قبل شخصين عاملاه كرفيق لهما. وسيكون في المدرسة غداً ولن يحتاج إلى أي انتباه خاصّ. وقلتُ إنني متأكّد من أمّه ستصل غداً مع قائمة طويلة من الطلبات والمخاوف، لكنّها أمّه.

«يا لها من عاهرة»، قالت نعومي، متخلية بذلك عن تحفظها للمرة الأولى. وقد فوجئتُ بذلك، لكنّني أحببته مع ذلك. ثمّ قضينا بضع دقائق ونحن نذمّ جوديث وأفا، التي اتفقنا على أنّها غبية؛ لم أستمتع بهذا القدر من المرح منذ سنوات.

ثمّ فاجأتني بالقول: «دعنا نخرج للعشاء». آه، إنّها حياة البطل. قوّة الشخص المشهور. فالمراسلون يزعمون أنّني خاطرت بقطع رقبتي من أجل إنقاذ ابني، لذا فالنساء يرمين أنفسهنّ عليّ.

ثمّ أرسينا بضع قواعد. فالموعد يجب أن يكون سرّاً كبيراً. ذلك أن المدرسة لا تمنع، بشكل واضح، معلميها العزّاب من مواعدة الآباء العزّاب، لكنّها لا تفضّل ذلك بالتأكيد. ولماذا نسعى إلى المشكلة؟ فإذا اكتشفت جوديث الأمر، فقد تشتكي أو تقيم دعوى، أو أنها قد تستخرج أي شيء من حقيبتها العميقة للأعمال الخبيثة.

التقينا في الأمسية التالية في إحدى الحانات المعتمة البسيطة التي تقدّم الأطعمة التكساسية المكسيكية. وذلك كان خيارها هي، وليس خياري. وحيث أن لا أحد في المكان يتكلّم الإنكليزية، فلن يستمع أحد لما نقول. ولا أحد يهتمّ، خصوصاً أنا. نعومي في الثالثة والثلاثين من العمر

وهي تتعافى من حالة طلاق. لا أطفال لديها، لا متاع يعيقها. بدأتْ بإخباري كلّ شيء عن يوم ستارتشر في المدرسة. وكما هو متوقّع، جلبته جوديث مبكراً وكانت لديها بعض الأوامر. ثمّ سار كلّ شيء على ما يرام؛ ولم يذكر أحد محنته الصغيرة. وقد راقبته نعومي ومساعدتها في الصفّ، وبقدر ما يمكنهما أن تتأكّدا، لم يُقل له شيء من قبل رفاقه. وقد بدا طبيعياً جدّاً وأمضى يومه وكأنّ شيئاً لم يكن. ثمّ اصطحبته جوديث بعد المدرسة بعد أن استجوبت نعومي، لكنّه كان كعادته طبيعياً.

«كم من الوقت بقيتَ متزوجاً بها؟»، سألتْ مندهشة.

«تقول الأوراق أقل من سنتين، لكنّنا عشنا سوية خلال الأشهر الخمسة الأولى فقط. كانت حياة لا تطاق. حاولتُ إطالتها حتى ولادة الطفل، لكنّني اكتشفتُ أنّها كانت تواعد صديقتها الأخيرة. هربتُ، وكان الطفل قد ولد، ثمّ دخلنا في حالة حرب منذ ذلك الوقت. كان زواجنا خطأ مريعاً، لكنّها كانت حبلى».

«لم أر أبداً ابتسامتها».

«أعتقد أن ذلك يحدث مرة كلّ شهر تقريباً».

وصل الشراب بأقداح زجاجية طويلة فبدأنا بارتشافه. ثمّ مررنا بالحديث سريعاً على زواجها، وانتقلنا بعد ذلك إلى أمور أخرى أكثر بهجة. وقد تبين أنّها كانت تواعد أحدهم، وأنها تتلقى الكثير من الاتّصالات، وأنا أفهم السبب في ذلك. ذلك أنّها تملك عينان بنيّتان

ناعمتان وجميلتان وجذّابتان، ومغريتان. عينان من النوع الذي يمكنك التحديق إليهما لساعات وأنت تتساءل ما إذا كانتا حقيقتين.

أمّا أنا فأوضحتُ أنّني لا أواعد كثيراً، وليس لديّ الوقت لذلك، فلديّ عمل أكثر من اللازم، وهكذا. التنازلات المعتادة في الحياة. وقد بدت مأخوذة بعملي، وبما يتضمنه من تولي القضايا المكروهة، وسوء السمعة، والتعامل مع بعض المجرمين الذين أمثّلهم. ثمّ طلبنا طبقاً من لفائف الإنشيلادا ثمّ واصلتُ الثرثرة. ثمّ أدركتُ سريعاً أنّها تتبع تلك القاعدة التي يجيدها كل محادث بارع: دع الشخص الآخر يواصل الحديث. لذا، تراجعتُ إلى الخلف وسألتها عن عائلتها، وعن دراستها الجامعية، وعن الوظائف الأخرى التي سبق وأن شغلتها.

طلبتُ كأسين آخرين من الشراب، ولم تكن هي قد أنهت نصف كأسها الأول، ثمّ تبادلنا سرد القصص حول ماضي كلّ منا. وصل طبق كبير من لفائف الإنشيلادا لكنّها بالكاد لاحظت ذلك. ويمكنني الحكم، من خلال شكلها وهيئتها، أنّها ذات شهيّة كشهيّة طائر. أمّا أنا فلا أستطيع تذكّر آخر مرة مارست فيها الجنس، لذلك، كلّما طال حديثنا سيطر عليّ هذا الموضوع أكثر. وحين انتهيتُ من تناول الطعام واحتساء الشراب، كنت أقاوم الرغبة في الاندفاع نحوها عبر المنضدة.

لكن نعومي تارانت ليست مندفعة. وهذا سيستغرق وقتاً. واليوم هو الثلاثاء، لذا سألتها مذا ستفعل الأربعاء. فلم تُجب.

«هل تعرف ماذا أحبّ حقاً؟»، سألتْ.

ماذا؟ أيّ شيء.

«قد يبدو ذلك شاذّاً نوعاً ما، لكنّني متشوّقة حقاً لمعرفة فنون الدفاع الذاتي المختلطة».

«قتال الأقفاص؟ تريدين الذهاب إلى مباراة في قتال الأقفاص؟»؛ سألتها منذهلاً.

«هل هي آمنة؟»، سألتْ، فتذكرتُ الحادثة الصغيرة التي تضمّنت الاضطرابات ونجاة ستارتشر بأعجوبة من الكارثة. قاضتني جوديث ثانية بعدها وتلقت نعومي مذكرة إحضار للشهادة.

«إذا لم يقع شجار، فهي آمنة جداً»، قلتُ. «دعنا نذهب»، قالت. وفي الحقيقة، فإن النصف، على الأقل، من جمهور المتحمّسين الذين يحضرون المباريات ويصرخون مطالبين برؤية الدم هم من النساء.

حددنا تاريخ الذهاب بيوم الجمعة القادم. وقد أبهجني ذلك لأن هناك مقاتل شاب آخر ينبغي أن أقيّمه. وكان مدير أعماله قد اتّصل بـي وصرح بحاجته إلى بعض الدعم المالي.

.8

من غير المستغرب أن دوغ رينفرو لم يتعافَ ولم يتقبل أمر مقتل زوجته برصاص إحدى فرق النخبة المسمّاة سوات. ولم يتبق على الشروع في المحاكمة المدنية سوى شهرين، لكن دوغ يبدو غير مبال بها. فهو يقضي يومه في المحكمة وليس مستعدّاً لتحمل عذابات محاكمة أخرى.

قابلته على الغداء في محل لبيع وتقديم الأطعمة الباردة المستوردة، وكان خالياً من الزبائن، وقد أذهلني مظهره. ذلك أنه فقد الكثير من وزنه؛ خسر الكيلوغرامات التي أحتاجها أنا. وقد بدا وجهه نحيفاً وشاحباً، وفي عينيه ألم وضياع رجل مهزوم ووحيد.

قضم قطعة من شريحة اللحم وقال: «عرضتُ البيت للبيع. لا أستطيع البقاء هناك، فيه الكثير من الذكريات. يمكنني رؤيتها في المطبخ. يمكنني الإحساس بنومها إلى جانبي في السرير. يمكنني سماع ضحكاتها على الهاتف. يمكنني أن أشتمّ روائح مستحضرات زينتها. لا تزال موجودة

في كلّ مكان، يا سيباستيان، وهي لا تغادر. والأسوأ من كلّ ذلك هو أنّني لا أستطيع التوقّف عن استعادة تلك الثواني القليلة الأخيرة، إطلاق النار والصيحات والدمّ. وأنا ألوم نفسي كثيراً على ما حصل من خطأ. وكثيراً ما أغادر البيت عند منتصف الليل لأذهب بحثاً عن فندق رخيص حيث أدفع ستّون دولاراً وأظلّ أحدّق إلى السقف حتى شروق الشمس».

«أنا آسف، يا دوغ»، قلتُ له، وأضفت: «بالتأكيد لستَ الملوم على ما حدث».

«أعرف. لكنّني لست متّزناً. أضف إلى ذلك أنّني أكره هذه المدينة الملعونة. كلّما رأيت شرطياً أو رجل إطفاء أو عامل قمامة أبدأ بلعن المدينة والحمقى الذين يديرونها. لم أعد أستطيع دفع الضرائب لهذه الحكومة. لذا، يجب أن أغادر».

«ماذا عن عائلتك؟».

«سأراهم حينما أحتاج إلى ذلك. لدى كلّ منهم حياته الخاصّة. وينبغي أن أعتني بنفسي هذه المرة، وهذا يعني أنّني أحتاج إلى بداية جديدة في مكان ما».

«إلى أين ستذهب؟».

«تتغيّر وجهتي كلّ يوم، لكنّها تبدو الآن وكأنّها نحو نيوزيلندا. إلى أبعد مكان يمكنني الوصول إليه. ومن المحتمل أن أتخلى عن جنسيتي لكي لا أضطر إلى دفع الضرائب هنا. أنا عجوز مرّ يا سيباستيان، ويجب أن أبتعد».

«وماذا عن المحاكمة المدنية؟».

«لا أريد السير في محاكمة. أريد منك أن تنهيها حالما تستطيع ذلك. اللعنة، لا يتجاوز التعويض الذي ستتحمّله المدينة المليون. سيدفعون ذلك، أليس كذلك؟».

«نعم، أفترض ذلك. لم أتباحث معهم في مسألة التعويض، لكنّهم لا يريدون أيضاً الذهاب إلى المحاكمة».

«هل هناك طريقة للحصول على أكثر من مليون؟».

«ربّما».

أخذ رشفة من كوب الشاي ببطء وحدّق إليّ، ثمّ سأل: «كيف؟».

«لدي بعض المعلومات الوسخة عن دائرة الشرطة. بعض الفضلات التي تعتبر قذارة صافية. الابتزاز هو ما أفكر فيه».

«أحبّ ذلك»، قال مع ابتسامة، هي الأولى والوحيدة. «هلّ تستطيع التحرّك بسرعة؟ أريد المغادرة. لستُ بخير في هذا المكان».

«سأرى ما يمكنني فعله».

.9

عندما رنّ هاتفي الخلوي بعد منتصف الليل، لم تكن تلك مكالمة أريد تلقيها أبداً. في الساعة 12:02 التقطتُ الهاتف ورأيت أن المتّصل هو الرفيق. «يا رئيس»، قال بصوت ضعيف ثمّ أضاف: «حاولوا قتلي».

«هل أنت بخير؟».

«ليس تماماً. لديّ بعض الحروق لكنّني سأكون بخير. أنا في المستشفى، الكاثوليكي. يجب أن نتحدّث».

تسلّحتُ بمسدس غلوك 19 تحت إبطي الأيسر، وارتديت معطفاً ثقيلاً وقبعة فيدورا بنيّة، ثمّ نزلتُ إلى موقف السيارات لاسترجاع سيّارة المازدا المتهالكة. وبعد عشر دقائق دخلتُ جناح إي آر في المستشفى وألقيتُ التحيّة على المدعو جوكي سادلر، وهو أحد أكثر المحامين فساداً في المدينة. يجوب جوكي غرف الطوارئ والإسعاف في المدينة ليصطاد الزبائن من الجرحى والمصابين. ومثل عُقاب، يتريّث في المداخل مترقّباً الأهل

والأقارب المذهولين والمضطربين جدّاً والعاجزين عن التفكير بشكل واضح. وهو معروف بتناول الغداء والعشاء في مطاعم المستشفى حيث يعمد إلى تمرير بطاقاته الشخصية إلى أولئك الذين يعانون من كسور في العظام. وكان قد دخل في السنة الماضية في عراك بالقبضات مع سائق شاحنة سَحب كان يخاصم عائلة ضحيّة حادث سير. كلاهما اعتقل، لكن جوكي استفاد من نشر صورته في الصحيفة. أمّا نقابة المحامين فقد لاحقته لسنوات لكنّه بارع جداً.

«رجلك في نهاية القاعة»، قال مشيراً بيده مثل أحد أولئك المتقاعدين الذين يتطوّعون للعمل في المستشفيات ويرتدون السترات الوردية. في الحقيقة ضُبط مرّة وهو يرتدي إحدى تلك السترات متظاهراً بصفة مستقبلي الزوار. وضُبط أيضاً وهو يرتدي سترة سوداء وياقة بيضاء مدّعياً أنّه كاهن. جوكي هذا شخص حقير ولا يبالي بارتكاب المخالفات، لكنّني أحترمه. فهو يعمل في الظلام، ويصطاد في مياه القانون العكرة، لذا بيننا أمور مشتركة كثيرة.

وجدتُ الرفيق مرتدياً رداء المرضى، جالساً على منضدة الكشف الطبـي، وذراعه اليمنى مغطّاة بالضمادات. ألقيتُ نظرة وقلت: «حسناً، أخبرني عمّا حدث».

كان مغادراً أحد المطاعم التي تفتح أبوابها طوال الليل وتبيع وجبات الدجاج حاملاً وجبة خفيفة له ولأمّه. دخل الشاحنة، ثمّ أدار محركّها وبدأ بالرجوع إلى الخلف، فانفجر ذلك الشيء الملعون. إنّها قنبلة، وربّما كانت مكوّنة من أنواع الغازولين، وقد تكون ثُبّتت بخزّان

الوقود وفُجّرت من بُعد من قبل شخص ما يجلس في سيارة متوقفة في مكان قريب. استطاع الرفيق الخروج بصعوبة، وهو يتذكّر أنّه سقط على الرصيف بسترته المحترقة. زحف بعيداً وراقب الشاحنة وهي تتحوّل إلى كرة نارية. حضرت الشرطة سريعاً وانتشر رجال الإطفاء في كلّ مكان، وساد الجوّ الكثير من الإثارة. لم يستطع في تلك الأثناء العثور على هاتفه. بعد ذلك عمل مُسعف طبيّ على قطع سترته ونقلوه إلى سيارة إسعاف. وحين أدخلوه إلى قسم الطوارئ في المستشفى سلّمه شخص ما هاتفه.

«آسف يا رئيس»، قال.

«ليست غلطتك بالضبط. فكما تعرف، تلك الشاحنة مؤمّنة تأميناً شاملاً، لمناسبات كهذه. وسنحصل على واحدة جديدة».

«كنتُ أفكّر بشأن ذلك»، قال عابساً.

«أوه، حقاً؟».

«نعم، يا رئيس. قد يكون من المستحسن أن نحصل بدلاً منها على شيء ليس واضحاً جدّاً، ولا يسهل التعرّف عليه وملاحقته. هل فهمت ما أقصد؟ على سبيل المثال، قبل أيام قليلة كنتُ أقود على الطريق السريع فتجاوزتني شاحنة نقل بيضاء تابعة لإحدى خدمات توصيل الزهور. شاحنة بيضاء قياسية المظهر، بمقاس شاحنتنا تقريباً، ثمّ فكّرتُ في نفسي قائلاً: «تلك هي الطريقة التي يجب أن نتّبعها. لن يلاحظ أحد أبداً شاحنة بيضاء تحمل على جانبيها كتابات وأرقاماً». وهو أمر صحيح. ينبغي أن نتوارى، يا رئيس، لا أن نبرز من بين الحشود».

«وما الذي ينبغي أن نكتبه بالضبط على جانبـي شاحنتنا الجديدة؟».

«لا أعرف، شيء ما خيالي. خدمة بِتّ للتوضيب. فريد للزهور. مايك لتعهدات البناء. لا يهمّ حقاً، مجرّد شيء ما للاندماج مع عامّة الناس».

«لستُ متأكّداً من أن زبائني سيتقبّلون شاحنة بيضاء عامة تحمل اسماً مزيفاً مكتوباً على جميع أنحائها. زبائني فطنون جداً».

ضحك ساخراً ممّا قلته. فالموكّل الأخير الذي دخل شاحنتي كان آرك سوانجير، القاتل المحترف المحتمل. ظهر فجأة طبيب شاب ثمّ وقف بيننا من دون أن ينبس بكلمة. فحص الضمادات وسأل الرفيق أخيراً عن حالته. «أريد الذهاب إلى البيت»، قال. ثمّ أضاف «لا أريد المبيت هنا».

وافق الطبيب على ذلك. ثمّ حمَّل الرفيق الكثير من الضمادات، وأعطاه بعض مسكّنات الآلام، واختفى. ثمّ أنجزت الممرضة المسؤولة عن خروج المرضى الأوراق اللازمة. بعد ذلك ارتدى الرفيق ملابسه الداخلية غير المحترقة، وجواربه، وحذاءه وخرج مع بطانية رخيصة لفّها حول الجزء الأعلى من جسمه. غادرنا المستشفى وانطلقنا بالسيارة إلى مطعم الدجاج.

كانت الساعة 2:00 ليلاً تقريباً ولا تزال هناك عربة شرطة متوقفة قرب مسرح الجريمة. وثمّة شريط أصفر يحيط بموقع الشاحنة، والتي لا تعدو كونها مجرّد هيكل أسود محترق. «ابقَ هنا»، قلتُ للرفيق

وخرجتُ من السيارة. ولم أكد أقطع مسافة أربعين قدماً وأتوقّف عند الشريط الأصفر، حتى اتّجه نحوي شرطي.

«لا تقترب أكثر، يا صاحبـي»، قال. «هذا مسرح جريمة».

«ماذا حدث؟»، سألته.

«لا أستطيع القول. التحقيق جارٍ. ينبغي أن تبتعد».

«لا أمسّ أيّ شيء».

«قلتُ لك ابتعد، هل فهمت؟».

سحبتُ بطاقة عمل من جيب قميصي وناولته إياها. «أنا مالك الشاحنة، مفهوم؟ كانت قنبلة غازولين أُلصقت بخزان الوقود. محاولة اغتيال. رجاءً اطلب من محقّقك الاتّصال بـي لاحقاً هذا الصباح».

نظر إلى البطاقة لكنّه عجز عن الإتيان بردّ.

عدتُ إلى السيارة وجلست صامتاً لبضع دقائق. «هل تريد بعض الدجاج؟»، سألتُ الرفيق أخيراً.

«لا. لم تعد لديّ شهية كبيرة الآن».

«أعتقد أنّني أرغب في بعض القهوة. وأنت؟».

«بالتأكيد».

خرجتُ من السيارة ثانية ودخلت المطعم. ليس هناك زبائن، والمكان شبه ميّت، والسؤال البديهي، لماذا يبقى مطعم دجاج مفتوحاً

أربعاً وعشرين ساعة طوال الأسبوع؟ لكن هذا سؤال يُطرح على شخص آخر. كان ثمة فتاة سوداء تضع حلقتين في منخريها تتلكّأ قرب صندوق النقود. «قهوتان رجاءً»، قلت. ثمّ أضفت: «من دون قشطة».

أزعجها ذلك قليلاً لكنّها بدأت بالتحرّك على أية حال. «دولاران وأربعون سنتاً»، قالت وهي تمسك قدراً، يبدو أنّه لم يمسّ منذ ساعات. وبينما كانت تضع الكوبين على العدّاد، قلتُ: «الشاحنة هناك تعود لي».

«حسناً، أظنّ أنّك تحتاج إلى شاحنة جديدة»، ردّت مع ابتسامة وقحة. يا للذكاء.

«يبدو الأمر كذلك. هل رأيتها وهي تنفجر؟».

«لا، لم أرها، لكنّني سمعتها».

«وأراهن أنّك، أو أحد زملائك في العمل، قد خرج مسرعاً بهاتفه الخلوي وصوّر ذلك بالفيديو، صحيح؟».

أومأتْ بتعجرف. نعم.

«هل أعطيته للشرطة؟».

تكشيرة. «لا، أمتنع عن فعل أي شيء يساعد البولـ...يس».

«سأعطيك مائة دولار إذا أرسلتِ لي الفيديو بالبريد الإلكتروني، ولن أخبر أحداً».

أخرجت هاتفها من جيب رداء الجينز وقالت: «هات عنوانك والنقود».

أتممنا الصفقة. ثمّ سألتها قبل أن أخرج: «هل هناك أيّ كاميرات مراقبة في الخارج؟».

«لا. سبق وأن سأل البوليس عن ذلك. يا رجل، مالك هذا المكان رخيص جداً».

في السيارة، حدّقنا أنا والرفيق إلى شاشة هاتفي الخلوي وشاهدنا الفيديو، ولم يكن ما رأيناه سوى كرة من اللهب كما سبق وأن وصفها. وقد لبّت على الأقل سيارتا إطفاء النداء واستغرقتا بعض الوقت لإخماد النيران. استمرّ الفيديو لمدّة أربعة عشر دقيقة، وبالرغم من أهمية مشاهدته لأنه يُظهر احتراق شاحنتي، إلا أنّه لم يكشف شيئاً مفيداً. وعندما توقّف الفيديو على الشاشة، سأل الرفيق: «حسناً، من هو؟».

أجبتُ: «أنا متأكّد من أنّه لينك. لقد برحنا اثنين من مجرميه ضرباً يوم الاثنين. هذه مقابل تلك. نحن نلعب بخشونة الآن».

«هل تعتقد أنّ لينك في البلاد؟».

«أشكّ في ذلك. ذلك سيكون خطراً جداً بالنسبة إليه. وأراهن أنّه قريب، مع ذلك، ربّما في المكسيك أو الكاريبـي، في مكان ما يكون فيه بعيد المنال، لكنّه مكان يسهل الوصول إليه والعودة منه».

أدرتُ المحرّك وابتعدنا عن المكان. وقد أدهشني مقدار انطلاق الرفيق في الحديث الليلة. ويبدو أن الحماس يحلّ عقدة لسانه. ويمكنني الجزم أنّه يشعر بالألم، لكنّه لن يعترف بذلك.

«هل وضعت خطّة؟»، سألني.

«نعم. أريدك أن تعثر على ميغيل زابات، شقيق تاديو. فالآن، وبعد أن انتهت مهنة الفنون القتالية المختلطة التي كان يحلم بها، أنا متيقّن، تقريباً من أن ميغيل يكرّس كلّ وقته لتوزيع المخدّرات. أريدك أن توضّح لميغيل أنّني أحتاج إلى بعض الحماية؛ وأنّني أدافع مجاناً عن أخيه الصغير المتّهم بجريمة قتل، كخدمة مجانيّة بالكامل، لأنّني أحبّ الفتى وهو لا يستطيع تحمّل تكاليف أتعابي؛ وأنّني أتعرّض لمتاعب من بعض المجرمين الذين يعملون لصالح لينك سكانلون. والمدعو فانجو أحدهم، مع العلم أنّني لم أعرف أبداً اسمه الحقيقي.

«يدعونه توبي (البدين). توبي فانجو، لكن اسمه الحقيقي داني».

«رائع. من هو الآخر، ذلك الذي نقرته بعصاك الصغيرة؟».

«يدعى رازور (شفرة)، رازور روبيليو. أمّا اسمه الحقيقي فهو آرثر».

«بدين وشفرة»، قلتُ، هازّاً برأسي. «متى أجريتَ هذا البحث؟».

«بعد المشاجرة يوم الاثنين الماضي، قرّرتُ التطفّل قليلاً. لم يكن ذلك صعباً، حقاً».

«عمل جيّد. أعطِ الأسماء لميغيل وأخبره بضرورة الاتّصال بهؤلاء الأولاد والطلب منهم الابتعاد عنّا. ميغيل وصبيانه يديرون شبكة مخدّرات، شيء كان يسيطر عليه لينك قبل ثلاثين سنة. من غير المحتمل أن البدين والشفرة قد التقيا بميغيل، لكن ما يدريك. فهناك دائماً روابط وصلات غريبة بين البواليع والمجاري السفلى. رجاءً أوضح الأمر تماماً لميغيل بأنّني لا أريد أن يصاب أي أحد بأذى؛ فقط بعض التخويف. مفهوم؟».

«مفهوم، يا رئيس».

وصلنا إلى منطقة المشاريع السكنية الحكومية حيث يقطن الرفيق. كانت الشوارع معتمة وخالية. على أية حال، إذا خرجتُ من سيارتي في هذه اللحظة وأظهرتُ وجهي الأبيض، فسأجذب بعض أنواع الترحيب غير السارة فوراً. ارتكبتُ ذلك الخطأ مرة من قبل، لكن، شكراً لله، كان الرفيق معي. توقّفت عند الرصيف أمام المبنى الذي يقطنه، وقلت: «أعتقد أن الآنسة لويلا تنتظر».

أومأ برأسه وقال: «اتّصلتُ بها وأخبرتها أنه مجرّد خدش. ستكون على ما يرام».

«هل تريد أن أدخل معك؟».

«لا، يا رئيس. تكاد تبلغ الثالثة. اذهب ونم قليلاً».

«اتّصل بـي إذا احتجتَ إلى أيّ شيء».

«نعم، يا رئيس. هل سنبتاع شاحنة جديدة غداً؟».

«ليس بعد. يجب أن أتعامل مع الشرطة ومع شركة التأمين».

«أحتاج إلى بعض العجلات. هل تمانع إذا شرعتُ بالبحث على الإنترنت؟».

«ابدأ بذلك. واحذر».

«فهمت، يا رئيس».

.10

ولأنني لا أستطيع، في هذه اللحظة، تحمّل فكرة وجودي في محضرها، وهي تفضّل بالتأكيد أن تتجنّب النظر إلي، قرّرنا جوديث وأنا أن ننجز الأمور عبر الهاتف. وقد بدأنا الحديث بأمر سارّ بعض الشّيء يتعلّق بآخر التطوّرات المتعلّقة بابننا. وهو يحيا بشكل جيّد، ولم يلحق به أيّ ضرر، ولا رغبة لديه في التحدّث حول ما حدث نهاية الأسبوع الماضي. وبعدما فرغنا من ذلك، بدأنا العمل.

قرّرت جوديث أنّها لا تريد متابعة تحقيق مكتب التحقيقات الفيدرالي وتوجيه التهم ضدّ روي كيمب في قضية الاختطاف. ولديها في ذلك أسبابها، وهي أسباب قويّة. فالحياة جيّدة. وستارتشر بخير. [illegible] كان كيمب وشركاؤه مستميتون بما يكفي لاختطاف طفل مقابل معلومات، فمن يعلم ما الذي سيفعلونه إضافة إلى ذلك. لندعهم وشأنهم. إضافة إلى ما تقدّم، إن إثبات تورّط كيمب يبدو مستحيلاً. وهل يمكننا أن نثق أن مكتب التحقيقات الفيدرالي سيلاحق حقاً مسؤولاً أمنياً

ذي مرتبة عالية؟ وفوق ذلك فإن جدول أعمالها مكتظ بالمحاكمات. وهي لا تريد الانخراط في ما يصرف انتباهها عن عملها. ولماذا يجب أن نعقّد حياتنا المرهقة أساساً؟

جوديث مقاتلة، وهي امرأة صلبة لا تتراجع عن شيء تريده. وهي أيضاً خبيرة في تكتيك التآمر وتتفادى الأخطار التي تنجم عن النتائج غير المقصودة. فإذا أصررنا على التحقيق مع كيمب، فليست لدينا فكرة عمّا قد يحدث لاحقاً. وحيث إننا نتعامل مع رجل قاس لا يفكّر بشكل واضح، فمن باب الذكاء الافتراض أن الانتقام وارد.

وقد فاجأها أنّني لم أجادل في الأمر. لذا توصّلنا إلى اتفاقية، وهو أمر نادر الحدوث في علاقتنا.

.11

عمدة مدينتنا رجل فاز بمنصبه للمرة الثالثة ويحمل اسماً بارزاً هو áÅ. وودرو سوليفان الثّالث. أمّا بالنسبة إلى الجمهور والناخبين، فهو بكلّ بساطة وودي، المبتسم، الذي يصفعك على قفاك تودّداً؛ وهو من ذلك النوع الودود الذي يَعِد بأيّ شيء مقابل صوت انتخابـي. أمّا في السرّ، مع ذلك، فهو وقح، نزق، مستاء من عمله ويشرب كثيراً. لكنه لا يستطيع الانصراف من وظيفته، إذ ليس له مكان آخر. وهو على وشك أن يُعاد انتخابه السنة القادمة ويبدو كما لو أنه بلا أصدقاء. وتبلغ نسبة تأييده الآن حول 15 بالمائة، وهو مستوى متدن بما يكفي لإجبار أيّ سياسي فخور بنفسه على الشعور بالخزي. لكن وودي استطاع القتال والانتصار من قبل. وهو يفضّل أن يفعل أيّ شيء ينجيه من المعاناة التي سيشعر بها خلال الاجتماع الذي نوشك أن نعقده.

أمّا الرجل الثالث الحاضر في غرفة الاجتماع فهو محامي المدينة، موس كورجان، وهو زميل قديم لي في كلية الحقوق. وقد احتقر أحدنا

الآخر منذ البداية ولم يتحسّن الأمر بعد ذلك. وبعد تخرّجه من كلية الحقوق توجّه إلى مهنة مذهّبة في مؤسّسة محاماة كبرى؛ وهي مؤسّسة تكاد تنفجر من الداخل من شدّة الضغط مما جعله يناضل طوال الوقت من أجل الحصول على عمل أقل.

وودي وموس. يبدو ذلك أشبه بإعلان عن معدّات الصيد.

اجتمعنا في مكتب عمدة المدينة، وهو عبارة عن غرفة رائعة في الطابق الأعلى من مبنى البلدية، ذات نوافذ عالية ومناظر مطلّة على المدينة من ثلاثة اتّجاهات. صبّت لنا سكرتيرة المكتب القهوة من إبريق فضّي قديم بينما كنّا نأخذ أماكننا حول منضدة اجتماعات صغيرة في إحدى زوايا المكتب. وقد كافحنا خلال الدردشة الإلزامية لإجبار أنفسنا على الابتسام والتصرّف بارتياح.

وكنت قد عمدتُ خلال الجلسات التمهيدية في المحاكمة المدنية، إلى تسريب نيّتي في استدعاء الرجلين إلى منصّة الشهود. وقد خيّمت هذه الحقيقة فوق منضدة الاجتماع مثل غيمة قاتمة وجعل التأدّب الاحترافي شبه مستحيل.

قال وودي بشكل عنيف: «نحن نتحدّث هنا عن تسوية، أليس كذلك؟».

«نعم»، قلت واستخرجت بعض الصحف من حقيبتي. «عندي اقتراح؛ اقتراح طويل بالأحرى. موكّلي، دوغ رينفرو، يفضّل إسقاط كلّ التهم وأن يواصل حياته، أو ما تبقّى منها».

«أنا أستمع»، قال وودي بوقاحة.

«شكراً لكم. أولاً، رجال الشرطة الثمانية الذين قتلوا كيتي رينفرو يجب أن يُطردوا. وهم كانوا في إجازة إدارية حين حدثت جريمة القتل، æ...».

«هل ينبغي أن تستخدم كلمة 'جريمة قتل'»، قاطعني وودي.

«لم تتم إدانتهم بأيّ شيء»، أضاف موس.

«حسناً، نحن لسنا في قاعة محكمة، وإذا أردتُ استخدام كلمة 'جريمة قتل' فسأستخدمها. وبصراحة، ليس هناك كلمة أخرى في اللغة الإنجليزية تكفي تماماً لوصف ما فعله صبيانك في فرقة سوات. كانت جريمة قتل. ومن المحرج أنّ هؤلاء المجرمين لم يُطردوا وأنّهم ما زالوا يحصلون على رواتبهم الكاملة. يجب أن يُطردوا. هذا أوّلاً. ثانياً، رئيسهم يجب أن يذهب معهم. وهو أحمق عاجز ما كان ينبغي توظيفه. وهو يشرف على قسم فاسد. وهو أبله، وإذا كنت لا تصدّقني، فاسأل ناخبيك. وطبقاً للاستفتاء الأخير، فإن نسبة 80 بالمائة على الأقل من الناس في هذه المدينة تريد طرده».

أومأا برأسيهما بأسف، لكنهما لم يستطيعا النظر في عيني مباشرة. فكلّ ما قلته قيل على الصفحة الأولى من صحيفة «كرونيكل». وأجرى مجلس المدينة تصويتاً علنياً بحجب الثّقة كانت نتيجته ثلاثة مقابل واحد ضدّ رئيس الشرطة. لكن عمدة المدينة لن يطرده.

إنّ الأسباب بسيطة ومعقّدة في الوقت عينه. فإذا طُرد رجال الشرطة الثمانية ورئيسهم قبل المحاكمة المدنية، فقد يصبحون شهوداً ضدّ سلطات المدينة. لذلك من الأفضل أن يظلّ فريق السلطة متّحداً في دفاعه ضدّ دعوى رينفرو.

تابعتُ الحديث: «وعندما تُحفظ الدعوى يمكنك طردهم أخيراً، أليس كذلك؟».

قال موس: «هل هناك حاجة لأن أذكرك بأنّ مسؤوليتنا محدّدة بمبلغ مليون دولار؟».

«لا، لا تحتاج إلى ذلك. أنا مدرك تماماً لذلك. سنأخذ نحن المليون كتسوية، وأنت ستطرد رجال الشرطة الثمانية ورئيسهم فوراً».

«اتّفقنا!»، صرخ وودي عبر المنضدة كما أنّه ضربها بنخلة. «اتّفقنا! ماذا تريد غير ذلك؟».

بالرغم من أنّ سلطات المدينة ستتحمّل دفع مليون تافه، إلا أن الرجلين خائفين من احتمال مواجهة محاكمة أخرى. فأثناء المحاكمة الأولى، عرضتُ بالتفصيل المثير، المخالفات الإجمالية لقسم شرطتنا، ونشرت صحيفة «كرونيكل» ذلك على صفحتها الأولى لمدّة أسبوع. وقد توارى عن المشهد عمدة المدينة، ورئيس الشرطة، ومحامي المدينة، وأعضاء المجلس. لذلك فإنّ الشيء الأخير الذي يريدونه هو محاكمة علنية مثيرة أخرى أذلّ فيها سلطات المدينة.

«أوه، أريد أكثر من ذلك بكثير، العمدة»، قلت. نظرا إلي معاً بوجهين خاليين من التعابير. ثمّ بدأ الخوف يظهر ببطء في أعينهما. «أنا متأكّد من أنّك تتذكّر قصّة ولدي الصغير الذي اختُطف السّبت الماضي. مسألة مخيفة جدّاً، لكنّها انتهت على خير وكلّ ذلك الهراء السعيد. لكن ما لا تعرفه هو أنّه اختُطف من قبل أفراد في قسم شرطتك».

ذاب مظهر الرجل القاسي الذي يتصنّعه وودي حيث تدلّى وجهه وشحب. أمّا موس، جندي البحرية السابق، والفخور ببنيته المثالية، فلم يستطع في تلك اللحظة منع كتفيه من التهدّل. وقد زفر من الضيق بينما دسّ عمدة المدينة أظفره بين أسنانه. ثمّ التقت أعينهما سريعاً؛ وفيها نظرات رعب متماثلة.

ومع قليل من الأداء المسرحي، ألقيتُ مستنداً على المنضدة، بعيداً بعض الشيء عنهما. قلت: «هذه شهادة في عشر صفحات، موقّعة من قبلي، أصف فيها تحت القسم الاختطاف؛ اختطاف دُبّر من قبل مدير الشرطة المساعد روي كيمب، في محاولة لإجباري على البوح بموقع جثة ابنته المفقودة. والمدعو آرك سوانجير لم يكن أبداً موكّلي، على النقيض مما قرأت وما تعتقد، لكنّه أخبرني بالموضع الذي يفترض أن الجثة دفنت فيه. وعندما رفضتُ أن أمرّر هذه المعلومات إلى الشرطة، اختُطف ابني. خضعتُ، وأخبرت المحقّق ريردون بما أعرف، فحفروا حفراً شاملاً في الموقع ليلة الأحد الماضي. لم يجدوا شيئاً؛ لم تكن الجثّة هناك. ثمّ أطلق كيمب سراح ابني. ويريدني الآن أن أنسى الأمر، لكن ذلك لن يحدث. أنا أعمل على الأمر مع مكتب التحقيقات الفدرالي. وأنت تعتقد أن لديك

مشاكل مع قضية رينفرو، انتظر فقط إلى أن يكتشف الناس في المدينة كم هو متعفّن قسم شرطتك حقاً».

«هل تستطيع أن تثبت ذلك؟»، قال موس بحنجرة جافّة.

نقرتُ على مستند الشهادة وأجبت: «كلّ شيء موجود هنا. وهناك مقاطع فيديو من كاميرا مراقبة في موقف الشاحنات حيث وجدت ابني. كما أنه يستطيع أن يميّز أحد مختطفيه، وهو شرطي. ومكتب التحقيقات الفيدرالي مندفع خلف الأثر ويطارد الأدلّة».

لم يكن ما قلته صحيحاً كليّاً، بالطبع، لكن كيف سيعلمون؟ وكما هو الحال في أيّة حرب، الحقيقة هي الضحية الأولى. أخرجتُ مستنداً آخر من حقيبتي ووضعته بجانب مستند الشهادة. «وهذه مسوّدة أوّلية لدعوى أنوي تقديمها ضدّ سلطات المدينة بجريمة الاختطاف. وكيمب، كما تعرف، لا يزال على رأس عمله، وما زال على قائمة رواتبك، ما زال موظفاً. وأنا سأقاضيه، وأقاضي قسم الشرطة، وسلطات المدينة بالجريمة التي ستكون على الصفحات الأولى من الساحل إلى الساحل».

«تريد طرد كيمب أيضاً؟»، سألني موس.

«لا يهمّني إذا بقي كيمب أو طُرد. فهو شاب محترم وشرطي جيّد. وهو أيضاً أبٌ مستميت يعاني الأمرّين. يمكنني إعطاؤه استراحة».

«لطف بالغ منك»، غمغم وودي.

«وما علاقة ذلك بالتسوية؟»، سأل موس.

«كلّ شيء. سأدفن الدعوى وأنساها، وأواصل حياتي، وأراقب طفلي. لكنّني أريد مليون دولار آخر لرينفرو».

فرك عمدة المدينة عيناه بظاهر كفيه بينما تدلّى موس وانخفض أكثر. ثمّ ارتبكا ولم يتمكّنا لمدّة دقيقة من إيجاد الكلمات الكافية للردّ. أخيراً، غمغم وودي بالأحرى: «غائط مقدّس مثير للشفقة».

«هذا ابتزاز»، قال موس.

«هو كذلك بالتأكيد، لكن الابتزاز الآن ليس سوى طرف العصا. في أعلاها جريمة قتل، يليها الاختطاف. ولا أنصحك بخوض مسابقة في التبوّل معي».

استطاع عمدة المدينة تقويم عموده الفقري وقال: «وكيف يفترض بنا إيجاد مليون دولار آخر وتمريره لك وللسيّد رينفرو من دون أن يسرّبه شخص ما إلى الصحافة؟».

«أوه، لقد حرّكتَ أموالاً من قبل، حضرة العمدة. وقد كُشف أمرك أكثر من مرّة، وقد أحرجتك الفضائح، لكنّك تعرف اللعبة».

«لم أقترف شيئاً خاطئاً».

«لستُ مراسلاً، لذا كفّ عن ذلك. ميزانيتك هذه السنة 600 مليون. والأموال تهطل عليك يومياً كالمطر، عمليات تمويل اختيارية، تمويل جانبي، احتياطيات لهذه ولتلك. يمكنك تدبّر الأمر. وربّما كانت الطريقة المثلى تكمن في التداول مع مجلس المدينة في جلسة تنفيذية، ثمّ تمرير

قرار يقضي بالتوصّل إلى تسوية سرّية مع رينفرو، ثمّ تمرير المال بعيداً عن الأنظار».

ضحك وودي لكن ليس بسبب أيّ شيء مضحك. «أنت تعتقد إذاً أنّنا يمكن أن نأتمن مجلس المدينة على كتمان أمر كهذا؟».

«تلك مشكلتك، وليست مشكلتي. مهمّتي هي الحصول على تسوية عادلة لموكّلي. مليونان ليس أمراً عادلاً، لكنّنا سنقبل بذلك».

وقف موس على قدميه، وبدا مشوشاً. ثمّ مشى نحو النافذة وحدّق عبرها إلى اللا شيء. شدّ ظهره بعد ذلك وتمشى في أرجاء الغرفة. أما وودي فقد بدا كمن أدرك للتوّ حقيقة أن السماء تسقط فوقه وسأل: «حسناً يا رودّ، كم لدينا من الوقت؟».

«ليس كثيراً»، أجبتُ.

قال موس: «نحتاج إلى بعض الوقت لبحث الأمر، يا سيباستيان. لقد أتيتَ هنا، وألقيت قنبلة كهذه، وتتوقّع منا أن نصدّق كلّ شيء. يوجد الكثير من الأجزاء غير المؤكّدة هنا».

«نعم بالفعل، لكن التحقيق في الأمر لن يتسبّب سوى في تسريبه. وإلى أين سيقودك؟ ستستدعي كيمب وتسأله إن كان قد اختطف ابني؟ بؤساً، أتساءل ما الذي سيقوله. يمكنك الحفر لشهور بحثاً عن الحقيقة ولن تجدها. ولستُ في مزاج يسمح بالانتظار». دفعتُ بالشهادة والدعوى عبر المنضدة في اتّجاه وودي. ثمّ وقفتُ وأمسكت بحقيبتي. «هذه هي الصفقة. اليوم هو الجمعة. ولديك عطلة نهاية الأسبوع.

وسأكون هنا في الساعة العاشرة من صباح الاثنين من أجل إنهاء الأمور. وإذا لم تستطيعا تنفيذ الاتفاق، فسأتّجه مباشرة إلى صحيفة «كرونيكل» مع تلك الكومة الصغيرة من الأوراق. تخيّل عندئذٍ القصّة، والضرر. عناوين بارزة في نشرات الأخبار على مدار السّاعة».

شحب وجه وودي ثانية. ثمّ قال بأسى: «سأكون في واشنطن يوم الاثنين».

«الغِ سفرك إذاً. لتصبك حالة من الإنفلونزا الحادّة. في العاشرة من صباح الاثنين، أيها السيّدان المحترمان»، قلت وأنا أفتح الباب.

.12

لم تُعجب نعومي كثيراً بسيارة المازدا التي كنتُ قد استأجرتُها. وبينما كنّا نشقّ طريقنا في وسط المدينة نحو الصالة، أوضحتُ لها ما حدث لعربتي الأخرى. وقد صُدمت بحقيقة وجود رجال سيئين وطلقاء في المدينة يعمدون إلى ربط أداة متفجّرة بشاحنتي لإخافتي وقتل الرفيق. وقد أرادت أن تعرف مدى سرعة الشرطة في اعتقال هؤلاء الرجال وتقديمهم للعدالة. وهي لم تفهم الأمر حين شرحتُ لها أنّ (1) لا فائدة حقيقية من الشرطة في الإمساك بهم لأنّني أنا من أنا و(2) الشرطة لا تستطيع الإمساك بهم لأن هؤلاء الرجال لا يتركون وراءهم أدلّة.

ثمّ سألتْ عمّا إذا كانت في أمان برفقتي. وعندما أخبرتها أنّني مسلّح بمسدس مربوط بحزام إلى جذعي وآخر أصغر منه تحت إبطي اليسار، أخذتْ نفساً عميقاً وحدّقت خارج النافذة. كوني على ثقة، نحن بأمان، وعدتها.

وعلى سبيل المصارحة التامّة، أخبرتها بما حدث لمكتبي الأخير والحرق الذي تعرّض له. وأنّ الشرطة لم تتوصل إلى كشف تلك الجريمة، إمّا لأنهم كانوا مشاركين في فعلها. أو أنّ بعض تجّار المخدّرات من قام بها.

«لا عجب في أنّك تعاني مع النساء»، لاحظتْ قائلة. وهي محقّة في ذلك. فمعظمهنّ يستسلمن للخوف في أول اللعبة وينجذبن نحو رجال آخرين أكثر أماناً. أمّا نعومي، مع ذلك، فلديها ذلك الوميض في عينيها وتبدو وكأنّها تستمتع باحتمالات الخطر. فبعد كل شيء، حضور مباريات قتال القفص كانت فكرتها.

استخدمتُ علاقاتي فأصبح مقعدانا قريباً من الحلبة، في الصفّ الثالث من الأمام. اشتريتُ كأسي شراب ثمّ جلسنا نراقب الحشد. بخلاف المسرح أو السينما، أو الأوبرا أو السمفونية، أو حتى لعبة كرة السلّة، يصل الجمهور إلى الصالة وهم في مزاج صاخب، والكثير منهم نصف سكارى. إنّه حشد لطيف آخر، ربمّا كانوا ثلاثة إلى أربعة آلاف، وما يثير عجبي هو سرعة اكتساب هذه الرياضة لشعبيتها. وقد فكّرتُ في تاديو أيضاً، ذلك الفتى الموهوب الذي يقبع الآن في السجن في حين كان يجب أن يكون اسمه في أعلى بطاقة مباريات الليلة. وقد اقترب موعد محاكمته ولا يزال يتوقّع مني أن أجترح معجزة وأخرجه من السجن، ليعود إنساناً حرّاً. وقد سردتُ لنعومي، بتفاصيل شديدة الدقّة، ما حدث في تلك الليلة منذ عهد ليس ببعيد عندما هاجم تاديو الحكم حيث تحوّل هذا المكان

بأكمله إلى مسرح اضطرابات. وكيف أنّ ستارتشر ظنّ أن الأمر ممتع وأراد العودة للحصول على مزيد من المرح.

وهي تعتقد أنّها كانت فكرة سيئة.

أحد المدرّبين يعرفني، لذا توقّف لإجراء دردشة سريعة. فتاه من ذوي الوزن 150 رطلاً وسوف يقاتل في المباراة الثانية، وهو لم يخسر في مبارياته الستّ الماضية. وخلال حديثه معي لم يستطع إبعاد عينيه عن نعومي. ولأنّ جمالها أشبه بضربة قاضية وملابسها عصرية، فقد جذبت الكثير من الأنظار.

يعتقد المدرّب أنّ لدى فتاه مستقبل واعد وأنّهم يحتاجون إلى بعض الدعم. واستناداً إلى النظرة السائدة عني كمحامٍ شهير لديه الكثير من المال، في أوساط هذا العالم على الأقل، فأنا اللاعب الذي يستطيع تحقيق المستقبل المهني. قلتُ للرجل إننا يمكن أن نتحدّث في الأمر لاحقاً. دعني أراقب الفتى في مباراتين قتاليتين ثمّ نجتمع بعد ذلك. سأل المدرّب عن تاديو وهزّ رأسه أسفاً. يا للقذارة.

عندما اكتظّ المكان بالحضور، أطفئت الأنوار وسيطر السعار على الجمهور. دخل القفص أول زوج من المقاتلين ثمّ أجريتْ المقدمات اللازمة.

«هل تعرف هذين الرجلين؟»، سألتْ نعومي وهي تشعر بالإثارة.

«نعم، مجرّد زوج من المشاكسين، ليس لديهما موهبة تذكر. مقاتلي الشوارع حقاً».

دُقّ الجرس، فبدأ العراك، ثمّ جلستْ معلّمتي الصغيرة والمثيرة على حافة مقعدها وبدأتْ بالصراخ.

13.

عند منتصف الليل كنا في مطعم بيتزا، محشورين ضمن مقصورة ضيّقة وجالسين متلاصقين تماماً. وقد حدث بيننا بعض التلامس وإمساك اليدين، ويبدو وكأن ثمة جاذبية متبادلة. أتمنّى بالتأكيد أنّها متبادلة. قضمتْ شريحة البابارونى وثرثرتْ حول الحدث الرئيس في تلك الليلة، مهرجان دم من الوزن الثقيل انتهى بمسكة خنق شريرة. وقد ظلّ الخاسر ملقى على الأرضية لوقت طويل. وفي نهاية الحديث تطرّقت إلى عملية الاختطاف وأرادت معرفة مقدار ما أعرف. أوضحتُ لها أنّ مكتب التحقيقات الفيدرالي يتحرّى ولا أستطيع قول أيّ شيء.

هل كان هناك مطالبة بفدية؟ لا أستطيع القول. مشتبه به؟ لا، بحسب علمي. ماذا كان يفعل في موقف الشاحنات؟ يأكل الآيس كريم. كنتُ أودّ أن أعطيها التفاصيل، لكنّ ذلك مبكّر جداً؛ ربّما لاحقاً، حين ينتهي كلّ شيء.

في الطريق خلال عودتنا إلى مسكنها، قالت: «قد يكون من الصعب إقامة علاقة طالما أنت تتأبط سلاحاً».

«حسناً. يمكنني نزعه. لكنّه سيكون قريباً دائماً».

«لستُ متأكّدة من أنّني أحبّ ذلك».

لم نقل شيئاً عدا ذلك إلى أن أوقفتُ السيارة أمام شقّتها. «اقضِ وقتاً رائعاً»، قالت.

«كذلك فعلتُ الليلة». سرتُ معها إلى باب شقّتها ثمّ سألتها: «[illegible] متى أستطيع رؤيتك ثانية؟».

نقرتني على خدّي وقالت: «في السابعة ليلة الغد. هنا. ثمة فيلم أريد مشاهدته».

14.

أقلّني الرفيق في سيارة مستأجرة أخرى، عربة نقل متاع من طراز يو-هاول جديدة لمّاعة أجرتها 19.95 دولار يومياً مع مسافة سير غير محدودة، وعلى جانبيها كتابات باللونين الأخضر والبرتقالي البرّاق. تفحّصتها لمدّة دقيقة أو نحو ذلك قبل أن أدخلها أخيراً. «رائع»، قلت.

«ظننتُ أنّك ستحبّها»، قال مبتسماً ابتسامة عريضة. وكانت ضماداته قد اختفت تحت لباسه؛ وليس هناك دليل ظاهر على جروحه. وهو أقسى بكثير من أن يعترف بالقروح أو الألم.

«أظنّ أنّ من الأفضل لنا أن نعتادها»، قلت. «شركة التأمين تتلكّأ. إضافة إلى أنّ الأمر سيستغرق شهراً للحصول على واحدة جديدة مفصّلة بحسب الطلب». انطلقنا عبر زحام المرور في وسط المدينة، مجرّد عاملَي تسليم منطلقين بشاحنة مليئة بالأثاث. توقّف أمام مبنى البلدية

والمتنزّهات بشكل غير قانوني. شاحنة يو-هاول بمثل هذه الألوان الواضحة ستجذب حتماً حشداً من شرطة المرور.

«دردشتُ مع ميغيل»، قال.

«وكيف سار الأمر؟»، سألته ويدي على مقبض الباب.

«حسناً. وضّحت له الأمور فقط، وأخبرته أنّك تعرّضت للمضايقة من بعض الأشقياء وأنّك تحتاج إلى بعض الحماية. قال إنّه يستطيع الاهتمام بالأمر؛ وذلك أقلّ ما يمكنه أن يفعله ورجاله من أجلك، وكلّ تلك الفضلات والمجاملات السعيدة. وقد أكّدتُ له على ضرورة أنّ لا يتأذّى أحد، مجرّد تحيّة ودّية للبدين والشفرة بحيث يفهمان الرسالة».

«ماذا تعتقد؟».

«على الأرجح أنّه سيفعل. عصابة لينك ضعيفة جدّاً هذه الأيام، للأسباب الواضحة. أغلب أشقيائه انصرفوا. وأشكّ في رغبة صبيانه في الاصطدام بعصابة مخدّرات».

«سنرى. عد بعد ثلاثين دقيقة»، قلت وأنا أخرج.

ألغى وودي سفرته إلى واشنطن وانتظرني في مكتبه مع موس. وقد بدوا معاً كما لو أنّهما أمضيا عطلة نهاية أسبوع سيئة. إنّه يوم الاثنين وهدفي هو أن أفسد بقيّة أسبوعهما. لم تجرِ بيننا مصافحة، لا مجاملات إجبارية، وليس ثمة عرض بتناول القهوة حتى.

وقد رفعتُ منسوب التوتّر بالقول: «حسناً يا فتيان، هل نحن على وشك عقد صفقة؟ نعم أم لا؟ أريد جواباً الآن، وإذا حصلتُ على الجواب الخطأ فسأغادر هذا المبنى وأقطع الشارع نحو صحيفة «كرونيكل». فيردولياك، مراسلك المفضّل، ينتظر أمام منضدته».

حدّق وودي إلى الأرضية وقال: «صفقة».

أما موس فقد دفع بمستند عبر المنضدة وقال: «هذه اتفاقية تسوية سرّية. ستدفع شركة التأمين المليون الأول الآن. وستتدبّر سلطات المدينة نصف مليون خلال هذه السنة المالية، والمبلغ نفسه في السنة القادمة. لدينا مال مقاضاة احتياطي الذي يمكننا التصرّف به، لكنّنا نحتاج تقسيم المبلغ على دفعتين بين هذه السنة والسنة القادمة. وهذا أفضل ما يمكننا فعله».

«سيكون هذا مقبولاً»، قلت. «ومتى سيتلقى رئيس الشرطة وصبيان سوات الفأس؟».

«صباح الغد»، قال موس، وأضاف «وهذا غير وارد في هذه الاتفاقية».

«إذاً لن أوقّع الاتفاقية حتى يُطردوا. لِمَ الانتظار؟ ما هو الصعب جدّاً في التخلّص من هؤلاء الرجال؟ اللعنة، المدينة بأكملها تريد تعليبهم».

«وكذلك نحن»، قال عمدة المدينة. «صدّقني، نريدهم خارج الصورة. ثق بنا في هذا الأمر فقط، يا رودّ».

تدحرجت أمام عيني كلمة «ثقة». التقطتُ الاتفاقية وقرأتها ببطء. رنّ هاتف على منضدة عمدة المدينة لكنّه أهمله. وعندما أنهيتُ القراءة، ألقيتها على المنضدة وقلت: «لا توجد كلمة اعتذار واحدة. زوجة موكّلي قُتلت، وأُطلقت عليه النار، ثمّ جُرجر إلى محاكمة جنائية، وواجه احتمال السجن، وعانى الأمرّين جيئة وذهاباً، وليس ثمّة كلمة اعتذار واحدة. لا صفقة».

تلفّظ وودي بكلمة «هراء!» وقفز واقفاً على قدميه. أمّا موس ففرك عينيه كما لو أنّه قد شرع بالبكاء. مرّت ثوان، ثمّ دقيقة كاملة، من دون أن يقال شيء. أخيراً، حدّقتُ إلى عمدة المدينة وقلت: «لماذا لا تستطيع يا رجل أن تنهض وتفعل الأمر الصحيح؟ لماذا لا تستطيع أن تعقد أحد مؤتمراتك الصحفية، كما تفعل تماماً أمام كلّ أزمة بسيطة، وتبدأ بالاعتذار إلى عائلة رينفرو؟ وتعلن التوصّل إلى تسوية في القضيّة المدنيّة. وتبيِّن أنّه بعد تحقيق شامل اتّضح الآن بأنّ فريق سوات تجاهل كلّ لوائح الإجراءات والسلامة، وأنّ رجال الشرطة الثمانية مطرودون فوراً. ومعهم رئيسهم».

«أنا لا أحتاج نصيحتك حقاً عندما يتعلق الأمر بالقيام بعملي»، قال وودي، لكنّه ردّ أعرج.

«ربّما أنت كذلك»، قلت. وقد راودتني رغبة الاندفاع بالكلام مجدداً، لكنّني لم أرد خسارة المال.

«حسناً، حسناً»، قال موس. «سنعيد صياغتها وسنضمّنها بعض الكلام الموجّه للعائلة».

«شكراً لكما»، قلت. «سأعود غداً، بعد المؤتمر الصحفي».

.15

قابلتُ دوغ رينفرو على الغداء في مقهى قرب بيته. ثمّ شرحتُ له التسوية، فأسعده الحصول على مليونين. وبحسب العقد بيننا فإن أتعابـي هي 25 بالمائة، لكنّني سأخفضها إلى 10 بالمائة فقط. وقد فاجأه ذلك، فأراد في بادئ الأمر أن يجادل في المسألة. وكنتُ أودّ أن أعطيه المال كلّه، لكن لدي بعض المصاريف والاحتياجات. فبعد أن أدفع نصيب مكتب هاري آند هاري، سيتبقى لي 120 ألف دولار تقريباً، وهو مبلغ قليل بالمقارنة مع الوقت الذي صرفته على القضية، لكنه ما زال مع ذلك أجراً محترماً.

وبينما كان يأخذ رشفة من كوب القهوة، بدأت يده تهتزّ ودمعت عيناه فجأة. ثمّ وضع الكوب على المنضدة وقرص جسر أنفه. «أنا أريد كيتي فقط»، قال وشفتاه ترتجفان.

«أنا آسف يا دوغ»، قلت. وما الذي يمكنني قوله ما عدا ذلك؟.

«لماذا فعلوا ذلك؟ لماذا؟ كان أمراً غير معقول على الإطلاق. رفسوا الأبواب، ثمّ أطلقوا نيران أسلحتهم مثل البلهاء، في البيت الخطأ. لماذا يا سيباستيان؟».

كلّ ما أمكنني فعله هو أن أهزّ رأسي.

«يجب أن أبتعد، سأخبرك بذلك الآن. أنا ذاهب. أكره هذه المدينة والمهرّجين الذين يديرونها، وينبغي أن أخبرك يا سيباستيان، إذ بعد صرف رجال الشرطة الثمانية هؤلاء من العمل الآن وغضبهم واحتمال بحثهم عن مشكلة، فأنا لا أشعر بالأمان. وأنت كذلك، هل تعلم؟».

«أعرف يا دوغ. صدّقني، أفكّر بالأمر دائماً. لكنّني سبق وأن أزعجتهم قبل ذلك. لستُ من بين أشيائهم المفضّلة».

«أنت محامٍ بارز للغاية يا سيباستيان. كانت لدي شكوكي حولك في بادئ الأمر. لكن الطريقة التي جئت بها إلي قوية جدّاً بينما كنتُ لا أزال في المستشفى. ظللتُ أفكّر 'من هو هذا الرجل؟'. وكان لديّ محامون آخرون يحاولون تولي القضية، هل تعرف ذلك؟ بعض المهرّجين الحقيقيين الذين يجوبون المستشفى ويتفحّصون الحالات. لكنّني طردتهم. وأنا مسرور أنّني فعلت. كنتَ عظيماً خلال المحاكمة يا سيباستيان. رائع».

«حسناً، حسناً. شكراً لك يا دوغ، لكن هذا كافٍ».

«خمسة عشر بالمائة، موافق؟ أريدك أن تأخذ 15 بالمائة. رجاءً».

«إذا كنتَ مصرّاً».

«أنا مصرّ. بيع بيتي أمس، وقد حققتُ ربحاً جيداً. وسوف ننتهي منه خلال الأسبوعين القادمين. أعتقد أنّني ذاهب إلى إسبانيا».

«الأسبوع الماضي كانت الوجهة نيوزيلندا».

«إنّه عالم كبير. وقد أذهب إلى كلّ الأماكن، وقد أعيش على قطار لمدّة سنة أو نحو ذلك. سأراه كلّه. واتمنّى فقط لو أن كيتي ستكون معي. أحبّت تلك الفتاة السفر».

«يجب أن نحصل على المال قريباً. وسأراك بعد بضعة أيام ثمّ نتقاسمه».

.16

شاهدتُ المؤتمر الصحفي في شقّتي. في مرحلة ما خلال الساعات القليلة الماضية، اتّخذ عمدة المدينة وودي القرار المحسوب على أساس أن التذلّل ربّما أكسبه أصواتاً انتخابية أكثر مما سيكسبه من رفض التعاون. وقف وراء المنصّة، وللمرة الأولى في التاريخ الحديث لم يقف خلفه أحد. لا أحد. كان وحيداً: لا أحد من أعضاء مجلس المدينة ليحاول إثارة انتباه عدسات الكاميرات؛ لا جدار من الضبّاط غلاظ الأعناق بزيّهم الرسمي؛ ولا محامٍ متجهم الوجه يعبس كما لو أنّه يعاني من البواسير.

شرحَ لمجموعة المراسلين الصغيرة أن سلطات المدينة أسقطت ادّعاءاتها القانونية ضدّ عائلة رينفرو. ولن تكون هناك محاكمة مدنية؛ وأن الكابوس انتهى. شروط سرّية، بالطبع. ثمّ عبّر عن اعتذاره العميق للعائلة بسبب ما حدث. وأن من الواضح أن أخطاءً قد ارتكبت (بالطبع لم يرتكب هو أيّاً منها)، وهو اتّخذ القرار بالتصرّف بشكل حاسم ووضع حدّاً لهذه المأساة. أعلن أنّ مدير الشرطة مطرود، ابتداء من الآن. فهو في

النهاية مسؤول عن أعمال ضبّاطه. وجميع أعضاء فريق سوات الثمانية مطرودون أيضاً. فأعمالهم لا يمكن احتمالها. وسوف تُراجع الإجراءات. وهكذا.

ثمّ ختم الحديث بشكل رائع بالاعتذار مرة أخرى، وبدا أحياناً كما لو أنّه على وشك البكاء. لم يكن تمثيل وودي سيئاً، وقد يُكسبه بعض الأصوات. لكن أيّ أحمق يمكنه أن يتنبأ بنتيجة الانتخابات.

حركة جريئة يا وودي.

والآن، وكما لو أنّ حياتي ليست معقّدة بما يكفي، هنالك ثمانية رجال شرطة سابقون هائمون في الشوارع يغمغمون اسمي ويبحثون عن نوع من الانتقام.

وصل المال خلال وقت قصير نسبياً، فتحاسبنا أنا ودوغ. وكانت المرة الأخيرة التي رأيته فيها وهو يدخل سيارة أجرة متّجهاً إلى المطار. قال إنه ما زال غير متأكّد من وجهته، لكنّه سيتأكّد عندما يصل إلى هناك. قال إنه قد يحدّق في لوحة المغادرة ويرمي نبله.

أمّا أنا فقد داخلني شيء من الحسد.

.17

يصرّ تاديو على ضرورة زيارتي له في السجن مرة كلّ أسبوع على الأقل، وأنا لا أمانع حقاً. وتتضمّن أكثر الزيارات محادثة تتعلّق بمحاكمته القادمة، أما الأحاديث الأخرى فليس لها علاقة بأيّ شيء ما عدا كيفية الصمود في السجن. ليس هناك جمنازيوم أو مكاناً للتمرّن - سيتوفّر له ذلك في السجن، لكنّنا لا نتحدّث عن الأمر - وهو محبط بسبب فشل جهوده في المحافظة على لياقته. وهو يقوم بألف تمرين على الهبوط بالجسم ورفعه كلّ يوم ويبدو لي رشيقاً. أمّا الطعام فمريع، لذلك يفقد وزنه، مما يؤدي بالطبع إلى نقاش حول وزنه القتالي المفضّل عندما يخرج. وكلّما طالت مدّة بقائه في السجن حصل على المزيد من النصائح القانونية المجّانية من زملائه في الزنزانة، وبالتالي ازدادت ضلالته. وهو مقتنع بقدرته على أن يسحر هيئة محلّفين، ويلقي باللوم كلّه على نوبة سريعة من الجنون، ثمّ ينصرف. شرحتُ له، ثانية، أنّه سيكون من

الصعب كسب المحاكمة لأن هيئة المحلّفين ستشاهد الفيديو على الأقل خمس مرات.

وقد بدأ بالشكّ في مدى التزامي به أيضاً، وفي مناسبتين ذكر مسألة تدخّل محامٍ آخر في القضيّة. وذلك لن يحدث بالطبع لأنه سيضطر إلى أن يدفع أتعاباً مرتفعة إلى شخص آخر، لكنّ الأمر ظلّ مزعجاً. وقد بدأ بالتصرّف مثل الكثير من المتّهمين الجنائيين، خصوصاً أولئك الآتين من الشارع. فهو لا يثق بالنظام، بما في ذلك أنا لأنّني أبيض البشرة ولأنّني جزء من بنية السلطة. وهو مقتنع بأنّه بريء وأنه سجين مظلوم. ويعتقد أنّه قادر على التلاعب بهيئة محلّفين إذا أتيحت له الفرصة. وأنا، باعتباري محاميه، لا أحتاج سوى إلى الإتيان ببعض الخدع في قاعة المحكمة، وكما يحدث على شاشة التلفزيون، سيصبح هو عندئذٍ رجلاً حرّاً. لا أتجادل معه حول ذلك، لكنّني أحاول إبقاء الأمور واقعية.

وبعد نصف ساعة ودّعته وشعرت بالارتياح بالابتعاد عنه. وبينما كنتُ أشقّ طريقي عبر ردهات السجن، ظهر المخبر ريردون وكأنه خرج من العدم فاصطدم بـي تقريباً. «أوه رودّ، أنت من أبحث عنه بالضبط».

لم يسبق لي أن رأيته في السجن أبداً من قبل. وهذا اللقاء ليس عرضياً. «أوه، نعم، ما الأمر؟».

«هل لديك دقيقة؟»، قال وهو يشير إلى زاوية بعيداً من المحامين والسجّانين الآخرين.

«بالتأكيد». لم أرغب حقاً في أن أقضي الوقت مع ريردون، لكنّه موجود هنا لهدف معيّن. وأنا متأكّد من أنّه يريد الوصول إلى مسألة هي أنّ مدير شرطتنا المساعد المعلّقة وظيفته، روي كيمب، لا يزال قلقاً جدّاً حول ضرورة إبقاء مسألة الاختطاف سرّاً دفيناً فيما بيننا. وعندما أصبحنا وحدنا، قال: «قل لي يا رودّ، سمعتُ أنّك دخلت في ورطة مع اثنين من مجرمي لينك سكانلون في مبنى المحكمة الأسبوع الماضي، والشهود يقولون إنك أطحتَ بهما معاً، وضربتهما ضرباً مبرحاً. مؤسف جدّاً أنك لم تضع رصاصة بين عيني كلّ منهما. تمنّيت لو أنّني شاهدت ذلك. لكن من الصعب أن يصدّق المرء أن الشجاعة واتتك لتتمكّن من القضاء على زوج من كسّاري السيقان».

«ماذا تريد؟».

«أظن أن لينك أرسل إليك كلمة ما تقول إنه يريد شيئاً، قد يكون مالاً. نحن نعرف مكانه؛ لكنّنا لا نستطيع الوصول إليه. ونعتقد أنّه مُعدَم، لذا أرسل زوجاً من البلطجيّة للضغط عليك. ولسبب ما لا تريد أن يُضغط عليك. ضغطاً قليلاً، فصرعتهما في وضح النهار خارج قاعة محكمة. أعجبني ذلك».

«ماذا تريد؟».

«هل تعرف ذينك الرجلين؟ أعني اسميهما؟».

شيء ما أوحى إليّ أن ألعب دور الأخرس. «أحدهما يدعى البدين، ولا أعرف اسمه الأخير. أما الآخر فلا أعرفه. هل لديك الوقت للإجابة عن سؤال؟».

«أوه، بالتأكيد».

«أنت مجرم. ما الذي يهمّك بالضبط بخصوص لينك ومجرميه، وبخصوص لعبـي معهم قليلاً؟».

«لأنّني مجرم»، قال ثمّ بسط ملفاً وأراني صورة ملونة بمقاس ثمانية في عشر بوصات لجثّتين في نوع من كومة نفايات. الجثّتان ممدّدتان على وجهيهما، ورسغي كلّ ضحية مربطان بإحكام خلف ظهرها. وقد غطّت كتل من الدم الجاف رقبتيهما. «عُثر على هاتين الجثّتين في موقع طمر نفايات المدينة، وكانتا ملفوفتين في قطعة من سجادة صوفية قديمة. دفع البولدوزر السجادة من فوق حاجز صغير فتدحرج منها البدين والشفرة. البدين هو داني فانجو، هناك إلى اليمين. والشفرة هو آرثر روبيليو، إلى اليسار». ثمّ خلط الأوراق وسحب صورة أخرى بالمقاس نفسه. صُفَّت الجثّتان في الصورة الثانية فظهرتا مستلقيتين على ظهرهما ووجهما إلى الأعلى، جنباً دامياً إلى جنب. وفي الصورة ظهرت أيضاً جزمة سوداء لشرطي، بجانب الرأس المشوّه العائد للبدين الطيب. تبيّن أيضاً أن حنجرتيهما قد قطعتا وذبحتا ذبحاً واسعاً وعميقاً.

قال ريردون: «تلقى كلّ منهما ضربتين على مؤخرة الرأس. ذلك بالإضافة إلى الذبح بمطواة من الأذن إلى الأذن. يحدث ذلك دائماً. حتى

الآن، حالات قتل نظيفة، لا بصمات، ولا طلقات، ولا آثار جنائية. من المحتمل أن الفاعل إحدى العصابات، وهي ليست خسارة كبيرة للمجتمع، هل تعرف ما أقصد؟».

بدأت معدتي تتقلّب بينما امتلأت حنجرتي بالأسيد. ثمّ سيطرت علي رغبة قوية بالتقيّؤ، بالإضافة إلى دوار خفيف قد يعني إغماءً سريعاً. ابتعدتُ عن الصور، وهززتُ رأسي باشمئزاز، وقلتُ في نفسي يجب أن أحاول التصرّف كمن لا يكترث، إذا أمكنني ذلك. أخيراً استطعتُ القول باستهجان: «حسناً إذاً، يا ريردون؟ هل تعتقد أنّني تخلّصتُ من الرجلين لمجرّد أنهما اعترضاني في مبنى المحكمة؟».

«لا أدري فيم أفكّر الآن بالضبط، لكنّني وجدتُ صبيَّي الكشّافة هذين كما ترى ولا أحد يعرف شيئاً عمّا حدث. وعلى حد علمي، أنت الشخص الأخير الذي تعارك معهما. وتبدو وكأنك مستمتع فيما تفعله خفية في الشوارع الخلفية. وربّما كان لديك بعض الأصدقاء في هذا المجال. شيء ما يؤدّي إلى آخر».

«أنت لا تستطيع حتى أن تُقنع نفسك بذلك يا ريردون. استنتاجات ضعيفة كالماء. اذهب واتّهم شخصاً آخر لأنك تضيّع وقتك معي. أنا لا أقتل. أنا أدافع عن القتلة فقط».

«الشيء نفسه بالنسبة إليّ، إذا سألتني. سأستمرّ بالحفر».

غادرني ثمّ عثرتُ على مرحاض. أقفلتُ باب المرحاض، وجلستُ على الغطاء، ثمّ سألتُ نفسي عمّا إذا كان ذلك ممكناً.

.18

أوقفنا شاحنة النقل يو-هاول في مسرب أحد مطاعم بيع المقانق المقلية للسيارات وطلبنا صودا من فتاة جميلة تأتي بالطلبات وهي تسير على زلاجات. لم تكن لدى أيّ منّا شهية لتناول الطعام. جلبت الفتاة المشروبات فأنزل الرفيق زجاج النافذة يدوياً، بالطريقة القديمة. ثمّ أخذ رشفة طويلة وحدّق باتّجاه الأمام مباشرة وقال: «مستحيل، يا رئيس. وضّحتُ الأمر تماماً. أخفه لكن لا تمسّه. لا ينبغي أن يتأذّى أحد».

«يبدو أنهم غير مبالين بالأمر»، قلت.

«لكن، يا رئيس، يجب أن تعلم كيف تجري الأمور في العالم السفلي. افترض أن ميغيل وصبيانه قد تعقّبوا البدين والشفرة وتمكّنوا من اختلاق مجابهة بينهم. ثمّ هدّدوهما، لكن لنفترض أيضاً أن البدين والشفرة لم يأبها بالتهديدات. اللعنة، لقد اعتادا ذلك منذ أكثر من ثلاثين سنة. وهما لا يحتملان أن يعترضهما أحد وأن يُعرف ذلك. سيضطر ميغيل عندئذٍ إلى

أن يصون هيبته. ستصبح الكلمات أكثر سخونة وسيتم تبادل التهديدات، وفي مرحلة ما يفلت زمام الأمور. ولا يحتاج الأمر سوى إلى لكمة واحدة ليندلع شجار، ثمّ يشهر أحدهم بندقية أو سكيناً».

«أريد منك أن تتحدّث مع ميغيل».

«لماذا؟ لن يعترف بذلك، يا رئيس. أبداً».

رشفتُ بعض الشراب من خلال القشّة ثمّ وضعته جانباً. يبدو وكأن كلّ شيء مسدود؛ من الحنجرة إلى الأمعاء. وبعد فجوة صمت طويلة، قلت: «نحن نفترض أنّ الفاعل ميغيل. ويمكن أن يكون شخصاً آخر. فالبدين والشفرة قضيا حياتهما وهما يحطمان أذرع الآخرين، وربّما يكونان قد عبثا مع الشخص الخطأ هذه المرة».

أومأ الرفيق برأسه ثمّ تدبّر القول: «قد يكون».

.19

استيقظتُ في الساعة 3:37 فجراً عندما بدأ هاتفي الخلوي بالتذبذب. التقطته ببطء. المتّصل مجهول، وهذا أسوأ أنواع الاتّصالات. وبعد تردّد كبير، قلت: «مرحباً».

لم أميّز الصوت. «هل هذا رودّ؟»، سأل.

«هو. من المتّصل؟»

«موكّلك القديم سوانجير، آرك سوانجير».

«كنت أتمنّى أن لا أسمع عنك ثانية».

«وأنا لا أفتقدك أيضاً، لكن يجب أن نتحدّث. وباعتبار أنّه لا يمكن الوثوق بك، وأنّك لا تتردّد في التضحية بزبائنك، أفترض أن هاتفك مراقب وأنّ الشرطة يستمعون».

«لا».

«أنت كذّاب، يا رودّ».

«جيّد، اقطع ولا تتّصل بـي ثانية».

«ليس الأمر بهذه البساطة. يجب أن نتحدّث. تلك الفتاة لا تزال حيّة، رود، وثمة أمور سيئة تجري».

«لستُ مهتمّاً».

«توجد صيدلية تفتح أبوابها طوال الليل عند زاوية بريستن والخامس عشر. اشتر مرهم حلاقة. خلف عبوة جيليت منثول ستجد هاتفاً صغيراً أسود، مدفوع قيمة الاتّصال سلفاً. خذه لكن احذر من الإمساك بك بجريمة السرقة. اتّصل بالرقم الظاهر على الشاشة. ذلك أنا. سأنتظر لمدّة ثلاثين دقيقة، ثمّ أغادر البلدة. هل فهمت يا رودّ؟»

«لا، لن ألعب معك هذه المرّة، يا سوانجير».

«الفتاة حيّة يا رودّ، ويمكنك أن تعيدها إلى ذويها. كما أنقذتَ طفلك تماماً، يمكنك أن تكون الآن البطل الحقيقي. وإن لم تفعل، فهي ستموت خلال عام. الأمر بيدك، يا صاحبـي».

«ولِمَ ينبغي أن أصدّقك، يا سوانجير؟».

«لأنّني أعرف الحقيقة. وأنا قد لا أقول الحقيقة دائماً، لكنّني أعرف ما الذي يجري مع ابنة كيمب. وهو ليس جيّداً. تعال يا رودّ، هيّا ولا تتردّد. ولا تتّصل بمجرمك ولا تستخدم شاحنة اليو-هاول السخيفة. قل لي جدّياً، أيّ نوع من المحامين أنت؟».

انقطع الاتّصال فاعتدلتُ مستنداً على ظهري وحدّقتُ في السقف. إذا كان آرك سوانجير في حالة هروب، وأنا أعرف أنّه كذلك بالفعل لأنّه الرقم واحد على قائمة أهم المطلوبين للشرطة، ولينك سكانلون هو الرقم اثنان، فكيف إذاً يمكنه أن يعرف أنّني أجوب المدينة هذه الأيام بشاحنة مستأجرة؟ وكيف يشتري هاتفاً خلوياً مدفوع الأجرة سلفاً ويخفيه؟.

بعد عشرين دقيقة وقفتُ أمام الصيدلية وانتظرتُ حتى ابتعد اثنان من مدمني الكحول عن الباب الأمامي. وفي هذا الجزء الهامشي من المدينة، من غير الواضح أن تعمد هذه الشركة، وهي ذات فروع منتشرة في كافة أرجاء البلاد، إلى اختيار هذا الحيّ لتفتتح صيدلية تعمل طوال الليل. دخلتُ ولاحظت عدم وجود أحد باستثناء البائع الذي كان يتصفّح صحيفة شعبية. ثمّ عثرتُ على مرهم الحلاقة والهاتف، الذي أصبح بسرعة في جيبي. دفعتُ ثمن مرهم الحلاقة، ثمّ طلبتُ الرقم وأنا أبتعد.

أجاب سوانجير بالقول: «تابع القيادة. خذ الطريق السريع واذهب شمالاً».

«إلى أين، يا سوانجير؟».

«إلى عندي. أريد رؤيتك عياناً، وأريد أن أسألك لماذا أخبرت الشرطة عن موضع دفن الفتاة».

«قد لا أرغب في التحدّث عن ذلك».

«سترغب».

«لماذا كذبتَ يا سوانجير؟».

«كان مجرّد اختبار للتأكد من إمكانية الوثوق بك. ومن الواضح أنّه لا يمكن الوثوق بك. أريد أن أعرف لماذا».

«وأنا أريد أن أعرف لماذا لا تستطيع أن تدعني وشأني».

«لأنّني أحتاج إلى محامٍ يا رودّ، بكلّ بساطة. ما الذي يجب أن أفعله؟ أركب المصعد إلى الطابق الأربعين وأضع ثقتي ونفسي في عهدة أحد أولئك الذين يرتدون البدلات السوداء والذين يتقاضون ألف دولار في السّاعة؟ أم أتّصل بأحد أولئك البلهاء الذين قد تراهم على لوحات الإعلانات يستجدون قضايا حالات الإفلاس وحوادث السيارات؟ أحتاج إلى رجل حقيقي من أبناء الشوارع يا رودّ؛ أحتاج إلى حقير حقيقي يعرف كيف يلعب بوساخة. والآن أنت الرجل المطلوب».

«لا، لستُ كذلك».

«اسلك مخرج وايت بلافّ من الطريق السريع واتّجه شرقاً مسافة ميلين. يوجد هناك مطعم بيرجر يعمل طوال الليل، وهو يعلن حالياً عن بيع فطيرة مزدوجة بجبن فيلفيتا الحقيقي. أممم. سأراقبك وأنت تدخل وتجلس. وسأتأكّد من أنّك وحدك ولم يتبعك أحد. وحين أدخل وأتّجه نحوك لن تعرفني في بادئ الأمر».

«سأتأبّط السلاح يا سوانجير، مع رخصة وكلّ ما إلى ذلك، وأنا أعرف كيف أستخدمه. لا مزاح، موافق؟».

«لا حاجة بك إلى ذلك، أقسم».

«احلف بكلّ ما تريد، لكنّني لا أصدّق كلمة مما تقول». «وأنا بالمثل».

.20

التهوئة معدومة في المكان والجو مثقل برائحة شطائر البيرغر الدهنية والقلي. ابتعتُ قهوة وجلستُ إلى إحدى المناضد في منتصف الصالة لمدّة عشر دقائق ما انفكّ خلالها مراهقان مخموران في إحدى المقصورات عن الضحك والكلام وفوهاهما مملوءان بالطعام. وفي زاوية بعيدة جلس زوجان مسنّان وبدينان يلتهمان الطعام كما لو أنّهما لن يريا طعاماً مرّة أخرى. ويعتمد جزء من الجهد التسويقي البارع لهذا المطعم على أنّ قائمة الطعام بأكملها تُباع بنصف السعر من منتصف الليل حتى الساعة 6:00 صباحاً. إضافة إلى جبنة الفيلفيتا.

دخل رجل يرتدي زيّ خدمة الطرود المتّحدة يو بـي إس الرسمي ولم يلتفت حوله. ابتاع لنفسه مشروباً غير كحولي وبعض المقالي وجلس فجأة في مقابلي. ومن خلف نظارته المستديرة التي لا إطار لها عرفتُ عينا سوانجير أخيراً. «أنا مسرور أنّك استطعت المجيء»، قال بصوت بالكاد كان مسموعاً.

«سرور حقيقي»، قلت، ثمّ أضفت «زيّ رسمي لطيف».

«مفيد. إليك ما يحدث يا رودّ. جيليانا كيمب حيّة ترزق لكنّني متأكّد من أنها تتمنّى لو أنّها ميّتة. وضعتْ طفلها منذ بضعة شهور خلت. باعوه بخمسين ألف دولار، وهو السعر الأعلى. ويتراوح نطاق الأسعار، كما قيل لي، بين خمس وعشرين وخمسين للقطعة القوقازية الصغيرة الفاتحة اللون من الصنف الجيّد. أما البضاعة ذات اللون الغامق فهي أرخص».

«من هم؟».

«سنصل إلى ذلك خلال دقيقة. وهي تعمل الآن ساعات طويلة في نادٍ على بعد ألف ميل. وهي أساساً مستعبدة، يملكها بعض أسوأ أنواع البشر الذين أوقعوها في إدمان الهيروين. لهذا فهي لا تستطيع المغادرة، وتفعل كلّ ما يُطلب منها. هل أفترض أنّك لم تتعامل أبداً مع قضايا المتاجرة بالبشر؟».

«لا».

«لا تسأل كيف تدخّلتُ في المسألة. قصّة حزينة طويلة».

«أنا حقاً لا أهتمّ يا سوانجير. أودّ أن أساعد الفتاة لكنّني لن أدسّ أنفي في الأمر. قلت إنك تحتاج إلى محام».

التقط قطعة مقلية واحدة وتفحّصها كما لو أنّه ينظر إلى سمّ، ثمّ وضعها ببطء في فمه. ثمّ حدّق إليّ من خلف زجاج النظارة المزيفة، وقال

أخيراً: «ستعمل في تلك النوادي لبعض الوقت، ثمّ سيقرّرون استغلالها ثانية. سيتداولونها، كما تعرف، وعندما تحمل سيمنعونها عن المخدّرات ويخفونها. سيكون الطفل الوليد بصحّة جيدة، كما تعرف. وهي واحدة من بين ثماني أو عشر فتيات في حوزتهم، في الغالب بيضاوات، لكن عدداً منهن سمراوات، وجميعهن من هذه البلاد».

«كلّهن مختطفات؟».

«بالطبع. هل تعتقد أنّهن متطوّعات؟».

«لا أعرف ما أعتقد». تمنّيتُ لو كان يكذب، لكن شيئاً ما أوحى إلي أنه ليس كذلك. وفي الحالتين، القصّة بغيضة جدّاً ولم أستطع سوى أن أهزّ رأسي. ولم أستطع مقاومة التفكير في صور روي كيمب وزوجته على الأخبار وهما يتضرّعان من أجل عودة آمنة لابنتهم.

«مأساة حقيقية»، قلت. «لكنّني أكاد أفقد صبري هنا، يا سوانجير. أولاً، لا أستطيع تصديق أيّ شيء مما تقوله. ثانياً، قلت إنك تحتاج إلى محام».

«لماذا أخبرت الشرطة حول موضع دفنها؟».

«لأنهم اختطفوا ابني وأجبروني على إفشاء ما أخبرتني به».

أعجبته هذه القصّة ولا يستطيع مقاومة الابتسام. «حقاً؟ اختطفت الشرطة ابنك؟».

«نعم، فعلوا. خضعتُ وأخبرتهم، فتسابقوا في الوصول إلى الموقع، ثمّ أهدروا ليلة كاملة في الحفر، وعندما تبيّن أنّك كنت تكذب، أطلقوا سراح طفلي».

حشر ثلاثة قطع من المقالي في فمه وعلكها وكأنه يعلك علبة كاملة من العلكة الفقاعية. «كنتُ موجوداً في الغابة، أراقب أسخر ضاحكاً من أولئك المهرّجين. وكنتُ ألعنك أيضاً لأنّك أفشيت سرّي».

«أنت مختل يا سوانجير. لماذا أنا هنا؟».

«لأنّني أحتاج بعض المال يا رودّ. فليس من السهل أن يعيش المرء هارباً على هذا النحو. لن تصدّق بعض الهراء الذي أفعله للحصول على النقود، وأشعر بالقرف من ذلك. يوجد حوالى 150 ألف دولار كجائزة موضوعة في قِدر في مكان ما في دائرة الشرطة. وقد فكّرتُ لو أنّني استطعت إعادة الفتاة إلى عائلتها، فينبغي أن أحصل على بعض ذلك المال».

لا أعرف ما الذي صدمني في ذلك. فلا ينبغي أن يفاجئني شيء مما يقوله هذا الأبله. أخذتُ نفساً عميقاً وقلت: «اسمح لي أن أضع كل هذا ضمن سياق منطقي. اختطفتَ الفتاة قبل سنة. ثمّ تبرّع أناس طيبون من مدينتنا بالنقود لصندوق الجائزة. والآن تأتي أنت، المختطِف، وتريد إعادة الفتاة. وفي مقابل هذا الفعل الإنساني العظيم تعتقد أنّك يجب أن تحصل على جزء من مال الجائزة، وهو المال نفسه المرصود الآن من أجل حلّ الجريمة التي ارتكبتها أنت. صحيح يا سوانجير؟».

«ليس لديّ أي مشكلة في ذلك. وهو حلّ يصلح على كلّ الجبهات. يحصلون على الفتاة؛ أحصل على المال».

«أكثر من صفقة فدية، أعتقد».

«سمّها كما تشاء. لا أهتمّ. أريد الحصول على بعض المال فقط يا رودّ، وأعتقد أن محامٍ مثلك يمكنه تدبير الأمر».

قفزتُ واقفاً على قدميّ وقلت: «ما تحتاجه هو رصاصة، يا سوانجير».

«أين تذهب؟».

«إلى البيت. وإذا اتّصلتَ بـي ثانية فسأتصل بالشرطة».

«أنا متأكّد من أنّك ستفعل».

ارتفع صوتانا فحدّق إلينا المراهقان المخموران. ثمّ انصرفتُ وأصبحتُ خارجاً قبل أن يمسكني ويتشبّث بكتفي. «تظنّ أنّني أكذب بشأن الفتاة، أليس كذلك يا رودّ؟».

سحبتُ مسدس الغلوك 19 بسرعة من الحافظة تحت إبطي الأيسر وأمسكته بيدي اليمنى. ثمّ تراجعتُ قليلاً بينما تجمّد هو في مكانه محدّقاً إلى المسدّس. قلت: «لا أعرف إذا كنتَ تكذب أم لا ولا أهتمّ. أنت جرو مريض يا سوانجير، وأنا متأكّد من أنّك ستموت ميتة سيئة. والآن دعني وشأني».

ارتاحَ قليلاً وابتسم، ثمّ قال: «هل سمعتَ ببلدة اسمها لامونت، في ولاية ميسسوري؟ لا سبب يدعوك إلى ذلك، حقاً. إنّها مكان منعزل يقطنه ألف شخص، مسافة ساعة شمال كولومبيا. منذ ثلاث ليالٍ مضت اختفت فتاة في الرابعة والعشرين، اسمها الأول هيذر. البلدة بأكملها في حالة رعب، والجميع منخرطون في البحث، يجوسون خلال الغابة وينظرون تحت الشجيرات. لا أثر لها مطلقاً. وهي بخير، أعني أنها على الأقل حيّة. وهي تعيش في المخزن نفسه مع جيليانا كيمب، في الجزء الغربـي من وسط شيكاغو، وتتلقى المعاملة السيئة نفسها. تأكّد من ذلك على الإنترنت يا رودّ. وقد نشرت صحيفة كولومبيا قصّة صغيرة هذا صباح. مجرّد فتاة أخرى، لكن هذه على بعد خمسمئة ميل؛ هؤلاء الرجال مهرّبون مخلصون في عملهم».

شددتُ يدي على المسدّس أكثر وقاومت الرغبة في رفعه قليلاً ووضع رصاصتين في جمجمته.

الجزء السادس
الالتماس

.1

يبدأ انتقاء هيئة المحلّفين في محاكمة تاديو زابات يوم الاثنين. وسيكون ذلك أشبه بالسيرك لأن الصحافة حافلة بالتوقعات ومبنى المحكمة سيكون مزدحماً يسوده الضجيج. كما أن فيديو يوتيوب الذي يُظهر تاديو وهو يقضي على الحكم شون كينغ حقّق أكثر من ستّين مليون مشاهدة. أمّا أبطالنا الجريؤون في قناة أكشن نيوز فقد عرضوا الفيديو مراراً وتكراراً خلال فترات البثّ الصباحية والمسائية. الفيديو نفسه، والهراء نفسه، هزّة الرؤوس المتجهمة نفسها كما لو أنّ ما حدث هو أمر لا يمكن تصديقه. ويبدو كما لو أن الجميع لديهم رأي في المسألة وأن القليل منهم فقط يؤيّد موكّلي. وفي ثلاث مناسبات مختلفة طلبتُ من المحكمة تغيير مكان المحاكمة، فرفضت الطلبات الثلاثة بسرعة. ومن المتوقّع أن يتم استدعاء مئتَي محلّف محتمل يوم الاثنين، وسيكون أمراً

ساحراً أن يرى المرء عدد أولئك الذين سيزعمون عدم معرفتهم بوقائع القضيّة.

أمّا الآن، فهو يوم الجمعة، والوقت حوالى منتصف الليل، وأنا مستلقٍ مع الآنسة نعومي تارانت. وهي نائمة، تخرخر بأنفاس عميقة وطويلة، غائبة تماماً عن هذا العالم. جلستنا الثانية بدأت حوالى الساعة العاشرة، وبعد البيتزا والشراب، وبالرغم من أنها لم تدم سوى أقل من نصف الساعة، إلا أنها بدت مثيرة ومنهكة تماماً. وكلانا يعترف بأنّنا لا نزال على الجانب الخامل من العلاقة، وأنّنا نقضي وقتاً رائعاً في التقارب. وليست لديّ فكرة حول الوجهة التي ستتخذها هذه العلاقة الناشئة، وأنا شديد الحذر دائماً - ولا شكّ في أنّ السبب هو الضرر الدائم الذي لحق بـي من قبل جوديث - لكنّني الآن أعشق هذه الفتاة وأودّ رؤيتها كلما كان ذلك ممكناً.

أتمنّى لو أنّني أستطيع النوم على هذا النحو. فهي في غيبوبة وأنا مستلقٍ يقظ تماماً - سيكون ذلك أمراً طبيعياً - لكنّني أفكّر بالعديد من الأشياء. فالمحاكمة ستبدأ يوم الاثنين؛ إضافة إلى سوانجير وحكايته حول ابنة كيمب؛ وجثّتي البدين والشفرة الداميتين، واللتين لفّتا في سجادة رخيصة وقديمة وألقيتا في موقع طمر النفايات، وقد يكون الفاعل ميغيل زابات وعصابته من تجّار المخدّرات. وأفكّر بالمحقّق ريردون فتتملّكني الرجفة تقريباً من فكرة أنّه وآخرين في دائرة الشرطة يشكّون، إمّا قليلاً أو كثيراً، في أن لي علاقة ما بجريمة مقتل مجرمي لينك. وأتساءل ما إذا

قرّر لينك أن يدعني وشأني؛ الآن بعد أن أصبحت أستطيع التخلّص من الناس بمجرد تحريك أصابعي.

الكثير من الأفكار، والكثير من المشاكل. راودتني رغبة الانسلال من السرير والذهاب بحثاً عن بعض الشراب، ثمّ تذكّرتُ أنّ نعومي لا تحتفظ بشيء منها في شقّتها. فهي خفيفة الشرب وتتناول طعاماً صحّياً، وتمارس رياضة اليوغا أربعة أيام في الأسبوع للمحافظة على تناغم ممتاز في حياتها. ولم أشأ إيقاظها، لذا ظللتُ مستلقياً أحدّق إليها. عمرها ثلاث وثلاثون سنة، مطلّقة حديثاً من تافه أهدرت سبع سنوات من حياتها معه، من دون أطفال وغير مكترثة بذلك على ما يبدو. وهي لا تتحدّث كثيراً حول ماضيها، لكنّني أعرف بأنّها عانت كثيراً. حبّها الأول كان زميلها في الكليّة والذي قُتل من قبل سائق مخمور قبل شهر واحد من تاريخ زفافهما. بعينين دامعتين أخبرتني أنها لن تتمكّن أبداً أن تحبّ رجلاً آخر كما أحبّته.

أنا لا أبحث عن الحبّ حقاً.

لم أستطع التخلّص من التفكير بجيليانا كيمب. فهي فتاة جميلة أو أنها كانت كذلك، مثل رفيقتي هذه، وهناك فرصة جيّدة في أنها لا تزال حيّة وتعيش حياة يتعذر وصف هولها. آرك سوانجير مضطرب عقلياً، وربّما كان منحرفاً اجتماعياً، وهو يفضّل الكذب على أن يقول الحقيقة حول أيّ شيء. لكنّه لم يكن يكذب حول الفتاة هيذر فارّيس التي اختفت من قرية لامونت بولاية ميسسوري، وهي في الرابعة والعشرين من العمر وكانت تعمل في وردية ليلية في أحد المتاجر عندما اختفت من

دون أن تترك أثراً. ولا يزال سكّان القرية يمشّطون الغابة ويجلبون الكلاب البوليسية ويعرضون الجوائز، لكنّهم لم يصلوا إلى نتيجة حتى الآن. كيف عرف سوانجير بأمرها؟ ربّما يكون قد سمع تقريراً إخبارياً مبكّراً، لكن يبدو ذلك أمراً غير محتمل. بحثتُ على الإنترنت فوراً، فوجدتُ قصّتها، ثمّ بدأتُ بتتبّعها في صحيفة كولومبيا. تبعد لامونت مسافة خمسمائة ميل من هنا، ومن المحزن أنها مجرّد فتاة مفقودة أخرى من بلدة صغيرة. هيذر لم تصبح خبراً هامّاً في نشرات الأخبار في أرجاء البلاد.

ماذا لو كان سوانجير يقول الحقيقة؟ هل يعني ذلك أن جيليانا كيمب وهيذر فارّيس فتاتان من بين عشرات الفتيات اللواتي اختطفن من قبل شبكة دعارة وإتجار بالبشر وأجبرنَ على البغاء، والإنجاب والعيش على تعاطي الهيرويين؟ الحقيقة هي أنّ مجرّد معرفتي بذلك، أو حتى مجرّد توقّع حدوثه على الأقل، تجعلني أشعر وكأنّني متواطئ في حدوثه. لستُ محامي سوانجير وقد بيّنتُ ذلك بشكل واضح جداً. في الحقيقة، أحسستُ باندفاع حقيقي للأدرينالين عندما أمسكت مسدسي الغلوك وفكّرت بإراحته من العذاب. وليست هناك قيود أخلاقية تلزمني بالسكوت والسريّة مع هذا التافه. وحتى إذا وُجدت، فسأعذر لتجاهلها إذا فعلت ذلك من أجل إنقاذ حياة بعض الفتيات.

وكنت قد توقّفت أساساً عن القلق حول الأخلاق منذ زمن طويل مضى. ففي عالمي، أعدائي عديمو الرحمة. فإذا كنتُ لطيفاً، فسوف أُسحق.

الساعة الآن هي 1:00 فجراً، وأنا أشدّ يقظة من ذي قبل. أمّا نعومي فانقلبت بجسدها البضّ وألقت أحد ساقيها في اتّجاهي. استطعتُ البقاء ساكناً وأغمضتُ عينيّ.

وكانت أفكاري الأخيرة تدور حول جيليانا كيمب التي تعيش في نسخة عصرنا من العبودية.

.2

أمضينا أنا والرفيق معظم يوم السبت في قبو مكاتب المحاماة هاري آند هاري، وذلك بحثاً عن استجوابات المحلّفين وعن تقارير ثقيلة وثمينة كان قد أعدّها لي كليف، وهو مستشار هيئة محلّفين، والذي تقاضى مني، حتى الآن، 30 ألف دولار. هذا وقد بلغ حساب الدفاع عن تاديو 70 ألف دولار، وكلّه من جيبـي الخاص بالطبع، وهو رقم سيواصل الارتفاع. وأنا لم أتباحث معه في مسألة دفع الأتعاب لأنها مضيعة للوقت. فهو مفلس، وميغيل وبقيّة عصابة المخدّرات ليس لديهم أدنى اهتمام بمسألة أتعابـي. وهم يعتقدون أنّني كسبت مالاً كافياً من استثمار حياة تاديو المهنية القصيرة. وأفترض أنهم يعتقدون أيضاً أنّ التخلّص من البدين والشفرة يساوي، بحسب قوانين الشوارع، الكثير من المالÃ í هذه مقابل تلك. إذاً نحن متعادلون.

يعتقد كليف أن الدفاع عن تاديو زابات تعترضه عقبة أشبه بجبل ينبغي تسلّقه. وأنّه هو ومؤسّسته قد قاموا بعملهم المعتاد (1)

استطلعوا آراء ألف ناخب من المسجّلين في هذه المنطقة وطرحوا عليهم أسئلة افتراضية؛ (2) وأجروا بحثاً عاجلاً حول خلفيات جميع المحلّفين المحتملين البالغ عددهم مئتي محلّف؛ و(3) راجعوا كلّ تقرير إخباري تطرّق إلى الحادثة القبيحة المتمثلة في ضرب شون كينغ. وقد تبيّن من خلال الاستفتاء أن نسبة 31 بالمائة من المستطلعة آراؤهم يعرفون القليل أو الكثير عن القضيّة، وأن الأغلبية الواسعة منهم تفضّل الإدانة.äÆe ثمانية عشر بالمائة منهم رأوا الفيديو. وفي قضية قتل من النوع الشائع الحدوث، بغض النظر عن طبيعتها المثيرة، يوجد عادة 10 بالمائة فقط ممّن يدركون طبيعتها غير المعتادة.

وكليف، بخلاف معظم المستشارين، معروف بصراحته. لهذا السبب أستخدمه. وقد تلخّص استنتاجه بما يلي: «فرصة الحصول على براءة بسيطة. احتمال الإدانة قويّ. توصّل إلى عقد صفقة؛ فاوض على الاعتراف مقابل إدانة أخفّ. انجُ بحياتك فوق التلال».

وعندما قرأت تقريره أول مرة، اتّصلتُ به فوراً وقلت: «هيّا يا كليف، دفعتُ لكم كلّ ذلك المال لتكون نصيحتك الأفضل هي أن أعدو نحو التلال؟».

ونظراً لذكائه الشديد وسرعة بديهته، كانت إجابته: «لا، في الحقيقة، أنا كنت سأنهب الأرض عدواً نحو التلال. موكّلك بلا أمل وهيئة المحلّفين ستدينه بأقصى عقوبة».

سيكون كليف موجوداً في قاعة محكمة يوم الاثنين ليراقب ويدوّن الملاحظات. وبقدر ما أحبّ الكاميرات وإثارة الانتباه، لا أتطلّع إلى ذلك هذه المرّة.

3.

في الساعة 4:00 مساءً، صعدنا أنا والرفيق إلى شاحنة الفورد الصغيرة والجديدة والبراقة التي صُنعت بحسب الطلب، مجهّزة بكلّ لوازم البذخ المعتاد الذي أحتاجه في هذا المكتب النقّال الرائع، ثمّ اتجّهنا إلى الجامعة. وبناء على اقتراح الرفيق، وافقتُ على التخفيف من تميّزها الشديد بالابتعاد عن اللون الأسود الواضح واختيار لون خارجي أقرب إلى البرونزي الخفيف. ثمّ طُبعت على جانبيها، بحروف صغيرة منفصلة، كلمتيّ «سميث للمقاولات»، وهي لمسة لطيفة أخرى اقترحها الرفيق. وهو مقتنع بأنّنا سنندمج الآن في محيطنا وسيكون من الصعب اكتشافنا من قبل الشرطة، ولينك، وزبائني الخاصّين، وكلّ الأشرار الآخرين، الحقيقيين والمحتملين، الذين يترصّدوننا هنا وهناك.

أنزلني أمام مركز الجامعة المائي وغادر بحثاً عن مكان مناسب للوقوف. دلفتُ إلى الداخل، ثمّ سمعت أصواتاً تتردّد، وعثرتُ بعد ذلك على بركة السباحة، فأرسلتُ رسالة نصيّة إلى موسّ كورجان. وكانت

حشود الأطفال النحلاء الصغار مجتمعة للمشاركة في لقاء السباحة هذا. وكانت المدرّجات نصف مكتظّة بأولياء الأمور الصاخبين. وكان ثمة سباق جارٍ لسباحة الصدر حيث انطلقت فتيات صغيرات وهن يرفسن الماء وينثرنه في جميع مسارات البركة الثمانية التي يبلغ طولها خمسين متراً.

أجاب موسّ: «الجانب الأيمن، القسم الثالث، الصفّ الأعلى».

نظرتُ فلم أرَ أحداً، لكنّني كنت متأكّداً من أنّه يراقبني. وكنتُ أرتدي سترة جلدية مخفياً شعري الطويل تحت ياقتها، بالإضافة إلى سروال من الجينز الأزرق وقبّعة ميتس برتقالية. وهذا ليس جمهوري المعتاد ولا أتوقّع أن يعرفني أحد هنا، لكنّني أحتاط للمصادفات النادرة. ففي الأسبوع الماضي فقط كنا أنا والرفيق نأكل الشطائر في أحد المقاهي عندما اتّجه نحوي أحد الحمقى وقال لي أنّه يعتقد أنّ مقاتل الأقفاص الصغير الذي أتبناه يجب أن يتعفّن في السجن لبقية حياته. شكرته وطلبت منه أن يدعنا وشأننا. دعاني بالمحتال. وما إن وقف الرفيق حتى اختفى الرجل.

وبينما كنتُ أتسلّق المدرّجات امتلأ أنفي برائحة الكلور. وكان ابني ستارتشر قد ذكر مرّة مسألة السباحة، لكن والدته أخبرته أن رياضة السباحة خطرة جدّاً بسبب كلّ تلك المواد الكيمياوية التي يضعونها في الماء. ولن يفاجئني الأمر أبداً إذا وضعت ذلك الطفل في فقاعة.

جلستُ وحيداً للحظة، بعيداً من أي شخص آخر، وراقبتُ النشاط في البركة. كان الآباء يصرخون والضوضاء تصبح أعلى فأعلى إلى أن توقّفت

فجأة وانتهى السباق. سحب الأطفال أنفسهم من الماء بينما كانت أمهاتهم ينتظرن بالمناشف والنصائح. ومن هنا حيث أجلس، تبدو الفتيات في العاشرة من أعمارهن تقريباً.

انفصل موسّ عن مجموعة الأباء المتجمّعين عند البركة ثمّ تجوّل حولها ببطء. وتسلّق بعد ذلك المدرّجات نحوي وجلس أخيراً، على بُعد حوالى ثلاثة أقدام مني. لغة جسمه تفصح عن كلّ شيء؛ يكره الموقف الذي هو فيه الآن ويفضّل أن يتكلّم مع قاتل محترف. «من الأفضل أن يكون هذا جيّداً، يا رودّ»، قال ذلك من دون أن ينظر إلي.

«ومرحباً بك أيضاً، يا موسّ. أيّهم طفلتك؟». سؤال غبـي؛ هنالك حوالى ألف طفلة يتزاحمن حول البركة.

«تلك»، قال مع إيماءة خفيفة. يا للذكاء، لكنّني سألتُ مجدداً عنها. «عمرها اثنا عشر عاماً وتسبح سباحة حرّة. ولن تتبلّل بالماء قبل ثلاثين دقيقة أخرى. هل يمكننا مواصلة ما نحن بصدده؟».

«عندي لك صفقة أخرى، وهي معقّدة بدرجة أكبر من سابقتها».

«ذلك ما قلته بنفسك. أنا متوقّف عن ذلك تقريباً، يا رودّ، حتى ذكرت ابنة كيمب. لنبحث الأمر».

«تعقّبني سوانجير ثانية. ثمّ اجتمعنا. وهو يزعم أنّه يعرف مكانها، ويقول أنّها حملت حملاً كاملاً ووضعت طفلاً، ثمّ بيع الطفل الرضيع لبعض تجّار البشر الذين يغذّونها بالهيروين مقابل جميع خدمات الدعارة التي تقدّمها».

«سوانجير كذاب أكيد».

«هو بالتأكيد كذلك، لكن بعض الذي يقوله صحيح».

«لماذا اتّصل بك؟».

«يقول أنّه يحتاج إلى مساعدة، ولا يدعو ذلك للاستغراب، يحتاج مالاً. وثمّة فرصة في أن يتّصل بي ثانية، فإذا فعل فقد أُطلق رجال الشرطة في أثره. وقد يؤدّي ذلك الأثر إلى جيليانا كيمب، أو لا يؤدي. ليس هناك طريق أخرى لمعرفة الحقيقة، لكن حتى الآن لا تعلم الشرطة شيئاً عن المسألة».

«إذاً أنت تضحّي بموكّلك ثانية».

«ليس موكّلي. أوضحتُ له الأمر تماماً. وهو قد يعتبرني محاميه، لكنّ تحليل ما قد يعتقده آرك سوانجير مجرّد مضيعة للوقت».

انطلق صوت جرس عالٍ فقفز ثمانية أطفال في الماء. وعلى الفور، بدأ الآباء والأمهات بالصراخ، كما لو أنّ باستطاعة الأطفال أن يسمعوهم. فباستثناء «اسبح أسرع!»، ما الذي يمكنك أن تصرخ به وسط تناثر الماء وحرارة السباق؟ راقبناهم إلى أن انقلبوا عائدين.

قال موسّ: «وماذا تريد منّا؟».

«سنذهب إلى المحاكمة يوم الاثنين أنا ومقاتل الأقفاص. أريد صفقة أفضل. أريد الاعتراف مقابل الإدانة بالسجن خمس سنوات مع ضمان أن يقضي موكّلي مدّة سجنه في مزرعة المقاطعة التأديبية. فهي مكان أقل

قسوة. ويوجد فيه جمنازيوم لطيف. لذلك يستطيع الفتى أن يحافظ على لياقته، وبعد قضائه حوالى ثمانية عشر شهراً، يحصل على إفراج مشروط حين يكون قد أصبح في الرابعة والعشرين وما زال لديه مستقبل في الحلبة. ما عدا ذلك، سيُمضي خمسة عشر عاماً ثمّ يخرج كأحد مجرمي الشوارع العنيفين وليس في رأسه شيء سوى ارتكاب المزيد من الجرائم».

حرّك عيناه ثمّ زفر غير مصدّق لما سمع، كما لو أنّ كلّ ما قلته للتوّ مجرّد نكتة طريفة. هزّ رأسه؛ يجب أن أكون أبلهاً.

أخيراً، وبعد جهد عظيم، استطاع القول: «ليست لدينا سيطرة على المدّعي العامّ. أنت تعرف ذلك».

«عُيّن مانسيني من قبل عمدة المدينة وصُدّق على تعيينه من طرف مجلس المدينة، مثلك. ورئيس شرطتنا المؤقت عُيّن أيضاً من قبل عمدة المدينة وصُدّق على تعيينه من طرف مجلس المدينة. والأمر نفسه بالنسبة لروي كيمب، الذي ما زال في إجازة. ألا نستطيع إيجاد طريقة للعمل معاً هنا؟».

«مانسيني لن يستمع إلى وودي. يكرهه».

«الجميع يكره وودي، وهو بدوره يكره الجميع. وقد استطاع بطريقة ما أن ينجو ويفوز بثلاث دورات. إليك الطريقة التي يمكنك اعتمادها لتسويق الأمر لدى وودي. هلا تستمع لما أقول؟».

لم يكن قد نظر إلي حتى الآن، لكنّه استدار الآن وحدّق إليّ. ثمّ نظر نحو البركة وعقد ذراعيه على صدره، وتلك كانت الإشارة لي أن أنطلق بالحديث.

«حسناً، لنلعب معاً، يا موسّ، ساعدني على إتمام هذا الأمر. دعنا نفترض أنّني أستطيع إرشاد الشرطة إلى سوانجير، ولنفترض أبعد من ذلك أنّ سوانجير يمكن أن يقود الشرطة إلى جيليانا كيمب. وهي بالمناسبة موجودة في مكان ما في القسم الغربـي من وسط شيكاغو. وافترض أيضاً أنّهم أنقذوا الفتاة، فما الذي سيحدث؟ سيبادر عمدتنا المحبوب، فخامة áÅ. وودرو سوليفان الثّالث، إلى عقد المؤتمر الصحفي الأول. تخيّل المشهد يا موسّ. وأنت تعلم كم يحبّ وودي المؤتمرات الصحفية. سيكون في أسعد لحظاته. وودي في بدلة قاتمة، يوزّع الابتسامات، وخلفه صفّ من رجال الشرطة، كلّهم متجهمي الوجوه لكنّهم سعداء لأن الفتاة أُنقذت. سيُصرّح وودي كما لو أنّه هو من وجدها شخصياً وحقّق المعجزة. وسنشاهد بعد ساعة من ذلك الصورة الأولى لعائلة كيمب السعيدة التي اجتمعت ثانية، مع وودي، بالطبع، وقد زرع نفسه في الصورة كما يفعل دائماً. يا لها من لحظة!».

لان موسّ قليلاً بعد أن استوعب التصوّر الذي قدّمته. ثمّ بدا وكأنّه يستعرضه في دماغه. وقد أراد أن يرفضه بالكامل ثمّ يقول لي اذهب إلى الجحيم، لكنّه عرض مغرٍ جدّاً حقاً. ولأنّه يفتقر إلى الإبداع، كالمعتاد، فقد قال لي بكلّ بساطة: «أنت مجنون يا رودّ».

لم يفاجئني ذلك. لذا تابعتُ الحديث بالقول: «وباعتبار أنّنا مدركون للحقيقة هنا، ونضع فرضيات جريئة، فلنفترض أن سوانجير لا يكذب. وإذا كان الأمر كذلك، فإن جيليانا واحدة من العديد من الفتيات اللواتي اختطفن من عوائلهم وتمّ بيعهن ليصبحن مستعبدات. وهنّ جميعاً تقريباً فتيات أمريكيات بيضاوات. وإذا قضي على الشبكة واعتقل تجّار البشر، فسوف تتردّد القصّة وتنتشر من الساحل إلى الساحل. وسيحصل وودي على أكثر من حصّته من التقدير والثناء؛ بالتأكيد بما يكفي لكي يتألق في هذه المدينة».

«مانسيني لن يوافق».

«فلتطرد مانسيني. فوراً. استدعه على سبيل المساءلة وأجبره على الاستقالته. وعمدة المدينة لديه هذه الصلاحية بحسب تقاليدنا الديمقراطية. استبدله بأحد أولئك المتزلّفين البيروقراطيين. يوجد مائة منهم فقط».

«أعتقد هناك خمسة عشر»، قال.

«آسف. إذاً اختر واحداً من الخمسة عشر مدّعياً مساعداً من التابعين للادّعاء العام في المدينة، وأنا متأكّد من أنّك بالتعاون مع وودي ستجدان واحداً أقلّ طموحاً؛ واحداً يفعل ما تأمره أو تأمرها به مقابل ذلك المنصب الكبير. هيّا يا موسّ، ليست مسألة معقّدة إلى هذا الحدّ».

مال إلى الأمام، ثمّ غرق في تفكير عميق، مستنداً بمرفقيه على ركبتيه. خفّت الضوضاء في المكان. ثمّ سكت الجمهور حين انتهى أحد السباقات

وبدأ العمل على تنظيم التالي. ومن حسن الحظّ أنّه لم يسبق لي أن اضطررت إلى حضور اجتماع للسباحة مثل هذا، إذ يبدو كما لو أنّ هذه المحنة تستمرّ عادة لساعات. أشكر والدة ستارتشر وخوفها عليه من الكلور.

لاحظتُ أنّه يحتاج إلى بعض المساعدة، لذا حثثته بالقول: «æææ Ï í لديه السلطة يا موسّ. وباستطاعته أن يجعل هذا الأمر يحدث».

«ولماذا يجب أن تكون صفقة؟ لماذا لا تفعل الشيء الصحيح فقط وتتعاون مع الشرطة؟ وإذا كنتَ تصدّق سوانجير، وإذا لم يكن بالفعل موكّلك، فساعد الشرطة إذاً. يا للجحيم، أنت تتحدّث هنا عن شابّة بريئة».

«لأنّني لا أعمل بتلك الطريقة»، قلت، مع ذلك فقد بذلتُ جهدي للإجابة عن سؤاله. «لديّ موكّل أمثّله وأدافع عنه، وهو مذنب، وأنا مستميت في البحث عن طريقة لمساعدته. وأنا لا أتعامل مع الزبائن الذين لديهم إمكانية جمع الكثير من المال، قانونياً، لكن هذا الفتى مختلف. فهو قد يتمكن من إخراج نفسه وعائلته الكبيرة والمتزايدة بالأحرى من الغيتو».

«الغيتو هنا أفضل من المكان الذي أتوا منه»، كان يهذر، ثمّ تمنّى فوراً أنّه لم يقل ذلك.

بحكمة، وعلى نحو غير معهود، تركتُ تعليقه يمرّ.

راقبنا مجموعة من الأولاد الأطول تتدرّب وتتمطى بعصبية عند بداية السباق. قلت: «هناك شيء آخر».

«أوه، صفقة متعددة ذات أجزاء. يا للمفاجأة».

«قبل حوالى شهر، عثرت الشرطة على جثّتين في موقع طمر النفايات. وهما مجرمان كانا يعملان لصالح لينك سكانلون. ولسبب ما، أنا مشتبه به. لا أعرف مدى الجدّية في ذلك، لكنّني لا أفضّل أن تكون لي علاقة بالأمر».

«ظننتُ أن لينك كان موكّلك».

«كان كذلك، لكن لنقُل أنّه عندما اختفى أصبح أقل رضى عن خدماتي. لذلك أرسل المجرمين القتيلين لاستخلاص بعض المال مني».

«من الذي قضى عليهم؟».

«لا أعرف لكنّه ليس أنا. هل تعتقد فعلاً أنّني قد أرتكب عملاً كهذا؟».

«من المحتمل».

افتعلتُ ضحكة رخيصة. «مستحيل. الرجلين محترفي بلطجة ولهما الكثير من الأعداء. وأياً يكن الذي قضى عليهما فهو من ضمن قائمة طويلة من الناس الذين يريدون أن يفعلوا ذلك».

«إذاً، دعني أرتّب المسألة. أولاً، تريد من عمدة المدينة أن يجبر مانسيني أن يكون رؤوفاً مع مقاتل الأقفاص الذي تدافع عنه بحيث

يحصل على صفقة جيّدة ويحمي مهنته. ثانياً، تريد من عمدة المدينة أن يوجّه دائرة الشرطة للبحث في مكان آخر عمّن قضى على صبيان لينك. وثالثاً، ما هو الثالث؟».

«الجزء الأفضل. سوانجير».

«أوه صحيح. وفي مقابل ذلك يعرّض عمدة المدينة قفاه للانتهاك، لعلّك تستطيع مساعدة الشرطة في العثور على سوانجير، والذي ربّما كان يقول الحقيقة وربّما يستطيع إرشاد الشرطة إلى مكان الفتاة. أليس كذلك، يا رودّ؟».

«هذا يلخّص المسألة».

«يا له من هراء محض».

راقبته وهو يسير في الممر عبر المدرّجات ثمّ يلتفّ حول الطرف البعيد من البركة. وعلى الجانب الآخر، سار مسافة أربعة صفوف وعاد إلى مقعده بجانب زوجته. ومن بعيد، حدّقت إليه لوقت طويل، لكنه لم يلقِ نحوي حتى التفاتة بسيطة.

.4

الرمز "كي" يشير اختصاراً إلى كهف سمك السلّور. وهو يقع على بُعد بضعة أميال شرق المدينة في ضاحية قذرة تتألف من سلسلة من البيوت الريفية المتماثلة التي بُنيت قبل ستّين عاماً بمواد صُمّمت لتدوم خمسين عاماً. ويقدّم المطعم مائدة من السمك والخضار، فُرم كلّه وقُلي قلياً شديداً ثمّ جُمّد مرّة أخرى لشهور، وحتى لسنوات. ومقابل عشرة دولارات فقط يستطيع الزبائن أن يرعوا ويلتهموا ما شاؤوا لساعات ومن دون قيود. ويُكوّم هؤلاء أطباقهم الكبيرة كما لو أنّهم في مجاعة، ثمّ يغسلون ما تناولوه بكميات كبيرة من الشاي السكّري. ويُقدَّم الشراب في المطعم، لكن الناس لسبب ما لا يأتون إلى هنا لتناول الخمر. وثمة في المطعم نفسه ركن لحانة خالية وغارقة في العتمة في زاوية بعيدة ومهملة، وفيها أقابل نيت سبوريو من حين لآخر.

وكان اجتماعنا الأخير قد تمّ في "بـي"، أي دكان الكعك. أما الاجتماع الذي سبقه فكان في Ã í" في مطعم آربـي الذي يقدّم لحم البقر المشوي

في الضاحية الأخرى. وكانت حياة نيت المهنية قد وصلت إلى طريق مسدود قبل عقد من الزمن. وهو لا يمكن أن يُطرد من عمله، ومن الواضح أنّه لا يمكن أن يُرقّى في وظيفته. لكن إذا اكتُشف، عبر مصادفة ما، أنّه تناول الشراب برفقتي خارج أوقات عمله، فسيجد نفسه ينظّم حركة المرور أمام مدرسة ابتدائية. وهو مخلص جدّاً في عمله لصالح الشرطة في هذه المدينة.

رئيسه النّقيب ترويت، رجل محترم جدّاً ومقرّب من روي كيمب. فإذا أردتُ تمرير رسالة إلى كيمب، فالمسار يبدأ من هنا حول كأسين من المشروبات. وقد طرحتُ كلّ شيء فوق الطاولة. وقد فوجئ نيت بأنّني لا أزال أتمسك حتى الآن بالأمل الضعيف بأنّ جيليانا كيمب لا تزال حيّة. وقد أكّدتُ له بأنّني لا أعرف ما الذي أصدقه وأن تصديق أيّ شيء يقوله سوانجير قد يكون خطأ. لكن، ما الذي يمكن أن نخسره؟ فهو يعرف بالتأكيد شيئاً ما، وهو شيء أكثر بكثير ممّا يعرفه محقّقونا. وكلّما تحدّثنا وشربنا، أصبح نيت أكثر اقتناعاً بأن دائرة الشرطة واتّحادها يمكن أن يضغطا على كلّ من عمدة المدينة وماكس مانسيني. وأن مدير شرطتنا السابق كان أبلهاً فسمح بأن يصبح وضع قوّة الشرطة على ما هو عليه، لكن روي كيمب ما زال يحظى باحترام كبير من قبل رفاقه. كما أن إنقاذ ابنته يساوي عقد صفقة اعتراف وإدانة مخفّضة لكلّ متهم موجود الآن في السجن.

وقد حذّرتُ نيت مراراً وتكراراً من أن العثور عليها يعتبر مراهنة ضدّ كلّ الاحتمالات المعقولة. أولاً، لستُ متأكّداً من قدرتي على العثور

على سوانجير، أو أنّه قد يرغب في رؤيتي ثانية. ففي لقائنا الأخير كدتُ أن أطلق عليه النار. وعندي الهاتف الخلوي المدفوع الأجرة سلفاً لكنّني لم أستخدمه منذ اجتماعنا الأخير. فإذا كان لا يعمل، أو إذا لم يُجب هو، فسيكون الحظّ قد خاننا. وإذا قابلته واستطاعت الشرطة تتبّعه، فما هي احتمالات أن يقودهم إلى النادي في القسم الغربـي من وسط شيكاغو؟ احتمال بسيط جداً، كما أعتقد.

لدى نيت نطاق عاطفي يصلح لراهب متزمّت، لكنّه لا يستطيع إخفاء حماسه. وعندما غادرنا الحانة قال إنه سيتوجّه إلى بيت ترويت. وهناك، سيتحدّثان فيما بينهم، وهو يتوقّع أن ترويت سيُخبر روي كيمب فوراً بأنّ ثمة صفقة محتملة تختمر. إنّها ضربة طويلة المدى، لكن حين تكون ابنتك أنت المعنية بالأمر فستحاول أيّ شيء. أخيراً، حثثته على استعجال التحرّك؛ فالمحاكمة ستبدأ غداً.

.5

كان الوقت متأخّراً من ليلة الأحد، حين ذهبنا أنا والرفيق إلى سجن المدينة من أجل الاجتماع الأخير قبل المحاكمة مع موكّلنا. وبعد نصف ساعة من المجادلة مع السجّانين، سُمح لي أخيراً برؤية تاديو.

أخافني الفتى. فخلال الوقت الذي قضاه في السجن، تشرّب بالكثير من النصائح المجّانية من زملائه الجدد، كما أقنع نفسه أيضاً بأنّه مشهور. وبسبب الفيديو، فقد تلقى الكثير من الرسائل البريدية، وكلّها تقريباً من معجبين. وهو يعتقد أنّه على وشك الخروج من المحاكمة كرجل حرّ، محبوباً من الكثيرين ومستعدّاً لمواصلة مهنته الرائعة. وقد حاولتُ إعادته إلى أرض الواقع وإقناعه أن أولئك الذين يراسلونه ليسوا بالضرورة من نوع الناس أنفسهم الذين سيجلسون في مقاعد المحلّفين. كما أن كتّاب تلك الرسائل هم في الغالب من الهامشيين؛ حتّى أن العديد منها يتضمّن طلبات بالزواج. أما المحلّفين فسيكونون من الناخبين المسجّلين في منطقتنا، ومن النادر أن يكون لدى عدد منهم أيّ ولع بقتال الأقفاص.

وكالعادة، عرضتُ عليه التقدّم بآخر التماس يتضمّن طلب الحكم بخمسة عشر عاماً بجريمة القتل من الدرجة الثانية. لكنّه ضحك مع ابتسامة غرور، كما فعل في السّابق. وهو لم يطلب نصيحتي وأنا لم أعرضها عليه. وكان قد رفض عدّة مرات القبول بالحكم خمسة عشر عاماً باعتبار ذلك أمراً لا يستحقّ المناقشة. لكنّه تصرّف بحكمة حين اتّبع نصيحتي وحلق شعره وشذّبه. وكنتُ قد جلبتُ له بدلة زرقاء داكنة مستعملة، مع قميص وربطة عنق بيضاء، وهي ملابس وجدتها أمّه لدى جمعية النيّة الحسنة. وعلى رقبته، تحت أذنه اليسرى، يوجد وشم عن الأصل المحيّر، وسيكون ذلك الوشم مرئياً جزئياً فوق ياقته. وحيث أن أغلب زبائني من أصحاب الوشوم، فقد اكتسبتُ خبرة في التعامل مع هذه القضية. ومن الأفضل إخفاؤها عن المحلّفين. أمّا في حالة تاديو، مع ذلك، فسيتمتّع المحلّفون برؤية ذلك الوشم المدهش عندما يرون الفيديو.

ومن البديهي أنه عندما يتّخذ أحدهم القرار في أن يصبح مقاتل أقفاص، فإن محطته الأولى في الطّريق إلى الجمنازيوم ستكون صالة الاستقبال في صالون الوشم.

وهناك فجوة بيننا ظلّت تنمو وتتّسع لفترة من الوقت. فهو يعتقد بأنّه سيحصل على البراءة. وأنا أعتقد أنّه سيُسجن. وهو ينظر إلى شكوكي في الحصول على نتيجة ناجحة ليس فقط كدليل على انعدام ثقتي فيه، بل كدليل أيضاً على ضعف قدراتي الخاصة في قاعة المحكمة. أمّا الأمر الأكثر إزعاجاً فهو إصراره على الشهادة. وهو يعتقد حقاً أنّه يستطيع

اعتلاء المنصّة وأن يخدع هيئة المحلّفين لتصدّق أنّ (1) الفوز بالمباراة سُرق منه من قبل شون كينغ، وأنّه (2) ثار، وهاجم، وفقد صوابه، وتملّكه الجنون بشكل مؤقت، وأنّه (3) يشعر الآن بندم حقيقي حول ذلك. وبعد أن يشرح كلّ شيء لهيئة المحلّفين، سيُقدّم اعتذاراً عاطفياً ومؤثّراً لعائلة كينغ. ثمّ سيكون كلّ شيء على ما يرام وستسارع هيئة المحلّفين باتّخاذ القرار الصحيح.

حاولت وصف المعاملة القاسية التي سيتلقّاها عندما أسلّمه إلى ماكس مانسيني من أجل استجوابه. لكن، وكالمعتاد، ليس لديه تقدير حقيقي لما يحدث في أتون المحاكمة. يا للجحيم، لا أكون متأكّد دائماً ممّا يوشك أن يحدث.

لم يُجدِ نفعاً أيّ من تحذيراتي مع تاديو. لقد ذاق مجداً كافياً في القفص ليعرف ما الذي يريده. المال، والشهرة، والتملق، والنساء، وبيت كبير لأمّه وعائلته. وسيكون ذلك كلّه من نصيبه قريباً جدّاً.

6.

من المستحيل عادة النوم في الليلة التي تسبق جلسة الافتتاح في محاكمة تشرف عليها هيئة محلّفين. كان دماغي يعمل بسرعة فائقة وأنا أكافح من أجل تذكّر التفاصيل، والحقائق، وما ينبغي عمله وتنظيم كلّ ذلك. وكانت معدتي تتقلّب بسبب القلق وأعصابـي مشدودة ومتوتّرة. وأنا أعرف أنّ من المهم أن أرتاح وأن أظهر منتعشاً وهادئاً أمام هيئة المحلّفين، لكن الحقيقة هي أنّني سأبدو كالعادة تماماً؛ متعباً، متوتّراً، وعيناي محتقنتان. كنتُ أرتشف القهوة قبل الفجر مباشرة، وكنت أسأل نفسي، كالمعتاد، لماذا أفعل ذلك. لماذا أعرّض نفسي إلى مثل هذه الأوضاع غير السارّة؟ عندي ابن عم بعيد وهو جرّاح أعصاب عظيم في بوسطن، وأنا أفكّر فيه في أغلب الأحيان في لحظات مثل هذه. وأفترض بالتالي أن عالمه شديد التوتر حين يشقّ الدماغ ليعمل تحت ضغط الخوف من ضياع كلّ شيء بين يديه. كيف يمكنه احتمال ذلك من الناحية الجسدية؟ الأعصاب، توتّر المعدة؛ نعم وحتى الإسهال والغثيان؟ نادراً ما نتكلّم، لذا

لم أستفسر منه عن ذلك أبداً. ثمّ أذكّر نفسي أنّه يقوم بعمله من دون جمهور، فإذا ارتكب خطأ فسيدفنه بكلّ بساطة. وأحاول أن لا اذكّر نفسي أنّه يحصل على مليون دولار في السنة.

المحامي في المحكمة يشبه، من عدّة نواحٍ، الممثل على المسرح. فالنصّ الذي سيلقيه لا يكون مكتوباً دائماً، وذلك ما يجعل مهمّته أشدّ صعوبة. فهو يجب أن يتفاعل، وأن يكون سريع الحركة واللسان، وأن يعرف متى يهاجم ومتى يسكت، متى يقود ومتى يُقاد، ومتى يشتعل غضباً ومتى يكون بارداً. وخلال ذلك كلّه، يجب أن يقتنع ويقنع، لأن كلّ شيء متوقّف على التصويت النهائي لهيئة المحلّفين.

نسيتُ النوم في نهاية المطاف وذهبتُ إلى منضدة البلياردو. نضّدتُ الكرات وفرّقتها بلطف. ثمّ أسقطتُ جميع الكرات وأدخلتُ ثمانية منها في جيب جانبـي.

لديّ مجموعة من البدلات البنيّة وقد اخترتُ واحدة منها بعناية من أجل جلسة اليوم الافتتاحية. وقد ارتديتُ اللون البني ليس لأنّني أحبّ ذلك اللون، بل لأن لا أحد غيري يفعل ذلك. فالمحامون، بالإضافة إلى المصرفيين والمدراء التنفيذيين والسياسيين، كلّهم يعتقد أنّ البدلات الرسمية يجب أن تكون إمّا زرقاء قاتمة أو رمادية قاتمة. والقمصان إمّا بيضاء أو زرقاء خفيفة؛ وربطات العنق ينبغي أن تكون من بعض درجات اللون الأحمر. أما أنا فلا أرتدي أبداً ثياباً بتلك الألوان. وبدلاً من الحذاء الأسود، سأنتعل اليوم جزمة رعاة بقر من جلد النعام. وهي لا تتلاءم تماماً مع بدلتي البنية، لكن من يهتمّ؟. وبعد أن انتقيتُ

مجموعتي وطرحتها على السرير، أخذتُ حمّاماً طويلاً. ثمّ وأنا في رداء الحمّام، تجوّلتُ في مسكني وألقيت بصوت خفيض نسخة أخرى من مرافعتي الافتتاحية. بعد ذلك رصفتُ الكرات على منضدة البلياردو من جديد، ثمّ فرّقتها فأخطأتُ الضربات الثلاث الأولى، ثمّ وضعت عصا اللعب جانباً.

.7

اكتظّت قاعة المحكمة بالحضور بحلول الساعة 9:00 صباحاً، وهي الساعة المحدّدة لحضور جميع المحلّفين المحتملين البالغ عددهم مئتي شخص من أجل غربلتهم. وباعتبار أن القاعة تتّسع لمئتي شخص فقط، فقد حدث ازدحام شديد عندما ظهر حشد من المشاهدين وبضع عشرات من المراسلين الذين يبحث كلّ منهم عن مكان له.

وكان ماكس مانسيني يتبختر في الأرجاء ببدلته الفاخرة الزرقاء الداكنة وحذائه الأسود البراق المزخرف، موزّعاً ابتساماته المشرقة على الكتّاب والمساعدين. ومع وجود كلّ هؤلاء المشاهدين، فقد تصرّف بلطف حتى معي. بعد ذلك تدانينا ودردشنا حول الأمور المهمّة بينما كان الحجّاب يتعاملون مع الحشد.

«ما زال الاتّفاق قائماً على خمس عشرة سنة؟»، سألته.

«لك ما أردت»، قال مبتسماً ونظر إلى الجمهور.

ومن الواضح أنّه، بين موسّ وسبوريو، لم تشقّ كلمة السرّ حتى الآن طريقها إلى أذن ماكس. أو ربّما كانت قد وصلت؛ ربّما يكون ماكس أُبلغ بعقد الصفقة وقبول الالتماس، وربّما يكون ماكس قد فعل ما أتوقّع منه أن يفعل: قال على لوودي وموس وكيمب والجميع أن يذهبوا إلى الجحيم. فهذا هو استعراضه، واللحظة الكبرى في مسيرته المهنية. أنظر فقط إلى كلّ أولئك الناس الذين يحترمونه. وكلّ أولئك المراسلين!

ترأّس الجلسة هذا الأسبوع سعادة القاضية جانيت فابنيو، والمعروفة عموماً بين المحامين بلقب «سيري ببطء يا فابنيو». وهي قاضية شابة، لا تزال في مقتبل العمر، لكنّها تبدو ناضجة جدّاً على كرسي القضاء. وهي تخشى ارتكاب الأخطاء، لذا فهي شديدة التأنّي. وتتباطأ. تتكلّم ببطء، وتفكّر ببطء، وتحكم ببطء، وتصرّ على أنّ يتحدّث المحامون والشهود بشكل واضح في جميع الأوقات. وهي تدّعي أنّ هذا لمنفعة كاتب المحكمة الذي يجب أن يدوّن كلّ كلمة، لكنّنا نشكّ أنّ السبب الحقيقي هو أن سعادتها تستوعب الأمور أيضاً... ببطء حقيقي.

ظهر كاتبها وقال إن القاضي تريد رؤية المحامين في مكتبها. دخلنا وأخذنا مقاعدنا حول طاولة الاجتماعات القديمة، أنا في جهة، ومانسيني وإمّعاته في الجهة المقابلة. أمّا جانيت فقد جلست عند رأس الطاولة، وكانت تأكل شرائح التفاح من طاسة بلاستيكية. ويقولون إنّها مهووسة دائماً بشأن حميتها الأخيرة ومدرّبها الأخير، لكنّني لم ألاحظ أي تقدّم على جبهة تخفيض الوزن. وقد رُحمنا حين لم تعرض علينا أيّ شيء من غذائها.

«هل هناك المزيد من الطلبات قبل المحاكمة؟»، سألتْ وهي تنظر إلي.

تلى ذلك أصوات قضمها لشرائح التفاح.

هزّ مانسيني رأسه نفياً. وفعلتُ أنا الشيء نفسه، ثمّ أضفتُ، لأسباب عدائية فقط: «لن يكون لها أيّ نفع. قدّمتُ العشرات منها وكلّها رُفضت».

استوعبتْ تلك الوخزة الرخيصة، ثمّ ازدردت طعامها بصعوبة، وأخذتْ رشفة ممّا يبدو مثل البول في وقت مبكّر صباحاً، وقالت: «هل هناك فرصة اعتراف مقابل إدانة بحكم أقلّ؟».

قال مانسيني: «نحن ما زلنا نعرض خمسة عشر سنة بجريمة من الدرجة الثانية».

قلت: «وموكّلي ما زال يقول لا. آسف».

«ليس عرضاً سيئاً»، قالت، ردّ الوخزة الرخيصة لي.

«ما الذي سيقبله المتهم؟».

«لا أعرف، يا صاحبة السعادة. ففي هذه المرحلة لستُ متأكّداً من رغبته في الاعتراف بأيّ شيء. وقد تتغيّر الأمور بعد يوم أو اثنين من بدء المحاكمة، لكنّه يتطلّع الآن إلى يومه في المحكمة».

«حسناً جداً. يمكننا إسكانه بالتأكيد».

تحدّثنا بعد ذلك حول أمور شتى لنقتل الوقت، بينما انشغل الحجّاب بالتعامل مع المحلّفين وتنظيم الأمور. أخيراً، في الساعة 10:30؛ قال الكاتب إن قاعة المحكمة أصبحت جاهزة. ثمّ غادر المحامون مكتب القاضية وأخذوا أماكنهم. وقد جلستُ بجانب تاديو، الذي بدا مرتبكاً نوعاً ما وهو متأنّق. تهامسنا فبيّنتُ له أن الأمور تتّجه إلى التأزم، كما توقّعت، حتى الآن على أية حال. ومن خلفنا، كان المحلّفون المتوقّعون يحدّقون بقفا رأسه ويتعجّبون من هول الجريمة التي ارتكبها.

وعندما أُمرنا، نهضنا جميعاً احتراماً للمحكمة، بينما دخلت القاضية فابنيو، وهي تخفي بشكل رائع جسدها الضخم بالعباءة السوداء الطويلة. ولأن كثيراً من أعمالهم الكئيبة تجري من دون جمهور، فالقضاة يحبّون قاعات المحاكم المزدحمة. وكلمتهم هي العليا وأمرهم هو النافذ فوق كلّ شيء، وهم يحبّون أن يمدحوا وأن يُشاد بهم. ويهتمّ البعض منهم باستمالة انتباه جمهور الحاضرين ووسائل الإعلام، لذا سيطر عليّ الفضول لأرى كيف ستتصرّف جانيت مع وجود الكثير من المشاهدين والمراسلين. رحّبتْ بالجميع في هذه الجلسة الإجرائية، ثمّ وضّحت سبب وجودنا جميعاً في هذا المكان، ثمّ أجملتْ القضية بحديث طويل جدّاً نوعاً ما، وأخيراً طلبتْ من تاديو الوقوف ومواجهة الحشد. وقد فعل ذلك، وابتسم كما أمرته أن يفعل، ثمّ جلس. بعد ذلك قدّمتنا جانيت أنا ومانسيني. فوقفتُ بكلّ بساطة وأومأت برأسي. أمّا هو فقد وقف وابتسم ابتسامة عريضة وفتح ذراعيه كما لو أنّه يرحّب بالناس في مجاله الخاصّ. من الصعب تقبّل زيفه.

وكان المحلّفون قد رُقّموا فطلبتْ فابنيو من أولئك الذين يحملون الأرقام من 101 إلى 198 مغادرة قاعة المحكمة وأخذ استراحة. وقالت أن على كلّ منهم الاتّصال بالكاتب في الساعة 1:00 بعد الظهر ليتأكّد ممّا إذا كان مطلوباً. نصف انسحب من تلقاء نفسه، والبعض منهم انسحب بسرعة، وكان العديد منهم يبتسمون لحسن حظّهم في الحقيقة. وفي أحد جوانب قاعة المحكمة، رتّب الحجّاب الباقون منهم ضمن صفوف يتألف كلّ منها من عشرة أشخاص، فألقينا عندها نظرتنا الأولى على المحلّفين المحتملين. وقد استمرّ ذلك نحو ساعة من الوقت فهمس لي تاديو أنّه قد ضجر. سألته إن كان يفضّل البقاء داخل السجن. لا، لا يفضّل ذلك.

تمّ بعد ذلك التخلّص من أولئك الذين تجاوزت أعمارهم الخامسة والستّين وأولئك الذين لديهم أعذار طبيّة. أما الاثنان والتسعون الذين كنا نحدّق إليهم بعد ذلك فكانوا هم الجاهزون للامتحان. ثمّ رفعت فابنيو الجلسة للغداء وقالت لنا أن نعود في الساعة 2:00 بعد الظهر. سألني تاديو عمّا إذا هناك أيّ فرصة لتناول غداء مناسب في مطعم لطيف. فابتسمتُ وقلت له لا. سيُعاد إلى السجن.

وبينما أتشاور مع كليف، مستشار هيئة المحلّفين، اقترب مني حاجب بزيّ رسمي وسألني: «هل أنت السيّد رودّ؟».

أومأتُ أن نعم فسلّمني بعض الأوراق. محكمة العلاقات الزوجية. مذكرة حضور إلى جلسة طارئة لإنهاء كلّ الحقوق الأبوية. لعنتُ وشتمتُ همساً، ثمّ سرتُ إلى مجلس المحلّفين، وجلست. تلك العاهرة جوديث انتظرت حتى هذه اللحظة لتعقيد الأمور أكثر. قرأتُ الأوراق فبدأ كتفاي

بالتهدّل. أمس، الأحد، كان يومي الذي كان ينبغي أن أقضيه مع ستارتشر؛ اثنتا عشرة ساعة، من الساعة 8:00 صباحاً إلى الساعة 8:00 مساء، وذلك بناء على اتفاق شفوي معدّل بيني وبين جوديث. ونظراً لانشغالي بالمحاكمة، نسيتُ ذلك بالطبع فأهملت طفلي. وبحسب طريقة تفكير جوديث الملتوية، يعتبر ذلك برهان واضح على أنّني أبٌ غير سوي ويجب إبعادي كليّاً من حياة ابني. وقد طلبتْ جلسة طارئة كما لو أنّ ستارتشر في خطر داهم، فإذا أُجيب طلبها فستكون تلك هي الجلسة الرابعة خلال السنوات الثلاث الماضية. وهي ترغب بالتأكيد في الخسارة بواقع 0 إلى 3 لكي تُثبت شيئاً ما. شيء لا أعرف ما هو.

ابتعتُ سندويتشاً من النوع الطازج المجمّد مرة واحدة من إحدى الماكينات، ثمّ اتّجهتُ نحو قسم الأحوال الشخصية. والأطعمة التي تباع من خلال الماكينات ليست موضع تقدير في أغلب الأحيان. كارلا، الكاتبة المناوبة التي كنتُ قد تقرّبت منها فيما مضى، سحبت الملف ثمّ تصفّحناه سوية، ولم يكن يفصل بين رأسينا سوى بوصات قليلة. وعندما غازلتها قبل حوالى سنتين كانت «مرتبطة بعلاقة»، بغض النظر عمّا عناه ذلك. والذي عناه حقاً هو أنّها لم تكن مهتمّة بـي. وقد تعاملتُ حينها مع المسألة ببساطة. على أية حال، أعتقد أن كارلا قد أنهت علاقتها تلك لأنها كانت شديدة الابتسام والإيجابية، وهو أمر معتاد في أوساط جيش مساعِدات الكتّاب والسكرتيرات وموظفات الاستقبال اللواتي تعجّ بهن المكاتب والممرّات. فالمحامي الذكر العازب الذي يملك بعض المال ويرتدي حلّة لطيفة يصبح محطّ أنظار العديد من النساء العازبات، ومن بعض

المتزوّجات أيضاً. ولو أنّني لعبتُ هذه اللعبة، وكان لديّ الوقت والاهتمام، فباستطاعتي أن أطيح بهذه الصبيّة أرضاً. لكن كارلا، مع ذلك، سمنت إلى حدّ كبير في الشهور الأخيرة ولم تعد تبدو فاتنة كما كانت من قبل.

قالت: «القاضي ستانلي ليف».

«هو نفسه كما في آخر مرّة»، أجبت. «أنا مندهش من أنّه ما زال حيّاً».

«يبدو وكأن طليقتك قاسية».

«هذه استهانة عظيمة بها».

«تأتي إلى هنا من وقت لآخر. ليست ودّية جداً».

شكرتها، وحين بدأتُ بالانصراف قالت «اتّصل بـي في وقت ما».

أردتُ أن أقول لها: «حسناً، إذا قصدتِ الجمنازيوم لمدة ستّة شهور تقريباً، فسألقي نظرة وأفكّر بالأمر». لكنّني، بدلاً من ذلك ولأنّني رجل محترم، قلت: «بالتأكيد».

القاضي ستانلي ليف أحبط جهود جوديث السابقة التي كانت تهدف إلى تجريدي من الحقوق الأبوية. ولم يكن لديه صبر معها وحكم فوراً لصالحي. والحقيقة هي أنّها رمت النرد بتقديمها هذه الدعوى الأخيرة فوقع حظّها على القاضي ليف مرة أخرى، وهو أمر يبيّن الكثير حول سلامة تفكيرها وبساطة عقلها. أمّا في عالمي، حين تكون القضية

شديدة الأهمية - وما الذي سيكون أكثر أهمية من تجريد أبٍ محترم من حقّه في رؤية ابنه - فالإجراءات كلها يجب أن تُتّخذ لتأمين جلسة عادلة أمام القاضي الملائم. وهذا قد يقتضي تقديم طلب بتنحّي القاضي غير المرغوب به. وهو أمر قد يتطلّب تقديم شكوى لدى مجلس الولاية لأخلاقيات القضاء. أمّا طريقتي المفضّلة، مع ذلك، فتقضي بكلّ بساطة تقديم رشوة نقدية للكاتب المناسب.

أمّا جوديث فلا تعتمد أيّاً من هذه الوسائل. وهكذا فقد علقت مع ليف ثانية. وقد ذكّرتُ نفسي بأنّ المسألة لا تتعلّق هنا بالفوز أو الخسارة، وليس حول هذا القاضي أو ذاك. بل هي قبل كلّ شيء إساءة استخدام نظام المحكمة لمضايقة زوج سابق. وهي لا تعاني من قلق حول الأجور القانونية. كما أنّها لا تخشى العقوبة. وهي تجوب هذا القسم من مبنى المحكمة القديم كلّ يوم، لذا فهو ملعبها.

وجدتُ مقعداً وقرأتُ عريضتها بينما كنتُ أنهي سندويتشي.

.8

في جلسة بعد الظهر، نقلنا كراسينا إلى الجانب الآخر من مناضدنا وصوّبنا أنظارنا نحو المحلّفين مباشرة. وهم بدورهم حدّقوا فينا كما لو أنّنا مخلوقات غريبة. وبناء على خطّة فابنيو في انتقاء المحلّفين - وكلّ قاضٍ يُعطى فسحة واسعة في ابتكار طرق انتقاء هيئة المحلّفين - فقد اختير أن يجلس أولئك الذين يحملون الأرقام من واحد إلى أربعين في الصفوف الأربعة الأولى، ومن بينهم ينبغي أن نعثر على الاثنا عشر النهائيون. لذا، ركّزنا عليهم بينما كانت سعادتها تستعرض الأهمية المدنية لخدمة هيئة المحلّفين.

ومن بين الأربعين الأوائل، هنالك خمسة وعشرون بِيض البشرة، وثمانية سود، وخمسة من أصول إسبانية، وشابّة واحدة من فيتنام، وواحدة أخرى من الهند. الإناث اثنتان وعشرون، أمّا الذكور فثمانية عشر. شكراً إلى كليف وفريقه، فأنا أعرف أسماءهم، وعناوينهم، ومهنهم، وحالاتهم الزوجية، وعضوياتهم الكنسية، وسجلاتهم القضائية، وديونهم

غير المدفوعة، وتهمهم الجنائية، إذا وُجدت. وبالنسبة لمعظمهم، عندي صور لبيوتهم أو شققهم.

أمّا مسألة انتقاء الشخص المناسب فستكون صعبة. والحفر في الصخر أسهل من التفكير في انتقاء كلّ المحلّفين من السود في محاكمة جنائية، لأن السود لديهم تعاطف أكثر مع المتّهم وارتياب أعظم من الشرطة والمدّعين العامّين. لكن ذلك لا ينطبق على قضية اليوم. فالضحيّة، شون كينغ، كان رجلاً أسود شاباً ولطيفاً يشغل وظيفة جيّدة، ولديه زوجة وثلاثة أطفال رائعين. ومن أجل بضعة دولارات إضافية، كان يحكّم مباريات الملاكمة وقتال الأقفاص.

وعندما شرعت فابنيو أخيراً في البحث في الأمور التي نحن بصددها، سألتْ كم هو عدد الموجودين هنا ممّن لديهم اطلاع على الحقائق المحيطة بموت شون كينغ. ومن بين اثنين وتسعين شخصاً رفع حوالى الربع أيديهم، وهي نسبة مئوية هائلة. فطلبتْ عنئذٍ منهم الوقوف جميعاً لنتمكّن من تدوين أسمائهم. اختلستُ النظر إلى مانسيني وهززتُ رأسي. فلم يُسمع من قبل مثل هذا الردّ؛ وفي رأيي هذا برهان واضح على ضرورة نقل المحاكمة إلى منطقة أخرى. لكن مانسيني واصل الابتسام فحسب. أمّا أنا فدوّنتُ أسماء اثنين وعشرين.

وللحيلولة دون اختلاطهم بالآخرين وتأثّرهم بهم، قرّرتْ القاضية فابنيو أخذ الاثنين والعشرين واختبار كلّ منهم على انفراد. ثمّ عدنا إلى مكتبها واجتمعنا حول الطاولة نفسها. بعد ذلك أُدخل المحلّف رقم ثلاثة. اسمها ليزا بارنيل وهي تبيع التذاكر لشركة طيران إقليمية. متزوّجة

ولديها طفلان، وعمرها أربعة وثلاثون عاماً، أمّا زوجها فيبيع الإسمنت. مارسنا أنا ومانسيني كلّ أنواع السحر لاستمالة هذه المحلّفة المحتملة. لكن سعادة القاضية تولّت المسؤولية وبدأتْ باستجوابها. ليزا وزوجها ليسا من أنصار رياضة الفنون القتالية المختلطة، وفي الحقيقة سمّتها الرياضة المقرفة، لكنّها تتذكّر الاضطرابات التي حدثت. فقد انتشرت في جميع وسائل الأخبار وهي رأت بنفسها الفيديو الذي يعرض اعتداء تاديو. وقد ناقشت وزوجها الحادثة. حتى إنهم صلّوا في الكنيسة لتتحسّن حالة شون كينغ، وحزنوا لموته. وفي النهاية اتّضح لنا أنّ من الصعب عليها أن تحافظ على انفتاحها العقلي نحو القضية. وكلّما استُجوبت أكثر، تبيّن مدى رسوخ اعتقادها في أن تاديو مذنب. «قتله»؛ قالت.

ثمّ طرح مانسيني عدداً من الأسئلة نفسها. ثمّ أخذتُ دوري، لكنّني لم أضيّع الوقت معها. ليزا ستُصرف لاحقاً وسريعاً. أما الآن، فقد أُمرتْ بالعودة إلى مقعدها في الصفّ الأول، وبعدم التفوّه بكلمة.

المحلّف رقم أحد عشر أمّ لولدين مراهقين، وكلاهما يحبّ قتال الأقفاص وقد قضت ساعات وهي تناقش قضية تاديو وشون كينغ. وهي لم تشاهد الفيديو، بالرغم من أن ولديها استجدياها أن تفعل. وهي تعرف، على أية حال، كلّ شيء عن القضية، وتعترف بامتلاك الكثير من الأفكار المسبقة. هززناها أنا ومانسيني غمزاً ولمزاً وبشكل مؤدّب لكنّنا لم نحصل على شيء. ستُصرف هي أيضاً.

انقضت فترة العصر ونحن نعمل على اختبار المحلّفين الاثنين والعشرين، فتبيّن لنا أنّهم يعرفون جميعاً أكثر بكثير ممّا يجب أن يعرفوا. وقد زعم اثنان منهم أن باستطاعتهما أن يضعا جانباً آراءهما المسبقة وأن يتّخذا القرار في القضيّة بعقلين منفتحين. وقد عبرتُ عن شكّي في ذلك، لكنّني محامي الدفاع. وفي وقت متأخّر من اليوم، بعد أن انتهينا من الاثنين والعشرين، جدّدتُ مطلبـي في تغيير مكان المحكمة. متسلّحاً بالدليل الجديد وغير القابل للدحض، جادلتُ في أنّنا رأينا الآن البرهان الواضح على أنّ الكثير من الناس في هذه المدينة يعرفون أكثر مما ينبغي لهم حول القضيّة.

استمعتْ «سيري ببطء» وتصرّفت كما لو أنّها تصدّقني، كما أعتقدتُ. «سأرفض طلبك في الوقت الحاضر، يا سيّد رودّ. دعنا نمضي ونرى ما سيجلبه لنا الغد».

.9

بعد انتهاء أعمال المحكمة، أوصلني الرفيق إلى المخزن حيث يُجري هاري آند هاري عملياتهم. التقيتُ هاري غروسّ وراجعنا معاً عريضة جوديث الأخيرة. واتّفقنا أن يهيّئ هو ردّاً، على أن يكون مشابهاً للردود الثلاثة السابقة الموجودة أصلاً في الملف، وأنا سأوقّعه وأقدّمه غداً.

ثمّ ذهبنا أنا والرفيق إلى القبو، حيث كان كليف وفريقه غارقون في العمل. من بين شاغلي الصفوف الأربعة الأولى، اختُبر حاملو الأرقام من واحد إلى أربعين، واختُبر تسعة أشخاص منهم بشكل خاص خلال جلسة بعد الظهر. وقد توقّعتُ أن التسعة سيُطعن بهم جميعاً لسبب، أو بحجّة قويّة. ولدى كلّ طرف منا، أنا ومانسيني، القدرة على تقديم أربعة طعون، ولدينا أربعة خطّافات آلية يمكن استخدامها في الانتقاء من دون أي سبب واضح على الإطلاق، وهكذا يصبح مجموع عوامل الانتقاء ثمانية. وليس هناك قيد على عدد من يمكن الطعن بهم لسبب. أما الفنّ، والحيلة، والمهارة فتكمن في القدرة على قراءة المحلّفين ومحاولة اتّخاذ

القرار الصحيح حول من ينبغي الطعن به. وقد توصلتُ إلى الطعن بأربعة أشخاص فقط، كما هو الحال أيضاً بالنسبة لجهة الادّعاء، مع العلم أن الخطأ الواحد يمكن أن يكون قاتلاً. ولستُ أنا وحدي من يقرّر من يبقى ومن يذهب، بل أنا كمن يلعب الشطرنج مع مانسيني. فمن هم الذين سيتخلّص منهم؟ بالتأكيد ذوي الأصول الإسبانية.

وأنا لا أتوقّع البراءة، لذا فأنا أتربّص للوصول إلى هيئة محلّفين لا تتّفق على رأي. لذلك يجب أن أعثر على محلّف واحد أو واثنين قد يبديان بعض التعاطف.

أمضينا ساعات ونحن نتناول نوعاً من السوتشي السيئ المذاق وقناني الشاي الأخضر ونشرِّح كلّ محلّف محتمل.

.10

لم تردني أيّة مكالمات هاتفية في منتصف الليل؛ لا شيء من آرك سوانجير، ولا نيت سبوريو. ولا كلمة من موسّ كورجان. ومن الواضح أن عرضي الرائع حول الصفقة لم يحظَ بقبول حسن. وحين ارتفع قرص الشمس، كنتُ جالساً أمام كمبيوتري أردّ على الرسائل البريدية الإلكترونية. ثمّ قرّرتُ إرسال واحدة إلى جوديث. فكتبتُ لها: «لماذا لا توقفين هذه الحرب؟ خسرتِ العديد من المعارك وستخسرين هذه أيضاً. الشيء الوحيد الذي ستثبتينه هو كم أنت عنيدة. فكّري بشأن ستارتشر، وليس بنفسك». سيكون الردّ قاسياً ومتقن الصياغة، كما هو متوقع.

أنزلني الرفيق في مركز للتسوّق في الضواحي خارج المدينة. وكان المخزن الوحيد المفتوح هو دكان للكعك يُسمح فيه بالتدخين بشكل غير قانوني. ومالك الدكان يوناني كبير السن يتجرّع الموت بسبب سرطان الرئة. وابن أخيه لديه مرتبة في مبنى البلدية لذا فإن مفتشي الصحّة لا يتعرّضون للمكان. وتُقدَّم فيه قهوة قوية معدّة من بنّ حقيقي، وكعك

لذيذ، بالإضافة إلى طبقة زرقاء كثيفة من دخان السجائر الذي يعود إلى الأيام الماضية حين كان شائعاً أن يأكل المرء في مطعم وهو يستنشق الأدخنة والأبخرة المنبعثة من أولئك الجالسين قريباً منه. أمّا في الوقت الحاضر، فما زال من الصعب أن نصدّق كيف تحمّلنا ذلك. ونيت سبوريو يستهلك علبتي سجائر في اليوم، لذا فهو يحبّ هذا المكان. كنتُ لا أزال في الخارج فأخذتُ نفساً عميقاً وملأتُ رئتاي بالهواء النقيّ، ثمّ دخلتُ ورأيت نيت جالساً إلى منضدة وأمامه قهوة وصحيفة، وسيجارة سالم جديدة في زاوية فمه. أشار إلى كرسي ووضع الصحيفة جانباً. «تريد قهوة؟»، سألني.

«لا شكراً. شربت الكثير منها».

«كيف تسير الأمور؟».

«تعني الحياة عموماً أم محاكمة زابات؟».

شخر وحاول الابتسام. «منذ متى نتحدّث عن الحياة عموماً؟».

«نقطة جيدة. لا شيء من مانسيني. وإذا كان منخرطاً في الصفقة، فهو بالتأكيد لن يتصرّف كذلك. وما زال يعرض خمس عشرة سنة».

«هم يعملون عليه، لكن، كما تعرف، مثل القضيب يتأرجح هنا وهناك. وهو الآن على المسرح وذلك يعني الكثير بالنسبة إليه».

«إذاً روي كيمب منكبّ على المسألة؟».

«يمكنك أن تقول ذلك. هو يشدّ كلّ برغي يمكن أن يجده وباستماتة ولا يمكنني أن ألومه. وهو يكرهك لأنّه يعتقد بأنّك تحجب المعلومات».

«اللعنة، أنا آسف. أخبره أنّني أكرهه أيضاً لأنه اختطف طفلي، لكن لا شيء شخصي في المسألة. وإذا استطاع الوصول إلى عمدة المدينة، الذي يستطيع بدوره الوصول إلى مانسيني، فقد نعقد صفقة».

«حسناً، إنها تحت الإعداد. الأمور تتحرّك».

«حسناً، ينبغي أن تتحرّك الأمور بسرعة أكبر. نحن ننتقي هيئة محلّفين، واستناداً إلى ما رأيته وسمعته حتى الآن فإن رجلي في مشكلة عميقة».

«ذلك ما سمعته».

«شكراً. ربّما نبدأ غداً باستدعاء الشهود وليس هناك الكثير منهم. ويمكن أن يكون ذلك بحلول يوم الجمعة. لذا نحتاج إلى عقد الصفقة بسرعة. خمس سنوات، مزرعة المقاطعة الجزائية، إطلاق سراح مبكّر. فهمت، يا نيت؟ هل فَهِم جميع المعنيين في الأعلى شروط الصفقة؟».

«واضحة كضوء النهار. وهي ليست معقّدة جدّاً».

«إذاً، قل لهم أن يسيروا فيها. فرجلي يوشك أن يُدان من هيئة المحلّفين هذه».

سحبَ نفساً من السيجارة حتى ملأ رئتيه، ثمّ سأل: «هل أنت متاح هذه الليلة؟».

«وهل تعتقد أنّني سأغادر المدينة؟».

«قد نحتاج إلى التحدّث».

«بالتأكيد، لكن يجب أن أنصرف الآن. كانت لدي هذه المحاكمة اليوم، ثمّ خرجنا نتصيّد محلّفين يمكن أن نرشوهم».

«لم أسمع كلمة مما قلت، وبالتأكيد لست متفاجئاً».

«أراك، يا نيت».

«سرور حقيقي».

«وأنت يجب أن تتوقّف حقاً عن التدخين».

«اعتنِ بنفسك فقط، موافق!. لديك مشاكلك الخاصة».

.11

تأخّرتْ «سيري ببطء» عن موعد جلسة المحكمة، وهو أمرٌ ليس غريباً لأنها قاضية والحفلة لا تبدأ قبل أن تصل، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى، تُعتبر هذه علامة مميّزة ورفيعة بالنسبة لمهنتها، بالرغم من أنّك قد تعتقد أنّها ستصل في وقت مبكّر وتتذوق حلاوة اللحظة. أمّا أنا فقد تعلّمتُ منذ زمن طويل أن لا أضيّع الوقت في تحليل لماذا يفعل القضاة ما يفعلونه.

انتظر الجميع لمدّة ساعة على الأقل، من دون أن تُقال كلمة واحدة حول سبب التأخير، ثمّ نادى نائبها في قاعة محكمتها طالباً منا الانتباه والتزام النظام. بعد ذلك دلفت سعادتها إلى القاعة وجلست في مقعدها كما لو أنّها مرهقة بشدة، ثمّ طلبت من الجميع الجلوس. لا اعتذار، ولا تفسير. واستهلّت الجلسة ببعض الملاحظات التمهيدية المعتادة، ولم تقل كلمة واحدة من بنات أفكارها؛ وعندما نفد وقودها قالت: «سيّد مانسيني، يمكنك التحقّق من هيئة المحلّفين لصالح الولاية».

نهض ماكس بسرعة على قدميه، ثمّ تبختر على طول السور المصنوع من خشب الماهوغوني الذي يفصلنا عن المشاهدين. ومع وجود المحلّفين الاثنين والتسعين من جهة، ومثل ذلك العدد تقريباً من المراسلين والمشاهدين في الجهة الأخرى، كانت قاعة المحكمة مكتظّة مرة أخرى. حتى أن بعض الحضور اتّكأ على الجدار الخلفي. ومن النادر أن كان لدى ماكس مثل هذا الجمهور. وهكذا بدأ بمناجاة جوفاء حول الشرف الذي يشعر به لمجرّد وقوفه في قاعة المحكمة ليمثّل الناس الطيّبين في مدينتنا. وعبّر عن إحساسه بعبء المسؤولية. وإحساسه بالشرف. وشعوره بالالتزام. وإحساسه بالكثير من الأشياء. وخلال بضع دقائق لاحظتُ أنّ العبوس ظهر على وجوه بعض المحلّفين، وبدأوا ينظرون إليه كما لو أنّهم يقولون: «هل هذا الرجل جادّ فيما يقول؟».

وبعد أن تحدّث عن نفسه طويلاً، وقفتُ ببطء، ثمّ نظرتُ إلى سعادتها، وقلت: «سعادة القاضية، هل يمكننا رجاءً تخطّي هذا؟».

قالت: «سيّد مانسيني، هل لديك بعض الأسئلة للهيئة؟».

أجاب: «بالطبع، سعادتك. أنا لم أدرك أنّنا في عجلة إلى هذه الدرجة».

«أوه، ليس هناك عجلة، لكنّني لا أريد حقاً تضييع الوقت».

وهذا القول من قاضية أتت متأخرة ساعة كاملة.

بدأ ماكس بطرح الأسئلة المنهجية حول خدمة سابقة في هيئة محلّفين، وعن الخبرات في نظام العدالة الجنائي، وعن الموقف المجحف

بحق الشرطة وسلطات تطبيق القانون. عموماً، كان ذلك مضيعة للوقت لأن الناس نادراً ما يكشفون عن مشاعرهم الحقيقيّة في مثل هذا المكان. لكنّه يعطينا، على أية حال، الكثير من الوقت لدراسة المحلّفين. وقد دوّن تاديو صفحات من الملاحظات، في اتّجاهي. وكنت أنا أخربش أيضاً، لكنّني كنتُ فعلياً أراقب لغة الأجساد. وكان كليف ورفيقه جالسين في المقاعد الطويلة عبر الممر، يراقبان كلّ شيء. وقد بدأتُ أشعر الآن كما لو أنّني أعرف هؤلاء الناس منذ سنوات، خصوصاً الأربعون الأوائل منهم.

أمّا ماكس فقد أراد أن يعرف ما إذا كان أيّ منهم سبق وأن رُفعت ضدّه قضية ما. وهو سؤال معياري لكنّه ليس عظيماً. وهذه، مع ذلك، قضيّة جنائيّة، وليست مدنية. ومن بين الاثنين والتسعين تبيّن وجود حوالى خمسة عشر سبق وأن تمّت مقاضاتهم في مرحلة ما من ماضيهم. وأنا أراهن أنّ هناك على الأقل خمسة عشر آخرون لم يعترفوا بذلك. ففي نهاية المطاف هذه أمريكا. ومن هو ذلك المواطن الصادق والنزيه الذي لم يسبق أن رُفعت ضدّه قضيّة ما؟ هذا وقد بدا ماكس مبتهجاً بتلك الاستجابة، كما لو أنّه عثر على منجم من القذارة يمكنه الحفر فيه. بعد ذلك سألهم ما إذا كانت التجارب التي مرّوا فيها ضمن نظام العدالة قد تؤثّر في أي حال من الأحوال في قدراتهم على التداول في هذه القضيّة.

لا، يا ماكس. كلّ شخص يحبّ أن يقاضي وأن يُقاضى. ونحن نفعل ذلك من دون أن نبدي أقل استياء نحو النظام. لكنّ ماكس واصل الاستجواب بطرح الأسئلة التي تراوح في المكان نفسه.

ومن أجل لا شيء سوى النكاية، وقفتُ وقلت: «سعادتك، هل يمكنك تذكير السيّد مانسيني بأنّ هذه قضية جنائية، وليست مدنية؟».

«أعرف ذلك!»، هدر ماكس عليّ ونحن نتبادل نظرات سيئة. «أعرف ما أفعله»، أضاف.

«تابع يا سيّد مانسيني»، قالت سعادة القاضية. «وابقَ في مقعدك، رجاءً يا سيّد رودّ».

قاوم ماكس غضبه وترك المسألة تمرّ. ثمّ انتقل بعد ذلك إلى الخوض في مسألة حسّاسة، فسأل هل سبق وأن أدين أحد من أفراد عائلاتكم المباشرة بجريمة عنيفة؟ واعتذَرَ عن التطفّل بالتطرّق إلى مثل هذا المسألة الخاصّة، وقال إنه مضطر إلى ذلك. وطلب أن يغفروا له. ومن الصفّ الأخير، رفع المحلّف رقم واحد وثمانون يده ببطء.

السيّدة إيما هوفينغوس. بيضاء، عمرها ستّ وخمسون، مأمورة إرسال في شركة شحن. ابنها البالغ من العمر سبعة وعشرين عاماً يقضي اثنتي عشرة سنة سجناً بجريمة اقتحام منزل تحت تأثير المخدّرات. وحالما رأى ماكس يدها رفع يده قائلاً «لا أريد معرفة التفاصيل، رجاءً. أعرف أن هذه مسألة خاصّة جدّاً وموجعة جداً، أنا متأكّد من ذلك. سؤالي هو: هل كانت تجربتك مع نظام العدالة الجنائي مُرضية أم غير مُرضية؟».

هل أنتَ جادّ يا ماكس؟ نحن لا نملأ هنا استمارات استبيان حول رضى المستهلكين.

وقفت السيّدة هوفينغوس ببطء وقالت: «أعتقد أن ابني عومل بإنصاف من قبل النظام».

كاد ماكس أن يقفز تقريباً من فوق الحاجز ليركض نحوها ويحتضنها. بوركتِ، يا عزيزتي، بوركتِ. يا لها من تزكية حسنة لقوى الخير! لكن يا لسوء الحظّ، يا ماكس، فهي عديمة الفائدة. نحن لن نقترب من الرقم واحد وثمانين.

رفع المحلّف رقم سبعة وأربعين يده، قال أن أخاه أمضى وقتاً في السجن بسبب هجوم عنيف، وبخلاف السيّدة هوفينغوس، لم يكن هو - مارك واتبيرغ - معجباً بنظام العدالة الجنائي.

لكن ماكس شكره بإسراف على أية حال. هل هناك أي شخص آخر؟ لم ترتفع أيّة يد أخرى. يوجد ثلاثة آخرون، وأنا أعرفهم، لكن ماكس لا يعرفهم. وهذا يؤكّد أنّ بحثي أفضل من بحثه. لكنّني تنبّهتُ إلى حقيقة أنّ هؤلاء الثلاثة لن يكونوا منفتحين على التعاون.

تابعَ ماكس ما يقوم به بينما كانت فترة الصباح تنقضي. ثمّ دخل في حقل ألغام حسّاس آخر، وهو يتعلّق بما إذا كان الشخص نفسه قد وقع ضحيّة جريمة ما. هل سبق وأن كان أيّ منكم ضحيّة جريمة عنيفة؟ أنتَ، أحد أفراد عائلتك، أصدقاؤك المقربون؟ ارتفع عدد من الأيدي فقام ماكس بعمل جيّد من حيث انتزاع المعلومات المفيدة، على سبيل التغيير.

عند الظهر، أعلنتْ سعادتها - ولا شكّ في أن الجلوس على المقعد لساعتين قد أرهقها وربّما كانت تشتهي شرائح التفاح - عن استراحة لمدّة

تسعين دقيقة. وقد أراد تاديو البقاء في قاعة المحكمة لتناول الغداء. لذا قدّمتُ طلباً لطيفاً للمسؤول عن حراسته، الذي فاجأنا بالموافقة. فاندفع الرفيق عبر الشارع إلى دكان بقالة ومأكولات خفيفة وعاد بالسندويتشات والرقائق.

وخلال تناولنا للطعام، تحدّثنا بهدوء وبأصوات خفيضة لكي لايسمعنا الحرّاس والحجّاب. وليس هناك أحد غيرهم في قاعة المحكمة. وكان لجاذبية المكان والبيئة المحيطة تأثيرهما في تاديو، ممّا جعله يفقد بعض غروره. وكان قد استوعب التحديق عديم الرحمة من أولئك الذين قد يُطلب منهم الحكم عليه. لذا فهو لم يعد يعتقد أنّهم أنداده. بهدوء قال: «أشعر أنّهم لا يحبّونني».

يا له من شابّ سريع الإدراك.

.12

أنهى ماكس مهمّته عند الساعة الثالثة تقريباً فأخلى الساحة لي.
والآن، ولأنّني أعرف أكثر من اللازم حول هؤلاء الناس، فأنا جاهز للانتقاء. على أية حال، هذه فرصتي الأولى للحديث مع الهيئة مباشرة، وهي فرصة لوضع الأساس لما يأمله كلّ محامٍ من مستوى معيّن من الثقة بينه وبين هيئة المحلّفين. راقبت وجوههم وأنا أعلم أن الكثيرين منهم اعتبروا ماكس متزلّفاً، وحتى إنه أبله قليلاً. أمّا أنا فلدي عدد وافر من العيوب والعادات السيّئة، لكن التزلّف ليس من شيمي. لذا لم أشكرهم لأنهم أتوا حين تمّ استدعاؤهم، فليس لديهم الخيار في ذلك. ولم أزعم أنّنا نقوم بعمل عظيم وهم جزء منه. ولم أتفاخر بنظامنا القضائي.

تحدّثتُ، بدلاً من ذلك، بعبارات عامّة حول فرضية البراءة. وحثثتهم على أن يسألوا أنفسهم ما إذا كانوا قد قرّروا بينهم وبين أنفسهم سلفاً بأنّ موكّلي مذنب بشيء أو آخر وإلاّ لما كان موجوداً هنا. لا ترفع يدك، بل أومئ فقط إذا كنت تعتقد أنّه مذنب. وتلك طبيعة بشرية. وهي

الطريقة المتّبعة في مجتمعنا وثقافتنا هذه الأيام. هناك جريمة، وتوقيف، ثمّ نرى المشتبه به على شاشة التلفزيون، ونشعر بالراحة لأن الشرطة أمسكت بالمطلوب. المعزوفة المعتادة، هكذا تماماً. حُلَّت الجريمة. والطرف المذنب في السجن. وفي هذه الأيام نحن لا نتوقّف أبداً وعلى الإطلاق لنقول: «مهلاً، يعتبر المتّهم بريئاً ولديه الحقّ في الحصول على محاكمة عادلة». بل نسرع إلى إصدار الحكم.

«هل لديك أسئلة، يا سيّد رودّ؟»، نعقتْ «سيري ببطء» عبر الميكروفون الموجود أمامها.

تجاهلتها، ثمّ أشرتُ إلى تاديو، وسألتهم إذا كانوا يستطيعون القول بصدق، في هذه اللحظة، إنهم يعتقدون أنّه بريء تماماً.

بالطبع، لم يكن هناك ردّ، إذ لا يُتوقّع أبداً من أي محلّف محتمل أن يقول أنّه قد اتّخذ قراره.

ثمّ انتقلتُ إلى عبء تقديم البرهان وناقشتُ ذلك حتى لم يعد ماكس يتحمّل المزيد. عندذاك وقفَ، فاتحاً ذراعيه على اتّساعهما في تعبير عن الإحباط الكامل، وقال: «سعادة القاضية، إنّه لا يطرح الأسئلة على هيئة المحلّفين. بل يلقي محاضرة كما في كلية الحقوق».

«أوافق. إمّا أن تطرح أسئلتك أو تجلس، يا سيّد رودّ»، قالت «سيري ببطء» بوقاحة.

«شكراً»، أجبتُ مثل الحمار الذكي. ثمّ نظرتُ إلى الصفوف الثلاثة الأولى وقلت: «لا يتوجّب على تاديو أن يشهد، ولا يتوجّب عليه أن

يستدعي أيّ شهود. لماذا؟ لأن عبء إثبات أنّه مذنب يقع على عاتق الادّعاء. والآن، لنقل إنه لن يجلس على منصّة الشهادة. هل يزعجكم ذلك؟ هل ستميلون إلى الاعتقاد بأنّه يخفي شيئاً ما؟».

استخدمتُ هذه الطريقة في طرح الأسئلة طوال الوقت ولم أتلقَ ردّاً إلا فيما ندر. واليوم، مع ذلك، أراد المحلّف رقم سبعة عشر أن يقول شيئاً. إنّه بوبـي موريس، عمره ستّ وثلاثون، أبيض، يعمل في البناء. رفع يده فأومأتُ إليه. قال: «إذا كنتُ أنا في هيئة المحلّفين، فأنا أعتقد أنّه يجب أن يشهد. أريد أن أسمع من المتّهم».

«شكراً لك، يا سيّد موريس»، أجبتُ بصوت دافئ. «أي شخص آخر؟»، سألتُ بعد أن انكسر الجليد، فرفع عدّة أشخاص آخرون أيديهم، ثمّ طرحتُ أسئلة المتابعة بلطف. وكما تمنّيت، تحوّل الاستجواب إلى مناقشة مع زوال تحفّظهم شيئاً فشيئاً. فأنا شخص يسهل الحديث معه، إنسان لطيف، نزيه وصريح مع حسّ بالدعابة.

وعندما فرغتُ من الحديث، أعلمتنا سعادتها أنّنا سننتقي هيئة المحلّفين قبل أن ننصرف إلى بيوتنا، وأنها تمنحنا خمس عشرة دقيقة لمراجعة ملاحظاتنا.

13.

يقول البريد الإلكتروني المرسل من جوديث: «ستارتشر ما زال منزعجاً. يا لك من أبٍ مثير للشفقة. أراك في المحكمة».

وقد راودتني الرغبة في الردّ على النيران بمثلها، لكن لم أضايق نفسي؟. انطلقنا أنا والرفيق مبتعدين عن مبنى المحكمة. وكانت العتمة قد حلّت، فالساعة هي 7:00 مساءً، وكان يومنا شاقّاً. توقّفنا بعد ذلك في إحدى الحانات لتناول الجعة والسندويتشات.

تسعة بيض، أسود واحد، وواحد من أصل إسباني، وفيتنامي واحد. ونظراً إلى أن أسماءهم ووجوههم لا تزال حيّة جدّاً في ذهني، فقد أردتُ أن أتحدّث عنهم. والرفيق، كالعادة، يستمع بشكل مطيع مع بعض التعليقات الصغيرة. لقد كان في قاعة المحكمة أغلب الأوقات في اليومين الماضيين وأعجبته هيئة المحلّفين.

توقّفتُ عند كأسي شراب، بالرغم من أنّني كنت أريد المزيد بالفعل. وفي السّاعة التّاسعة، أنزلني الرفيق في أحد فروع مطعم آربـي، فألهيتُ نفسي بشراب لخمس عشرة دقيقة بانتظار نيت. وصل أخيراً، فطلب بعض حلقات البصل المقلية، واعتذر عن تباطؤه. «كيف جرت الأمور في المحاكمة؟»، سأل.

«توصلنا إلى هيئة محلّفين في وقت متأخر من بعد ظهر اليوم. أُلقيت البيانات الافتتاحية في الصباح، ثمّ بدأ مانسيني باستدعاء الشهود. يجب أن نتصرّف بسرعة. هل حصلنا على صفقة؟».

جرف بيده حلقة يابسة كبيرة ومضغها بعنف وهو ينظر حوله. المكان فارغ. ابتلعها، وقال: «إيه. واجه وودي مانسيني قبل ساعتين وطرده. استبدله بإمّعة كان يخطّط للتقدّم بطلب إعلان بطلان المحاكمة كأوّل عمل يقوم به في الصباح. لكن مانسيني تراجع ووافق على التعاون التامّ. يريد الاجتماع بك وبالقاضية في الساعة 8:30 غداً».

«القاضية؟».

«نعم. يبدو أن وودي وجانيت فابنيو بينهما بعض الخدمات المتبادلة، صديقان، أيّاً يكن الأمر، وقد أصرّ وودي على إدخالها في الدائرة. وهي جاهزة للعمل. ستقبل الالتماس، وسوف تصدّق على الصفقة، وتحكم على صبيّك بخمس سنوات في المزرعة التأديبية، وستوصي بإطلاق سراح مبكّر. كما قلتَ تماماً يا رود».

«رائع. ومجرمي لينك؟».

«يراوح ذلك التحقيق في مكانه. انسه». مصّ الشراب من قشّته وانتقى حلقة بصل أخرى. «والآن يا رودّ، الجزء المرح».

«في المرّة الأخيرة التي رأيت فيها سوانجير تم ترتيب الاجتماع بيننا من خلال هاتف خلوي مدفوع الأجرة سلفاً تركه لي في صيدلية. ولا يزال الهاتف عندي. وهو هنا في الخارج في شاحنتي. وأنا لم أستعمله منذ ذلك الحين، لذا لا أعرف إن كان سيعمل. لكن إذا أجاب سوانجير على الهاتف فسأحاول تحديد اجتماع بيننا. يجب أن أعطيه بعض المال».

«كم؟».

«خمسون ألفاً غير مؤشّرة. وهو ليس غبياً».

«خمسون ألفاً؟».

«يُعادل ذلك ثلث مال الجائزة تقريباً. وأفترض أنّه سيلتقط الطعم لأنه مفلس. أيّ مبلغ أقل قد يسبّب المشاكل. في السنة الماضية حزتم ما مقداره أربعة ملايين دولار من الأموال المصادرة، وكلّها محفوظة في القسم طبقاً لقانوننا الرسمي الرائع. المال موجود هناك، ويستطيع روي كيمب أن ينفق أيّ شيء من أجل رؤية ابنته ثانية».

«حسناً، حسناً. سأنقل الطلب. وهذا كلّ ما أستطيع فعله».

تركته مع حلقات بصله وأسرعتُ إلى الشاحنة. وبينما كان الرفيق يبتعد بنا، فتحتُ الهاتف الرخيص واتّصلتُ بالرقم.

لا شيء. بعد ساعة اتّصلتُ ثانية. وثالثة. لا شيء.

.14

بمساعدة الإعياء، وكؤوس الشراب غرقتُ في النوم وجهاز التلفزيون يعمل. ثمّ استيقظتُ لأجد أنني مازلت في الكرسي المريح، وما زلتُ أرتدي البدلة لكن من دون ربطة عنق، والجوارب لكن من دون حذاء. هاتفي الخلوي يدقّ؛ هوية شخص المتّصل تظهر أنّه «مجهول». والساعة هي 1:40 بعد منتصف الليل. تمكّنت بعد لأي من القول مرحباً.

«تبحث عنّي؟»، سألني سوانجير.

«نعم، في واقع الأمر»، قلت وأنا أطوي مسند القدمين وأنهض واقفاً على قدميّ. وكان كلّ شيء يبدو في عينيّ ضبابياً ودماغي يحتاج إلى الدم.

«أين أنت؟».

«سؤال غبـي. المزيد من الغباء وسأنهي الاتّصال».

«انظر يا آرك، قد تكون هناك صفقة تحت الإعداد. هذا إذا كنتَ تقول الحقيقة، وهو أمر، بصراحة، لا يعتقد أحد أنّك قادر عليه».

«لم أتّصل لكي أُهان».

«بالطبع لا. اتّصلتَ لأنّك تريد مالاً. أعتقد أنني أستطيع التوسّط في عقد صفقة، أعمل كسمسار، من دون أجر بالطبع. ولستُ محاميك، لذا لن أرسل لك فاتورة».

«مضحك جداً. أنت لستَ محاميّ لأنّه لا يمكن الوثوق بك يا رودّ».

«حسناً، في المرة القادمة حين تختطف فتاة ما، تعامل مع شخص آخر. تريد المال أم لا يا آرك؟ أنا حقاً لا أهتمّ».

بعد مهلة قصيرة حيث كان يفكّر بمقدار ما يحتاج من مال. قال أخيراً: «كم؟».

«خمسة وعشرون ألفاً الآن لتخبرنا عن مكان الفتاة. فإذا وجدوها، تحصل على خمسة وعشرين أخرى».

«وذلك يعادل ثلث مال الجائزة فقط. هل ستأخذ البقية؟».

«لا شيء على الإطلاق. كما قلتُ لك، لن أحصل على شيء، ولهذا السبب بالذات أسأل نفسي بحقّ الجحيم ما الذي أفعله وسط كلّ هذا».

فترة صمت أخرى بينما كان يفكّر بعرض مضادّ. «لم تعجبني الصفقة، يا رودّ. لن أرَ الخمسة والعشرين الأخرى».

ونحن لن نرَ الفتاة، فكّرتُ لكن لم أقل. «انظر يا آرك، ستحصل على خمسة وعشرين ألف دولار من أولئك الذين سيطلقون عليك النار إذا أبصروك. وهو مبلغ أكثر بكثير ممّا حصلت عليه في السنة الماضية من خلال العمل المستقيم».

«أنا لا أؤمن بالعمل المستقيم. وكذلك أنت. لذلك أنت محام».

«ها ها. أنت ذكي. هل تريد عقد صفقة، يا سوانجير؟ إذا كنت لا تريد، فسوف أمضي. لديّ أشياء أكثر أهميّة في ذهني هذه الأيام».

«خمسون ألفاً، يا رودّ. نقداً. خمسون ألفاً وسأخبرك أنت فقط أين هي الفتاة الآن. وإذا كان هذا فخّاً أو إذا شممتُ رائحة شرطي في أي مكان قريب، فسأختفي، وسأتّصل، وسوف تذهب الفتاة عندئذٍ إلى غير رجعة. هل فهمت؟».

«فهمت. ولستُ متأكداً بشأن المال، لكن كلّ ما يمكنني فعله هو تمرير هذا إلى الطرف الآخر».

«اعمل بسرعة، يا رودّ، صبري ينفد».

«أوه، ستجد الوقت إذا كان المال موجوداً على الطاولة. هل تمزح، يا سوانجير؟».

انقطع الاتّصال. بعد ذلك، كيف يمكن النوم وقضاء ليلة سعيدة.

.15

بعد ثلاث ساعات، توقّفتُ عند محل للوجبات السريعة يفتح طوال الليل واشتريتُ قنينة ماء. وفي الخارج اقترب مني شرطي بملابس مدنية ثمّ شخر قائلاً: «أنت رودّ؟»، وباعتبار أنّني أنا، سلّمني كيس بقالة ورقيّ بنيّ اللون وفي داخله صندوق سيجار. «خمسون ألفاً»، قال. ثمّ أضاف: «كلّها من فئة المئة».

«هذا أفضل»، قلت. وماذا سأقول؟ «شكراً»؟.

غادرتُ المدينة، وحدي. فخلال محادثتي الأخيرة مع سوانجير، والتي جرت قبل حوالى ساعة، أمرني بالتخلّص من «المجرم» التابع لي وأن أقود سيارتي بنفسي. وطلب مني أيضاً أن أنسى أمر الشاحنة الفخمة الجديدة وأن أقود شيئاً آخر. فشرحتُ له أنّني لا أملك في الوقت الحاضر شيئاً آخر سواها، وليس لدي الوقت الكافي لأعدو هنا وهناك بغية استئجار سيّارة. الشاحنة يجب أن تفي بالغرض.

وحاولتُ أن لا أنشغل بحقيقة أنّ هذا الرجل يراقبني. فقد علم بأمرنا منذ اللحظة التي بدأنا فيها أنا والرفيق نتجوّل بشاحنة اليو-هاول. وها هو الآن يعرف أنّ لدي عجلات جديدة. ومن المدهش أنّه موجود في المدينة بما يكفي لمعرفة هذه الأشياء، وبالرغم من ذلك لم تستطع الشرطة كشفه والقبض عليه. وأنا أشكّ في أنّه سيختفي أخيراً عندما يحصل على المال، وهو الأمر الذي لن يكون سيئاً.

وكما أمر، اتّصلتُ به وأنا أغادر المدينة على الطريق الجانبـي الجنوبـي للطريق السريع. وقد كانت تعليماته دقيقة: «اذهب مسافة ستّة عشر ميلاً باتّجاه الجنوب حتى تصل إلى المخرج 184، ثمّ اسلك الطريق 63 شرقاً إلى بلدة جوبيس». وأنا أقود، ذكّرتُ نفسي بأنّ لدي تلك المحاكمة التي يفترض بها أن تبدأ خلال ساعات قليلة فقط؛ وهل ستبدأ؟ فإذا كانت القاضية فابنيو قد دخلت الحلقة حقاً، فماذا يعني ذلك بالنسبة لبقيّة اليوم؟.

ليست لدي فكرة عن مقدار المراقبة التي تلاحقني الآن، لكنّني متأكّد من أنّها شديدة. وأنا لم أطرح الأسئلة بهذا الشأن، إذ لم يكن لديّ الوقت لذلك، لكنّني أعرف أن روي كيمب وفريقه قد استدعوا جميع الكلاب البوليسية. وهناك ميكروفونان في شاحنتي وأداة تتبّع داخل المصدّ الخلفي. وكنت قد سمحتُ لهم بالاستماع إلى هاتفي الخلوي، لكن فقط للساعات القليلة القادمة. وأراهن أن لديهم الآن الكثير من العملاء الذين أطبقوا على بلدة جوبيس. وإذا ظهرت مروحية أو اثنتان في الجوّ

فوقي فلن يكون ذلك أمراً مفاجئاً. لست خائفاً - فليس لدى سوانجير سبب لإيذائي - لكن أعصابـي متوتّرة، مع ذلك.

المال غير مؤشّر ولا يمكن تتبّعه. والشرطة لا تهتمّ ما إذا كانوا سيستعيدونه؛ هم يريدون الفتاة فقط. وهم يدركون أيضاً أن سوانجير ذكي بما يكفي لاكتشاف أيّ شيء مريب.

جوبيس بلدة صغيرة يقطنها ثلاثة آلاف نسمة. وعندما مررتُ بجانب محطة «شِلّ» عند طرف البلدة، اتّصلتُ بسوانجير، كما أمر. قال: «ابقَ على الخطّ. استدر نحو اليسار بعد مغسل السيارات مباشرة. استدرتُ إلى اليسار نحو شارع ممهّد ومعتم على جانبيه بضعة بيوت قديمة. قال: «هل تقسم بأنّك تحمل خمسون ألفاً، يا رودّ؟».

«نعم، أفعل».

«خذ اليمين واعبر سكة الحديد». فعلتُ كما قيل لي، ثمّ قال: «Ñ يميناً الآن في ذلك الشارع الأول. ليس له اسم. توقّف عند إشارة الوقوف الأولى وانتظر».

وعندما توقّفت، ظهر شخص فجأة من الظلام وسحب مقبض باب الراكب بجانب السائق. ضغطتُ زرّاً لفتحه فقفز سوانجير إلى الداخل. ثمّ أشار يساراً، وقال: «اذهب في ذلك الطريق ولا تتعجّل. سنعود إلى الطريق السريع».

«تسعدني رؤيتك ثانية، يا آرك». وكان يلفّ رأسه بعصابة سوداء تغطّي حاجبيه وأذنيه. وكلّ شيء آخر على جسده كان أسود أيضاً، من

المنديل حول رقبته إلى الجزمه القتالية. كنتُ سأسأله أين كان متخفياً، لكن ما الذي يهمنّي في ذلك؟.

«أين المال؟»، قال مطالباً.

أومأتُ من فوق كتفي فتناول الكيس. ثمّ فتح صندوق السيجار، وعلى ضوء صغير معلّق بسلسلة مفاتيح بدأ يعُدّ المال. ثمّ نظر إلى الأعلى، وقال: «خذ اليمين،»، وواصل العدّ. وبينما كنا نغادر البلدة، أخذ نفساً يعبّر عن رضى عميق، ثمّ نظر إليّ مع تكشيرة بلهاء وقال: «المبلغ كلّه موجود».

«هل تشكّ فيّ؟».

«اللعنة، نعم أشكّ فيك، يا رودّ». ثمّ أشار إلى محطّة وقود «شِلّ» وقال: «هل تريد شراباً؟».

«لا. أنا لا أشرب عادة في الخامسة والنصف صباحاً».

«هذا أفضل وقت. عرِّج».

ذهب إلى الداخل من دون المال. ثمّ استغرق وقته، وابتاع كيساً من رقائق البطاطا يكفيه مع علب الشراب الستّ، ثمّ قفل عائداً إلى الشاحنة كما لو أنّه غير خائف من شيء على الإطلاق. وعندما انطلقنا ثانية، التقط علبة شراب وانتزع غطاء فتحتها. ثمّ عبّ منها وفتح كيس الرقائق.

«إلى أين نذهب، يا آرك؟»، سألته من دون أي مقدار من الإزعاج.

«تقدّم نحو الطريق السريع وتوجّه جنوباً. لا تزال رائحة هذه الشاحنة جديدة، هل تعرف ذلك يا رودّ؟ أظنّ أن القديمة أعجبتني أكثر». طحن ملء فمه من الرقائق ثمّ أتبع ذلك بجرعة شراب.

«سيئ جداً. لا تخلّف أيّ فتات، موافق؟ سيغضب الرفيق بشدّة إذا وجد فتاتاً في الشاحنة».

«تعني مجرمك؟».

«أنت تعرف من هو». وفي تلك الأثناء كنا نسير على الطريق 63ן
الذي لا يزال معتماً ومقفراً. ولم تظهر بعد أي إشارة على شروق الشمس. وقد ظللتُ استرق النظر حولي معتقداً أنّني سأرى بعض علائم المتابعة، لكنّهم بالطبع جيدون جدّاً في هذا المجال. ولا بدّ أنهم هنالك خلفنا، أو فوقنا، أو بانتظارنا على الطريق السريع. ولكن، ما الذي أعرفه حول مثل هذه الأشياء؟ فأنا محامٍ في نهاية المطاف.

سحبَ هاتفاً صغيراً من جيب قميصه ورفعه لكي أراه. ثمّ قال: «ينبغي أن تعلم أمراً واحداً، يا رودّ. إذا رأيت شرطياً، أو شممتُ رائحة شرطي، أو سمعتُ صوت شرطي، فإن كلّ ما سأفعله هو الضغط على هذا الزرّ في هذا الهاتف، وفي مكان ما، بعيد جداً، ستحدث أشياء سيّئة. هل تفهم؟».

«فهمت. والآن، إلى أين يا آرك؟ هذا أول شيء. أين، متى، وكيف؟ المال بحوزتك؛ والآن أنت مدين لنا بشرح القصّة. أين الفتاة وكيف نحصل عليها؟».

أفرغَ العلبة الأولى، ثمّ مصّ شفتيه، وملأ فمه مرة أخرى بالرقائق، ثمّ، ولبضعة أميال، بدا كما لو أن الخرس قد أصابه. ثمّ فتح علبة أخرى. وعند أحد التقاطعات، قال: «اذهب جنوباً».

كان المرور في الطريق المتجه شمالاً مزدحماً بسبب توجّه المسافرين الأوائل إلى المدينة. أما ذلك المتجّه جنوباً فهو مقفر عملياً.

نظرتُ إليه وتمنّيتُ أن أصفع تلك البسمة المتصنعة على وجهه.
«هيّا يا آرك؟».

تناول شراباً آخر وتمدّد في جلسته. «نقلوا الفتيات من شيكاغو إلى أتلانتا. يتنقّلون كثيراً، كلّ أربعة أو خمسة أشهر. وهم يستثمرون المدينة التي يحلّون فيها بشدّة، لكن الناس يبدأون بعد فترة بالكلام، ثمّ تبدأ الشرطة بالتشمّم، لذا يختفون ويفتتحون محلاً في مكان آخر. فمن الصعب كتمان الأسرار حين تعرض شابّات جميلات بأسعار جيّدة».

«إذا كان هذا رأيك. هل لا تزال جيليانا كيمب حيّة؟».

«أوه، نعم. بالتأكيد. وهي نشطة جداً، ولا يبدو أن لديها خياراً آخر».

«وهل هي في أتلانتا؟».

«منطقة أتلانتا».

«إنّها مدينة كبيرة، يا آرك، وليس لدينا الوقت لممارسة الألعاب. فإذا كان لديك عنوان، فأعطنيه. هذا هو الاتّفاق».

أخذ نفساً عميقاً ورشفة شراب أخرى طويلة. «إنهم موجودون في مركز تسوّق كبير حيث يوجد مرور كثيف، حيث تأتي وتذهب الكثير من السيارات والناس. أطلس للعلاج الطبيعي اسم الشركة، لكنّها ليست سوى مبغى رفيع المستوى. ليس لها رقم في دليل الهواتف. معالجون تحت الطلب. وبناء على مواعيد فقط، ممنوع الدخول. وكلّ زبون يجب أن يُزكّى من قبل زبون آخر، وهم - المعالجون المسؤولون - يعرفون مع من يتعاملون. فإذا كنتَ زبوناً، فستركن سيّارتك في موقف السيّارات، وقد تدخل محل باسكين روبينس لتناول الآيس كريم، ثمّ تتمشّى على الرصيف، فيصطادك جماعة أطلس. رجل يرتدي معطف مختبرات أبيض يرحّب بك ويتصرّف بأسلوب لطيف جدّاً، لكن تحت المعطف توجد قطعة سلاح محشوّة. يدّعي أنّه معالج، وهو في الحقيقة يعرف الكثير حول تكسير العظام. يأخذ مالك، لنقل 300 دولار نقداً، ثمّ يقودك نحو بعض الغرف. يشير إلى إحداها، فتدخل لتجد سريراً صغيراً وفتاة شابة وجميلة. ستحصل على عشرين دقيقة معها. ثمّ تغادر عبر باب آخر ولن يعلم أحد بأنّك قد عُولجت. والفتيات يعملن هناك بعد الظهر - فهنّ يقضين فترة الصباح في راحة لأنهنّ يعملن إلى وقت متأخّر - ثمّ يحملونهن في السيارات إلى النوادي حيث يرقصن ويقمن بأعمالهنّ المعتادة. وعند منتصف الليل يعيدونهن إلى البيت، إلى مجمّع شقق لطيف جدّاً حيث تُغلق عليهنّ الأبواب طوال الليل».

«من هم؟».

«هم تجّار البشر، رجال شرّيرون جداً. عصابة، حلقة، تجمّع احتكاري، فرقة شديدة الانضباط من المجرمين، معظمهم لديهم روابط مع أوروبا الشرقية، بالإضافة إلى بعض الأولاد المحليّين. وهم ينتهكون الفتيات، يبقونهنّ فزعات ومرتبكات ومتعلّقات بالهيروين. وأكثر الناس في هذه البلاد لا يصدّقون أنّ هناك تجار بغاء في مدنهم، لكنّه موجود. وهو موجود في كلّ مكان. وهم، أي تجار البغاء، يتصيّدون الهاربين، الأطفال المشرّدين، والفتيات اللواتي يبحثن عن مهرب من عوائل سيئة. وهو عمل دنيء يا رود. دنيء جدّاً».

كدتُ أبدأ بتوبيخه ولعنه، وتذكيره بدوره المهمّ في هذه الأعمال التي يزعم مقته لها، لكنّ ما كان ذلك ليؤدّي أي غرض. بدلاً من ذلك، سايرته. «كم عدد الفتيات الآن؟».

«من الصعب القول. فهم يقسّمونهن، وينقلونهنّ، وقد اختفى عدد منهنّ إلى الأبد».

لم أشعر برغبة حقيقية في متابعة ذلك الحديث. بل مجرّد خدمة للطرف الآخر المشارك في هذه العملية، والذي يودّ معرفة الكثير حول الموضوع.

أشار بيده قائلاً: «استدر عند هذا المخرج وعد شمالاً».

«ألى أين نذهب، يا آرك؟».

«سأريك. فقط اعتمد عليّ».

«موافق. والآن ماذا بشأن ذلك العنوان».

«هذا ما كنتُ سأفعله لو كنتُ أنا الشرطة»، قال ذلك بصوت فيه طابع رسمي مفاجئ. «سأراقب المكان، شركة أطلس، وسأقبض على أحدهم عند خروجه من المكان، وهو لا يزال طازجاً من تأثير العلاج. هو قد يكون وكيل تأمين محليّ لا يحصل على أيّ علاج مماثل في بيته، وقد يكون مأخوذاً بإحدى الفتيات - يمكنك في الحقيقة أن تطلب المفضّلة لديك، لكن الطلب غير ملزم؛ فلديهم قوانيهم الخاصّة - أو ربّما يكون أحد مطاردي سيارات الإسعاف المحليّة، مثلك يا رودّ، مجرّد محامٍ فاسد آخر يناطح كلّ شيء لكنه لا يحرز الكثير، ومقابل ثلاثمائة دولار يحصل على علاجه».

«على أية حال».

«على أية حال، فليمسكوا بالرجل، وليخيفوه حتى يتغوّط في ثيابه، وسيغنّي خلال دقائق مثل صبيّ في كورس الكنيسة. سيُخبرهم بكلّ شيء، خصوصاً المخطّط الداخلي للمكان. سيُبكونه، ثمّ يدعوه يذهب. فهم الشرطة، ولديهم التفويض اللازم. سيُطوّقون المكان بواحدة من فرق سوات تلك، وسيسيطرون عليه بشكل رائع. سيتم إنقاذ الفتيات. وسيُقبض على تجّار البغاء والبشر متلبّسين بالجريمة، وإذا فعلت الشرطة ذلك بالطريقة الصحيحة فسيتعاون أحدهم فوراً. فإذا غنّى، فسيورّط الحلقة بأكملها. وقد يكون هناك المئات من الفتيات والعشرات من البلطجيّة. يمكن أن تكون عملية ضخمة، يا رودّ، كلّ ذلك بسببنا أنت وأنا».

«نعم، نحن فريق حقيقي، يا سوانجير».

اتّبعتُ مسار الخروج، ثمّ عبرتُ من فوق الطريق السريع، ودخلته مجدداً متّجهاً شمالاً. ولا بدّ وأن جميع العيون التي تراقب شاحنتي تتساءل عمّا نفعله بحقّ الجحيم. فتح رفيق سفرتي علبة شراب أخرى، وهي الثالثة. وكانت الرقائق قد نفدت وأنا متأكّد من أنّه ترك خلفه الكثير من الفتات. زدتُ حينذاك السرعة إلى سبعين ميلاً في السّاعة وقلت: «العنوان، يا آرك».

«هو في ضاحية فيستا فيو، حوالى عشر أميال باتّجاه الغرب من وسط مدينة أتلانتا. مركز التسوّق يدعى وست آيفي. وتقع شركة أطلس للعلاج الطبيعي بجوار منظّفات سانّي بوي. وتصل الفتيات إلى هناك عند الساعة 1:00 بعد الظهر تقريباً».

«وهل جيليانا كيمب إحداهنّ؟».

«سبق وأن أجبتُ عن ذلك، يا رودّ. هل تعتقد أنّني سأخبرك بكلّ هذا لو لم تكن هي موجودة هناك. لكن يستحسن أن تتحرّك الشرطة بسرعة. فهؤلاء الناس يمكن أن يجمعوا أشياءهم ويتحرّكوا في ظرف دقائق».

حصلتُ على ما أريد، لذا سكتُّ. ثمّ ولسبب ما قلت: «هل يمكنني الحصول على شراب؟». فنظر إلي مغضباً لمدّة ثانية، كما لو كان يريد القول أنّه يريد العلب الستّ لنفسه، لكن ابتسم بعد ذلك وناولني واحدة.

.16

بعد بضعة أميال على الطريق، وبعد فترة صمت طويلة، ممتدّة وممتعة، أومأ سوانجير وقال: «ها هو هناك. الدكتور وو ولوحة إعلاناته حول قطع القناة المنوية الدافقة. تستدعي بعض الذكريات، أليس كذلك يا رودّ؟».

«أمضيتُ ليلة طويلة هناك، أراقبهم وهم يحفرون. لِمَ فعلتَ ذلك يا آرك؟».

«لماذا أفعل أيّ شيء، يا رودّ؟ لماذا التقطتُ تلك الفتاة؟ وأسأتُ معاملتها؟ وبعتها؟ وهي ليست الأولى، هل تعلم ذلك؟».

«أنا غير مهتمّ حقاً بهذه الناحية. أتمنّى فقط أن تكون الأخيرة».

هزّ رأسه وقال مع قليل من الحزن: «لا مجال. توقّف هنا عند كتف الطريق».

ضغطتُ على الفرامل بقوّة فتوقّفت الشاحنة بعنف تحت الأضواء الساطعة من لوحة إعلانات الدكتور وو. أمسك حينئذٍ سوانجير بكيس المال، تاركاً خلفه الشراب، ثمّ سحب مقبض الباب وقال: «قل لأولئك الشرطة الأغبياء أنّهم لن يجدوني أبداً». ثمّ قفز إلى الخارج، صافقاً الباب خلفه، ووثب إلى أسفل كتف الطريق وسار بين الأعشاب الطويلة، ثمّ عبر من فوق السياج، وأصبح تحت لوحة الإعلانات. وكانت الصورة الأخيرة لسوانجير وهو يهرول مسرعاً، خافضاً رأسه بين السيقان الكثيفة، راسماً المسارات، ثمّ مختفياً في حقل الذرة الطويلة.

ولكي أكون في مأمن، قدتُ الشاحنة مسافة نصف ميل عبر الطريق السريع، ثمّ توقفتُ ثانية، واتّصلتُ بالشرطة الذين كانوا قد سمعوا كلّ كلمة قيلت في الشاحنة خلال الساعة الماضية، لذا لم يكن هناك الكثير لأقوله. وقد شدّدتُ أنّه سيكون من الخطأ أن يحاولوا محاصرة سوانجير قبل أن يحدث الهجوم في أتلانتا. ويبدو أنّهم وافقوني الرأي، حيث لم أر أيّ نشاط في حقل الذرة وعند لوحة الإعلانات.

وحين عدتُ إلى المدينة، رنّ هاتفي الخلوي. كان ذلك هو ماكس مانسيني. قلت: «صباح الخير».

«تحدّثتُ للتوّ مع القاضية فابنيو. يبدو وكأنّها أصيبت بتسمّم غذائي حادّ. لا محكمة اليوم».

«أوف، أمر سيّئ».

«عرفتُ بأنّك ستُصاب بخيبة أمل. نم قليلاً وسنتكلّم لاحقاً».

«موافق. هل يفترض بـي مراجعتك في أمر ما؟».

«نعم. عمل ممتاز يا رودّ».

«سنرى».

التقطتُ الرفيق من شقّته ثمّ جلسنا لتناول فطور طويل في محل لفطائر الوفل. سردتُ له مغامرات الساعات السبع الماضية، وكان يستمع كالعادة من دون أن يتفوّه بكلمة. وكنتُ بحاجة إلى أن أضطجع وأحاول النوم، لكنّني كنت في حالة من التوتّر العصبـي الشديد. لذا حاولتُ قتل الوقت حول مبنى المحكمة، لكنّني كنت منشغل الفكر بالهجوم في أتلانتا ولم أستطع التفكير في أمر آخر سواه.

وفي الأحوال المعتادة، كنتُ سأستعدّ كالمسعور لمحاكمة تاديو، لكنّني أشكّ الآن في أنّها ستحدث. وقد نفّذتُ الجزء المتعلّق بـي من الصفقة، وبغض النظر عمّا قد يحدث بالنسبة إلى جيليانا كيمب، فقد عقدنا صفقة. والاعتراف مقابل إدانة أقلّ سيتيح لموكّلي أن يعود إلى مباريات القتال ثانية، وقريباً. لكنّني لا أثق بأحد ممّن أتعامل معهم في الوقت الحاضر. فإذا لم ينتج شيء عن الحملة في أتلانتا، فلن يكون أمراً مفاجئاً إذا اجتمع عمدة المدينة، وماكس مانسيني، وموسّ كورجان، وسيري ببطء فابنيو، وكبار ضبّاط الشرطة في غرفة واحدة وقرّروا «اسحقوا رودّ وموكّله! لنذهب إلى المحاكمة».

.17

بحلول الساعة 2:00 من بعد الظهر بتوقيت الساحل الشرقي كان موقف السيارات في مركز تسوق ويست آيفي يعجّ بالوكلاء الاتّحاديين، وكلّهم يرتدون أنواعاً مختلفة من الأزياء العادية ويقودون عربات غير مميّزة. أمّا أولئك المدجّجون بالأسلحة فقد اختبأوا في شاحنات لا تلفت النظر.

أمّا عاثر الحظ الذي أمسكوا به فكان بائع سيارات في الأربعين من العمر يدعى بن براون. متزوّج، وأب لأربعة أبناء، ويقطن في بيت لطيف غير بعيد. وبعد أن تلقى العلاج الذي أراده، غادر مركز أطلس من باب غير ظاهر، ثمّ وصل إلى عربته، فأُخذت صورته، وسُمح له بالقيادة مسافة نصف ميل قبل أن يسحبه شرطي محليّ. لم تكن كلمات بن الأولى مفيدة وكان تعاونه بطيئاً، لكنّه حين رأى عربة الدفع الرباعي السوداء وقد توقّفت أمامه توقّع حدوث مشكلة أعمق. سُلِّم حينها إلى اثنين من عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالي اللذين وضعوه في المقعد الخلفي من

عربتهم. ثمّ أُبلغ بأنّه موقوف بجريمة التماس الدعارة وقيل له إنه قد يُتّهم لاحقاً بكلّ أنواع المخالفات الاتّحادية. وقيل له إن مركز أطلس للعلاج جزء من سلسلة من المباغي المنتشرة في الولايات؛ وهكذا فإن التهم ستكون على المستوى الاتّحادي. ومضت حياة بن أمام عينيه وهو بالكاد قادر على حبس دموعه. وقال للعملاء أن لديه زوجة وأربعة أطفال. لكنّهم لم يبدوا تعاطفاً معه. وقيل له أنه قد يُمضي سنوات في السجن.

لكنّ الوكلاء، كانوا راغبين، على أية حال، في التعامل معه. فإذا أخبرهم عن كلّ شيء، فسيسمحون له بالقفز في سيارته والانطلاق بعيداً، مثل أي رجل حرّ. فمن ناحية، أوحى شيء ما لبن أن يلتزم الصمت ويطلب محامياً. ومن ناحية أخرى، كان يريد الوثوق بهم وأن ينجو بجلده.

بدأ بالكلام. كانت تلك زيارته الرابعة أو الخامسة إلى مركز أطلس. وكان يحصل عادة على فتاة مختلفة كلّ مرة؛ وذلك ما أحبّه في المكان، التنويع. ثلاثمائة دولار في كلّ مرّة. لا أوراق ولا مستندات، بالطبع لا. وكان قد زُكّي من قبل صديق له في وكالة بيع السيارات. كلّ شيء يجري بهدوء تامّ. نعم، كفِل بدوره رفيقين آخرين. التوصيات مطلوبة؛ الأمن يبدو مشدّداً؛ والسريّة مضمونة. وفي الداخل توجد منطقة استقبال صغيرة حيث يقابل الرجل نفسه دائماً، ترافس، الذي يرتدي معطف مختبرات أبيض، والذي يحاول أن يبدو لطيفاً. وعبر باب يعبره الزبون يوجد بين ستّ وثماني غرف، كلّها متشابهة تقريباً؛ السرير الصغير نفسه،

كرسي صغير، وفتاة. وتسير الأمور بسرعة. وهو أشبه بمخزن تتسوّق منه وأنت في سيّارتك، تدخل ثمّ تخرج، بخلاف مرّة سابقة في فيغاس حيث كانت الفتيات يتسكّعن وهنّ يأكلن الشوكولاتة ويشربن الشراب.

لم يبتسم أحد من عملاء مكتب التحقيقات الفدرالي. «هل هناك أيّ رجال آخرون؟».

نعم، ربّما، كان هناك رجل آخر في إحدى المرّات. كلّ شيء نظيف جدّاً وملائم، باستثناء أن الجدران كانت رقيقة جدّاً وليس مستغرباً أن تُسمع بعض الأصوات المعبّرة التي تصدر من جلسات علاج أخرى. الفتيات؟ حسناً، بالطبع هناك تيفاني وبريتّاني وآمبر، لكن من يعلم ما هي الأسماء الحقيقية.

قيل لبن أن ينصرف وأن لا يرتكب المزيد من الآثام. فأسرع مبتعداً، متلهّفاً ليخبر رفاقه بوجوب الابتعاد عن مركز أطلس.

ثمّ حدث الهجوم بعد لحظات تلت. فبعد أن حوصرت جميع الأبواب من قِبل العملاء المدجّجين بالسلاح، لم يعد هناك وقت حتى للتفكير بشأن المقاومة أو الهرب. قُيِّد ثلاثة رجال وسحبوا من المكان. ثمّ أُنقذت ستّ فتيات، ومن بينهنّ جيليانا كيمب، ثمّ أُخذنَ إلى الحبس الوقائي. وقبل الساعة 3:00 من بعد الظهر مباشرة، اتّصلت بوالديها، وكانت تنشج بشكل هستيري. وكانت قد اختطفت قبل ثلاثة عشر شهراً، ووضعت مولوداً وهي في الأسر. وهي لا تملك فكرة حول ما حدث لوليدها.

وتحت الضغط الهائل، انهار أحد الرجال الثلاثة، وهو أمريكي، وبلع الطعم ثمّ بدأ بالغناء. بدأت الأسماء تتهاوى، ثمّ العناوين، ثمّ كلّ شيء آخر يمكنه أن يتذكّره. ومع مرور الساعات، اتّسع نطاق الشبكة بسرعة. فاضطر مكتب التحقيقات الفيدرالي في عشرات المدن أن يضع كلّ شيء آخر جانباً.

أحد المصرفيين من رفاق العمدة وودي يملك طائرة خاصّة وكان متلهّفاً لوضعها في الخدمة. وبحلول الساعة 7:00 مساءً من يوم كانت ستنهي فيه عادة كابوساً آخر في مركز أطلس وتستعدّ لليلة من الرقص فوق المناضد، طارت جيليانا كيمب عائدة فجأة إلى موطنها. وقد اعتنت بها مضيفة قالت لاحقاً أنّها بكت طوال الرحلة.

.18

مرة أخرى، أفلت آرك سوانجير من الشباك. ولم يظهر له أثر بعد أن اختفى في حقل الذرة. وتعتقد الشرطة بأنّها ستقبض عليه في وقت ما وفي مكان ما، لكن ونظراً إلى أنّهم أُمروا بالانتظار حتى تنتهي الحملة، فقد أضاعوه بطريقة ما. ويبدو أن أحدهم متواطئ معه. فمن النقطة التي التقطته منها عند إشارة الوقوف في جوبيس، هناك حوالى أربعين ميلاً إلى لوحة إعلانات الدكتور وو بجانب الطريق السريع. لا بدّ إذاً من وجود شخص ما ليقود سيارة الفرار.

أشكّ في أنّني قد أسمع شيئاً جديداً عنه.

.19

بعد حلول الظلام، انطلقنا أنا والرفيق إلى السجن لنزفّ الأخبار الرائعة إلى تاديو. لقد قُدِّمت له صفقة الصفقات؛ حكم مخفّف، سجن مريح، وضمان إطلاق سراح مبكّر على أساس السلوك الحسن. ومع بعض الحظّ، سيعود إلى الحلبة خلال سنتين وقد تعزّزت مهنته بسبب الضجة التي أثيرت حوله وذلك الفيديو المشهور على يوتيوب. أمّا أنا فيجب أن أعترف بانفعالي عند التفكير بعودته.

وبكثير من الرضا، وضعتُ أمامه كلّ شيء على الطاولة. أو أغلبه. ذلك أنّني أخفيتُ عنه تفاصيل مغامرة سوانجير، وأكّدتُ له بدلاً من ذلك على مهارتي العالية كمفاوض ومحامي جنايات مخيف جدّاً.

لم تثر الصفقة إعجاب تاديو. قال لا. لا!

حاولتُ أن أشرح له أنّه لا يستطيع الرفض هكذا بكلّ بساطة. فهو مهدّد بعقد من الزمن أو أكثر في سجن قاسٍ، وقد توصّلتُ الآن إلى عقد

صفقة رائعة جدّاً بحيث أن رئيس القضاة لا يُصدّق حصولها. استيقظ يا رجل! لا.

كنتُ مذهولاً وغير مصدّق.

جلس وذراعاه معقودان على صدره، هذا الشرير الصغير المتغطرس، ولم يفتأ يردّد القول لا مراراً وتكراراً. لم يوافق على الصفقة. ولن يعترف بالتهمة تحت أية ظروف. يقول إنه رأى محلّفيه، وبعد بضعة شكوك، أصبح واثقاً مرة أخرى من أنّهم لن يدينوه. وسيصرّ على اعتلاء منصّة الشهادة وسيروي القصّة من وجهة نظره. وهو عنيد ومغرور، ومغضب من رغبتي في دفعه إلى الاعتراف بالذنب. وقد حافظتُ على هدوئي وعدتُ إلى استعراض الأساسيات؛ التهم، الدليل، الفيديو، ضعف شهادة خبيرتنا، تركيب هيئة المحلّفين، حمّام الدم الذي ينتظره عند الاستجواب، احتمال قضائه عشر سنوات أو أكثر في السجن، كلّ شيء. لكن ذلك كلّه لم يُجدِ نفعاً. ظلّ على اعتقاده في أنّه رجل بريء حدث وأن قتل حَكَماً، عَرَضاً وبيديه العاريتين وليس بشيء آخر، وهو يستطيع شرح ذلك كلّه لهيئة المحلّفين. وسيخرج حرّاً، وحين يفعل، حسناً، سيكون لكلّ شيء ثمن. وقال أنّه سيجد مديراً جديداً ومحامياً جديداً. ثمّ اتّهمني بالخيانة. وهذا أغضبني وقلتُ له أنّه غبيّ. وسألته عن أولئك الذين يستمع إليهم في الزنزانة. ثمّ تفاقمت الأمور من سيء إلى أسوأ، وبعد ساعة من الوقت اندفع خارجاً من الغرفة.

ظننتُ أنّني قد أنام الليلة، لكن يبدو وكأنّني سأعاني الأرق المعتاد قبل المحاكمة.

20.

في الساعة 5:00 من صباح الخميس، كنتُ أشرب قهوة قوية وأقرأ صحيفة «كرونيكل» على الإنترنت. كلّ الأخبار تدور حول إنقاذ جيليانا كيمب. أمّا الصورة الكبرى المنشورة على الصفحة الأولى فقد كانت أكبر ممّا تصوّرت: عمدة المدينة وودي على المنصّة في مجده الكامل، وإلى جانبه روي كيمب، وخلفهما جدار أزرق اللون. جيليانا ليست في الصورة؛ لكن هناك صورة لها أصغر قليلاً وهي تنزل من الطائرة في المطار. تضع على رأسها قبّعة البيسبول، ونظارات شمسية كبيرة، وياقة مرفوعة، بحيث لا يمكن معرفة الكثير عنها، لكنّها تبدو بحالة جيّدة إلى حدّ معقول. وهي ترتاح الآن في البيت مع عائلتها وأصدقائها، يقول الخبر. ثمّ نُشرت قصّة الاتجار بالبشر والبغاء على عدّة صفحات، ومن الواضح أن عمليّة مكتب التحقيقات الفيدرالي ما زالت مستمرّة. وقد جرت الاعتقالات في كافة أنحاء البلاد. وتمّ إنقاذ حوالى خمس وعشرين فتاة حتى الآن. وكان هناك إطلاق نار في دينفير، لكن لا إصابات جدّية.

ومن حسن الحظّ عدم وجود كلمة واحدة حول إدمان جيليانا على الهيروين، أو حول الطفل الرضيع المفقود. أحد الكوابيس انتهى؛ أما الأخرى فمستمرّة. ومن المفترض أن أشعر بنوع من الرضى الهادئ عن النفس بسبب دوري في هذه العملية، لكنّني لم أشعر بشيء من ذلك. قايضتُ المعلومات لصالح موكّلي. ذلك كلّ ما فعلته. وها هو الآن ذلك الموكّل يُصرّ على غبائه لأخرج خالي الوفاض من الصفقة.

انتظرتُ حتى الساعة 7:00 صباحاً لإرسال رسالة نصّية إلى كلّ من ماكس مانسيني والقاضية فابنيو. يقول نصّها: «بعد مناقشات شاملة، يرفض موكّلي قبول اتفاقية الالتماس المعروضة عليه الآن من قِبل الادّعاء. نصحته بقوة بقبولها، من دون جدوى. يظهر وكأن المحاكمة يجب أن تستمرّ، بانتظار تحسّن صحة القاضية. آسف. Ñ.Ó.».

ردّ مانسيني: «دعنا نرتّبها. أراك قريباً». وهو، بالطبع، مبتهج لأنه سيعود إلى احتلال المنصّة المركزية. ومن الواضح أيضاً أن القاضية فابنيو قد تعافت بسرعة. فهي قد ردّت أيضاً: «حسناً، يجب أن يستمرّ العرض. سنجتمع في مكتبي في الساعة 8:30. سأُعلم حاجبي».

.21

اجتمع اللاعبون في قاعة المحكمة كما لو أنّ شيئاً لم يحدث أمس، أو على الأقل لم يحدث شيء يؤثّر في أية حال من الأحوال على المحاكمة. عدد قليل منّا يعرف ما حدث - أنا، والمدّعي العامّ، والقاضية، والرفيق - ولا أحد آخر يعرف، ولا يجب أن يعرف. وقد همستُ لتاديو، الذي لم يغيّر رأيه، أن باستطاعته أن يربح هذه المحاكمة.

ذهبنا إلى مكتب القاضية لنتداول الأمور في وقت مبكّر صباحاً. ولكي أحمي قفاي، أعلمتُ القاضية وماكس بأنّني أريد أن تُسجّل أقوال موكّلي في هذا الاجتماع، وذلك لكي لا يكون هناك شكّ في المستقبل في مسألة رفضه التقدّم بالالتماس. وبناء على ذلك جلبه الحاجب إلى المكتب، من دون أصفاد ولا قيود. وكان يبتسم وتصرّف بأدب جمّ. ثمّ وُضع تحت القَسم وقال إنه في كامل وعيه وإدراكه وأنّه يعرف ما يجري. ثمّ طلبتْ فابنيو من مانسيني قراءة شروط اتفاقية الالتماس: خمس سنوات مقابل الاعتراف بجريمة القتل غير العمد. وقالت سعادتها إنها لا تستطيع تقديم

وعد بضمان الحبس في سجن معيّن، لكن في رأيها أن السيّد زابات سيكون في وضع جيّد غير بعيد من هنا في مزرعة المقاطعة التأديبية. على بُعد ستّة أميال فقط؛ وستتمكّن أمّه من زيارته كثيراً. علاوة على ذلك، فهي لا تتحكّم بمسألة إطلاق السراح، لكن باعتبارها القاضية التي ستصدر الحكم، فلديها السلطة للتوصية بإطلاق سراح مبكّر.

هل فهم كلّ ذلك؟ قال إنه فهم، ثمّ تابع القول أنّه لا يعترف بارتكاب أيّة جريمة.

ثمّ صرّحتُ أنّني نصحته بقبول الصفقة. فقال نعم، إنّه يفهم نصيحتي، لكنّه لا يقبلها. أوقفنا تسجيل وقائع الاجتماع وختمه كاتب المحكمة. ثمّ طوت القاضية فابنيو أصابعها معاً مثل معلّمة مخضرمة في روضة أطفال، ثمّ وبطريقة متعمّدة بشكل مؤلم قالت لتاديو إنها لم يسبق أن رأت صفقة جيّدة جدّاً مثل هذه لأيّ متهم أدين بموت شخص آخر. بعبارة أخرى، يا ولد، أنت أحمق لرفضك هذه الصفقة.

لكنّه لم يتزحزح.

بعد ذلك، أوضح ماكس أنّه، كمدّعٍ عامّ ممارس، لم يسبق أن عرض صفقة التماس متساهلة كهذه. وهي استثنائية، حقاً. ثمانية عشر شهراً أو نحو ذلك في المزرعة، مع قدرة الوصول الكامل إلى صالة التمارين الرياضية، وهناك وسائل أخرى ممتازة في المزرعة التأديبية، وستعود إلى القفص بأسرع ممّا تتصوّر.

كان تاديو يهزّ برأسه فقط.

.22

دخل المحلّفون وألقوا نظرة فاحصة على المكان مع بعض التحفّز والتوتّر. وكان الجوّ مفعماً بالإثارة في قاعة المحكمة حيث إن المسرحية توشك أن تبدأ، لكنّني لم أشعر بشيء سوى بتلك العقدة السميكة المعتادة في معدتي. واليوم الأول هو الأصعب دائماً. ومع مرور الساعات، أظنّ أنّنا سننخرط في الروتين وأن توتّر المعدة سيختفي ببطء. لكنّني في الوقت الحاضر، مع ذلك، أشعر برغبة في التقيّؤ. وكان محامٍ جنائيّ كبير السن قد أخبرني مرّة أنّه إذا جاء ذلك اليوم الذي تدخل فيه قاعة المحكمة وتواجه هيئة المحلّفين من دون خوف، فسيكون الوقت قد حان لتتوقّف عن العمل.

نهض ماكس بشكل هادف ثمّ سار إلى موضع أمام مجلس هيئة المحلّفين. ثمّ قدّم لهم ابتسامة الترحيب المعيارية لديه، وألقى عليهم تحية الصباح. ثمّ أبدى أسفه بشأن التأخير يوم أمس. وكرّر القول مجدداً أن اسمه ماكس مانسيني، وهو المدّعي العامّ الرئيس باسم المدينة.

هذه مسألة خطيرة لأنّها تتضمّن خسائر في الأرواح. شون كينغ كان رجلاً لطيفاً لديه عائلة محبّة، وكان رجلاً يعمل باجتهاد ويحاول كسب بضعة دولارات إضافية من عمله كحكم. ولا يوجد خلاف حول سبب موته، أو حول قاتله. والمتهم، الجالس هناك، سيحاول إرباككم، وسيحاول إقناعكم أن القانون يستثني من العقوبة أولئك الذين يفقدون عقولهم بشكل مؤقت، أو بشكل دائم.

تخريف. واصلَ الكلام مستطرداً لبعض الوقت من دون ملاحظات مكتوبة، وأنا أعرف منذ بعض الوقت أن ماكس يقع عادة في ورطة حين يخرج عن النصّ. فالمحامون الأكثر مهارة في قاعة المحكمة هم أولئك الذين يعطون الانطباع بأن يتحدثوا ارتجالاً، في حين أنّهم في الحقيقة كانوا قد قضوا ساعات في الاستظهار والتدرّب على إلقاء مرافعاتهم. وماكس ليس أحد هؤلاء، لكنّه ليس سيئاً مثل معظم المدّعين العامّين. ثمّ فعل شيئاً ذكياً جدّاً حين وعد المحلّفين بإنّهم سيرون قريباً الفيديو المشهور. وضعهم في حالة انتظار. وهو يستطيع، حتى في هذا المرحلة المبكّرة من المحاكمة، عرض الفيديو. القاضية «سيري ببطء» قالت ذلك. لكنّه أراد تشويقهم. حركة رائعة.

ولم يكن بيانه الافتتاحي طويلاً لأن قضيّته صلبة. بعد ذلك، وباندفاع مفاجئ، وقفتُ وقلتُ لسعادة القاضية إنني سأحتفظ ببياني الافتتاحي حتى بداية دفاعنا، وهو خيار يتيحه القانون. ثمّ وثب ماكس وتقدّم ليستدعي شاهده الأول، الأرملة، السيّدة بيفيرلي كينغ. وهي سيدة لطيفة المظهر، ارتدت ثياب الذاهب إلى الكنيسة، وقد ظهر عليها بعض

الفزع من الجلوس على كرسي الشهود. فقادها ماكس عبر طقوس استدرار العطف المعتادة فانخرطت في البكاء خلال دقائق. ومثل هذه الشهادة لا تؤثّر في قليل أو كثير في مسألة الإدانة أو البراءة، بل الغاية منها دائماً هي التأكيد على أنّ الراحل قد مات بالفعل، وأنّه ترك خلفه أعزّاءه ومحبيه. وهكذا قالت أن شون كان رفيقاً مخلصاً، وأباً كرّس حياته لأبنائه، وعامل مجدّ، ومعيل يكسب الرزق، وهو الابن المحبوب لدى أمّه العزيزة. ومن بين نوبات البكاء استخلصنا الصورة، وهي كالعادة صورة دراميّة. وقد ابتلع المحلّفون الطعم كلّه وحدّق بعضهم إلى تاديو. صرختُ فيه أن لا ينظر إلى المحلّفين، بل ليجلس بدلاً من ذلك إلى المنضدة متيقّظاً، وليخربش باستمرار على دفتر ملاحظات قانونية. قلت له لا تهزّ رأسك. ولا تُبدِ أيّ ردّ فعل أو مشاعر. في أيّ وقت كان؛ فثمة اثنان على الأقل من أعضاء هيئة المحلّفين ينظران إليك.

لم أستجوب السيّدة كينغ. فسُمح لها بالعودة إلى مقعدها بجانب أطفالها الثلاثة في الصفّ الأمامي. وهم عائلة رائعة معروضة أمام الجميع، خصوصاً المحلّفين.

أمّا الشاهد التالي فقد كان الطبيب الشرعي، وهو أخصائي في الطب العدلي يدعى الدكتور غلوفير، وهو خبير في هذه المعارك. ولأن مسيرتي المهنية كانت قد تضمّنت العمل على عدد من قضايا القتل المريعة، فقد سبق لنا أنا والدكتور غلوفير أن اشتبكنا من قبل ذلك أمام هيئات المحلّفين. وفي الحقيقة، كانت لنا جولات في قاعة المحكمة هذه بالذات. وهو الذي شرَّح جثة شون كينغ، في اليوم الذي تلى موته، ولديه الصور

التي تُثبت ذلك. قبل شهر كدنا أنا ومانسيني أن نشتبك تقريباً بسبب صور تشريح الجثة. وهم لا يسمحون عادة بعرضها لأن شناعتها ضارّة جداً. على أية حال، استطاع ماكس إقناع «سيري ببطء» بأنّ ثلاثاً من الصور الأقل شناعة يمكن استخدامها كإثبات. الأولى لشون وهو مدّد على منضدة التشريح، عارياً إلا من منشفة بيضاء تغطي القسم الأوسط من جسده. والثانية صورة مقرّبة لوجهه والكاميرا فوقه مباشرة. أمّا الثالثة فيظهر فيها رأسه حليقاً، متّجهاً إلى اليمين لكشف ورم كبير منبثق من عدّة شقوق. وقد استُثنيت الصور العشرون الباقية بقرار حكيم من «سيري ببطء» لأنّها مؤذية جدّاً إلى درجة لا يمكن معها لأيّ قاضٍ عاقل أن يسمح بعرضها على هيئة المحلّفين: مقطع عرضي للقسم الأعلى من الجمجمة؛ صور مقرَّبة للدماغ المتضرّر؛ والأخيرة للدماغ وحده موضوعاً على طاولة المختبر.

وقد عُرضت الصور التي اعتبرت مقبولة على شاشة عريضة وطويلة. وقد قاد مانسيني الطبيب في الحديث ليشرح محتوى كلّ واحدة من تلك الصور. فبيَّن الأخير أنّ سبب الموت كان صدمة شديدة القوّة ناتجة عن الضربات المتكرّرة على الجزء الأعلى من الوجه. وكم عدد الضربات؟ حسناً، لدينا ذلك الفيديو الذي يُبيِّن ذلك. وهذه حركة ذكيّة أخرى من قبل ماكس لتقديم مقاطع الفيديو مع وجود الخبير الطبي على منصّة الشهود. خفتت الأضواء، وعلى الشاشة الكبيرة أتيح لنا أن نعيش المأساة ثانية: المقاتلان في منتصف الحلبة، كلاهما واثق من النصر؛ يرفع شون كينغ اليد اليمنى للخصم كراش، الذي تبدو عليه المفاجأة؛ ثمّ يهبط كتفا

تاديو علامة على عدم التصديق، ثمّ يضرب كراش فجأة ضربة جانبيّة، لكمة قاضية حقيقية؛ وقبل أن يتمكّن شون كينغ من القيام بأيّ ردّ فعل، أنزل تاديو لكمة يمنى قاسية على أنفه، ثمّ يسرى؛ شون كينغ يتراجع ويهبط على أسلاك القفص، ثمّ يسقط، منهاراً، أعزل، عديم الحركة؛ ثمّ يقفز فوقه تاديو مثل حيوان، ويجهز عليه لكماً متتالياً.

«الضربات اثنتان وعشرون على الرأس»، قال الدكتور غلوفير للمحلّفين، الذين كانوا مشدوهين بالعنف. كانوا يشاهدونه في كامل صحته وهو يُضرَب حتى الموت.

هذا وموكّلي الأبله يعتقد أنّه سيحظى بالبراءة.

انتهى الفيديو عند المشهد حيث أسرع نوربيرتو إلى الحلبة وأمسك بتاديو. في تلك اللحظة، كانت ذقن شون كينغ على صدره ولا يظهر شيء من وجهه سوى الدم. كراش راقد بلا حراك. والفوضى قد عمّت المكان حيث ظهر في الصورة كثيرون وهم يتراكضون. وحين اندلعت الاضطرابات، اسودّت الشاشة.

بذل الأطباء كلّ الجهود للتخفيف من الورم الحادّ في دماغ شون كينغ، لكنّ الجهود كلها فشلت. مات بعد خمسة أيام من دون أن يستعيد وعيه. ثمّ ظهرت صورة مسح مقطعي بدلاً من الفيديو، وتحدّث الدكتور غلوفير عن الكدمات المخّية. وظهرت صورة أخرى، فتحدّث عن النزف ضمن نصفي الكرة المخيين. تلتها صورة أخرى كشفت عن ورم دموي تحت الجافية. وقد سبق للشاهد أن شرح مسائل تشريح الجثث

وأسباب الوفاة أمام هيئات المحلّفين لسنوات عديدة، وهو يعرف كيف يشهد. فقد أخذ وقته، وبيّن الأمور، وحاول تفادي الكلمات والعبارات الغامضة. ولا بدّ أن تكون هذه القضية إحدى أسهل القضايا بالنسبة إليه، وذلك بسبب الفيديو. فالضحيّة كان في كامل صحّته عندما دخل القفص. ثمّ غادره محمولاً على نقّالة والعالم كلّه يعرف السبب.

والمجادلة مع خبير حقيقي أمام هيئة محلّفين عمل صعب دائماً. ففي كثير من الأحيان، يخسر المحامي المعركة ومصداقيته في آن معاً. وبسبب الحقائق الراسخة في هذه القضيّة، فليس لدي سوى القليل جدّاً من المصداقية لأنطلق منها كبداية. ولستُ راغباً في أن أخسر أكثر. لذا، وقفتُ وقلت بمنتهى الأدب: «ليس لديّ أسئلة».

وعندما جلستُ، هسهس تاديو في وجهي: «ماذا تفعل، يا رجل؟ يجب أن تُطارد هؤلاء الرجال».

«أغلقه، موافق؟»، قلتُ له وأنا أصرّ على أسناني. وكنتُ أشعر بالتعب الشديد من تكبّره، ومن ارتيابه الشديد بـي. لذلك فقد كنتُ أشكّ في أن شيئاً سيتحسّن.

.23

حين توقّفنا لاستراحة العصر، وصلتني رسالة نصّية من ميغيل زابات. وكنتُ قد رأيته في قاعة المحكمة طوال فترة الصباح، وكان ضمن عدد من الأقرباء والأصدقاء الذين تجمّعوا في الصف الخلفي، يراقب باهتمام شديد، لكن من دون أن يقترب منّا. التقينا عند المدخل ثمّ سرنا إلى الخارج. ثمّ التحق بنا نوربيرتو، المدير السابق لفريق زابات. وكان الرفيق يتبعنا على مسافة قريبة. وقد تأكّدتُ من أنهم يفهمون أنّ تاديو يرفض صفقة جيّدة جدّاً تتضمّن الاعتراف بالذنب مقابل حُكم أقلّ. وأنّه قد يخرج من السجن خلال ثمانية عشر شهراً ويعود إلى مباريات القتال ثانية.

لكن تبيّن أن لديهم صفقة أفضل. فالمحلّف رقم عشرة إستيبان سواريز، وعمره ثمانية وثلاثون عاماً، ويعمل سائق شاحنة لشركة توريد أغذية. وكان قد هاجر من المكسيك بشكل قانوني قبل خمسة عشر عاماً. يقول ميغيل أنّ لديه صديق يعرفه.

أخفيتُ مفاجأتي، إذ كنا لحظتها كمن يخوض في مياه غادرة. ثمّ انعطفنا في المسير نحو شارع ضيّق أحادي الاتّجاه حيث كانت العمارات العالية تحجب نور الشمس. «كيف يعرفه صديقك؟»، سألته.

ميغيل شرير شوارعي، موزّع مخدرات متدني المستوى ويعمل لصالح عصابة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بتهريب الكوكايين، لكنها لا ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالأرباح الناجمة عن ذلك. وضمن سلسلة التوزيع الخفية، ميغيل وصبيانه عالقون في المنتصف من دون أن تتوفّر لهم فرصة النموّ والتطوّر. هنالك كان تاديو عندما التقينا قبل أقل من سنتين.

هزّ ميغيل كيفيه وقال: «يعرف صديقي الكثير من الناس».

«أنا متأكّد من ذلك. ومتى قابل صديقك السيّد سواريز؟ خلال الساعات الأربع والعشرين الماضية؟».

«ليس ذلك أمراً مهمّاً. ما يهمّ حقيقة هو أنّنا يمكن أن نتعامل مع سواريز، وهو ليس باهظ الثمن».

«رشوة محلّف قد تودي بك إلى الزنزانة نفسها مع تاديو».

«سنيور، رجاءً. مقابل عشرة آلاف سيعرقل سواريز قرار هيئة المحلّفين، وقد يحصل على براءة أيضاً».

توقّفتُ عن المشي وحدّقتُ إلى هذا المجرم الدنيء. ماذا يعرف عن البراءة؟. «إذا كنتَ تعتقد أنّ هيئة المحلّفين ستدع أخاك يخرج، فأنت مجنون يا ميغيل. لن يحدث ذلك».

«حسناً، سنعرقلها إذاً. وأنت قلت بلسانك إذا تعرقل قرارهم مرّة، فيمكن أن يتعرقل مرّتين، ثمّ سيصرف المدّعي العامّ النظر عن كلّ شيء».

بدأت بالسير ثانية، ببطء لأنّني لم أكن متأكّداً من وجهتنا. وفي تلك الأثناء كان الرفيق يسير خلفنا على بُعد خمسين ياردة. قلت: «لا بأس، اذهب وارش المحلّف، لكن لا دخل لي في ذلك».

«حسناً، سنيور، أعطني المال وسأفعل».

«أوه، هكذا إذاً. تحتاج إلى المال».

«نعم، سنيور. ليس لدينا مثل هذا المبلغ».

«وأنا كذلك، خصوصاً بعد دفاعي عن أخيك. فقد صرفتُ أكثر من ثلاثين ألفاً على مستشار هيئة المحلّفين وعشرين لطبيب نفساني، إضافة إلى عشرين أخرى للنفقات المختلفة. تذكّر، يا ميغيل، في عملي يُفترض أن أتلقى الأتعاب من الموكِّل، أموال كأجور مقابل تمثيله والدفاع عنه. ويغطّي الموكِّل كلّ النفقات أيضاً. وليس الطرف الآخر».

«هل هذا هو سبب عدم قتالك؟».

توقّفتُ ثانية وحدّقتُ إليه. «ليست لديك فكرة عمّا تتحدّث عنه، يا ميغيل. أنا أبذل أقصى ما في وسعي من جهد بالحقائق التي بين يدي. وأنتم أيها الرجال واقعون في شباك فكرة خاطئة وتظنّون أنّني أستطيع إخراج أخيك عبر منفذ غامض وكبير في القانون فيخرج من هناك حرّاً. احزر ماذا؟ لن يحدث يا ميغيل. قل ذلك لأخيك العنيد».

«نحتاج إلى عشرة آلاف، يا رودّ. والآن».

«أمر سيئ جداً. لا أملكها».

«نريد محامياً جديداً».

«متأخر جداً».

.24

دي اختصار دوناتس. بعد ليلة أخرى من الأرق، قابلتُ نيت سبوريو في مخبز قرب الجامعة. بالنسبة للفطور، تناول هو فطيرتين مزجّجتين بالعسل ومملوءتين بالهلام، وقهوة سوداء. أمّا أنا فلم أكن جائعاً، لذا شربتُ القهوة فحسب. وبعد بضع دقائق من اللغو، قلت: «انظر يا نيت، أنا مشغول جدّاً هذه الأيام. ماذا لديك؟».

«المحاكمة، هه؟».

«نعم».

«سمعتُ بأنّك في مأزق».

«الأمر قبيح جدّاً هناك. أنت اتّصلت. ما الأمر؟».

«ليس بالشيء الكثير. طُلب مني أن أنقل لك بعض الكلمات الطيّبة من روي كيمب وعائلة. نقلوا الفتاة إلى مركز تأهيل في مكان ما. وهي

في حالة سيئة، من الواضح، لكنّها على الأقل في مأمن ومع عائلتها. أعني، انظر يا رودّ، ظنّ هؤلاء الناس أنّها كانت ميّتة. والآن ها هم استعادوها. وهم سيفعلون كلّ ما يستطيعون من أجل شفائها وسعادتها. وربّما كان لديهم ما يقود إلى الطفل. وهذه المسألة لا تزال فصولها تتجلّى وتتكشّف في جميع أنحاء البلاد. جرت المزيد من التوقيفات ليلة أمس، أوقف المزيد من الفتيات. وقد حصلوا على رأس خيط يقود إلى مسألة بيع الطفل الرضيع وهم جميعاً يسعون خلفه».

أومأت برأسي، وأخذتُ رشفة قهوة، ثمّ قلت: «هذا جيّد».

«نعم هو كذلك. وروي كيمب يريدك أن تعرف أنّه هو والعائلة شاكرون لك جدّاً على المساعدة في استعادة الفتاة ويجعل كلّ ذلك يحدث».

«اختطفَ ابني».

«هيّا يا رودّ».

«كانت ابنته مختطفة، لذا لا بدّ وأنّه يعرف ما هو ذلك الشعور. وأنا لا أهتمّ بمقدار امتنانه. وهو محظوظ لأنّني أوقفتُ تحقيقات مكتب التحقيقات الفيدرالي وإلا لكان قابعاً في السجن الآن».

«هيّا يا رودّ. انسَ الأمر. انتهت المسألة نهاية سعيدة، والفضل في ذلك لك».

«لا أستحقّ شيئاً، ولا أريد أي ثناء منه.

«سأفعل. حصلوا على دليل يقود إلى سوانجير. ليلة أمس، إخبار من عامل حانة في راسين، ويسكونسن».

«عظيم. هل سنلتقي خلال أسبوع أو نحوه ونحتسي الشراب؟ أنا مشغول الآن».

«بالتأكيد».

.25

اجتمعنا أنا والرفيق وكليف في المدخل قبل أن تستأنف المحاكمة صباح الجمعة. وفي هذه المرحلة تتمثّل مهمّة كليف في أن يجلس في أماكن مختلفة بين المشاهدين ويراقب المحلّفين. وردّة فعله يوم أمس لم تكن مفاجئة: لم يُبد المحلّفون أي تعاطف مع تاديو وهم قد استقرّوا على رأيهم. ثمّ ما انفكّ يقول اسعَ في صفقة الالتماس إذا كانت لا تزال مطروحة. فحدّثته عن محادثتي مع ميغيل في اليوم السابق. ردّ كليف بالقول: «حسناً، إذا أمكنك أن ترشو واحداً، فمن الأفضل أن تفعل ذلك بسرعة».

وخلال دخول هيئة المحلّفين، أسترقتُ نظرة سريعة إلى إستيبان سواريز. وقد خطّطتُ لإلقاء نظرة خاطفة عليه، كما أفعل عادة أثناء المحاكمات. على أية حال، حدّق هو إليّ كما لو كان يتوقّع منّي أن أسلّمه مغلّفاً. يا له من شخص غبـي. هناك بعض الشكّ، مع ذلك، في أنّ شخصاً

ما اتّصل به. وهناك القليل من الشكّ أيضاً في أنّه شخص لا يمكن أن يؤتمن. هل يَعدّ ماله؟.

قالت القاضية فابنيو صباح الخير ورحّبت بالجميع من جديد في قاعة محكمتها. ثمّ قامت بالروتين المعتاد بسؤال المحلّفين حول أيّ اتّصال غير مشروع مع الأشرار الذين يتمنّون تغيير قناعاتهم. ألقيتُ نظرة خاطفة أخرى على سواريز في الخلف. كان يحدّق إليّ. وكنت متأكّداً من أن الآخرين قد لاحظوا ذلك.

وقف السيّد مانسيني وأعلن: «سعادة القاضية، انتهينا من استدعاء شهود الإثبات. ربّما يكون لدينا شهود إضافيون للنقض، ولكنّنا سنتوقّف الآن».

لم يكن ذلك أمراً مفاجئاً لأن ماكس كان قد نبّهني إليه. وهو استدعى شاهدين فقط لأن ذلك كلّ ما يحتاجه. ذلك أن الفيديو شرح كلّ شيء، وقد كان ماكس حكيماً حين تركه يشرح بنفسه. وقد حدّد الفيديو سبب الوفاة بشكل واضح وفضح المعتدي تماماً.

سرتُ نحو مجلس المحلّفين، ثمّ نظرتُ إليهم جميعاً باستثناء سواريز، وبدأتُ بسرد الوقائع الواضحة. قتل موكّلي شون كينغ. ولم يكن هناك تعمّد، أو تخطيط. ضربه اثنتين وعشرين مرّة. وتاديو لا يتذكّر ذلك. وخلال الدقائق الخمسة عشر أو نحوها التي سبقت مهاجمته لشون كينغ، تلقى تاديو زابات من الضرب على الوجه والرأس ما مجموعه سبع ثلاثون مرّة على يد كراش، المعروف أيضاً باسم بو فرالي.

سبع وثلاثون مرّة. وهو لم يسقط، لكنّه اهتزّ عقلياً. وهو لا يتذكّر سوى القليل ممّا حدث بعد الجولة الثانية، عندما سدّد كراش ركبة إلى فكّه. ونحن سنعرض عليكم، السادة هيئة المحلّفين، المعركة كاملة، وسنعُدّ الضربات السبع والثلاثين على الرأس، وسنثبت لكم أنّ تاديو لم يعرف ما يفعله حين هاجم الحكم.

وقد اختصرتُ مرافعتي لعدم وجود الكثير ممّا يمكنني قوله. فشكرتهم وغادرتُ المنصّة.

شاهدي الأول كان أوسكار مورينو، مدرّب تاديو والرجل الأول الذي اكتشف قدراته كملاكم حين كان في السادسة عشرة من عمره. وأوسكار في مثل سنّي تقريباً، وهو أكبر سنّاً من عصابة تاديو، وكان مقيماً في جوارهم. وكان آنذاك يتصيّد الأطفال من ذوي الأصول الإسبانية في صالة للرياضة ويعرض على الموهوبين منهم فرصة التدريب. وحدث أيضاً أنّه صاحب سجلّ نظيف، وتلك مزية حقيقية عندما تستدعي الشهود إلى المنصّة. فالخلفيات الإجرامية السابقة سترتدّ عليك دائماً بالسوء. وهيئات المحلّفين قاسية دوماً على المجرمين الموجودين تحت القَسم.

وبالتعاون مع أوسكار، وضعتُ الأساس للأحداث التي أدّت إلى المعركة. وكانت تلك محاولة من أجل استثارة الإحساس بالشفقة لدى هيئة المحلّفين. فتاديو فتى فقير من عائلة فقيرة لم تُتح له فرصة حقيقية في الحياة من قبل سوى داخل القفص. ثمّ وصلنا أخيراً إلى المعركة فخفتت الأضواء في قاعة المحكمة. وكانت تلك هي المرة الأولى التي نشاهد فيها المباراة من دون توقّف. وفي الجوّ شبه المظلم كنتُ أراقب

المحلّفين. وكانت النسوة من بينهم منطفئات بسبب وحشية تلك الرياضة. أمّا الرجال فكانوا منهمكين كليّاً. وخلال الإعادة، أوقفنا الشريط كلّما تلقى تاديو ضربة على الوجه. وفي الحقيقة كانت أغلب تلك الضربات طفيفة الضرر ولم يحرز كراش منها سوى نقاط بسيطة. لكن بالنسبة إلى المحلّفين الذين لا يعرفون الكثير، فإن اللكمة على الوجه، خصوصاً تلك المضخّمة من قبلنا أوسكار وأنا، تصبح ضربة قاتلة تقريباً. وببطء، وبشكل منهجي، عددتُ الضربات. وحين تُعرض تلك الضربات في مثل ذلك الأسلوب المبالغ فيه، يمكن للمرء حينها أن يتساءل بسهولة كيف استطاع تاديو إذاً البقاء واقفاً على قدميه. وخلال المدّة 1:20
المتبقية من الجولة الثانية، استطاع كراش سحب رأس تاديو إلى الأسفل وضربه بركبته اليمنى. وهي ضربة شرّيرة من دون شكّ، لكنّها بالكاد أزعجت تاديو. مع ذلك، جعلناها، أوسكار وأنا، تبدو وكأنّها سبّبت ضرراً دائماً في الدماغ.

أوقفتُ الفيديو بعد نهاية الجولة الثانية، وخلال الأسئلة والأجوبة المتدرَّب عليها بعناية، انتزعتُ من أوسكار انطباعاته حول تاديو بين الجولات. كانت عينا الفتى زائغتان. وكان قادراً على أن يشخر فقط، لا أن يتكلّم. وكان عاجزاً عن الاستجابة للأسئلة الموجّهة إليه من قبل نوربيرتو وأوسكار. وهو، أي أوسكار، فكّر بالتلويح للحكم طالباً إيقاف المباراة.

وكنتُ سأضع نوربيرتو على المنصّة لتأكيد تلك الأكاذيب، لكنّه مُدان بجنايتين وسيذلّه مانسيني.

وما لم يُقل في تلك الشهادة هو حقيقة إنّني كنتُ موجوداً أيضاً في الزاوية. وكنتُ حينها مرتدياً سترة «تاديو زابات» الصفراء البرّاقة، محاولاً تمثيل دور المشارك بطريقة ما. وضّحتُ ذلك إلى ماكس وإلى «سيري ببطء» وأكّدتُ لهما أنّني لم أرَ ولم أسمع شيئاً ذو أهمية حاسمة. كنتُ مجرّد مشاهد؛ لذلك، لا يمكن أن أعتبر شاهداً. ماكس و«سيري ببطء» يعرفان أنّني أدافع عن المتّهم بدافع المحبّة وليس المال.

شاهدنا الجولة الثالثة وعددنا المزيد من الضربات على رأس تاديو. وشهد أوسكار أيضاً أنّه عندما انتهت المباراة كان تاديو يعتقد أنّه لا تزال أمامه جولة أخرى. وكان بالكاد واعياً، لكنّه ظلّ واقفاً على قدميه. وبعد أن هاجم شون كينغ وسُحب من قبل نوربيرتو وآخرين، كان مثل حيوان هائج، غير متأكد من مكانه ومن سبب كبحه. وبعد ثلاثين دقيقة من ذلك، وبينما كان يُبدّل ثيابه في غرفة الملابس والشرطة تراقب وتنتظر، بدأ يصحو ويدرك ما حدث. أراد أن يعرف سبب وجود الشرطة هناك. ثمّ سأل عمّن ربح المباراة.

بالإجمال، لم يكن ما فعلناه سيئاً من حيث زرع بعض الشكّ. وعلى أية حال، وحتى عند المشاهدة العادية للجولات الثلاث، فإن المباراة تبيِّن بشكل واضح أنّهما كانا متعادلين. وقد أحدثَ تاديو في خصمه القدر نفسه من الضرر الذي تلقّاه.

فشل مانسيني تماماً أثناء استجوابه للشاهد. فقد تمسّك أوسكار بالحقائق التي أوردها. فقد كان هناك، في الزاوية، يتكلّم مع مقاتله، وإذا

قال أن الفتى تلقى الكثير من الضربات على الرأس، فقد حدث ذلك. لم يستطع ماكس إثبات عكس ذلك.

استدعيتُ بعد ذلك خبيرنا، الدكتور تاسلمان، الطبيب النفساني المتقاعد الذي يعمل الآن كشاهد محترف. وكان يرتدي بدلة سوداء، وقميصاً أبيض ناصعاً، مع ربطة عنق حمراء صغيرة، ويضع على عينيه نظارة ذات إطار بارز كقرنين، ويبدو أنيقاً جداً بشعره الرمادي الطويل. قدتُه في الحديث ببطء حول مؤهلاته وقدّمته كخبير في حقل طبّ الأمراض العقلية العدلي. ولم تكن لدى ماكس أي اعتراضات.

ثمّ طلبتُ من الدكتور تاسلمان أن يشرح، بعبارات لغير المتخصّصين، المفهوم القانوني للجنون الإرادي، وهو معيار معتمد في ولايتنا منذ عقد من الزمن. فابتسم لي، ثمّ نظر إلى هيئة المحلّفين كما يفعل أستاذ كبير مستمتع بالدردشة مع طلابه الأعزّاء. قال: «الجنون الإرادي يعني بكلّ بساطة أنّ يقوم شخص سليم عقلياً بارتكاب عمل خاطئ، وهو يعرف في تلك اللحظة أنّه مخطئ، لكنه في تلك اللحظة يعاني من اختلال شديد في توازنه العقلي، أو مشوّش، ولا يستطيع منع نفسه ممّا يفعل. يعرف أنّ ما يفعله خطأ، لكنّه لا يستطيع السيطرة على نفسه، وبذلك يرتكب الجريمة».

وكان قد شاهد المباراة العديد من المرّات، ثمّ شاهد الفيديو الذي تلى المباراة. وقضى أيضاً بضع ساعات مع تاديو. وخلال اجتماعهما الأول، أخبره تاديو أنّه لا يتذكّر الهجوم على شون كينغ. وفي الحقيقة قال إنه لا يتذكّر عملياً شيئاً ممّا حدث بعد الجولة الثانية. وعلى أية حال، وخلال

جلسة تالية، بدأ تاديو يتذكّر بعض الأشياء التي حدثت. على سبيل المثال، قال إنه تذكّر تلك النظرة المتعجرفة على وجه كراش حين رُفع ذراعه علامة على الانتصار. وتذكّر الحشد الذي كان يصرخ رفضاً للقرار. وتذكّر أخاه ميغيل يهتف بشيء ما. لكنّه لا يتذكّر أيّ شيء له علاقة بالهجوم على الحكم. مع ذلك، وبغضّ النظر عمّا تذكّره، فقد أعمته مشاعره ولم يجد خياراً سوى المهاجمة. شعر أنّه سُرق والمسؤول الأقرب عن ذلك كان شون كينغ.

نعم، في رأي الدكتور تاسلمان، كان تاديو مشوّشاً، لذا لم يستطع ضبط نفسه. نعم، كان مجنوناً قانونياً، وبالتالي غير مسؤول عن أعماله.

وهناك عامل آخر، غير معتاد تماماً، يلعب دوره في هذه القضيّة فيجعلها فريدة من نوعها. كان تاديو موجوداً في قفص صمّم للقتال. وكان قد أمضى للتوّ تسع دقائق طويلة وهو يتبادل اللكمات مع مقاتل آخر. وهو يكسب عيشه من ضرب الناس. وبالنسبة إليه، وفي تلك اللحظة الحاسمة، كانت الطريقة المناسبة لحلّ المسألة تتمثّل بتوجيه المزيد من اللكمات. وعند وضع المسألة في سياقها، وفي بيئة تلك اللحظة، شعر وكأنّما ليس لديه خيار آخر سوى أن يفعل ما فعله.

وعندما انتهيتُ من تاسلمان، توقّفنا لاستراحة الغداء.

.26

مررتُ على قسم الأحوال الشخصية لمراجعة ملف المحكمة. وكما هو متوقّع، رفض القاضي العجوز ليف طلب جوديث بعقد جلسة طارئة، وحدّد الجلسة بعد أربعة أسابيع من الآن. ونصّت أوامره أيضاً على وجوب استمرار الزيارة المنتظمة من دون أيّ تغيير. خذي ذلك، يا حبيبتي.

قطعنا، أنا وكليف والرفيق، بضع مربعات سكنية لنصل إلى مطعم بسيط ثمّ اختفينا في مقصورة لنتناول سندويتشات سريعة. لم يكن لشهادة الصباح أن تكون أفضل مما كانت بالنسبة لتاديو. وكنّا نحن الثلاثة مندهشين من أداء أوسكار الممتاز على منصّة الشهادة، ومن قدرته على الإقناع حين أخبر المحلّفين بأنّ تاديو كان منهاراً، لكنّه ظلّ واقفاً على قدميه. عدد قليل من أنصار هذه الرياضة يمكنه أن يُصدّق ذلك، لكنّ الأمر انطلى على هيئة المحلّفين. ومقابل 20 ألف دولار، توقّعتُ أن يؤدّي الدكتور تاسلمان دوره على نحو جدير بالإعجاب، وقد

فعل ذلك. وقد قال كليف إن المحلّفين يفكّرون الآن، بعد أن زُرع بعض الشكّ في أذهانهم. وعلى أية حال، البراءة مستحيلة. واتفقنا على أن هيئة المحلّفين المتضاربة الآراء ما زالت فرصتنا الوحيدة. وقد تكون فترة العصر طويلة ومرهقة أثناء مطاردة مانسيني لخبيرنا.

وبعد أن عدنا إلى المحكمة، بدأ ماكس بالسؤال: «دكتور تاسلمان، في أيّة لحظة أصبح المتّهم مجنوناً قانونياً؟».

«لا توجد دائماً بداية ونهاية واضحتين. ومن الواضح أنّ السيّد زابات أصبح عنيفاً بسبب قرار القضاة إعلان فوز منافسه بالمباراة».

«إذاً، قبل تلك اللحظة، هل كان مجنوناً بحسب تعريفك؟».

«ليس ذلك واضحاً. وهناك احتمال قويّ في أنّ يكون السيّد زابات قد أصبح أضعف عقلياً خلال الدقائق القليلة التي سبقت نهاية المباراة. وهذه حالة غير شائعة جداً، ومن غير الممكن أن نعرف بشكل واضح كيف كان يفكّر قبل إعلان نتيجة المباراة. مع ذلك، من الواضح جداً أنّه تصرّف بسرعة».

«وكم من الوقت بقي مجنوناً قانونياً؟».

«لا أعتقد أنّني أستطيع الجزم».

«حسناً، بحسب تعريفك، عندما استدار المتهم وسدّد لشون كينغ اللكمة الأولى، هل كان ذلك هجوماً؟».

«نعم».

«وفاعله عرضة للعقاب بحسب معيارٍ معيّن؟».

«نعم».

«وهو معذور، في رأيك، بسبب تعريفك للجنون القانوني؟».

«نعم».

«سبق لك وأن رأيتَ الفيديو عدّة مرّات. ومن الواضح أنّ شون كينغ لم يبذل أي جهد للدفاع عن نفسه عندما سقط أرضاً وقد جلس مستنداً إلى أسلاك القفص، أليس كذلك؟».

«يبدو أن الأمر كذلك».

«هل تريد رؤيته من جديد؟».

«لا، ليس الآن».

«إذاً، وبعد لكمتين فقط، تمدّد شون كينغ بلا حراك، غير قادر على حماية نفسه، أليس كذلك؟».

«يبدو أن الأمر كذلك، نعم».

«عشر لكمات أخرى، بدأ وجهه ينزف وقد سُحق عملياً. لم يكن باستطاعته حماية نفسه. ضربه المتّهم اثنتي عشرة مرّة حول العينين والجبهة. والآن، في تلك اللحظة، يا دكتور، هل كان المتهم لا يزال مجنوناً قانونياً؟».

«لم يكن باستطاعته السيطرة على نفسه؛ لذا، الجواب نعم».

نظر مانسيني إلى القاضية وقال: «حسناً. أريد عرض الفيديو ثانية بالحركة البطيئة». ثمّ خفتت الأضواء مجدداً، وحدّق الجميع إلى الشاشة الكبيرة. عرض ماكس الفيديو بالحركة البطيئة جدّاً، وأعلن بصوت عالٍ مع تسديد كلّ لكمة: «واحدة! اثنتان! ها هو قد سقط الآن. ثلاث! أربع! خمس!».

نظرتُ إلى المحلّفين. ربّما كانوا قد تعبوا من ذلك الفيديو، لكنّهم ما زالوا مأخوذين به.

توقّف ماكس عن العدّ عند الضربة الثانية عشرة، وسأل: «والآن، يا دكتور، أنت تقول لهيئة المحلّفين إنهم ينظرون إلى رجل يعرف أنّه يرتكب خطأً، ينتهك القانون، لكنّه لا يستطيع ضبط نفسه جسدياً أو عقلياً. هل ذلك صحيح؟». كانت لهجة ماكس مشكّكة وساخرة، وكانت فعّالة. كنا نشاهد ذبحاً على يد مقاتل غاضب. وليس رجلاً مسّه الجنون.

«ذلك صحيح»، قال الدكتور تاسلمان، ولم يزحزح قيد أنملة.

ثلاثة عشر، أربعة عشر، خمسة عشر، عدّها ماكس ببطء وتوقّف عند اللكمة العشرين. ثمّ صاح: «والآن، في هذه اللحظة، يا دكتور، هل لا يزال مجنوناً؟».

«هو كذلك، نعم».

واحد وعشرون، اثنان وعشرون وتكوّمت الأجساد فوق تاديو، ثمّ غطس نوربيرتو أخيراً وأوقف المجزرة. سألَ ماكس: «والآن ماذا، يا دكتور،

بعد أن سحبوه بعيداً وانتهى الهجوم؟ في أي مرحلة عاد الفتى إلى سلامته العقلية؟».

«من الصعب القول».

«بعد دقيقة؟ بعد ساعة؟».

«من الصعب القول».

«من الصعب القول لأنك لا تعرف، أليس كذلك؟ وفي رأيك، السلامة العقلية قانونياً مثل المفتاح الذي يتناوب سلباً وإيجاباً، بالأحرى بشكل ملائم للمتّهم، أليس كذلك؟».

«ليس هذا ما قلتُه».

ضغط ماكس على زرّ فاختفت الشاشة. ثمّ سطعت الأضواء مجدداً والتقط الجميع أنفاسهم. ثمّ همس ماكس في أذن أحد مساعديه والتقط مذكّرة قانونية أخرى مملوءة بالملاحظات. واتّجه بعد ذلك إلى المنصّة، وحدّق إلى الشاهد، وسأل: «ماذا لو أنّه ضربه ثلاثين مرّة، يا دكتور تاسلمان؟ هل ستظلّ مصرّاً على تشخيصه كمجنون قانونياً؟».

«بناء على المجموعة نفسها من الحقائق، نعم».

«أوه، نحن نتحدّث عن الحقائق نفسها. لم يتغيّر شيء. وماذا عن أربعين مرة؟ أربعون ضربة على رأس رجل فاقد لوعيه بشكل واضح. هل سيظلّ مجنوناً قانونياً، يا دكتور؟».

«نعم».

«لم يُظهر هذا المتهم أي علامات على نيّته في التوقّف بعد اثنتين وعشرين ضربة. وماذا لو أنّه سدّد مئة ضربة على الرأس، يا دكتور؟ هل سيظلّ مجنوناً قانونياً في كتابك؟».

استحقّ تاسلمان المال الذي أخذه حين قال: «العدد الأكبر من اللكمات دليل أوضح على عقل مشوّش».

27.

إنّه عصر يوم الجمعة وليس ثمّة احتمال في أن ننهي المحاكمة اليوم. ومثل أكثر القضاة، تحبّ «سيري ببطء» استعجال بداية عطلة نهاية الأسبوع. لذا حذّرت المحلّفين من الاتّصال غير المشروع وأعلنت الاستراحة مبكراً. وخلال خروج المحلّفين من القاعة، نظر إليّ إستيبان سواريز مرة أخرى. وكان كمن لا يزال ينتظر المغلّف. غريب.

أمضيتُ بضع دقائق مع تاديو ولخّصتُ معه أحداث الأسبوع. وكان لا يزال مصرّاً على الجلوس على منصّة الشهادة، وأخبرته حول ما هو مُتوقّع حدوثه صباح الاثنين. ثمّ وعدته بزيارته في السجن يوم الأحد لأراجع شهادته. وكرّرتُ تحذيري له من أن تقديم المتّهمين للشهادة أمر غير جيّد على الإطلاق. بعد ذلك اقتيد مصفداً. ثمّ أمضيتُ بضع دقائق مع أمّه وعائلته وأجبتُ عن أسئلتهم. وبقيت متشائماً لكنّني حاولت إخفاء ذلك.

لحق بـي ميغيل خارج قاعة المحكمة ثمّ عبر مدخل طويل. وعندما لم يعد أحد يسمعنا، قال: «سواريز ينتظر. الاتّصال تأكّد. سيأخذ المال».

«عشرة آلاف؟»، سألته على سبيل التأكّد.

«سي، سنيور».

«إذاً، تابع الأمر يا ميغيل، لكن أبقني خارجه. أنا لا أرشي محلّفاً».

«أظنّ إذاً، يا سنيور، أنّني أحتاج قرضاً».

«انسَ ذلك. أنا لا أعطي القروض للزبائن، ولا أعطي القروض التي لن تستعاد. هذا شأنك، يا صاحبـي».

«لكنّنا اعتنينا بأولئك المجرمين من أجلك».

توقّفتُ وحدّقتُ إليه. تلك كانت المرة الأولى التي يذكر فيها رجلي لينك المدعوين البدين والشفرة. ثمّ قلت له ببطء: «للتوضيح والتسجيل، يا ميغيل، لا أعرف شيئاً عن المذكورين. وإذا كنتَ قد قضيتَ عليهما، فقد فعلتَ ذلك وحدك».

ابتسم وهزّ رأسه قائلاً: «لا، سنيور، فعلنا ذلك كخدمة لك». ثمّ أومأ مشيراً إلى الرفيق الموجود بعيداً عنّا. «هو طلب. ونحن نفّذنا. والآن نريد ردّ الجميل».

أخذتُ نفساً عميقاً وحدّقتُ إلى نافذة ضخمة من الزجاج الملوّن، سدّد دافعو الضرائب ثمنها منذ قرن مضى. لديه وجهة نظر. مجرمان ميّتان يساويان أكثر من عشرة آلاف، على الأقل بحسب أسعار الشارع

وعملته. وقد نجم سوء الفهم عن طريقة الاتّصال. فأنا لم أطلب مجرمين ميّتين. لكنّني الآن مستفيد من موتهما، فهل سأردّ الجميل؟.

وقد يكون سواريز مفخّخاً بجهاز تسجيل، وربّما كاميرا أيضاً. [illegible] لوحق أثر المال فدلّ عليّ، فسأُفصل من النقابة وأذهب إلى السجن. وكنتُ قد نجوت بإعجوبة من السجن سابقاً، وأنا أفضّل الحياة خارج السجن. ازدردتُ ريقي بصعوبة وقلت: «آسف يا ميغيل، لكنّني لن أتورّط في ذلك».

استدرتُ لأنصرف فأمسك بذراعي. ثمّ تخلّصتُ منه بينما كان الرفيق يقترب منا. قال ميغيل: «ستندم، يا سنيور».

«هل هذا تهديد؟».

«لا. وعد».

.28

هناك مباراة الليلة، لكنّني رأيت ما يكفي من إراقة الدماء في أسبوع واحد. وينبغي لي أن أجد رياضة أخرى، ويصدف في الوقت الحاضر أنّني أطارد الرائعة جدّاً نعومي تارانت. وباعتبار أننا ما زلنا نجتمع سرّاً، أو على الأقل نحن خائفان من أن يرانا شخص ما ممّن يعرفونها كمعلّمة، لذا فنحن نزور الحانات المعتمة والمطاعم الرخيصة. وسنذهب الليلة إلى مكان جديد، مطعم تايلاندي شرق المدينة، بعيد عن المدرسة حيث تعلّم نعومي ابني ستارتشر. ونحن واثقان من أن أحداً لن يرانا ممّن نعرفهم أو يعرفوننا.

ليس ذلك ما حدث بالضبط. رأتها نعومي أولاً، وحيث إنها لم تستطع أن تصدّق ذلك، طلبتْ مني التحقّق من الأمر. والمسألة ليست سهلة لأننا لا نريد أن يُكشف أمرنا. والمطعم معتم بما يكفي وفيه سلسلة من الزوايا المتعرّجة والمخاتل. وهو مكان ممتاز للاختباء وتناول وجبة طعام من دون رؤية العديد من الناس. لكن، وبينما كانت نعومي

عائدة من غرفة السيدات، رأت ثلاث مقصورات في مؤخّرة صالة طعام. في إحداها جلستا جنباً إلى جنب وانخرطتا في محادثة عميقة، جوديث وامرأة أخرى. والأخرى ليست أفا، رفيقتها الحالية، بل امرأة أخرى. قالت أنّ ستارة الخرز تحجب ما في داخل المقصورة جزئياً وتمنع الرؤية جيّداً، لكنّها متأكّدة من أنها هي جوديث. والحسّ العام يقول لو أنّ المرأتين كانتا صديقتين أو شريكتين أو زميلتين، لجلستا في مقابل بعضهما على طرفي المنضدة. لكنّ هاتين المرأتين كانتا متلاصقتين كتفاً لكتف وغارقتين في عالم آخر، طبقاً لنعومي.

تسلّلتُ متّجهاً إلى غرفة الرجال، ثمّ تريّثتُ متخفياً خلف بعض النباتات المزيّفة المرصوفة في أوانٍ على رفّ؛ ثمّ رأيتُ ما كنتُ مستميتاً لرؤيته. وقفلتُ عائداً إلى منضدتنا وأكّدتُ كلّ ما قالته نعومي.

اقترحتُ أن نغادر المكان لنتفادى حالة محرجة. فنحن لا نريد أن ترانا جوديث، وأنا متأكّد جدّاً من أنها لا تريدنا أن نراها أيضاً.

واستقرّ رأيي على إرسال نعومي إلى السيارة، ثمّ أفسد بعد ذلك موعد جوديث الغرامي الصغير. وكم سيكون رائعاً أن أراها وهي في حالة ذوبان لتتفاجأ وتبدأ بالكذب. سأسأل عن أفا، وسأرسل لها تحيّاتي.

لكنّني فكّرت من جهة أخرى بستارتشر وكيف ستؤثّر عليه هذه الحرب المستعرة بين والديه البيولوجيين. وبين جوديث وأفا، لذا أفترض أنّه لا بأس في أن تقابل إحداهما أو كلاهما نساءً أخريات، مع العلم أنّني أشكّ جديّاً في وجود علاقة مفتوحة بينهما. وكيف لي أن أعرف القوانين؟

لكن إذا اكتشفت أفا الأمر، فستندلع حرب أخرى أشدّ ضراوة، وسيصيب الطفل مزيد من الحزن. وسأتزوّد أنا بمزيد من الذخيرة.

ثمّ فكّرتُ في استدعاء الرفيق وتكليفه بملاحقة جوديث، وربّما التقاط بعض الصور لها.

وبينما كنتُ أفكّر في كلّ ذلك وأحتسي الشراب مع الليمون الحامض، ظهرت جوديث قريباً منّا ثمّ سارت نحو منضدتنا مباشرة. ومن بعيد رأيتُ صديقتها تخرج مسرعة عبر الباب الأمامي، بعد أن ألقت من فوق كتفها نظرة المتخفّي الفارّ مسرعاً والتي فضحت كلّ شيء. أما جوديث فقد قالت، بلهجة العاهرة المتمرّسة: «حسناً، حسناً، لم أتوقّع رؤيتك هنا».

ولم أكن لأسمح لها بإخافة نعومي، المنكوبة بشكل مؤقت. لذا، قلت: «لم أتوقّع رؤيتك أيضاً. هل أنت وحدك هنا؟».

«نعم»، قالت. ثمّ أردفت: «فقط لأخذ بعض الطعام الجاهز».

«أوه حقاً. إذاً من هي الفتاة؟».

«أيّ فتاة؟».

«الفتاة في المقصورة. الشعر الرملي القصير المحلوق من جهة واحدة بحسب البدعة الحالية. الفتاة التي كادت أن تكسر رقبتها وهي تخرج مسرعة من الباب الأمامي. هل تعرف أفا بأمرها؟».

«أوه، تلك الفتاة. إنّها مجرّد صديقة. وهل تسمح المدرسة لمعلميها بمواعدة آباء التلاميذ؟».

«مستنكر، لكنّه ليس ممنوعاً»، قالت نعومي ببرود.

«هل تسمح أفا لك بمواعدة غيرها؟»، سألتها.

«لم يكن موعداً. وهي مجرّد صديقة».

«لماذا كذبتِ إذاً بشأنها؟ ولماذا كذبتِ بشأن الطعام الجاهز؟».

تجاهلتني وحدّقت إلى نعومي. «أظنّ أنّني يجب أن أبلغ المدرسة عن هذا»، قالت.

«هيّا امضِ»، قلتُ لها. ثمّ أردفتُ: «وأنا سأخبر أفا عمّا رأيته. هل تعتني هي بستارتشر بينما أنت تتسكّعين في الخارج؟».

«لا أتسكّع ولا شأن لك بابني الآن. أهملتَه نهاية الأسبوع الماضي».

ثمّ أتى رجل تايلاندي صغير الحجم في بدلة وعلى وجهه ابتسامة كبيرة، وسأل: «هل كلّ شيء على ما يرام هنا؟».

«نعم، هي ستغادر على الفور»، قلت. ثمّ نظرتُ إلى جوديث وأضفتُ: «رجاءً. نحن نحاول طلب الطعام».

«أراك في المحكمة»، هسهستْ وهي تستدير على كعبيها. وقد راقبتها وهي تغادر فلم تأخذ معها أيّ طعام. بعد ذلك انزلق الرجل

التايلاندي الصغير مبتعداً وهو لا يزال يبتسم. احتسينا مشروباتنا ثمّ بدأنا ننظر بعد ذلك في قوائم الطعام.

وبعد بضع دقائق، قلت: «سرّنا في مأمن. فهي لن تخبر المدرسة بأي شيء لأنّها تعرف بأنّني سأتّصل بأفا».

«وهل ستفعل ذلك حقاً؟».

«في طرفة عين. فهذه حرب، يا نعومي، وليس هناك قواعد، ولا التزام بضوابط القتال العادل».

«هل تريد رعاية ستارتشر؟».

«لا. لستُ جيّداً بما يكفي كأب. لكنّني أريد أن أبقى على صلة بحياته. فمن يعرف؟ قد نصبح أنا وهو أصدقاء في يومٍ ما».

أمضينا الليلة في مسكنها ونمنا في وقت متأخّر من صباح السبت. كنا منهكين. ثمّ صحونا على أصوات الأمطار الغزيرة وقرّرنا إعداد الأومليت وتناول الطعام في السرير.

.29

الشاهد الأخير من شهود الدفاع هو المتهم نفسه. وقبل أن يُستدعى صباح الاثنين، سلّمتُ القاضي والمدّعي العامّ خطاباً كنتُ قد كتبته إلى تاديو زابات. والغرض من ذلك الخطاب هو أن أعلمه كتابة أنّه سيجلس على المنصّة كشاهد مخالفاً نصيحة محاميه. وكنتُ قد استجوبته لساعتين في اليوم السابق، وهو يعتقد أنّه مستعدّ.

أقسم على قول الحقّ، ثمّ ابتسم بعصبية لهيئة المحلّفين، وتعلّم على الفور الدرس المخيف بأنّ المنظر من منصّة الشهود مرعب جدّاً. الكلّ شاخص وينتظر ليسمع ما قد يقوله في دفاعه عن نفسه. وكاتب المحكمة سيسجّل كلّ كلمة. أمّا القاضية فعابسة جدّاً، كما لو أنّها جاهزة لتوجيه توبيخ سريع. في حين أنّ المدّعي العامّ متلهّف للانقضاض. وكانت أمّه بعيدة في الصف الخلفي تنظر بقلق شديد. ثمّ أخذ نفساً عميقاً.

قدته في الحديث عن خلفيته العائلية، وعن تعليمه، وعمله، وخلوّ سجلّه من الجرائم، وعن مهنة الملاكمة، ونجاحه في الفنون القتالية المختلطة. ولأنّني أعلم أنّ هيئة المحلّفين، مثل جميع الموجودين في قاعة المحكمة، سئمتْ من الفيديو، فقد قررتُ عدم عرضه. وتمسّكاً بالنص المتّفق عليه فيما بيننا، تحدّثنا عن المباراة فأجاد في وصف الحال عند تلقي الكثير من الضربات. وأنا وإيّاه نعرف أنّ كراش لم يسدّد له الكثير من الضربات الجدّية، لكن لا أحد من هيئة المحلّفين يفهم ذلك. ثمّ قال لهيئة المحلّفين أنّه لا يتذكّر نهاية المعركة، لكن يمكن أن يتذكّر صورة ضبابية لخصمه وهو يرفع ذراعيه علامة على نصر لم يكن يستحقّه. نعم، لقد اندفع، مع أنّه لا يستطيع تذكّر كلّ شيء جيّداً. وقال إنه شعر بأنّه مكتسح بالإحساس بالظلم. شعر أنّ مهنته انتهت، سُرقت منه. ويتذكّر الحكم بشكل مبهم وهو يرفع ذراع كراش، ثمّ اسودّ كلّ شيء في عينيه. والشيء التالي الذي يتذكّره، هو أنّه كان في غرفة الملابس، وشرطيين كانا يراقبانه. فسأل الشرطة من الذي فاز في المباراة، فقال له أحدهما: «أيّة مباراة؟». بعد ذلك وضعا يداه في الأصفاد وأوضحا له أنّه موقوف بتهمة الاعتداء العنيف. وقال إنه ضائع، وغير قادر على أن يصدّق ما يحدث. وفي السجن، أخبره شرطي آخر أنّ شون كينغ كان في حالة خطرة. فبدأ هو، تاديو، بالبكاء.

وقال إنه حتى اليوم لايزال عاجزاً عن تصديق ما حدث. ثمّ تهدّج صوته قليلاً وهو يمسح شيئاً من عينه اليسرى. مع العلم أنّه ليس ممثلاً جيّداً جداً.

وحين جلستُ في مكاني، وثب مانسيني واقفاً على قدميه وصاح موجّهاً السؤال الأول: «إذاً، يا سيّد زابات، كم مرّة أُصبتَ بالجنون؟». وهي افتتاحية رائعة، عبارة عظيمة قيلت مع ما يكفي من التهكّم.

ثمّ واصل مانسيني العمل على إظهار تاديو كأحمق. متى كانت المرة الأولى التي أُصبتَ فيها بالجنون؟ كم دامتْ؟ من الذي تأذّى في المرة الأولى؟ وهل تفقد صوابك دائماً حين تُصاب بالجنون؟ هل راجعتَ طبيباً بشأن جنونك؟ لا! لِمَ لا! ومنذ هاجمت شون كينغ، هل قُيّمتَ من قبل طبيب، طبيب لا علاقة له بهذه المحاكمة؟ وهل الجنون شائع في عائلتك؟

وبعد ثلاثين دقيقة من هذا الهجوم، لم تعد كلمة «جنون» تعني شيئاً. أصبحت نكتة.

وقد بذل تاديو جهوداً شاقّة ليظلّ هادئاً، لكنّه لم يستطع مساعدة نفسه. كان مانسيني يسخر منه عملياً. والمحلّفون بدوا مستمتعين.

بعد ذلك سأله ماكس عن سجلّه كملاكم هاو. أربع وعشرون انتصاراً، سبع خسارات. ثمّ قال ماكس: «والآن، صحّحني إن كنتُ مخطئاً، فقبل خمس سنوات حين كنتَ في السابعة عشرة من العمر وكنتَ تقاتل في البطولة المحليّة ضمن منافسات القفازات الذهبية، خسرتَ بقرار الأغلبية أمام رجل يدعى كورليس بين. هل هذا صحيح؟».

«نعم».

«وكانت المعركة قاسية جداً، صحيح؟».

«نعم».

«وهل شعرتَ بالانزعاج من القرار؟».

«لم يعجبني، وأعتقد أنّه كان خاطئاً، أعتقد بأنّني ربحت تلك المعركة».

«وهل أُصبتَ بالجنون؟».

«لا».

«وهل فقدت صوابك؟»

«لا».

«وهل عبّرتَ في أية طريقة عن إحباطك بسبب القرار؟».

«لا أعتقد ذلك».

«حسناً، هل تتذكّره أم أنّك فقدت ذاكرتك ثانية؟».

«أتذكّره».

«وحين كنتَ لا تزال في الحلبة، هل ضربت أحداً؟».

رماني تاديو بنظرة أفلتت منه وفيها شعور بالذنب، لكنّه قال: «لا». فأخذ مانسيني نفساً عميقاً، وهزّ رأسه كما لو أنّه يكره أن يفعل ما هو مقدم على فعله، وقال: «سعادة القاضية، لديّ مقطع فيديو آخر أعتقد أنّه قد يساعدنا هنا. وهو يتضمّن نهاية المباراة قبل خمس سنوات مع كورليس بين».

وقفتُ وقلت: «سعادة القاضية، لا أعرف شيئاً حول ذلك. ولم يُطلعني عليه أحد».

وكان ماكس مستعدّاً لأنه خطّط لهذا الكمين منذ أسابيع. ثمّ قال بثقة عظيمة: «سعادة القاضية، لم يُكشف عنه لأن ذلك ليس مطلوباً. والادّعاء نيابة عن الولاية لا يعرض هذا الفيديو كبرهان إدانة للمتهم؛ لذا، وبناء على القانون 92 إف، لا ضرورة للكشف. بالأحرى، الولاية تعرض الفيديو كتحدٍّ لمصداقية هذا الشاهد».

«هل يمكن أن أراه على الأقل أولاً وقبل أن تراه هيئة المحلّفين؟»؛ سألتُ ببطء.

«ذلك يبدو معقولاً»، أجابتْ «سيري ببطء». «دعونا نأخذ استراحة لمدة خمسة عشر دقيقة».

وفي مكتب القاضية، شاهدنا الفيديو: تاديو وكورليس بين في وسط الحلبة مع الحكم الذي رفع يد بين اليمنى علامة على الفوز؛ انسحب تاديو بعيداً عن الحكم، ثمّ سار متّجهاً إلى زاويته، وكان يصرخ بكلام ما في نوبة من الغضب؛ ثمّ سار في أرجاء الحلبة ضارباً أرضها بقدميه بقوّة، وبدأ يصبح أكثر عتهاً مع مرور كلّ ثانية؛ اتّجه إلى الحبال، وصرخ في الحكّام، ثمّ التقى بكورليس بين بشكل غير مقصود، والذي كان منصرفاً لشؤونه في تذوّق حلاوة الفوز؛ وكان هناك آخرون في الحلبة ثمّ بدأ شخص ما بالتدافع مع تاديو؛ وقف الحكم بين المقاتلين فدفعه تاديو؛ وكان الحكم رجلاً ضخماً فمال إلى الخلف؛ ولمدّة ثانية بدا وكأن الحلبة

على حافة الفوضى، لكنّ شخصاً ما أمسك بتاديو وسحبه جانباً، فيما كان يرفس ويصرخ.

مرّة أخرى، الكاميرا لا تكذب. وقد بدا تاديو في ذلك الفيديو كخاسر منزعج، ومتهوّر، وشقيّ، ورجل خطر لا يأبه إذا افتعل شجاراً.

قالت «سيري ببطء»: «يبدو لي ذا علاقة بالقضية».

.30

راقبتُ المحلّفين وهم يشاهدون الفيديو. هزّ عدد منهم رؤوسهم. وعندما انتهى العرض، أضاءت الأنوار، وعاد ماكس مبتهجاً إلى فضلات الجنون الوهمي وشرع في إلحاق الأذى، فتحطّمت مصداقية تاديو كليّاً. ولم أستطع إنهاضه من كبوته وإعادة توجيهه.

الدفاع انتهى. فاستدعى مانسيني شاهد نقضه الأول، وهو طبيب نفساني مختصّ في الطبّ النفسي السريري يدعى وايفر. وهو يعمل في قسم الصحة العقلية في الولاية ولديه مصداقيّة لا يمكن التشكيك فيها. وقد درس في الكليّات في هذه الولاية ويتحدّث بلهجتنا. وهو ليس خبيراً لامعاً من بعيد مثل تاسلمان، لكنّه فعّال جداً. وكان قد شاهد الفيديوات، كلّها، وأمضى ستّ ساعات مع المتهم، وهو وقت أطول من وقت تاسلمان مع المتّهم.

تساومتُ مع وايفر حتى الظهر لكنّني لم أحقّق سوى نتيجة طفيفة. وبينما كنا منصرفين إلى استراحة الغداء، أمسكني مانسيني وسألني: «هل أستطيع التحدّث إلى موكّلك؟».

«حول ماذا؟».

«حول الصفقة، يا رجل».

«بالتأكيد».

اتّجهنا إلى منضدة الدفاع حيث كان تاديو جالساً، فانحنى ماكس إلى الأسفل وقال بصوت منخفض: «انظر، يا رجل، ما زلتُ أعرض عليك خمس سنوات، والتي تعني ثمانية عشر شهراً. بجناية القتل غير العمد. فإذا قلتَ لا، فأنت مجنون حقاً لأنك على وشك الحصول على عشرين سنة».

بدا تاديو مهملاً له. وابتسم فقط، ثمّ هزّ رأسه قائلاً لا.

وقد كان في تلك اللحظة أشدّ ثقة بموقفه لأن ميغيل تدبّر المال وسلّم المغلّف إلى سواريز. وهذا ما علمته، لكن بعد فوات الأوان.

.31

بعد الغداء اجتمعنا في مكتب القاضية، حيث كانت «سيري ببطء» تضع أمامها صحناً بلاستيكياً مملوءاً بالجزر والكرفس المقطّع إلى شرائح، وكنّا كما لو أنّنا قاطعنا وجبة طعامها. وكنتُ أشكّ في أنّ ذلك كلّه لمجرّد الاستعراض. سألتني: «سيّد رودّ، ماذا عن الاعتراف مقابل إدانة أخفّ؟ فهمتُ أن الصفقة لا تزال معروضة».

غصصتُ وقلت: «نعم، سعادة القاضية، ناقشتها مع موكّلي، وكذلك السيّد مانسيني. لكنّ الفتى لن يتزحزح».

قالت: «حسناً، نحن نتحدّث هنا بشكل غير رسمي. والآن وبعد أن رأيتُ الدليل، أميل إلى إصدار حكم أطول، شيء مثل عشرين سنة. وأنا لم أشترِ مسألة الجنون ولم تنطلِ أيضاً على هيئة المحلّفين. وقد كان هجوماً شريراً وكان يعرف بالضبط ما كان يفعل. أعتقد أن عشرين سنة ملائمة».

«هل لي أن أمرّر هذا إلى موكّلي؟ بشكل غير رسمي، بالطبع؟».

«رجاءً افعل». ثمّ غطّست بعض الكرفس في ملح الطعام، ونظرتْ إلى مانسيني، وسألته: «ما هي الخطوة التالية؟».

قال ماكس: «لديّ شاهد آخر فقط، الدكتور ليفوندوسكي، لكن لستُ متأكّداً من أنّنا سنحتاجه. ماذا تعتقدين، سعادة القاضية؟».

قضمتْ «سيري ببطء» طرف قصبة كرفس، ثمّ قالت: «الخيار لك، لكنّني أعتقد أنّ هيئة المحلّفين جاهزة». ثمّ عادت تقضم طعامها مصدرة الأصوات المعتادة. «سيّد رودّ؟».

«هل تسألينني؟».

«أوه، لم لا؟»، قال ماكس. ثمّ أضاف: «ضع نفسك في مكاني واختر».

«حسناً، سيُكرّر ليفوندوسكي ما سبق وأن قاله وايفر. وقد استجوبته من قبل وهو جيّد، لكنّني أعتقد أن وايفر أفضل بكثير كشاهد. ولو كنتُ مكانك لختمتُ به».

قال ماكس: «أعتقد أنّك محقّ. سنختم».

متّحدون، كفريق حقيقي.

أثناء مرافعة ماكس الختاميّة، ظللتُ أسترق النظر إلى إستيبان سواريز، والذي يبدو كالأسير المكبّل القدمين. وكان كالقابع في شرنقة ويبدو وكأنّه لا يسمع شيئاً. ثمّة شيء تغيّر في هذا الرجل، ولمدّة ثانية تساءلتُ ما إذا استطاع ميغيل الوصول إليه. إن لم يكن بالمال، فبالتهديدات، أو التخويف. وربّما وعده ببضعة باوندات من الكوكايين.

وقد قام ماكس بعمل جيّد من حيث إعادة تلخيص القضيّة. وكان رحيماً بنا فلم يعرض ذلك الفيديو اللعين ثانية. ثمّ أبرز تلك النقطة التي يستحيل نكرانها وهي أن تاديو قد لا يكون خطّط هجومه القاتل على شون كينغ، لكنّه نوى بشكل واضح أن يصيبه بجروح جسديّة بليغة. وهو لم ينوِ قتل الحكم، لكنّه في الحقيقة فعل. وكان باستطاعته أن يُسدّد لكمة واحدة، أو اثنتين، ويتوقّف. وهو مذنب بالهجوم لكن ليس بجريمة من الدرجة الأولى. لكن لا! اثنتان وعشرون ضربة شرّيرة على رأس رجل لا يستطيع الدفاع عن نفسه. اثنتان وعشرون ضربة سُدّدت من قبل مقاتل عالي التدريب وضع لنفسه هدفاً وهو أن يرى كلّ منافس له يغادر الحلبة على نقّالة. حسناً، لقد حقّق هدفه. شون كينغ غادر محمولاً على نقّالة ولم يستيقظ.

وكان ماكس يقاوم الميل الطبيعي لدى المدّعين العامّين في قرع الطبل طويلاً جدّاً. وقد استولى على هيئة المحلّفين وقد أحسّ بذلك. وأعتقد أن الجميع أحسّ بذلك أيضاً، ربما باستثناء موكّلي.

أبدأ بالقول إن تاديو زابات ليس قاتلاً. فقد عاش في الشوارع، وتلقى نصيبه من العنف، حتى إنه فقد أخاً في حروب العصابة التي لا معنى لها. وقد رأى ذلك كلّه ولا يريد شيئاً منه. لهذا فإن سجلّه نظيف تماماً: ليس لديه تاريخ من العنف خارج الحلبة. ثمّ سرتُ ذهاباً وإياباً أمام مجلس هيئة المحلّفين، ونظرتُ إلى كلّ محلّف، محاولاً التواصل معهم. وكان سواريز يبدو كمن يريد الزحف داخل فجوة.

ثمّ لعبتُ على وتر استجداء التعاطف ولامستُ بشكل طفيف قضية الجنون. وطلبتُ من هيئة المحلّفين عدم إصدار قرار بالإدانة، أو كبديل، بالقتل غير العمد. وعندما عدتُ إلى منضدة الدفاع، حرّك تاديو كرسيه بعيداً منّي قدر المستطاع.

أمرت القاضية فابنيو المحلّفين، فانسحبوا عند الساعة 3:00 من بعد الظهر.

ثمّ بدأ الانتظار. سألتُ حاجباً ما إذا كان تاديو يستطيع الاجتماع بعائلته في قاعة المحكمة خلال وجود هيئة المحلّفين في الخارج. فتشاور مع زملائه وبعد ذلك وافق بتردّد. فعبر تاديو من فوق الحاجز وجلس على المقعد الأمامي. فأحاطت به أمّه، وأخته، وبعض بنات الأخت وأبناء الأخ، وبكى كلّ منهم قليلاً. ولم تكن السيّدة زابات لمست ابنها جسدياً منذ أشهر فلم تستطع إبعاد يديها عنه.

غادرتُ قاعة المحكمة، ثمّ عثرتُ على الرفيق وانطلقنا إلى أحد المقاهي عبر الشارع.

.32

في الساعة 5:15 عادت هيئة المحلّفين إلى قاعة المحكمة، ولم تظهر ابتسامة واحدة على وجه أحد منهم. ثمّ سلّم رئيس هيئة المحلّفين القرار إلى أحد الحجّاب، والذي سلّمه بدوره إلى القاضية. فقرأته، ببطء شديد، وطلبتْ من المتهم أن يتكرّم بالوقوف. فوقفتُ معه. سلّكت حنجرتها وقرأتْ: «نحن، هيئة المحلّفين، نجد المتهم مذنباً بجناية القتل من الدرجة الثانية في موت شون كينغ».

لفظ تاديو تأوّهاً ناعماً وأسقط رأسه. ثمّ شهق شخص ما من جماعة زابات في الصف الخلفي. جلسنا بعد ذلك بينما كانت القاضية تستطلع آراء المحلّفين. واحداً بعد الآخر، وكلّهم أجمعوا على أنّه مذنب. فهنّأتهم على عملهم الممتاز، وأخبرتهم أن الشيكات الخاصّة بهم كأتعاب مقابل عملهم في هيئة المحلّفين ستصلهم بالبريد، ثمّ صرفتهم. وبعد انصرافهم، حدّدت المواعيد النهائية لإجراءات ما بعد المحاكمة وما شبه ذلك من أمور، ثمّ حدّدتْ موعد إصدار الحكم بعد شهر واحد من ذلك اليوم.

وكنتُ أخربش تلك المعلومات متجاهلاً موكّلي. وهو بدوره تجاهلني أيضاً بينما كان يمسح دموعه. ثمّ أحاط به الحجّاب ووضعوا يديه في الأصفاد. ثمّ غادر من دون أن يقول أيّ كلمة.

وحين كادت قاعة المحكمة تفرغ من الناس، خرجت عائلة زابات ببطء. وقد لفّ ميغيل ذراعه حول أمّه، التي كانت مذهولة. وحين أصبحوا خارجاً في المدخل، وعلى مرأى من بعض المراسلين والكاميرات التلفزيونية، أمسك ثلاثة من رجال الشرطة بميغيل وأخبروه إنه موقوف.

إعاقة العدالة، الرشوة، والعبث بهيئة محلّفين. كان سواريز في الحقيقة مزوّداً بجهاز تسجيل.

.33

وباعتبار أنّني خسرتُ القضيّة، فقد تفاديتُ المراسلين. رنّ هاتفي فأطفأته. ثمّ ذهبنا أنا والرفيق إلى حانة معتمة لنلعق جراحنا. وهناك عببتُ نصف ليتر من الشراب تقريباً قبل أن يتفوّه أيّ منّا بكلمة. ثمّ بدأ هو الحديث بالقول: «قل لي، يا رئيس، إلى أي حدّ اقتربتَ من رشوة سواريز؟».

«فكّرتُ في الموضوع».

«أعرف أنّك فعلت، أستطيع القول».

«لكنّ شيئاً ما كان مريباً. إضافة إلى أن مانسيني كان يلعب بأمانة ولم يغشّ. وعندما يبدأ الرجال الصالحون بالغشّ، أضطر إلى ذلك. لكن مانسيني لم يكن مضطراً إلى ذلك. وقد حاولنا البتّ في القضية بأسلوب نظيف، وهو أمر غير معتاد».

أنهيتُ نصف الليتر وطلبتُ آخر. أمّا الرفيق فقد أخذ رشفتين من شرابه. فالآنسة لويلا تكره المشروبات، وستقول له شيئاً إذا شمّتْ رائحتها.

«ماذا سيحدث لميغيل؟»، سأل.

«يبدو وكأنّه سيقضي وقتاً مع أخيه».

«هل ستدافع عنه؟».

«بحقّ الجحيم، لا. تعبتُ من أولاد زابات».

«هل تعتقد أنّه سيغنّي حول مجرمَي لينك؟».

«أشكّ في ذلك. فهو واقع في مشكلة تكفيه. وزوج من جرائم القتل لن يساعده كثيراً».

بعد ذلك طلبنا سلة من المقالي وسمّيناها عشاءً.

وبعد أن غادرنا الحانة، أنزلتُ الرفيق قرب شقّته واحتفظتُ بالشاحنة. إنّه يوم الاثنين ونعومي مشغولة في تصحيح الاختبارات. «تأكّدي من حصول ستارتشر على الدرجة أ»، قلتُ لها. «دائماً»، قالت. وكنتُ بحاجة إلى من يحبّني، لكنّها لا تستطيع اللعب الليلة. لذلك ذهبتُ إلى البيت أخيراً، فأشعرني المكان بالبرد والوحدة. بدّلت ملابسي وارتديت الجينز ثمّ نزلت واتّجهتُ إلى حانة «ßÇÑí Ð» القريبة، حيث شربتُ الشراب، ودخّنتُ سيجاراً، ولعبت البلياردو لساعتين، وكنتُ وحيداً في كلّ ذلك. وعند الساعة العاشرة رنّ هاتفي. كلّ فرد من عشيرة زابات

في المدينة يبحث عنّي: الأمّ، والعمة، والأخت، وتاديو وميغيل من السجن. يبدو أنهم يحتاجونني الآن. وأنا مستاء من هؤلاء الناس، لكنّني أعرف أنّهم لن يبتعدوا عنّي.

كاتبان من المحكمة يتّصلان. يريد مانسيني أن نتناول الشراب معاً.

لماذا، ليس لديّ فكرة.

وهناك بريد صوتي من آرك سوانجير. تعازي بشأن الخسارة الكبيرة. كيف بحقّ الجحيم؟.

يجب أن أغادر المدينة. لذا، وعند منتصف الليل، حمّلتُ الشاحنة ببعض الملابس، وعصي الغولف، ونصف حقيبة من قناني الشراب صغيرة الحجم. ثمّ قذفتُ قطعة من العملة المعدنية في الهواء، وتوجّهتُ شمالاً. واصلتُ القيادة لساعتين حتى كدتُ أسقط نائماً. ثمّ توقّفتُ أمام فندق رخيص ودفعتُ أربعين دولاراً لليلة واحدة.

سأكون في ملعب غولف، في مكان ما، بحلول الظهر، وحيداً. وهذه المرّة لستُ متأكّداً من أنّني سأعود.